ياسين عدنان

هوتْ ماروك

رواية

دار العين للنشر

هُوتْ مَارُوكْ

Hot Maroc

هُوتْ مَارُوكْ

Hot Maroc

رواية

ياسين عدنان

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف : فرانكشتاين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦/٥٩٣٣

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 378 - 6

هُوتْ مَارُوكْ

Hot Maroc

رواية

ياسين عدنان

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عدنان، ياسين

هُوتْ مَارُوكْ/ Hot Maroc: رواية/ ياسين عدنان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٣٧٨ ٦

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع /٥٩٣٣ /٢٠١٦

أحداثُ هذه الرِّواية من نَسْجِ الخيال، وشخصياتُها لا تَمُتُّ إلى الواقِعِ بِصِلَة. وأيُّ تَشابُهٍ مع شخصياتٍ حقيقيّةٍ أو تَطابُقٍ مع أحداثَ واقعيّةٍ هو من ضُعفِ حيلة الكاتب.

سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَات، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَة. قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يا رسول اللـه؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّة.

أخرجه ابن ماجة والحاكم وأحمد

إذا مـا رَأَوا خَيـرًا رَمَـوهُ بِظِـنَّـةٍ وَإن عايَنـوا شَرًّا فَـكُلٌّ مُناضِـلُ
وَلَيـسَ اِمـرُؤٌ مِنهُم بِناجٍ مِـنَ الأَذى وَلا فيهِـمُ عَن زَلَّـةٍ مُتَغـافِـلُ.

ابن دريد الأزدي

قد نكونُ من مُحِبّي السُّجود، لكنَّنا أكثر حبًّا للكُفْرِ بكُلِّ مَنْ سَجَدْنا لهم. أفعال الهدم تبعثُ على النّشوة وتمنحُ الطّاقة. مِنْ ثمَّ إلحاحُ المشاعِرِ الدَّنيئة، ونجاحُها العمليُّ الأكيد.

سيوران

الفراشة في طريقها إلى المسلخ

1

لم يتصوّر وفيق الدّرعي، الشاعر الشاب، أنّ الأمور ستتطوّر إلى ما لا تُحمَد عقباه. كان في البداية يسخر ويتذاكى، فيما صويحباتُه من الغاويات يضحكن لغمزاته المُتحذلقة. لكن في اللحظة التي أمسك فيها رحّال بخناقه ورجَّه بعنف، فهِم أن الأمور تمضي باتجاهٍ لم يُخمّنه خياله الشعري الخصب. حاول أن يستدرك، أن يوقف اللعبة عند هذا الحدّ وينسحب بشرف، لكن هيهات. كان رحّال قد أخذَتْهُ الجلالة لينخرط في المعركة بحماس. لكمةٌ للفم، أخرى للصدغ، ضربةٌ دائرية، وأخرى خلفية. ضرباتٌ هنا وهناك على سبيل التحمية. ثم جاءت اللحظة الحاسمة ليكتشف وفيق أن كفّ رحّال قد أطبقت على ياقة قميصه لتجذبه بقوة إلى أسفل قبل أن

تنغرز الرُّكبة الضامرة في وجهه مثل سهم مسموم. ركبة صلدةٌ مثل الصخرة المسنونة ترتطم بها الموجة فتتشتّت، كالمُدية تخترق اللحم والعظم لتتفجّر من الفم والمنخرَيْن سواقي حمراء.

لم يكن رحّال العْوينة، القصير القامة الرّقيق البنية ذو الوجه الفاريّ والعينَيْن الضيّقتَيْن، يلجأ إلى العنف إلّا حينما يشعر بالاختناق ويأكله الإحساس بالضآلة. فمنذ ذلك اليوم البعيد من أيام طفولته، حين فكّر خالد بطّوط في مباغتته بجرّه من ساقه إلى الأرض، استغل رحّال لحظة انحناء غريمه لتنفيذ خطة جهنمية: شدّ رأس خالد بقوة إلى أسفل، ثم رفع ركبته بشكل خاطف ليغرزها في وجهه، ففار الدم.

التقنية نفسُها، الدّقة عينُها، والطريقة الخاطفة في جعل رأس غريمه تنحني قليلا لتجد الرّكبةُ سبيلَها الحاسم إلى وسط الوجه، هكذا ظلّ رحّال يحسم معاركه على امتداد سنوات عمره الخمسة والعشرين. ضربتُه القاضيةُ لها دائما نفسُ المصدر: الرّكبة التي عادةً ما تتّجه خاطفةً إلى الوجه. الوجه بالتحديد. ثم إن رحّال لا يلجأ إلى الضرب دائمًا. لكن حين يفعل، يجب أن تكون الأمور حاسمة.

خالد بطّوط مثلًا كان يبالغ في مضايقته في المدرسة. هكذا دون سبب واضح. لم يكن زميلًا له في الفصل ولا جارَه في الدرب ولا منافِسَه على صحبة إحدى صبايا المدرسة. فرحّال بشكل طبيعي،

فطري ربما، ينتبذ أبعد المواقع عن الفتيات. ثمّ هو لم يُعرَف له صديقٌ في القسم ولا صاحبٌ في المدرسة كلها. ما حصل هو أن خالد كان يمزح مرّةً مع رفاقه حين مرق رحّال من أمامهم. استوقفه خالد بتظارف وطفق يتحدّث إليه، محاكيًا قرّادي ساحة جامع الفناء، طالبًا منه أن يُقلّد مشية المدير. بُهِت رحّال، ثمّ واصل طريقه مرتبكًا.. وخالد يتبعه مشيرا بأصبعه: "ألم أقل لكم؟". فيما أصدقاؤه ينفجرون من الضحك.

لكن ماذا قال لهم ليضحكوا هكذا؟ أية نكتة سمجة هذه؟ هل كان يُحدّثهم عن القرد الذي يرتدي وِزْرَة مدرسية متخفّيًا في زيٍّ تلميذ؟ عن قردٍ صافحه في ساحة جامع الفنا حيث أُفْرِدَت لسائس القرود حلقةٌ خاصة؟ لم يتطوّع أحد ليشرح له الأمر. مرةً كان رحّال واقفًا أمام بوّابة المطعم المدرسي منتظرًا حصّته من وجبة العدس اللذيذة التي لم يذق مثلَها لا في البيت ولا في دكاكين الأطعمة الشعبية المبثوثة في عشوائيات "عين إيطّي" خارج السور، حين انتصب أمامه خالد. كانت وراءه أربعٌ من أجمل تلميذات المدرسة. لم تعُقْه بدانتُه عن التّنطّط بطريقة بهلوانية. دار دورةً في الهواء، ثم جثا على ركبته اليمنى مثل مهرّج سيرك وانحنى محيِّيًا صويحباته بطريقة مسرحية قبل أن يُسدِّد سبّابته إليه:

- ألَمْ أقل لكُنّ؟؟؟ ويحبّ العدس أيضًا..

انفجرت الصبايا ضاحكات. وتمنّى رحّال لو انشقّت الأرض وبلعته. مرة أخرى وجد نفسه يغادر المكان، يبتعد عن مجلسه بباب المطعم، يركض باتجاه البيت، يجري كما لو أنّ قبيلةً تطارده. ياه تبًّا، والعدس؟ نسي وجبة العدس الشهية الساخنة التي تسكبها لالّا زبيدة الطبّاخة في الخبز مباشرة ليستلم كلٌّ حصّتَه ويلتهمها في طريق العودة. تخلّى رحّال عن العدس اللذيذ واللوبياء المُتبَّلة، تنازل عن قِطع التونا والجبن، وشرائح لحم الجاموس السميكة التي يجد صعوبة في مضغها. أعرَض عن كلّ ذلك وصار يتفادى المطعم، بل لم يعد يتقدّم من بابه إلا بعد أن يمسح المكان عن بُعد بعينيه الفأريتين ليتأكّد من أن خالد ليس هناك.

2

وفيق الدرعي شاعرٌ شابٌّ معروف. أنيقٌ على بساطة هندامه، وشَعره على الدوام مُصفّف بعناية. موهوبٌ نوعًا ما، لكنه يتصوّر نفسه نجمًا هاديًا مَنَّ اللـه به على الأمة في ليلها الشعري الحالك. وسامَتُه جعلته يكسب حظوة خاصة لدى البنات. لهذا حضر رحّال أمسيته. ليس محبّة في الشاعر ولا إعجابا بشعره، ولكن بسبب الحضور الأنثوي المضمون في كلِّ أمسياته. وهو ما سيحاول رحّال أن يتنعَّمَ به خلسةً عبر المسافة التي حرص دائما على إبقائها بينه وبين العالم، ثم بينه وبين الجنس الناعم بشكل خاص. وفيق شاعر قصيدة نثر، والمُدَّعيات اللواتي يحضرن أمسياته ليس لهنّ لا في الشعر ولا في بُحوره، لكنهنّ يحضرن في الغالب طلبًا للقرب

من وفيق. عريفة الحفل الذي احتضنَتْه دار الثقافة برياض العروس صحافية إذاعية معروفة في المدينة. قدّمت وفيق على أنه رامبو عصره وأوانِه. وفيق، الذي بدا مصدّقًا للمُجامَلة غير المسؤولة، انخرط في إلقاء قصائده بطريقة تجدُها صويحباته فريدة مبهرة، فيما يجدُها رحّال متحذلقة متغنّجة بل في منتهى التعَهُّر. رحّال ليس ناقدًا أدبيًّا ولا يدّعي ذلك، لكنّه مجازٌ في الأدب العربي تخصّص أدب قديم، ومِن ثمَّ يفهم في موضوع القوافي والاستعارات. وللأمانة، فهو يجد في شعر وفيق بعضًا من ماء الشعر: استعارات موفّقة من مقطع لآخر، بعض الصور الجميلة، تأمّلات لا تخلو من نباهة... لكن حين يبدأ هذا الأخير في الإنشاد بتلك الطريقة السّمجة التي تعجب الفتيات، يتخيّله رحّال كما لو يتلوّى بشكل داعر في مشهد ستريبتيز. لهذا بالضبط كان رحّال يفكّر دائمًا في وفيق كعاهرة. بعد القراءة لم يسعه، مع ذلك، إلّا التصفيق. ليس بنفس الحرارة التي صفّقت بها الحاضرات، لكنه صفّق مجاملةً. تصفيق خافت حذِر على سبيل التّقية فقط. وحينما بدأ النقاش وتوالت تعليقات المعجبات، شعَر رحّال بالإهانة. كل الملاحظات خارج الموضوع. كلام بلا معنى من فتيات تافهات لم يجدن من يشرح لهنّ أنْ ليس هناك من قانون يمنعهن من التولُّه بشاعرهنّ الوسيم، لكن ليس من حقّهنّ الاجتراء على الشعر بهذا الشكل. رحّال تخصُّص أدب عربي، ولم يجرؤ على التدخّل، فيما هؤلاء المائعات يسترْجِزْنَ

بشكل مُقرفٍ دون أن يسعى هذا المخنّث المتطاوس إلى التخفيف من غلواء إطرائهن المُتملّق لشعره.

رحّال جبان في العمق ولم يسبق له أن تدخّل في محفل أو جرّب الكلام في مجمع يتعدّى عدَدُ أفرادِه الثلاثة، لكنه لم يشعر متى وجد نفسه لأول مرة في حياته يرفع أصبعه طالبا الكلمة. بتردّد طبعًا. أُصبُع مرتعشة منكسرة تحاول الارتفاع قليلا ثم تعود فتنثني قبل أن تنطوي على ارتعاشها. لكن العريفة رمقت الأصبع المتردّدة، فبادرته:

- الأخ في الخلف، تفضّل.. تفضّل.. - ثمّ مُمازحةً وفيق - لكيلا يبقى النقاش حكْرًا على الأوانس.

تجمّد الدم في عروق رحّال. تصنّم تمامًا. صار مثل فزاعة مشغولة من غصن يابس خذلتها الريح.

- الأخ الكريم في الخلف صاحب الجاكيت الكاكي. أنت. أنت. يا أخ. نعَمْ أنت.

لكزَتْه سيّدة خمسينية كانت تجلس إلى جواره. آي.. يا للورطة. هو الآن في موقف لا يُحسَد عليه.

- تفضّل بالوقوف أخي الكريم لكي نسمعك ونراك بوضوح.

القحبة، لم تطلب من المتدخلات قبلي الوقوف، والآن أيٌّ قدمين

ستحمِلانكَ يا رحّال؟ كانت رجلاه ودواخله تصطكّ. ولعلّ روحَه كانت تفعل أيضا.

- كنتُ.. كنتُ أريد أن أقول.. أريد أن أقول..

قاطعه وفيق بثقة بغيضة:

- في حضرة الشعر كلّ الكلام يقال، تفضّل يا صديقي..

كاد رحّال أن يتهاوى على الكرسي. أحس بوفيق يحاصره أكثر، يضيّق عليه الخناق، يحرجه أمام صويحباته، وهو كالأبله لا يعرف ما يقول ولا كيف يقول. ثم برقت الفكرة الشريرة في رأسه، ولفرط إحساسه بالقهر والضآلة والانسحاق قالها. أعطاه من الآخر:

- أثناء القراءة أحسُّ أنك تتصنّع كثيرًا، بَدَوْتَ لي كالـ..كالـ.. - متلعثمًا -.. كالعا.. كالعا..

ثم بجرأة لم يعرف من أين جاءته، رمى بالكلمة في وجه وفيق. مثلما يرمي مشجِّعٌ مجنونٌ مُفرْقعة في الملعب:

- كالعاهرة، بالضبط، مثل راقصة ستربتيز.

سرَت في القاعة همهمات استنكار. يبدو أن أحدا لم يكن يتوقّع من هذا المخلوق الضئيل الذي لم تَقْوَ ركبتاه على حمله في البداية كل هذا التّجاسُر. وحدَهُ وفيق بدا غير مصدوم ولا متضايق. قهقه عاليًا قبل أن يعلّق بصوت جهوري مرتاح النبرات:

- أعتذر بشكل خاص للأخوات الفاضلات، لكنّ الأخ محقٌّ في كلامه. فقط، الأمر لا يتعلّق بطريقة الإلقاء وحدها كما يعتقد.. ولا بلحظة الإنشاد في حدّ ذاتها، على قداسة هذه اللحظة بالنسبة إليّ، ولكن بكلِّ العملية الشعرية. فحينما تكتب الشعر يتسلّل إلى روحك وكيانك شيء داعر لا تستطيع الفكاك منه. شيء أقوى من الإحساس وأعمق من الحالة، شيء كاللوثة، تفسُّخٌ شاملٌ يطال الرّوح والوجدان. لهذا أحببتُ ملاحظتك يا صديقي وأهنّئُك على شجاعتك.

ثمّ حينما طلبت عريفة الحفل من وفيق، تحت وابل من تصفيق المعجبات وبإلحاح منهن، أن يقرأ في الختام آخر قصيدة جادت بها قريحتُه، علّق مازحًا:

- والآن عزيزاتي أعزائي، مع الوصلة الثانية من فصل الستربتيز. لكن أين صديقي الناقد الستربتيزي المُنكمش في الخلف، إنّي لا أكاد أراه؟ اِرفع رأسك قليلًا. وَصْلةُ التعرّي هذه مهداة إليك.

انفجرت القاعة بالضحك واستدار الكلّ باتجاه رحّال الذي لم يحتمل كل تلك النظرات الساخرة التي حاصرَتْه. تمنّى لو خُسِف به. لو أنه لم يكن. لو أن أصبعه لم تطاوعه. وما إن شرع وفيق في القراءة وصار الكلُّ مشدودين إلى تموّجات صوته حيِيّ النبرات

وإلى الحركات البهلوانية التي يُدعّم بها قراءته الاستعراضية، حتى انسحب رحّال إلى الخارج بخطوٍ راعشٍ مضطرب ثم مهرولًا فراكضًا لا يلوي على شيء. كان يركض كأنه هاربٌ من هوْل، وإحساسٌ عارمٌ بالخزي يلاحقه.

لم ينم تلك الليلة. هو اعتاد النوم بملابسه، فالبيجاما لم تكن قطّ من تراث قبيلته الثقافي، لكن هذه المرة حتى الجاكيت الكاكي ذَهَل عن التخفّف منه. فقط حذاء "باطا" الأبيض القديم الذي اشتراه من جوطية سيدي ميمون للملابس المستعملة نزعه بتشنّج دون أن يفكّ سُيورَه، وارتمى فوق مرتبته العارية من أيّ لباد والمبسوطة على الأرض مباشرة هكذا بلا سرير. ولأن وسادته المحشوّة بمزيج من الصوف والحلفاء خشنةٌ بعض الشيء، فضّل احتضانها عوض وضعِهَا تحت رأسه، وظلّ يتقلّب في فراشه مقهورًا منكسر الخاطر. لكن، بُعَيْد الفجر، وقبل أن ينجلي الغبش، انسحبت روحه إلى ضفة الحلم. وفي الحلم عاد ليُنهي المشهد بطريقته. واجه وفيق في نهاية الأمسية بكل الكلام الذي لم يَحضُرْه في تلك اللحظة. وما إن حاول الشاعر المغرور التّمادي في تخريجاته المُتذاكية حتى سحبه رحّال من ياقة قميصه وبقية القصة تعرفونها.

كان رحّال يفتك بخصومه وغرمائه في الحلم فقط. منذ سنِّ العاشرة، ومنذ حكاية خالد بطّوط الذي نكّل به لثلاث سنوات متتالية

ولم يتحرّر من مزاحه المؤذي إلا بعد حصول خالد على الشهادة الابتدائية لينتقل إلى إعدادية "شاعر الحمراء" البعيدة لحسن الحظ عن إعدادية "عبد المومن" التي انتقل إليها رحّال سنةً فيما بعد. منذ ذلك الزمن البعيد، وهو يصفّي كلّ حساباته في الحلم. يردّ لخصومه الصاع صاعين. وبالطريقة عينها. بنفس الضربة الخاطفة التي تُطلقها الركبة. صحيحٌ أنّ ركبتَيْه أوّل ما يَصْطَكُّ منه في الواقع ما إن يجد نفسه في موقف صعب، وأكثر من مرّة فاجأ زملاءه بالسقوط في القسم مغشيًا عليه فقط لأن المدرّس باغته بطلب القيام إلى السبورة. لكن نفس الرّكبتين اللتين تصطكّان من الخوف في الواقع تصير يُمناهُما جبّارةً في الأحلام.

3

لم يكن رحّال يفهم لماذا يشبِّهه البعض بالقرد، ولا كيف ينعته آخرون بالجرذ. تُضايِقه هذه الأوصاف. غالبًا ما يتلقّاها كشتائم. لكنّه لا يتأثر بها. فهو مقتنعٌ في قرارة نفسه بأن هذا النَّبز المتهافت إنما يعكس جهل من يصدُر عنهم ويفضح ضعف قدرتهم على التمييز. فرحّال يجد نفسه أقرب إلى السنجاب منه إلى أيِّ حيوان آخر. وكلُّ حديث عن القرد والفأر والجرذ - وحتى الضفدع كما نعتته مرّةً جارةٌ عشواء - يفتقد إلى العين اللاقطة التي تعرف كيف تتنقّل بنفاذٍ ما بين ملامح البشر ونظيراتها عند الحيوانات. قد يكون الفأر والجرذ والسنجاب من نفس الفئة: فئة القوارض، لكن السنجاب لم يكن قَطُّ من فصيلة الفأريات. فهو ابنُ عائلة أرفع شأنًا. دعك من الذيل. صحيح أن ذيل الفأر رفيع وطويل فيما يزهو

السنجاب بذيل كثٍّ كثيف. لكن الفرق الأكبر يكمن في الأخلاق والسلوك وفن العيش، وكذا في التطلّعات العميقة للحيوان، مما يؤثّر بشكل لاشعوري على سلوك الإنسان المرادف له وأدائه في العمل والحياة. مثلًا، هناك نوعٌ من السناجب يطير. فهل تطير الجرذان؟ ثم هناك فروق جوهرية أخرى كحاسة الشمّ القوية والذاكرة. إذ لم تحلم الجرذان طوال تاريخها الفأري الطويل بذاكرة السناجب. فالسنجاب لا يمكنه أن ينسى الموقع الذي حفظ فيه يوما بعض الجوز. أبدًا. رحّال يتوفّر بالمناسبة على حاسة شمّ سنجابية، وذاكرة لها نفس القوة:

- لك ذاكرة فيل أيها الفأر الضئيل.

خاطبه أستاذ التاريخ والجغرافيا مرّةً في الثانوية، لكن رحّال سيصحّح التشبيه على الفور بصوت خافت لم يسمعه غيره:

- بل هي ذاكرة سنجاب يا أستاذ.

لهذا اعتبر رحّال نفسه على الدوام سنجابًا لا فأرًا. وكان بسهولةٍ يعثر لكلّ من يتحرّك أمامه من الآدميين على الحيوان الذي يقابله. وحين يتعرّف على الشخص ويستوعب منطق تفكيره وأسلوبه في الحجاج أو مزاجه في السخرية يتأكّد من حُكمه الأوَّلي. وفي حالة الخطأ يُعيد تكييفه باختيار حيوان آخر يكون في الغالب من نفس الفصيلة التي اهتدى إليها أوّل مرة. وهذا على العموم ليس علمًا

يدرس في الجامعات، وإنما هو موهبة ربّانية جعلت رحّال منذ طفولته يبحث في وجوه رفاقه في الفصل وجيرانه في الحيّ عن حيوان مُضْمَر. هكذا عاد البشر إلى حيوانيتهم الأصلية في عقل رحّال وخياله، وكذا في أطلسه الخاص بالعالم والكائنات.

لذا، حين التحق بحلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (أوطم) التي كانت تلتئم في ساحة كلية الآداب بجامعة مراكش، لم يكن يصنّف المتدخّلين حسب انتماءاتهم الفصائلية كما جرت العادة بذلك: هذا من تيار النهج الديمقراطي القاعدي، وذاك من حزب الطليعة. هذه من منظمة العمل الديمقراطي وتلك من الاتحاد الاشتراكي أو حزب التقدم والاشتراكية. أبدًا. لم يكن رحّال معنيًا بالاصطفاف الحزبي والولاء الإيديولوجي، بل كان يذهب مباشرة إلى الصّميم. يدقّق في الشكل، الهيئة، علاقة العين بالحاجب، حجم الفم، استدارته، مدى نتوء الأنف أو سعة المنخرين، الموقع الذي يحتله الأنف وسط الحنك الصلب بين الوجنتين، هذه التفاصيل هي التي تهمّ رحّال أساسًا. ثم تأتي الخصائص الجوهرية التي تجعل الصِّلة ما بين المتحدّث وحيوانه المستخفي أكثر وضوحًا: الحركات، السكنات، النظرات، الابتسامة، كيفية الوقوف، طريقة الكلام، حركة اليدين، تقطيبة الحاجبين، سرعة التنفس، إضافة إلى الأسلوب ومنطق الخطاب. هكذا كان رحّال ينتظر بشوق مداخلة الرفيق أحمد الضبع فيما تُضجره كثيرًا مرافعات عتيقة البقرة.

عتيقة قرويةٌ من أحواز مراكش، ثورية بالفطرة، مليحة شديدة الطيبة. كان رحّال يغبط رفاقها في الفصيل على الحنوّ البالغ الذي تعاملهم به. تتصرّف معهم باعتبارها أمًّا. جسدها القوي المتدفق وتقاطيع وجهها الصبوح المستغني بالسماحة عن الذكاء، وصفاء عينيها الواسعتين، كل ذلك قاد رحّال إلى التفكير فيها منذ البداية كبقرة. لكن ما يتهامس به الإخوان في الفصائل الإسلامية من أن عتيقة هي من يطبخ للرفاق في الجُحر السري الذي يكترونه في أحد الأحياء الشعبية المجاورة للكلية ويسمّونه "الدار الحمرا"، ومن أنها تسكر معهم كأسًا بكأس وأنهم حين يسكرون يمارسون عليها الفاحشة تباعًا وهي راضية مرضية لأن مبادئ الشيوعية الجنسية التي تشبّعوا بها تُلزِمها بحلّ المشاكل البيولوجية لرفاق الدرب عن قناعة نضالية راسخة وبتفان ثوري أصيل؛ هذا المعطى، الذي يمكن أن نطلق عليه تجاوُزًا اسم "نضال النّكاح"، تكرّرَ على مسامع رحّال حتى تقرّر وصار في حكم البداهة، مما جعله يطمئنُّ إلى صواب تصنيفه. فالبقرة تُستخدم في الحرث وشقّ الأرض، في الجرّ وإدارة الطاحونة، ولا تمنع ضرعها وحليبها عن عجْل ولا آدمي، كما تمنَحُ بعد الذبح لحمها وشحمها بل وجلدها أيضًا لمن يطلبه. فما الذي يمنع بقرة الرفاق من الوفاء لطبيعتها؟

ورغم أن رحّال كان يستمتع في البداية بنزع ملابس عتيقة قطعةً قطعةً وهي تقدّم مداخلتها في الحلقة، ويتخيّل نفسه وقد التحق

بطابور الرفاق السكارى وصار واحدًا منهم يشرب من كأسهم ويأكل من صحنهم ويلَغُ وإياهم في نفس الإناء، إلّا أنه كان ينهي العملية ويقذف في خاطره ويغسل الجنابة ويستغفر اللـه تسعًا وتسعين على ما فعل وهي ما زالت تلوك الكلام بشكل مملّ لتبدو لرحّال، بعد أن يكون قد قضى وطره منها، مثل بقرة خاملة تجترّ وتجترّ دون أن تحفل بما إذا كان ما تجترّه برسيمًا أم شعيرًا.

أحمد الضبع كان أكثر جدّية وإخلاصًا لمبادئ الاتحاد الوطني لطلبة المغرب من الكثير من المدّعين من رفاقه القاعديين. لكن رحّال لم يكن يفهم لماذا يحرص عزيز السلوقي على مماحكته بسيلٍ من نقط النظام الملفّقة كلما أخذ الكلمة. كان رحّال يرتاح بشكل خاص إلى مداخلات الرفيق أحمد الضبع، أولًا لأهمية المعطيات التي يحرص على تقديمها في كل تدخل. فمداخلاته ليست إنشائية ولا شعاراتية فقط، بل تأتي دومًا بجديد. هذا إضافة إلى الصوت البرّي الذي ينفذ إلى القلوب قبل العقول داعمًا حُجّة صاحبه. صوت مجروح مُمَوْسق يصل حين يرفعه قليلا إلى مستوى بين العويل والعواء. ثم إن رحّال يسعد بمداخلات الرفيق أحمد أساسًا بسبب استحضاره الدائم لمقولات الراحلين الكبار من أمثال ماركس ولينين وإنجلز وماوتسي تونغ، إضافة إلى الشهيدين مهدي عامل والمهدي بنبركة، وهو ما يوافق إلى حدّ كبير، حسب نظرية رحّال الغْوينة الخاصة، ولعَ الضباع الغريزي بنبش القبور. بالمقابل، كان يحتقر

عزيز ويضجر من نقط نظامه. لكن السلوقي في عين أمه فهد. مرة سمعه بالصدفة يحكي لبعض الطلبة الجدد في مقصف الكلية عن أهمية نقطة النظام، وكيف أنه يفضّل نقط النظام الحاسمة على المداخلات الطويلة المكرورة.

في هذه معه حقّ. لكن، من يقول ذلك للبقرة؟

نقطة النظام، حسب عزيز، قد تهدم في دقيقة كل ما شيّده المتدخّل خلال ساعة من بناء الأطروحة، وقد تُغيِّر مجرى النقاش تمامًا. لهذا يفضّل عزيز اقتناص نقط النظام الحاسمة على إضاعة الوقت في مداخلات كاملة. لكن رحّال، العليم بطبائع الحيوانات، يعرف أن السلوقي يبقى سلوقيا مهما كبر رأسه واستدار. كل حيوانات الدنيا تصيد لنفسها إلّا الكلب السلوقي، فقد اعتاد أن يصيد لصاحبه. وله بعد أن تنتهي رحلة الصيد ما يجود عليه به هذا الأخير من وضيع الطرائد. كذلك عزيز. كان في البداية يهري المسيّرين بطلب نقط نظامه التي لا تنتهي لحساب فصيل التقدم والاشتراكية. لكن وفاة والده الصيف الماضي جعلته يبدأ الموسم النضالي الجديد بنظرة مختلفة إلى العالم وذلك بعدما جرّب حرارة الفقد ومرارة اليتم، واكتشف أن الدنيا إلى زوال وكلّ من عليها فانٍ إلى آخره. هكذا فاجأ السلوقي الجميع وهو يسجل نقط نظامه هذه المرّة لصالح طلبة العدل والإحسان، واضعًا براعته الفطرية في التعقيب والتعليق رهن إشارة الفصيل الإسلامي.

4

لم يلتحق رحّال بحلقات النقاش في ساحة كلية الآداب طلبًا للنضال ولا حبًّا في السياسة، بدليل أنه قضى ثلاث سنوات في الكلية لا يقرب تلك الحلقات ويتفادى حتى الممرّات المؤدّية إلى الساحة التي تنعقد فيها. لكن حين وجد نفسه مطرودا بعد فشله لثلاثة مواسم في اجتياز امتحانات السنة الأولى من شعبة التاريخ والجغرافيا، لم يكن أمامه من خيار سوى تقديم ملفه للجنة الحوار الطلابية التي افتتحت الموسم بمعركة نضالية شرسة بغاية إرجاع المطرودين. ومن حسن طالع رحّال أن الرفيقة عتيقة البقرة والأخ عبد الغفور السحلية كانا على رأس اللائحة بعدما توحّدا مع النضال الطلابي في السنوات الأخيرة وفشلا للمرة الثالثة على التوالي في اجتياز امتحانات السنة

الثانية أدب فرنسي بالنسبة للرفيقة عتيقة والسنة الثالثة أدب إنجليزي بالنسبة لعبد الغفور. وجود أسماء بارزة من الجانبَيْن في لائحة المطرودين جعل الرفاقَ من مختلف الفصائلِ والإخوانَ من مختلف الجماعاتِ يضعون يدًا في يدٍ لإنجاح هذه المعركة المصيرية. هكذا هدّدوا بتنظيم وقفة رمزية أمام العمادة ولم تستجب الإدارة فنفّذوا تهديدهم. ولوَّحوا بقرار تعطيل الدراسة في الكلية ليوم كامل تضامنًا مع المطرودين وتحسيسًا للطلبة بعدالة هذه القضية التي تندرج في إطار الإجهاز الممنهج للمخزن على حق أبناء الشعب المغربي المقدّس في التعليم، ولم تستجب الإدارة مرة أخرى فنفّذوا وعيدَهم. وأخيرًا، ولأنّ البقرة والسحلية عنصران أساسيان لا تكتمل الحلقات من دونهما ولا يحلو النقاش في غيابهما، صعد الرفاق إلى الجبل وتبعهم الإخوان متضامنين وتمّت مقاطعة الدروس داخل الكلية بشكل شامل ومفتوح إلى حين إرجاع المطرودين دون قيد أو شرط. هكذا عاد رحّال ليبدأ صفحة جديدة من حياته الجامعية.

***

ثقة رحّال العمياء في ذاكرة السنجاب هي التي ورّطته في اختياره الأول. كان يظن أن شعبة التاريخ والجغرافيا هي الأنسب لشخص بمثل ذاكرته. فقُدرته على تخزين المعلومات واستعادتِها ستفيده لا محالة في هذا التخصّص. لكنه اكتشف، مع توالي الخيبات، أنّ جغرافية القارة الإفريقية وتاريخ المغرب القديم يختلفان كثيرا عن

مخابئ الجوز التي يسهل على قرينه السنجاب الاهتداء إليها كلما قرص الجوع مصارينه. ذاكرة رحّال في الواقع من النوع الذي يحفظ الأخبار والمعلومات الطرية؛ أسماء البشر وسحناتهم، وأحيانًا ألوان البذلات التي رآهم بها أول مرة، معلومات غير ذات قيمة قد يقولونها في هذا المحفل أو ذاك فينسونها هم أنفسهم لكنها لا تغادر ذاكرته أبدًا. يمكن القول إن لديه ذاكرة مخبر لا ذاكرة مؤرّخ أو جغرافي. لهذا حين عاد إلى الكلية بعد معركة إرجاع المطرودين الشهيرة، قرّر تغيير الشعبة نهائيًّا وتجريب حظه مع النحو والبلاغة والعروض والشعر والأدب والمناهج النقدية في شعبة الأدب العربي. ورغم أنه في مرحلته الجامعية الجديدة صار أقل مواظبة، بعدما صارت أيامه موزّعة بين المحاضرات وحلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، إلا أنه سيوقّع هذه المرة على مسار ناجح. أقصد عادي جدًا. لكن هذا في حدّ ذاته نجاح باهر بالنسبة لرحّال الذي سيحصل على الإجازة في الأدب العربي تخصّص أدب قديم خلال أربع سنوات فقط، سنوات غنية بالدرس والتحصيل كان ختامُها بحثًا حول تاريخ الجاهلية وقبائلها من خلال المعلّقات تحت إشراف الأستاذ الفاضل بوشعيب المخلوفي.

5

كانت سياسةُ سدّ الخصاص، التي ظلّت تنهجها الحكومات المغربية المتعاقبة منذ مطلع الاستقلال، فألَ خيرٍ على الأستاذ المخلوفي الذي التحق أوّل مرة بسلك التدريس بعد ثلاث سنوات فقط قضاها في مدرسة ابن يوسف للتعليم الأصيل بمراكش. ذاك أن مدارس الاستقلال كانت في حاجة لمن يملأ الخصاص الذي خلّفَتْه الهجرة الجماعية للمعلمين والأساتذة الفرنسيين، ثُمّ طردُ المُدرِّسين المصريين ردًّا على تحالف جمال عبد الناصر مع الجزائر في حرب الرّمال التي خاضها الجيش المغربي ضدّ العسكر الجزائري سنة 1963. لذلك صارت تتساهل في قبول أشخاص لا يتوفّرون أحيانًا على الحدّ الأدنى من التكوين ليلتحقوا بسلك التدريس.

بوشعيب ضخم الجثة، ذو الرأس المفلطح الذي حفظ كتاب اللـه وألفية ابن مالك ومختصر الشيخ خليل ومتن ابن عاشر في المدرسة القرآنية الملحقة بضريح الولي الصالح "سيدْ الزّوين" غير بعيد عن مراكش، جاء إلى الحمراء لاستكمال تعليمه في مدرسة ابن يوسف. لكن مباشرة بعد حصوله على الشهادة الإعدادية "البروفي"، وجد نفسه يُلبّي نداء الملك والوطن ويخرج للتدريس في نواحي ورزازات برقم تأجير كان يفاخر باستظهاره بمناسبة ومن دونها. فهو البيان الساطع والدليل القاطع على اعتراف دولة الاستقلال به وحظوته لديها. وهناك في ورزازات احتكّ، هو البدوي المنتسب إلى قبائل الرحامنة، بإخوانه الأمازيغ، واعتبر تعليمه القراءة والكتابة لأبناء تلك القرى جزءا من النضال الذي كان الملك والشعب قد انخرطا فيه ضدّ الاستعمار وظهيره البربري. بل كان يحرص إثر كل صلاة يؤُمُّ الناسَ خلالها في مسجد الدوّار، في زمن كان فيه المعلّم امتدادا طبيعيا للفقيه، على قراءة اللطيف الذي رفعته الحركة الوطنية في فاس ضد الظهير الاستعماري: "اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير. اللهم لا تفرّق بيننا وبين إخواننا البرابِر". هذه الحيثيات كانت غائبة عن أذهان سكان القرية الأمازيغية، ومع ذلك ظلوا يردّدون وراء بوشعيب كل أدعيته حامدين اللـه على نور العلم الذي جاء به هذا الفقيه الشاب إلى القرية، خصوصًا بعدما صار السي بوشعيب يصلي بالناس ويفتي في أمور الدين ويفصل

بينهم في المُنازعات رغم أن المخزن لا يكافئه إلّا على عمله في التدريس. ولأنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فقد وجد بوشعيب في هدوء القرية ورتابة الحياة بها فرصة مواتية ليتفرّغ لتحضير شهادة البكالوريا التي تقدّم لها مرشّحًا حرًّا وحصل عليها من سنَتِه.

سياسة سدّ الخصاص "المباركة" ستجعل بوشعيب المخلوفي يلتحق بثانوية ورزازات فورَ افتتاحها، إذ كان من المعلمين القلائل الحاملين لشهادة البكالوريا في تلك المنطقة. وهناك صار أحد أعلام الثانوية رغم أنّ المفتشين كانوا يشتكون من افتقاره لمنهجية واضحة في التلقين ومن ضعفه الكبير على المستوى البيداغوجي. فعقلية "سيدْ الزّوين" منعته من استيعاب المناهج التربوية الحديثة التي تتبنّاها الوزارة، لكن التلاميذ الآفاقيين القادمين إلى ثانوية ورزازات الداخلية من قصبات زاكورة ومداشر تنغير وقلعة مكّونة وجدوا في دروسه امتدادًا لثقافة الجامع التي جاءوا منها. لم يكن يضيرهم في شيء حفظ أجزاء من ألفية ابن مالك ولا إعراب الكتاب المدرسي من الغلاف إلى الغلاف، لتزيد شهرة السي بوشعيب في المنطقة وتسير بذكر فتوحاته "التربوية" في أوديتها الرّكبان.

زواج السي بوشعيب من زهور ابنة خاله المقيم بالرباط جعله ينتقل إلى هناك حيث درَّس بضع سنوات في إحدى ثانويات العاصمة.

ولأن تلاميذ الرباط لم تكن تعنيهم لا ألفية ابن مالك ولا قواعد الإعراب، فقد شعر بوشعيب بإحباط شديد سيعرف في النهاية كيف يتخلّص منه. نفض يديه من أبناء القحاب الذين كانوا يسخرون منه ويُنكّلون بثقافته العتيقة وهم يتبجّحون أمامه كل يوم بأسماء ماركس ولينين وبمراجع ما أنزل اللـه بها من سلطان. لكن رُبَّ نقمة في طيّها نعمة. فقد استغلّ بوشعيب هذا الوضع والتحق بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط ليتابع تكوينه في شعبة الأدب العربي تخصص أدب قديم. وفيما كانت جامعة الرباط تغلي والطلبة اليساريون يلهبون الجموع بالشعارات وينظمون صفوفهم لولوج مغرب جديد سيقوم على أنقاض ما يسمّونه "مغرب القمع والتشريد"، كان المخلوفي يواصل تتلمُذَه على أيدي أساتذة أجلّاء ظلوا يتوسّمون الخير في قلة من الطلبة بقيت، رغم الغليان، تواظب على دروسها وتعمّق معارفها في النحو والبلاغة والعروض والشعر القديم. ولأنه ﴿إِنْ يَعْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً﴾، فقد حصل بوشعيب على شهادته بميزة حسن، وقال لزوجته زهور أن لا مقام له بعد الليسانس في مدينة الزنادقة هذه. هكذا طلب الانتقال إلى مراكش وعاد إلى المدينة الحمراء في أواسط السبعينيات.

عام 1978، افتُتِحت في مراكش جامعة عصرية حملت اسم أحد رجالات المدينة السبعة؛ قاضي المالكية أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي صاحب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"،

و"ترتيب المدارك وتنوير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك". ومرّة أخرى، كان لسياسة سدّ الخصاص دورٌ حاسمٌ في التحاق بوشعيب بكلية آداب مراكش. إذ بموجبها تمَّ اختيار نخبة من أساتذة السلك الثاني المُجازين وإلحاقهم بالجامعة ليسدُّوا الخصاص الذي كانت تعرفه على مستوى أطر التدريس الجامعي. هكذا وجد بوشعيب نفسه يُدرِّس النحو والبلاغة والعروض لطلبة السنة الأولى بالكلية ويُسجّل رسالة دبلوم الدراسات العليا في الشعر الجاهلي. ومن يومها وهو يدّعي الانهماك في تحضير رسالته ويتفانى في تدريس طلبته بنفس الأسلوب البائد الذي كان يدرِّس به تلاميذ قصبات الجنوب في ورزازات.

6

لم يتردّد رحّال لحظةً في اختيار الأستاذ المشرف، فالطيور على أشكالها تقع. ثمّ إنّ الطلبة يعرفون أنّ كلّ من سجّل بحثه مع الأستاذ المخلوفي يحصل على 17 من مجموع 20 نقطة بغضّ النظر عن مستوى البحث وقيمته. الأهم هو الانضباط وحضور الجلسات الأسبوعية المنتظمة التي يعقدها المخلوفي مع الطلبة واتّباع توصياته والاحترام الدقيق لمنهَجِه في العمل. أمّا لحظة مناقشة البحث فشَكْليةٌ بحتة يختار لها السي بوشعيب واحدًا من أشباهه من أساتذة سدّ الخصاص المعروفين في الكلية لتمرّ الأمور سلسة بلا مشاكل.

- المهم هو قطْعُ مسارِ البحث شوطًا شوطًا بجدّية وانضباط.

يردّد المخلوفي أمام رحّال ورفاقه الذين سجّلوا بحوثهم معه هذا الموسم في أول اجتماع له معهم.

- أول هام، الأستاذ المخلوفي (يتحدّثُ عن نفسه ككائن منفصل) لا يقبل الطلبة الذين يعتقدون أنهم قطعوا الوادي ونشفت أرجلهم ويتعاملون مع بحث التخرّج كما لو كان كتابَهم النقدي الأول. لسنا هنا لنؤلّف بل لنتعلّم. ولا شيء يغيظ الأستاذ المخلوفي أكثر من الادّعاء. فالطالب طالب والكلية مكان للتعلّم لا للتنطّع. لذلك يرفض الأستاذ بشكل صارم أن يلتحق بفريقه ولو طالبٌ واحدٌ من المغرّر بهم. أولئك الذين اعتنقوا مناهج النقد المادي الإلحادي ممن يتكلمون بمناسبة ومن دونها عن الماركسية والبنيوية ويعجبهم التبجّح بقراءتهم لباختين وبارت ولوكاش ويُقحِمون في بحوثهم حول عيون الشعر العربي القديم مفردات الجدلية والبعد الطبقي، أو البنية والتناص وغيرها من غرائب الألفاظ فيما هم أعجز ما يكونون عن تقطيع أبسط نُتْفَة من البحر الطويل تقطيعًا عروضيًا سليمًا، ومعظمهم لا يميّز حتى بين اللام الشمسية واللام القمرية خلال تقطيعه لاسم مُعرَّف. لكن ما يرفع ضغط الأستاذ أكثر هو أن يتسرّب أحد شعراء الفروماج إلى مجموعته. هؤلاء المتهافتون الذين تستقطبهم أحزاب اليسار الملحدة بنشر خواطرهم الرّكيكة المُلغّزة على صفحاتها الأدبية، فترى الواحد منهم يتأبّط ما نشروا له من قصاصات ويفرشها أمامك ليقنعك أنه شاعر هو الآخر. يعني

مثله مثل الحارث بن حلّزة. لذا لا يليق أن يطلب منه الأستاذ مثلًا حفظ جزء من همزية اليشكُري على سبيل التحضير الضروري لكلّ طالب جدّي يريد إنجاز بحث عن هذه المعلّقة الفريدة التي نافح الحارث فيها عن قومه وعزّتهم بكبرياء لا يخالطها صلف وأنفة لا تشوبها غلظة. لكن شعراء هذه الأيام بعدما ضيّعوا اللغة وأسرارها والبحور وأوزانها ماعادوا يملكون شيئا في الواقع سوى الغرور والادّعاء.

***

لم تكن معلّقة عمرو بن كلثوم من حُرِّ اختيار رحّال ولا من صميم رغبته. حسنية بن ميمون بدورها لم تكن تتمنّى أن تُحشر إلى جانبه في مكتبة الكلية ساعاتٍ طوالًا على مدار عام كامل. لكن ما العمل؟ أصبُعُه دائما تخونه في مثل هذه الحالات. يحاول رفعها فلا تطاوعه. شرح الأستاذ للطلبة أنه يريد لبحوث هذه السنة أن تنصبَّ على دور القصيدة الجاهلية في التعريف بتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام: ملوكها وقبائلها، حروبها ومعاركها، أخبارها وأحداثها الجسام. وطبعًا هو لا يؤمن بالعمل الفردي ولا بنبوغ الطالب الذي يبقى أمامه المجال مفتوحًا بعد الإجازة لشقّ طريقه في درب البحث الأدبي والنقدي. لذلك، كل معلّقة من السّموط العشر يجب أن ينكبّ عليها فريق من الطلبة من اثنين إلى خمسة. ثم شرع السي بوشعيب في توزيع المعلّقات بأسماء أصحابها:

- من يريد امرؤ القيس؟ من يُفضِّل عنترة؟ وماذا عن لبيد؟ النابغة؟ زهير؟ الأعشى؟ طرفة؟..

لو كان لرحّال أن يختار لاختار امرؤ القيس، لكنَّ الأستاذ نطق اسمه أولًا، ولم يثبت أنّ رحّال كان سبَّاقًا إلى المكرمات. كان أيضًا يتمنّى لو اشــتغل على معلّقة عنتــرة. هو عنترة إذن بعدما تاه عنه الملك الضِّليل. لكن من يجرؤ على رفع الأصبع الوجِلة الراعشـــة؟ وحيــن حلّ عمرو بن كلثوم بالمجلس أخيــرًا كان الجمع تقريبًا قد انفضّ ولم يبــق هناك غير الأخ رحّال الغْوينـــة وزميلته الضئيلة حَسَنِية بن ميمون.

7

منذ البداية وجد رحّال صعوبةً في تحديد الحيوان الذي تخفيه حَسَنِية تحت جلبابها الواسع وحجابها المُسدل؟ وجهُها الصغير يوحي بشيء من الضعف والميل الفطري إلى الهدنة والاستسلام نتيجة قلة الحيلة. وجبهتُها الضيقة تعكس سطحيتها وضيق أفقها وتفضح جهلها ببواطن الأمور. لكن اختفاء جسدها الضئيل وسط الجلباب الفضفاض وامّحاء ملامح وجهها جعل رحّال يفشل تمامًا في اكتشاف حيوانها المُستَتِر. وهذا صعَّب عليه المأمورية كثيرًا. إذ كيف يمكنك التعامل بشكل طبيعي مع شخص تجهل قرينَهُ الحيواني؟

أول موعد لهما بمكتبة الكلية خصّصاه لقراءة المعلّقة قراءة أولى وتشكيلها كلمة كلمة حسب توجيهات الأستاذ المشرف وشرح

مفرداتها الصعبة اعتمادًا على لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي المتوفرَيْن بأجزائهما الكاملة في الخزانة. حاول رحّال استراق النظر إلى وجهها لتبيّن ملامحه دون جدوى. كان البصر يرتدّ إليه خاسئا كأنْ لا وجه هناك. لا وجه في وجهها، لا ملامح، لا سمات، ولا تقاطيع. لم يعثر أبدًا على فمها. كانت شفتاها المزمومتان صغيرتين جدًّا، وتقريبًا من نفس جنس وجهها لا تتميزان عنه في شيء. كأنَّ حُمرة الشفتين وحُدودهما مُحِيَت بممحاة فصار فمها الصغير امتدادًا مُحبِطًا لصُفرة الخدّين. يا لسوء حظك يا ابن كلثوم ويا لسواد ليلك. وحده اللون البندقي للعينين ظلّ يحفظ للوجه الكتوم الشاحب بارقةَ حيويةٍ ولمعةَ ذكاءٍ مخاتلةً عصيّةً على الإمساك.

قالت له حسنية وهي تخفض بصرها دافنة وجهها في الكتاب المفتوح بينهما:

- أقترِح، الأخ رحّال، أن تتفضّل بقراءة القصيدة بصوت مرتفع.. هكذا نتدرّب عليها قليلا قبل أن نبدأ في التشكيل.

يا للورطة! فاجأته الخبيثة. أخذته على حين غرّة. ومثلما بدت الملامح والسِّمات ممحوّة من وجهها غادَرهُ صوتُه هو الآخر. كأنه تبخّر. فتّش عنه بين الشفتين، في الحلق، في الحنجرة، في الصدر، في ذخيرة الرئتين من الهواء قبل أن يعثر على نفخ غامض متقطّع كالفحيح:

- في الحقيقة أختي الكريمة.. في الحقيقة..

في الحقيقة ماذا أيها الغبي؟ هي لم تطلب منك أن تتقدّم لخطبتها. كل ما طلبته أن تتوكّل على اللـه وتقرأ، والمفروض أنكما معًا هنا لهذه الغاية. هل ستجيبها: ما أنا بقارئ؟! رسالةٌ هي وستنزل عليك اللحظة من السماء؟!.. اقرأ أيها الغبي. اقرأ. اقرأ القصيدة قبل أن تمُرّا إلى شرح ما ستفتحكما عليه من عجيب القول وغريب الألفاظ. بحث رحّال من جديد عن الصوت داخله، فلم يجد غير خيط صغير هش متقطع أشبه بالهسهسة، صوت ضعيف راعش كأنه لفتىً دون اليفاع. انطلق في البداية متعثرًا متلعثمًا:

"ألا هُبِّي.. ألا هُبـ..بِّي.. ألا هبِّي بصحنك فاصبحينا / ولا تُبـ.. قي.. ولا.. تبقي خمور الأندرينا"

ثم أشرق صوته بالتدريج ليواصل قراءة القصيدة بأخطاء قليلة في الواقع حتى بلغ قول الشاعر:

"نُطاعِن ما تَراخى الناس عنّا / ونضربُ بالسيوف إذا غَشِينا"

حينها، داهَمَتْهُ حَسَنِية مصحِّحة:

- إذا غُشِينا.. ونضربُ بالسيوف إذا غُشِينا.

قالت ذلك بثقة، ثمّ أضافت بنبرة حاسمة:

- لو سمحت رحّال، أحبّ أن أواصل القراءة.

***

كانت منهجية الأستاذ المخلوفي في البحث بسيطة واضحة. في الاجتماع الأول وزّع المعلّقات على فرق صغيرة من الطلبة ودعاهم إلى الاشتغال عليها بالقراءة والشرح والتشكيل. في الاجتماع الثاني حثّهم على دراستها وزنيًّا وعروضيًّا وأمر كل واحد منهم بتقطيع أربعة من أبياتها. الأمور محسومة بالنسبة إلى السي بوشعيب، لا يمكنك أن تشتغل على قصيدة لست قادرًا على تقطيعها عروضيًّا. ثم دعا الطلبة في اللقاء الثالث إلى استخراج أسماء القبائل والأعلام من سادة وشعراء وفرسان، وجرد لائحة الأمكنة المذكورة في كلّ قصيدةٍ على حدة من جبال وأودية ومضارب وربوع وديار على أن يتواصل الاشتغال على هذه المعطيات بالشرح والتحليل والتركيب فيما بعد. كلّ شيء بأوانه:

"فالأستاذ المخلوفي - يُواصل بثّهُ البيداغوجي - ليس من نوع المشرفين الذين يلتقون الطلبة في الممرّات ليعطوهم تعليماتهم السريعة بشكل عابر خلال فترة الاستراحة أو وَهُمْ يُدخّنون سجائرهم على عَجلٍ بين محاضرتَيْن. الإشراف بالنسبة للأستاذ المخلوفي واجب تربوي أساسي لا نتبجّح به كشعار ولكن نترجمه إلى حصة أسبوعية قارة، واجتماعات منتظمة".

بوشعيب المخلوفي فيلٌ حقيقي. فيلٌ بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، بحيث لم يجد رحّال أدنى صعوبة في اصطياد حيوانه منذ أول درس في البلاغة والعروض حضره له في عامه الأول بشعبة

الأدب العربي. كتلةٌ لحميةٌ بجلد سميك وساقان غليظتان متورّمتان كأنّ الرجل مصابٌ بداء الفيل. وفرةُ شحمه ولحمه تمنعه من أن يدير رأسه بشكل كامل حتى لو شبّت النار في جلبابه الأبيض من الخلف. لذا يكتفي كالفيل بمراقبة ما يجري أمامه وعلى جانبيه فقط. ثم إن الوسط الذي يفضّل السي بوشعيب أن يعيش فيه ويشتغل، يشبه إلى حدٍّ كبير مجتمع الفِيَلة بتراتُبيته الصارمة التي تقوم أساسًا على احترام الصغير للكبير. حيث تحتلّ الفيَلة رتبتها داخل المجتمع حسب السن بتدرُّج لا يمكن القفز عليه. هكذا تتلقّى الأفيال الصغيرة الدروس يوميًّا ويكون عليها تعلُّم القواعد الاجتماعية وممارسة آداب الجماعة مع ما يستلزمه ذلك من إظهار الاحترام للفِيَلة التي تكبرها سنًّا. هذا النظام الذي نجده محترمًا بدقة في مجتمع الفيَلة الفاضل هو بالضبط ما يفتقده المخلوفي مع الأسف في مجتمعنا البشري التافه، وداخل هذه الكلية بالذات. لذا حرص على انتقاء طلبته بصرامة ليؤسس معهم بِدَأب مجتمعًا فيليًّا صالحًا لا مجال فيه لمُتنطّع غِرّ أو لمُدَّعٍ مُغتَرّ.

وحتى حين سَرى في الكلية خبرُ مذكّرة وزارية تُلْزِم أساتذة سدِّ الخصاص بمناقشة الرسائل التي يدّعون الاشتغال عليها منذ أكثر من عقدٍ مع إعطائهم مهلةَ سنةٍ لإتمام الموضوع، وإلّا سيتِمُّ إرجاعهم إلى ثانوياتهم القديمة، فإن المخلوفي لم يتأثّر. الكل يتحدّث عن أنّ طلبته ينجزون البحث بدلًا عنه. فقد اختار لرسالته، حسب مصادر

موثوقة من نقابة أساتذة التعليم العالي، موضوع "التاريخ والبيئة والمجتمع العربي القديم في الجزيرة العربية من خلال المعلّقات"، نفس الموضوع الذي وزَّعه بالقسطاس على الطلبة. لكن المخلوفي لم يتزعزع قيد أنملة عن خطّته ومساره ولا حرّك كلُّ ما قيل ويُقال شعرة واحدة من رأسه. وإذا كان البعض قد استغرب برودة الرجل وعدم انزعاجه من كل هذا الغمز الذي طال سيرته ونال من سمعته الأكاديمية، فإن رحّال العارف بمدى تفيُّلِ أستاذِهِ لم يجد في ما يشاع ما يسيء له في العمق. فتأخُّر النمو العقلي للفيلة لا يسبب لها أبدًا أيّ إحراج ولا يشكّل أدنى عائق أمامها ما دامت من الحيوانات النادرة التي تظل على قيد التعلم مدى الحياة. بل من المهد إلى اللحد، كما يردّد المخلوفي دائما.

***

- وماذا لو اشتغلنا على ابن كلثوم وابن حلّزة معًا في نفس البحث يا أستاذ؟

- كيفاش آ بنتي؟

- أقترح أن نشتغل أنا وزميلي على المعلّقَتَيْن في نفس البحث. هذا سيجعلنا نُحيط بالمرحلة أكثر ونتعرّف بشكل أعمق على الصراعات القبلية في زمن ملك المناذرة عمرو بن هند وصداها في محيطه ومجالسه.

- أحب حماستك يا بُنيّتي، لكنكما أصغر مجموعة.. اثنان فقط، فكيف أترككما تواجهان وحدكما معلّقتَيْن من أبلغ ما قالت العرب؟

لكن حَسَنِية تشبّثت باقتراحها الذي صادف في العمق هوىً في نفس الأستاذ، لتتمّ الموافقة عليه فعلًا في ختام أول لقاء لهما مع المخلوفي في إطار سلسلة الاجتماعات التي بدأ يعقدها في الآونة الأخيرة مع المجموعات، كل على حدة، لدراسة تصاميم البحوث وتحديد خطوطها العريضة قبل انتقال الطلبة إلى مرحلة الكتابة والتحرير. أما رحّال الذي انعقد لسانه من الدهشة فلم يفهم بتاتًا كيف سمحت هذه البَقّة لنفسها باتخاذ قرار مماثل باسمه دون أن تكلّف نفسها عناء استشارته مسبقًا.

لم تفسح حسنية المجال أمام رحّال ليحتج ويثور، لذا جاءته من الآخر. ففي كافيتريا الكلية التي لا يزورها إلا لأمر جلل أو للقاء فائق الأهمية.. زارها - إذا توخّينا الدّقة - مرتين فقط: مرة من أجل إيداع ملفه لدى الرفاق في لجنة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب التي كانت تتابع قضية المطرودين، والثانية مع أحد الإخوان من الفصيل الإسلامي لكي يشرح له ألّا علاقة تربطه البتة بأيٍّ من فصائل اليسار وأن تسليم ملفه لهم لا يعني بالضرورة أنه يتعاطف مع أفكارهم الإلحادية. جلستان بالكافيتريا تحمَّل رحّال أعباءهما المادية بنفسه: قهوتان وبرّاد شاي في اللقاء الأول، وعصير برتقال في الثاني، واليوم قاد حسنية إلى هناك بعدما تحسَّس جيبه وتأكّد أن لديه حقَّ مشروب

على الأقل. وهو على كل حال لن يشرب. سيدَّعي أنه مُضرب عن الشرب من فرط انفعاله. لا قهوة ولا شاي ولا هم يحزنون. المهم أن تشرح له الموقف بالضبط.. وكذلك كان.

القصة كما حكتها حسنية بسيطة مُقنعة. ركّزتها في بضع جمل وأغلقت الموضوع.

كانت تتجوّل في سوق الكتب المستعملة بباب دكالة، حين عثرت على عدد مغبر من مجلة سورية قديمة.. ما تبقّى في الحقيقة من المجلة التي كانت منزوعة الصفحات الأولى والأخيرة، بلا فهرس ولا غلاف. العدد يضم بضع مقالات أدبية، أحدها كان - يا لعجائب الاتفاق! - دراسة في أكثر من عشرين صفحة عن صراعات البكريين والتغلبيين، مخازيهم ومفاخرهم، من خلال معلّقتَيْ عمرو بن كلثوم والحارث اليشكري.

- أكثر من عشرين صفحة ستكون كافية لنشتغل عليها بالإضافة والتمطيط والحشو وحشد الشواهد الشعرية ونخلص من هذا المسلسل. صاحبك يريد السطو على مجهود الطلبة، فلنتركه يسطو على جهد باحث سوري مغمور وننهي القصة. صعيبة هاذي؟

كانت تتكلم بوضوح وصرامة لم يتوقّعهما رحّال الذي ظلّ فاغرًا فاه في هذه البنت الغامضة التي تفاجئه يومًا عن يوم.

8

علاقة رحّال بالأحلام غريبة بعض الشيء. فعالم الأحلام ظلّ بالنسبة له مثل قاعة سينما "مرحبا" التي اعتاد ولوجها لمشاهدة الفيلم الأول فقط "فيلم الكراتيه"، ثم يبيع ورقة "الأنتراكت" لأحد المُتهدِّلين عاطفيًّا من عشاق السينما الهندية الذين يتابعون ببلاهة قصصها الرومانسية التافهة. بالنسبة إلى رحّال، الحبّ مجرّد كلام فارغ. ولحسن الحظ أن أحلامه، تمامًا كاختياراته السينمائية، ظلت حبيسة الصنف الأول: أفلام الكاراتيه. فرحّال لا يحلم إلا حين تكون هناك مبارزة ثأرية ينتقم خلالها من أحد الخصوم ويبطحه أرضًا بعد أن يغرز ركبته المسمومة في حَنَكه. أحلام جدّية تشرِّف صاحبها ويمكنه أن يفخر بها في يقظته. وخارج المبارزات والركل واللكم

والرّكبيات الخاطفة، فالأحلام - بمعناها المُسالم - ظلّت تخاصم نوم رحّال إلى أن ظهرت حسنية في حياته.

أما عذرية رحّال الغْوينة فثابتة لا يرقى إليها الشّك. فإلى حدود التحاقه بحلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وتعرُّفه - من طرفٍ واحدٍ طبعًا - على الرفيقة عتيقة لم يسبق له أن تجرّأ على فتاة. مع عتيقة أحسّ ببعض الضعف. القصص الكثيرة التي يروّجها الإخوان جعلته في البداية يتمنّى لو شارك الرفاق إحدى سهراتهم معها. فقط لو تسلل إلى "الدار الحمرا" ليلا وجالسهم صامتًا منتبذًا ركنًا قصيًّا بمجلسهم. لا يريد أكلًا ولا شرابًا، لكن ما إن تتصدّر عتيقة المجلس وتزيل سروالها وتُبّانها الأحمر أو الأزرق الفاتح أو الأسود - لا يهمّ - وتفتح رجليها بكرم نضالي وأريحية رفاقية، حتى يندسّ في الطابور. والمفروض أن الرفاق ديمقراطيون جماهيريون، لذا سيكون من العار أن يمنعوا أحد الجماهير الطلابية الصامدة من نيل حصّته من عسل عتيقة، وغمْسِ قلمه هو الآخر في محبرة أنوثتها. ولأن أحلامه التي عرفت دائما كيف تواسيه حين يقهرُه أحدهم أو [illegible] به تنكّرت له وخذلت أمانيه في هذه النقطة بالذات، قرّر رحّال الاعتماد على نفسه. هكذا صار ينتظر تدخلات عتيقة بفارغ صبر. وما إن تبدأ الرفيقة في الحمدلة النضالية والحوقلة الثورية، حتى يبسط رحّال فِراش حلم اليقظة وسط الحلقة:

"الرفاق، الرفيقات،

تحية نضالية فـــي إطار الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، منظمة جماهيرية ديمقراطية تقدمية مستقلة.. وحين أقول مستقلة أيها الرفاق والرفيقات، أقصد أنها مســتقلة عن المخزن وإدارته الفاسدة، عن الأحزاب الإصلاحية والرجعية، وليس عن جماهير شعبنا الصامدة في مختلف ربوع هذا الوطن المحاصر الذي تتكالب عليه قوى القهر من رجعية وصهيونية وإمبريالية عالمية".

وقبل أن تُنهي عتيقة ديباجتها يكون رحّال قد عرَّاها بالكامل وبدأ. يلتصق بصدرها مثلما يلتصق عجلٌ بأمّه الضَّريع ليأخذ حصته من اللبن كاملة غير منقوصة. وبعد أن يشبع من المصّ والعضّ ينزل قليلا إلى تحت ويبدأ بالحفر أسفل سرَّتها وبين الفخذين باحثًا عن جرّة العسل ولا يقوم عنها إلا بعد أن يذوق عُسَيْلتها ويُذيقها عُسيلته. لكن مشكلة رحّال التاريخية هي استطرادات عتيقة التي لا تنتهي، مما يُشعره بالكثير من الضيق بعد أن ينهي واجبه التحرّري، بل يتملّكه قرف منها فيما بعد. وهو لا يعرف ما إذا كان هذا الإحساس طبيعيا لدى كل الناس أم هي حالة نفور خاصة يستشعرها جنس القوارض تحديدًا حين تبلوهم الأقدار ببقرة.

***

مع حسنية كان الأمر مختلفًا. لم يتمكّن رحّال من نزعِ جلبابها

لا في الكافيتريا التي تردّدا عليها فيما بعد أكثر من مرة بدعوة منها، ولا في قاعة المكتبة. في المكتبة بالخصوص، يجلس أمامها بالساعات يسترق النظر ويستطلع. يبحث عن المداخل ويتربّص بالمفاتن وثنايا الجسد دون جدوى. أحيانا يريد أن يعرف فقط ماذا تحت الجلباب؟ قفطان مغربي زاهي التطريز؟ روب من شوميجات الريكلام الرخيصة؟ بذلة رياضية؟ منامة من النوع العصري الخفيف؟ حتى شعرُها لا يتخيّله: هل هو طويل مُسرَّح بطريقة ذيل الحصان ومطويّ بعناية تحت منديل الرأس؟ أم ناعم أملس مفروق من الوسط ومفتول في ضفيرتين على طريقة بنات القرى؟ أم لعله شعر كثيف شديد اللمعان حيَّر حسنية فلم تعرف كيف تكبح جماحه إلا بضغطه في منديل صغير قبل أن تلفّ عليه إيشاربها الثقيل الغامق وتخرج إلى الكلية؟ لكن، ماذا لو كان شعرا قصيرا مجعّدًا من النوع الذي لا ينفع معه لا تمشيط ولا تصفيف؟

أنهك رحّالَ التخمين. وحين بدأت حسنية تحطُّ في منامه من حين لآخر ازدادت الأسئلة حدّة وإلغازًا. في البداية جاءته من الشعر الجاهلي، ليس من معلّقة ابن كلثوم ولا من همزية اليشكري، بل حطّت في حلمه كالسيل الهادر من بيتٍ لامرئ القيس. وكالحصان بدأت تكرّ وتفرّ، تقبل وتدبر، ورحّال يتابعها بعينين مُسرنمتين مستغربًا هو الذي لم يشاهد قَطُّ حصانًا في الحلم. كانت حسنية تتبختر في حلمه مثل فرس أصيل:

"له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ / وإرْخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ"

رشاقة الظبي ودقّة ساقي النعامة وسير الذئب ومرونة جسم الثعلب. أيُّ حيوان تُضمره هذه البنت التي غزَتْ حلمه الليلة على هيئة حصان؟ ياه يا رحّال، كان عليك أن تتشجع وترفع أصبعك عاليًا مستقيمًا لمّا هتف المخلوفي باسم امرئ القيس. يعني ما دخلك أنت بتطاحنات بكر وتغلب؟ أما كان من الأجدى أن يشتغل المرء في بحث الإجازة على شعر يؤثث الحلم وتزور أحصنَتُه المنامات؟ لكن حسنية ستزوره بعد أقل من أسبوع على هيئة أخرى، في حلم ثان. هذه المرة بدت تتهادى على نغمات موال أندلسي، وجاءت في إهاب غزال:

"رماني غزالٌ أهيفٌ بجماله/ فجاءت سهام القتل من جانب الدَّوا"

كان الصوت في الخلفية ينشد البيت ويعيده، وحسنية على هيئة غزال تتبختر أمامه ورحّال يتساءل:

- أهذا هو الحب؟ آه يا ربي، أهذا هو الحب؟

تذكّر قيس بن الملوح وشغفه بليلى:

"رأيتُ غزالا يرتعي وسْط روضةٍ/ فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا".

هل هي حسنية صارت تتراءى لك يا رحّال؟ وأين؟ في المنام؟ على هيئة الظبي؟

في اليوم الموالي، وهي تجلس إلى جانبه في مكتبة الكلية لم ير لا ظبيًا ولا غزالًا. كان حيوانُها رابضًا تحت الجلباب الواسع وروحُها مسحوبةً من وجهها، وكانت منهمكة في نسخ فقرات جديدة من دراسة المجلة. من حين لآخر كانت تتوقف لتقترح على رحّال فتح قوس هنا أو إضافة شاهد شعري هناك أو حتى الاسترسال في استطراد غبي لإعطاء المخلوفي فرصة التصحيح وإعادة أسطوانته المكرورة عن أهمية الذهاب مباشرة إلى الجوهر وضرورة الحذر من الإطناب وتفادي الاستطراد.

9

فصلًا بعد فصل، واجتماعًا إثرَ آخر، كان المخلوفي يُشيد بنجابة رحّال وحسنية ويُفاخر بهما باقي مجموعات البحث. كان واضحًا أنهما يترجمان باقتدار ما يريد إنجازه في رسالته ويعطيانه فكرة واضحة عن المسار الذي يحب أن ينخرط فيه لإنهاء بحثه المؤجّل ولم يكن يعرف كيف. كلّ جلسة جديدة معهما يخرج منها الفيل سعيدًا متفائلًا بأن حلم كسب تحدّي الإدماج الرسمي في الكلية كأستاذٍ للتعليم العالي صار في متناوله. رضا الأستاذ وتكفُّل حسنية بمهمة النسخ وحتى التدخّل في المقال الأصلي كما تشاء بعدما فوَّض لها رحّال صلاحيات الإضافة والحذف والتعديل، كل ذلك منح هذا الأخير فرصة التفرّغ للحلقات وباقي الفعاليات النضالية والأنشطة الإشعاعية للاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وهناك تعرّف أول مرة إلى وفيق

الدرعي. طبعًا، التعرّف بالنسبة إلى رحّال يكون دائما من جانب واحد. لكن الدقة التي يراقب بها الآخرين والاهتمام المبالغ فيه الذي يوليه للأشخاص الذين يثيرون انتباهه، حركاتهم وسكناتهم، الطريقة التي يتحدثون بها والتي ينصتون بها وحتى كيف ينسحبون من الحلقة لهذا الداعي أو ذاك، إضافة إلى طريقة سحبهم للدخان بالنسبة إلى المدخّنين وماركات السجائر التي يدخّنونها ومدى إخلاصهم لصنف معين، كل هذا يعمِّق الصداقة أكثر. رحّال يحرص على معرفة كلّ شيء عن أصدقائه. هكذا يجد نفسه غارقًا في تقارير دقيقة شاملة يتطوّع لإعدادها عنهم لصالح صداقته الغامضة معهم. لكن الصداقة لا تعني الحب دائما. لهذا مثلًا كان رحّال، رغم اهتمامه الكبير بشخصية وفيق الدرعي، يحس بالألم في حضرته. لا، ليس حقدًا ولا حسدًا، لكنه شيء يشبه المغص. مغصٌ خفيف، مؤلم مع ذلك، يعصر أمعاءه خصوصًا ووفيق يعتلي المنبر لينشد شعره في الأمسيات.

- الغريب أنه في كل مناسبة يطلع عليهم بقصيدة جديدة!

- وفين هي المشكلة؟ تسأل حسنية.

- المشكلة في التّلفيق وانعدام الجدّية. كلام فارغ يقدَّم أمام غابة من الأكف الجائعة للتصفيق على أنه شعر دون أن يستجيب للحد الأدنى من المسؤولية العروضية والبلاغية المطلوب توفّرها في الشاعر. ثمّ، قصيدة كلّ شهر! هل تجدين ذلك عاديا؟

لم يكن رحّال يفهم كيف يمكن لشخص أن يقدّم في كلّ أمسية قصيدة جديدة تلائم النشاط المنظم. أنشطةٌ تتناسل بشكل مذهل: اليوم العالمي للمرأة، اليوم العالمي لحقوق الإنسان، ذكرى يوم الأرض، العيد الأممي للطبقة العاملة، يوم المعتقل، ذكرى استشهاد سعيدة المنبهي، المهدي بنبركة، بوبكر الدريدي، مصطفى بلهواري، أمسيات غنائية شعرية في اختتام أسابيع التضامن مع فلسطين والعراق وكل الشعوب المستضعفة في العالم. ودائما كانت لوفيق قصيدة جديدة تناسب المقام.

- هل هذا معقول؟ الحارث بن حلّزة يا بنت الناس عكف على معلقته خمسة عشر عامًا، عقد ونصف من أجل قصيدة واحدة ها نحن ما زلنا نشتغل عليها اليوم بعد مرور كل هذه العصور. عمرو بن كلثوم لم يكتب طوال حياته غير قصيدة واحدة هي معلقته، كتبها بالسيف والرمح، بلحمه ودمه قبل أن يترجمها إلى أوزان وقوافي.. ويأتي مُدَّع مثل وفيق لِيَبيض لنا قصيدةً كلَّ شهر؟ قصائد تتشابه كالبيض الرومي. فيها من الادِّعاء أكثر مما فيها من المعرفة باللغة، بقوانين الاستعارة وبناء الصور والأخيلة.

- تتحدّث مثل المخلوفي، قاطعَتْه، لعلك استعرْتَ منه منطقه وطريقته في التفكير..

الملاحظة موجعة بعض الشيء. لكن في قرارة نفسه، وجد صعوبة في رفضها. منذ طفولته ورحّال يحس بضعف شديد في

بلورة أفكار أصيلة خاصة به، ولو تعلّق الأمر بحالة الطقس. دائما ينتظر رأي الآخرين، ثم يعلّق عليه. وفي الغالب لا يعلّق. فقط يتبنّاه في صمت ويقتنع به باعتباره رأيا سديدًا غير قابل للمُراجعة. أغلب الأفكار التي رسمت خطوط شخصيته، هكذا تلقّاها. بهذه السهولة. بهذه التلقائية. وهو اليوم مقتنع بها بشكل أقرب إلى الإيمان، كما لو أنها أُنزلت عليه من السماء. مجال النقاش والأخذ والرّد لم يُتَح لرحّال إلا هذه السنة مع حسنية بالذات خلال ساعات المكتبة الطويلة. قبل ذلك، كان يكتفي بإدارة بعض الأفكار في رأسه متخيّلا نفسه في سجالات صاخبة ينافح خلالها عن قناعاته: أفكار الآخرين التي أعجبته واستعارها وصار يعتبرها قناعات شخصية يؤمن بها ويحب أن يفرح من حين لآخر بالاستماتة في الدفاع عنها. وغالبا ما يجد نفسه أكثر تحمُّسا لها من أصحابها. فالأهم بالنسبة إليه هو درجة الانخراط، والحماس القوي حتى لو كان صامتًا غير معلن.

لكن رحّال سيقرّر مع ذلك، وبشكل مفاجئ، الخروج عن صمته. لم يعد يطيق البقاء على الهامش. طبعًا سيكون من المستحيل أن يرفع أصبعه داخل حلقة النقاش للمشاركة بتدخّل أو نقطة نظام حتّى. فهو أجبن من أن يُقْدِم على مجازفة بهذه الخطورة. ثم ماذا سيقول؟ إذ لم يثبُتْ أن كان له موقف فكري أو سياسي واضح. إنه مجرد متفرج دقيق الملاحظة. وفي حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بالذات، لم يجد رحّال نفسه يومًا مجبرًا على التحيّز لتيار

من التيارات. فبالإضافة إلى الاطمئنان على حيواناته والتأكّد من أنها لم تخذل تصنيفاته الأولية لها، ومتابعة أيّ تحوّل يطرأ على هذا الحيوان أو ذاك، كان رحّال يستمتع ببراعة المراوغات الخطابية وطرائق الحجاج حتى لو كانت فاسدة أو مُلفقة، بل خصوصًا حين تكون فاسدة مُلفّقة. إنه يستمتع فقط. لكن أن يتدخّل ويصير له موقفٌ ضيّقٌ يخندقه في هذه الجهة أو تلك، فذاك ما لن يطيقه أبدًا. لذا حين قرّر الخروج من سلبيته ليمارس بعض الحضور في المشهد الطلابي الذي ملأ عليه كيانه في الآونة الأخيرة، اختار طريقةً لا يفقد معها خصلة نكران الذات أو ينقُض قدره التاريخي بالعيش بعيدًا عن الأضواء.

بدأ رحّال يشتغل بهدوء وعلى مستويات ضيقة جدا. لكن المهم أنه وجد أخيرًا طريقة مناسبة لممارسة نوع من الحضور الفاعل الإيجابي، بدل المتابعة السلبية والانفعال الصامت. كان يحتاج إلى فسحة يتسلّل منها، وهو ما توفّر له مع الرفيقين مراد والمختار. طالبان على شاكلته من النوع المنطوي. لا يتدخّلان في الحلقات. لكن رحّال سيعلم أنهما من رموز الفصيل القاعدي. لهما وضع اعتباري خاص في هذا الفصيل. فهما بارعان في الاستقطاب وفي العمل التحتي القاعدي وإنجاز بعض المهام الصعبة التي يستلزمها العمل السري. وعموما مقام الرفيقين محفوظ بين المناضلين، فحتى عتيقة لا تتردّد في التقرب منهما رغم صمتهما الدائم واختيارهما هوامش

الحلقة تاركين للخطباء من فصيلهم والفصائل الحليفة والمناوئة أمر تصدُّرِها. التقارب بين رحّال والرفيقين مراد والمختار كان في البداية طبيعيًّا، حيوانيًّا إن شئنا الدّقة، بسبب انتماء الثلاثة لجنس القوارض. فمراد جربوع صحراوي أما المختار فجرذ لا غبار عليه. لكن ما إن حذّرهما رحّال من وفيق الدرعي مُلمِّحا إلى وجود علاقة مشبوهة تجمعه بفاضل السّرّاج أحد أشهر عمداء الأمن بالمدينة حتى تعزّز التقارب بين القوارض الثلاثة وصار رحّال بالنسبة للرفيقين مراد والمختار أحد جنود الخفاء الذين يجب عدم التفريط فيهم. فمعلومات ثمينة من هذا النوع لا يمكن إلا أن تعزّز مكانة الرفيقين داخل التنظيم وتؤكّد دورهما الفعال في تحصينه ضدّ أي اختراق. ورغم أن هناك من جاء فيما بعد ليشرح للرفيقة عتيقة، المعروف عنها تعاطفها الخاص مع الشاعر المشبوه، كيف أن العميد المذكور هو فعلا ابن خال وفيق لكن خصومة تاريخية بين أم وفيق وأخيها بسبب استيلاء هذا الأخير على نصيبها من الميراث جعلت العلاقة بين الأسرتين شبه مقطوعة منذ بداية الثمانينيات، إلا أن كل هذه التفاصيل لم تعد ذات أهمية. فالرفاق كانوا قد اتّخذوا قرارهم وأدرجوا اسم وفيق الدرعي ضمن لائحة العناصر المشبوهة ورموا به خارج جوقة شعراء الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. والظاهر أنّ مرارة العزل التي كابدها وفيق تلك السنوات هي التي ألهمَتْه أغلب قصائد ديوانه الأول "الفراشة في طريقها إلى المسلخ".

10

لم يكن رحّال يتصوّر أن ردّ فعل الرفاق سيكون بتلك القسوة. فالنبذ الذي تعرّض له وفيق الدرعي لا يُطاق. قلّ تردُّده على الكلية، ولم يعد يظهر له أثر في الحلقات، كما صار يتحاشى الجميع. لكن ما لم يخمّنه رحّال، هو الفظاظة التي سيواجَهُ بها وفيق من طرف شرذمة من قواعد الفصيل الصامتة ممن لا يهشّون في حلقة ولا ينشّون في نقاش، ولا يظهرون إلا في المعارك التي تنشب من حين لآخر مع الحرس الجامعي أو مع الإسلاميين مدجّجين بهراواتهم ضمن الجناح المسلّح للفصيل الذي يُطلَق عليه على سبيل التّمويه اسم لجنة اليقظة. هذه الشرذمة التي كانت حناجرُها تلهب الساحة بالشعارات كلما أنهى وفيق واحدة من قصائده العصماء، تنكّرت

له الآن كلّيا إلى حدّ أن أعضاءها صاروا يعترضون سبيله داخل الكلية ويُمعنون في استفزازه.

رحّال ليس من النوع الخبيث الذي يشمت في الخلائق. لذا ظل في قرارة نفسه يتعاطف مع وفيق في محنته ويرى أن ما يتعرّض له من مضايقات زاد عن الحدّ. لكن في الوقت ذاته لم يكن يمنع نفسه من الفخر بصداقته مع مراد والمختار، خصوصا وأن رحّال صار يعرف الآن أن قريبيه، الجرذ والجربوع، هما المحركان الفعليان لهذه العصابة. فلا عتيقة البقرة ولا أحمد الضبع ولا غيرهما من قياديي الفصيل المعروفين وخطبائه البارزين يستطيعون التحكّم في هذه الميليشيات وتوجيهها مثلما يفعل مراد والمختار.

لكن، بعيدا عن الفخر بصداقة الرفيقين العتيدين أو التعاطف مع الشاعر المنكوب، ما أصاب رحّال بالذهول هو تلك القدرة السحرية الجبارة التي جعلت معلومة عابرة تزلزل حياة شخص وتدمّره تمامًا. لم يكن يتوقع أنّ لتلك المعلومة الصغيرة التي ساقتها حسنية أمامه عرَضًا أثناء دفاعها عن ابن حارتها وفيق الدرعي وعن حقّه في كتابة الشعر بالطريقة التي يريد سيكون لها كل هذا المفعول. غير أنّ السر ليس في المعلومة، وإلا فهي ليست سرّا أصلا، فالعديد من الطلبة من أبناء حيّ المواسين يعرفون بأمر القرابة التي تجمع وفيق بابن خاله السرّاج. بيد أنَّ وضع هذه الورقة بين الأيدي

المناسبة في الوقت المناسب هو الذي أعطاها مفعول السحر.

***

ظل رحّال مذهولًا لأيام، مأخوذا بقوة مُنجَزه العجيب حتى أن حسنية لاحظت انخطافه وسرحانه أكثر من مرة. وفي آخر لقاء لهما بمكتبة الكلية بادرَتْه باحتداد:

- إذا كنت ستحضر إلى لقاءات المكتبة هكذا، مرفوعًا كشخص مُحشَّش، فالأفضلِ أن تبقى في الحلقات ولا تأتي هنا لتزيدني تشويشًا. فؤاد الوردي، أحد أعضاء مجموعة لبيد بن ربيعة، يشنّ علينا حربا شعواء بين الطلبة ويزعم أن بحثنا مسروق وأننا نضحك على المخلوفي وسنورّطه في فضيحة أكاديمية وأنت لستَ هنا. وللعِلْم، فالوردي يهدّد بأنه سيكشف المصدر الذي نسرق منه قريبًا.

كان رحّال قد تلقّى غمزا خفيفا بهذا الشأن من زميل آخر من مجموعة الأعشى، لكنه حمله على محمل الحسد المشروع في مثل هذه الحالات. لنكن واضحين، مجموعات من أربعة إلى خمسة طلاب من الذين تُسمَع أصواتُهم في الفصول والمدرّجات مستفسرين أو متدخّلين أو معقّبين يشتغلون على معلّقة واحدة ومازالوا يتخبّطون في الجزء الأول من البحث، ورحّال وحسنية اللذان لم يُشْهَد لهما نبوغ ولم تصدر عنهما نأمة في درس خلال كل السنوات الماضية يشتغلان على معلّقتين من أصعب المعلّقات ويتقدّمان في البحث

بهذا الشكل المريب. وكان يمكن لعملهما ألا يثير أي نقع لولا غباء المخلوفي الذي صار يفاخر بهما زملاءهم في كل لقاء أو ندوة. لذا من الطبيعي أن يتعرّضا للغمز واللمز. لكن أن يركّز معهما عنصر خطير مثل فؤاد الوردي، المحسوب على العدل والإحسان، بهذه الطريقة فهذا ما أفزع رحّال.

11

مباشرة بعد اختفاء وفيق الدرعي من المشهد، انتابَتْ رحّال حالة من الكآبة. فَهِم متأخرا أنه فقدَ شخصًا يعني له الكثير. يحسده طبعًا، يحقد عليه أحيانًا، يشعر في بعض الحالات بأنه لا يطيق حضوره، لكنه في قرارة نفسه كان يُحبه. كان وفيق صديقًا مقرّبًا جدًّا. صداقةٌ من طرفٍ واحد، لكنها صداقة عميقة زادتها المتابعة اليومية اللصيقة حرارة وتوهجًا. كان رحّال يجد متعة خاصة في مراقبة حركات وفيق وسكناته. صار يعرف عاداته جيدا: متى يدخّن، ومتى يغادر الحلقة إلى الكافتيريا. كما حفظ عن ظهر قلب مواعيده: متى يلج الكلية، ومتى ينصرف، متى يقف على هامش التجمع موزّعا الابتسامات على الرفيقات وشارات النصر على الرفاق بسخاء، ومتى يقرفص وسط الحلقة مركّزًا في النقاش. لذا حين اختفى وفيق، كان رحّال

من أكثر الطلبة إحساسا بفداحة هذا الغياب. ولأنَ الطبيعة تخشى الفراغ، كان من الضروري العثور على بديل مناسب.

صار رحّال يمل بسرعة من مداخلات الرفاق والإخوان على حدٍّ سواء، ويجد فيها الكثير من الحشو والكلام المكرور. عادةً ما يراقب المتحلقين في الساحة أكثر مما يستمع. يراقب الجميع دون استثناء: المتدخل منهم ومن ينتظر، المنصتُ والشارد، المؤمِّن على كلام الخطيب والممتعض. وبالتّدريج، بدأ يحسّ بانجذاب خاص نحو السلوقي. الرفيق - عفوًا الأخ - عزيز ليس شخصية جذّابة إلى هذا الحد، وليست له نفس الكاريزما التي كانت لوفيق ولا نفس القدرة على إثارة اهتمام الآخرين. على العكس، الرجل هشٌّ تبدو عليه أمارات الاضطراب وعدم الثقة في النفس. غير أنّ رحّال وجد مع ذلك في مراقبته بعض التسلية. فالطريقة التي يتربّص بها السلوقي بطرائده، والمهارة التي ينقضُّ بها على الكلمة كلما اصطاد نقطة نظام ثمينة: إشراقة عينيه، ثم تقدُّمه الحذِر خطوة وأحيانا خطوتين داخل الحلقة، إشارته المتضرّعة المُلِحّة للمسيّر لكي يعطيه الكلمة ولا يرده خائبا، ضعف مسيري الحلقات من مختلف الفصائل أمامه حتى أن الجميع صار يعرف بأن نقاط نظام عزيز مثل قضاء الله لا تُردّ، تحوّله من حالة التضرع والاستجداء التي يكون عليها وهو يتسوّل نقطة نظام من المسيّر إلى حالة التَّسامُق والاختيال المُتطاوِس التي ينقلب إليها ما إن يظفر بالكلمة، كل هذه العناصر

بدأت تسلّي رحّال وتخفّف عنه فداحة غياب وفيق.

كان رحّال مأخوذا أيضا بتلك المَلَكة الفطرية التي تجعل عزيز السلوقي من أقدر مرتادي حلقات الاتحاد الوطني على الفوز بصداقة الجميع. رفاقه القدامى في اليسار، إخوانه الجدد في "العدل والإحسان"، الإخوة الأعداء في "الإصلاح والتجديد"، وباقي مناضلي الفصائل الأخرى. حتى الطلبة يجترئون عليه أكثر ممّا يفعلون مع باقي المناضلين. فمقام المناضل محفوظ داخل المنظمة الطلابية العتيدة، لكن عزيز كان أقرب المناضلين إلى عموم الطلبة وأكثرهم تبسُّطًا مع الجميع. خبرة رحّال بالحيوانات جعلته يفهم سرّ هذه الألفة التي تميّز علاقة عزيز بالجميع. فالسلوقي حيوان أليف إلى حدٍّ كبير. حتى الجوارح من الطير، كالصقور مثلا، تألفه وتستأنسه خلال الصيد. لذا من الطبيعي أن يحتل عزيز هذه المكانة بين الطلبة. بل حتى رحّال الذي لا يكلّم أحدا، باستثناء قريبَيْه من القوارض، وجد نفسه قريبا من عزيز الذي تلطّف وذهب معه إلى أبعد من السلام في أكثر من مناسبة.

لهذا بالضبط فكّر في عزيز. فإذا كان السلوقي يصيد لغيره أكثر مما يصيد لنفسه، فلم لا يجرّب حظّه معه؟ قد يناله من طرائده بعض المغنم. ثم إنها فرصته الوحيدة ليردّ الصاع صاعين لصاحب لبيد.

***

لم يفهم عزيز السلوقي سبب دعوة طالبٍ خاملِ الذِّكر باهتِ الحضور مثل رحّال الغْوينة له إلى فنجان قهوة في كافيتريا الكلية. لكن طيبوبته وتواضعه جعلاه يلبِّي الدعوة بأريحية. كان رحّال متهيّبا من اللقاء. صحيح أنه في قرارة نفسه يحتقر عزيز ويعتبره كائنًا ناقص الهمّة، لكن هذا الأخير، على علّاته، يبقى شخصًا حيًّا يمارس سلوقيته في الجهر لا في السر، وحضورُه مشهود. أما رحّال، الصموت المنعزل، فهو يجد كل صعوبات الكون في ترتيب أفكاره علنا أمام الآخرين. لهذا لم يعرف لا كيف يبدأ ولا من أين.

- أخي الكريم، أنت تعرفني جيدا. اعتبرني صديقا لك. وتأكّد من أنني سأكون بعون اللـه بجانبك. فأخبرني ماذا تريد بالضبط؟

لم يعرف رحّال كيف يجيب عزيز الذي بدأ يضجر من تلكّئه. كان رحّال يرشف قهوته على استحياء وعيناه إلى الأرض. عزيز يسترق النظر إلى ساعته بضجر، فالعصر قريب. والإخوة قرّروا الالتقاء في مسجد الكلية والقيام بإنزال جماعي إلى الحلقة مباشرة بعد صلاة العصر لتسفيه قرار الرفاق القاضي بتحرير الكافيتريا من ربقة إدارة الكلية وتكليف بعض مناضليهم القدامى الخارجين للتوّ من السجن بأمر تسييرها وتدبير أمورها التجارية والإشعاعية، وهم في هذه الأثناء بصدد عرض دفتر التحملات الخاص بهم الذي يحدد كل شيء من الثمن الجديد - المُخفّض طبعا - للقهوة والشاي

والمشروبات الغازية، إلى موعد الإغلاق المقترح الذي سيمدّد نشاط الكافيتيريا إلى الثامنة مساء، أي ساعتين بعد انتهاء الدروس. بالإضافة إلى لائحة الأشرطة الغنائية والموسيقية المسموح بها داخل المقصف الجامعي والتي تضمّ فيروز ومرسيل خليفة وأحمد قعبور وفرقة العاشقين والشيخ إمام وسعيد المغربي وخالد الهبر وأبو عرب ومجموعات الطريق العراقية والبحث التونسية وألوان المراكشية. وسيحاول الطلبة الإسلاميون، في حال فشلهم في نسف المشروع من أساسه، الدفاع باستماتة خلال حلقة هذه العشية على نوع من الكوطا الفنية تسمح برواج بعض الأناشيد الإسلامية داخل الكافتيريا إلى جانب اختيارات اليساريين. المعركة مصيرية، وعزيز مشغول بها وبخطورة أبعادها وليس لديه الكثير من الوقت ليُضيّعه مع سنجاب خامل.

- أخي عزيز، سأبدأ من الأخير.

فاجأه السنجاب بصوت مرتعش لكن واثق مع ذلك في نفس اللحظة التي كان عزيز سيُعلن عن تبرُّمه مقترِحًا تأجيل اللقاء.

- تفضّل أخي الكريم..

- أنت تعرف مدى احترامي لك وتقديري لشخصك. أحب تواضعك وأعتبرك أخا لي رغم أننا لم نتبادل الحديث إلا مرّات قليلة. لكنك شخص محبوب كما تعلم.

- العفو أخي الفاضل، العفو، العفو..

- لهذا بالضبط حرصت على إخبارك بما تناهى إلى علمي لأنه يعزٌّ عليَّ فعلا أن يصيبك مكروه.

بدأ عزيز ينزعج أكثر. وبقدر ما كان صوت السنجاب يتعبّأ بالتدريج بشحنات الثقة، كان السلوقي يتهاوى من الداخل.

- نعم آ خويا. اللـه يسمّعنا خير.

هنا سيحكي له رحّال كلّ شيء: كيف قادته المصادفة وحدها إلى مجلس سرّي للقاعديين تحدثوا فيه عن العناصر المشبوهة التي زرعتها المخابرات وسط الجسد الطلابي.

- وإذا كانوا قد كشفوا أمر وفيق الدرعي، يضيف رحّال، فإنهم يشتبهون في عنصر آخر في صفوفهم سيعلنون عن اسمه قريبا وسيطردونه من الفصيل بعد محاكمته جماهيريا. لكن ما يهمني في هذا الأمر هو ما سمعته منهم بخصوص تنظيمكم. فقد قالوا إن المخابرات نجحت في تجنيد طالب من المتعاطفين معكم اسمه فؤاد الوردي وأن المهمة التي أسندت لهذا الأخير هو التشويش على فصيلكم بإشاعة أخبار تتهم أحد مناضلي العدل والإحسان بالعمالة للمخابرات. ويبدو، حسب مصادر القاعديين دائما، أن المدعو فؤاد الوردي قد استقر رأيه عليك، والظاهر أنه بدأ على مستوى ضيق ومحدود في الترويج لإشاعة تفيد بأنك مدسوس على الفصيل الإسلامي.

وكان هناك من بين القاعديين من اقترح في البداية تنبيهكم في إطار الأخلاق النضالية التي يجب أن تسود بين مختلف الفرقاء، لكن الأغلبية استندت على الموقف المبدئي للقاعديين الذي يرى أن المخزن والظلام وجهان لعملة واحدة، وهكذا فضّلوا التفرّج على المؤامرة وهي تُحاك ضدّك بدل تنبيهك وتنبيه فصيلك.

لم يعد عزيز السلوقي قادرا على التركيز. شرعت الأرض تدور به. فقدَ الشايُ طعمه في فمه. وبدأت الأناشيد الإسلامية تغلي في رأسه ومعها أغاني مرسيل خليفة والشيخ إمام. سند رأسه بكلتا يديه كأنما ليمنعه من التداعي على الطاولة، مما منح رحّال ثقة أكبر في النفس:

- لم أقل لك هذا الكلام يا صديقي لأشوّش عليك. لكنك أخ عزيز أحبه في اللـه، ولست شيطانا أخرس لأعلم بكل ما يُحاك ضدك في الخفاء وأسكت. لهذا بالضبط أخبرتك وأنا واثق من حكمتك ومن أنك ستعرف كيف تتغدى بالمخبر الحقير قبل أن يتعشى بك.

ولأنه "رحم اللـه من عمل عملا فأتقنه"، فإن رحّال لم يتوان في إشعار الرفيقين مراد والمختار بما نمى إلى علمه من أن طلبة العدل والإحسان كشفوا هم أيضا طالبا مشبوها في صفوفهم اسمه: فؤاد الوردي. هكذا ما إن شرع السلوقي في حملته لاهثًا من مجلس إلى مجلس محذّرًا من فؤاد الوردي ومبلغًا عن مخططه الجهنمي، حتى

تواترت أخبار موثوقة من جهة الرفاق تؤكّد الخبر وهو ما اعتبره عزيز "فتحا من اللـه ونصرا مبينا". هكذا ظهر الحق وزهق الباطل بعدما انتصرت داخل معسكر الرفاق، على ما يبدو، الأطروحة التي تطالب بفضح عملاء المخابرات كيفما كانوا وحتى لو كانوا موجهين ضد الخصوم الفكريين والسياسيين.

لكن رحّال سيفاجأ بأن نظام العقوبات داخل الفصائل الإسلامية يبقى أقل قسوة مِنهُ لدى مثيلتها اليسارية. فعلى الأقل وجد الوردي من يدافع عنه بين الإخوة مستشهدا بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. وهناك من طالب باستبعاده من مجالس النصيحة وتجنّبه في الحلقات لكن دون تشنيع عليه مستشهدا بحديث شريف رواه ابن ماجة: "من ستر عورة أخيه المسلم ستر اللـه عورته يوم القيامة". هكذا لم يُشنَّع بفؤاد الورديِ ولا طارَدَتْهُ لجن اليقظة داخل الكلية، لكنه بالتأكيد وجد نفسه يعيش محنةً لم يدْرِ أيّ ريح هبَّت بها عليه. والمؤكد أن محنته الجديدة، التي لم تكن لا على البال ولا في الخيال، شغلته تمامًا عن مواصلة التحقيق في ملف رحّال الغْوينة وزميلته حسنية بن ميمون والتنقيب عن مصدر بحثهما المسروق.

12

لم يكن رحّال طالِبَ مجدٍ ولا صاحِبَ طموح. فالفتى غادر الكلية مطرودًا لولا الأقدار الرحيمة التي أعادت إلى قلبه الأمل، فغيّر الشعبة ووجد في الأدب العربي الحضن الدافئ والعزاء عن دوخةَ الخرائط والتواريخ. وها هو اليوم على مشارف الإجازة التي يريد الحصول عليها كباقي الخلائق ليفخر به والده عبد السلام، هذا الرجل الذي لم يذق طعم الفخر طوال حياته البائسة.

كان رحّال يشعر على الدوام بأن نحسًا يطارد أسرته وقبيلته منذ أول الدهر. تكفي حكايات الجفاف ونفوق البهائم وقصص الأوبئة التي ظلت تتعاقب على دوّارهم في بادية عبدة منذ فترة الاستعمار التي عاشها عبد السلام وحكى عنها بالتفصيل الممل. تكفي معاناتهم

مع القيّاد الغلاظ الشداد. دواوير عن بكرة أبيها تُباد أيام السيبة بلا حسيب ولا رقيب، أو تشرّد فقط لأن أحد أبنائها أساء الأدب في مجلس القايد أو لأن إحدى بناتها من شيخات ذلك العصر جرفها الشجن أثناء الغناء إلى ما اعتبره القايد تعريضًا به ونيلًا من هيبته. يتذكّر قصة خربوشة الزيدية زينة الشيخات وشهيدة عبدة مع القايد عيسى بن عمر، وبطش القايد الجبار بهذه الشيخة المتمردة ذات العيطة الشهيرة "بغيت السِّيبة ما بغيت احكام" وبقبيلتها أولاد زيد. هذا كل ما يجيده عبد السلام ويتألق فيه: سرد حكايات الأوبئة والمجاعات، والتفنن في وصف بطش القياد وغارات زمن السيبة.

كان رحّال يحس بأن أباه يسرّ في أعماقه أضعاف ما ينوء به جسده من أعطاب وأضعاف ما تلوح على صفحة وجهه من انكسارات. ولم يعرف حتى الآن كيف يعيش هذا الرجل الطويل النحيل العليل راضيا هانئا كأنه يرفل في النعيم. من البيت إلى المسجد ومن المسجد إلى البيت. أحيانا يتحلّق مع المتحلّقين عند سور مستوصف الحيّ ليتفرج على لعب الورق والضّامة في المساءات، قبل أن يعود إلى الدار سعيدا كما لو كان على سفر. هكذا يتحرك عبد السلام وفق خريطة صغيرة محدودة، لا ينتظر أحدًا ولا يتوقّع جديدًا. يأكل القوت وينتظر الموت في هدوء وسكينة. وكأن الحياة مسألة لا تعنيه. هل مات الرجل؟ هل مات قبل أن يموت؟ هل قضى دون أن يدري؟ هل تآلف مع عناكب النحس التي عشّشت في خاطره؟ أحيانًا كان

رحّال، كلما شــطّ به الخيال قليلا، يقارن بين أبيه والمخلوفي. لكن ذلك لا يستقيم. إذ لا مقارنة مع بيان الفارق. مع أن الرجلين معًا من أصول قروية فقيرة، ومعًا حفظا القرآن في آخر سنوات الاستعمار الفرنسي بزاوية "سيدْ الزّوين"، في نفس المدرسة القرآنية العتيقة. فلماذا كافح المخلوفي وتحدّى قدره ومصيره ليجد نفســه في النهاية أستاذا بكلية الآداب بجامعة القاضي عياض؟ ولماذا عاد عبد السلام بعدما حفظ القرآن والمُتون ومختصر الشيخ خليل إلى الدوّار ليفلح أرضًا خاصمها المُزن ويربّي شياهًا كانت ريح النّفوق أقرب إليها من كلِّ ريح؟ وحين توالت سنوات الجفاف لم يجد غير الهرب إلى مراكش ليحشــر زوجته وطفله في غرفة صغيرة اكتراها بســكن عشــوائي بـ"عين إيطّي" غير بعيد عن مقــرّ عمله الجديد: مقبرة باب الخميس الممتدّة على ضفة وادي إيســيل قرب القامرة. هناك كان عبد الســلام يقرفصُ يوميًّا بباب المقبرة التي لم تُفتَح في وجه الجنائز إلّا في أربعينيات القرن الماضي بعدما نذَرَتْها امرأة مؤمنةٌ صدقةً جارية ووَقْفًا للمسلمين ومقبرةً تضمُّ رفاتهم. حين يشتدّ الحرّ، كان عبد الســلام يســتجير ببومهدي حفّار القبور الأخرس ليفيء إلى جانبه في مُتّكَئِه تحت الجذع الضخم للضِّروةِ المُتشقّقة القشورِ التي تتوسّــط المكان؛ الفيء الوحيد المتاح وسط مقبرة جرداء كلُّ نباتها نُخيلات فارعة متفرّقة، شجيرات سدر قصيرة، نبات شوكي وبعض الصبّار. كان بومهدي يفلح في السّرّ حقلًا صغيرًا في آخر

المقبــرة يغرس فيه القرع الأحمر. وما إن ينضج القرع حتى يهيّئ له "فَرْشَــةً" عند ســور المقبرة فيبيعه للعابرين. مرارًا يخرج إلى فَرْشَتِهِ ويترك عبد السلام متكئًا تحت جذع شجرة الضّرو. يوصيه بأن يأخذ باله من المقبرة، ويناديه إذا ما هلّ الحارس - الغائب على الدّوام - فجأةً أو حلّت جنازةٌ بالمكان وســها الأخرس عن دخولها، رغم أنّــه كان حريصًا على مراقبة باب المقبرة وهو أمام فَرْشَــة القــرع الأحمر. وســواء كان في مقبعه أمام بــاب المقبرة، أو في متّكئه تحت الشــجرة، كان عبد السلام يقف كلما حلّ بالمكان زائرٌ. يتعقّبه بهدوء إلى القبر، وما إن ينخرط الزائر أو الزّائرة في مناجاة القريب الفقيد والعزيز الغائب وذرْفِ بعض الدموع عند قبره حتى يرتفع صوت عبد السلام الناشز بالتلاوة: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَــلِين ۝ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُــمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَــدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَــوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُــمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِــيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

كان الأجر بالضبط ما يهُمّ عبد السلام، رغم أن الأجر في المقابر لم يكن كريمًا كما في الآية. لذا ما إن يمدّ له الزائر يده بما

قسَّم اللـه حتى يشهق بالختم (صدق اللـه مولانا العظيم). يطلقه بصوت دافئ رخيم يختلف كثيرا عن الصوت الناشز الغليظ الذي يتلو به القرآن في العادة. ثم يعود إلى مجلسه بباب المقبرة أو تحت شجرة الضِّرو في انتظار زبون آخر. أمّا الجنازات فكان عبد السلام يتحاشاها، لأنّ كلّ مقرئي المقبرة يحتشدون أمام القبر ساعة الدفن. وحين يتلقّى أحد عمداء المقرئين الأجر من أقارب الميت بعد انسحاب المشيّعين نادرًا ما كانت تلك "البركة" توزَّع بينهم بالقسطاس. وعموما، عبد السلام غريب عن المكان. يحس نفسه غريبا عن مقبرة باب الخميس حتى بعد أن سلخ بين قبورها ما يناهز العقدين. لذلك ظلّ يتحاشى الجنازات ويفضّل الزوار الانفراديين الذي يجلسون إلى أحبتهم الغائبين لدقائق، فمصاحبتهم ببضع آيات من سورة يس ينذرون ثوابها لموتاهم أسلم وأغنم.

***

لا يجد رحّال تفسيرا لكل الهزائم التي حاقت بأهله وعشيرته، منذ أيام السّيبة وحكم القياد حتى اليوم، سوى النحس. نحسٌ ما يطاردهم ولا سبيل إلى الفكاك منه. عمه عيّاد مثلا نزح قبل عبد السلام إلى المدينة، إلى آسفي حاضرة عبدة أولًا، ومنها إلى الحمراء مراكش. وهو الذي أوحى لأبيه بفكرة الهجرة أصلا وحرّضه عليها. عيّاد جاء إلى مراكش أول مرة رفقة صديق له اسمه البشير، ولد البلاد،

من دوّار مجاور لدوّارهم. اشتغلا معا بالبناء، حتى أن عيّاد كان يفخر دائما بمساهمته في تشييد بنايات كليتي الآداب والحقوق بجامعة القاضي عياض، وباشتغاله في ورش بناء قصر المؤتمرات بشارع فرنسا. كل هذه المنجزات لا تعني شيئا في الحقيقة. فصديق عمره تدرّج في المهنة واستوعب أسرارها بسرعة وبدأ يفك بالكثير من النباهة رموز المهندسين المعماريين ويقرأ تصاميمهم ليتحوّل مع بداية التسعينيات من القرن الماضي إلى مقاول بناء، فيما ظلّ عيّاد مجرد عامل مُياوم في أوراش صديقه.

ولأن عيّاد لم يكن راضيا تمام الرضا بالقسمة والنصيب، فقد ظلّ يردّد في الدوّار أنه اليد اليمنى للبشير وأن هذا الأخير لا يقدم على مشروع إلا بعد استشارته، بل ينسب في مجالس الدوّار كل ما حقّقه البشير من نجاح إلى شطارته هو. لكن الحظّ ابن حرام. أما في العمل فقد ظل عيّاد يتسلى خلال فترات الاستراحة في الأوراش بسرد حكايات أيامهما الأولى في مراكش على باقي العمال، أيامَ كان المعلم البشير لا يملك عشاء ليلة. أحيانا، تأخذه العزّة بالحكي، فيستعيد أمامهم مغامراتهما الجنسية الأولى مع عاهرات مراكش، وكيف كان هو والبشير يكرعان كؤوس ماء الحياة خلال تلك السهرات حتى يصير ليلهما نهارا فتبدو لهما ضيفاتهما البائسات المستجيرات بدَوْرِهنّ بليل المدينة من جفاف القرى المجاورة صبايا حسان من بنات الشّان والمرشان.

كانت أصداء قصص عيّاد تجد دائما من يتطوّع لإيصالها للبشير الذي فهم أن صديقه القديم لا يبدو مستعدا للتأقلم مع الوضع الجديد وأنه يتفنَّن في تمريغ صورته في وحل الذاكرة. هكذا كان الطلاق بين الاثنين ليجد عيّاد نفسه عامل بناء مع وقف التنفيذ: يقف كل صباح بـ"الموقف" منتظرا الذي يأتي ولا يأتي. من يحتاجه في ترميم حائط من حيطان دروب حيّ "الموقف" المتداعية أو سقف من سقوف منازله المتصدّعة، أو من يطلب منه ضرب المرطوب لغرفة صغيرة متهالكة ليُخفي تشقّقاتها ويطيل أمد تماسُكها ولو إلى حين. وحين لا يأتي أحد، يذهب عند عبد السلام ويقوده باتجاه سور المستوصف ليتابعا معا لاعبي الورق والضامة. هناك دائما رابح وخاسر. واللاعبون يتبادلون الأدوار. فقط عشيرَتُهم قُدِّر عليها الخسران الأبدي. إذ يبدو أنّ العلي القدير، لحكمةٍ في طيّ الغيب، كتب على أولاد الغْوينة أن يلعبوا دورا واحدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

13

في سنته الجامعية الأولى، سينتقل رحّال وأسرته من حيّهم العشوائي بعين إيطّي إلى حيّ "الموقف" بالمدينة القديمة. كان ذلك أشبه بحلم بالنسبة لعبد السلام الذي لم يكن يتوقّع كل هذه الشهامة من أخيه. لكن عيّاد الآن فقد عمله مع البشير. والبيت الذي اشتراه منذ عقدين وسط "فندق" شعبي كان يُؤْوي في السابق بعض الصُّناع التقليديين قبل أن تحوِّله العشوائية وجشعُ مالكه إلى تجمع سكني يضمّ أحد عشر مأوى. هذا البيت المكوّن من ثلاث غرف ومطبخ ومرحاض فاض عن حاجة عيّاد وبدأ يشعر داخله بالضجر هو الذي أنساه التنقل بين الأوراش وأحضان العاهرات أن يُكوِّن أسرة تملأ عليه الحياة. والآن بعدما طُرِد من عمله ووجد نفسه رهين

التعاسة والوحدة والملل، فكّر بأن الحل الوحيد أمامه لكي يستعيد بعض توازنه هو أن يملأ البيت. ليس بزوجة، فهو غير قادر في ظل ظروفه الجديدة على تلبية متطلبات الزّواج. لهذا بالضبط انتهى إلى استقدام عبد السلام وأسرته. سيكون العيش وسط هذا الجُحر بالنسبة إليهم نعمة لا مجال لمقارنتها بحياتهم المقرفة وسط عشوائيات عين إيطّي، فيما سيسعد هو بجوارهم وسيضخّون بعض الحيوية في يوميِّه الرتيب. وكذلك كان. وجد عبد السلام وأسرته أنفسهم يقتسمون مع عيّاد بيته في زقاقٍ ترفض السلطات المختصة تزويده بالإنارة بدعوى عشوائية البناء فيه رغم أنه قائم حسب سكانه الأقدمين منذ أكثر من قرن، ورغم أن السلطات نفسها سبق لها أن زوّدته في السبعينيات، لاعتبارات انتخابية على الأرجح، بالماء الصالح للشرب وشبكة الصرف الصحي.

كان الزقاق مفتوحا على ساحة رحبة دائمة الاكتظاظ بعدما تمَّ تحويلها هي الأخرى إلى سوق لبيع الخضر والأسماك. وعلى الجانب الأيمن من الساحة كان عيّاد يصطفّ إلى جانب عدد من الصناع والحرفيين بأدواتهم البسيطة في "الموقف" الشهير الذي أخذ الحيُّ اسمه، ينتظرون من يدعوهم إلى مهمة تقنية صغيرة قد لا تأخذ من وقتهم أكثر من ساعة أو ساعتين، أو عمل أهم لا يمكنه أن يتجاوز الثلاثة أيام في أحسن الأحوال.

كان بيت عيّاد قد تمّ إحصاؤه من طرف وزارة الإسكان ضمن المنازل الآيلة للسقوط بالمدينة العتيقة. ولأن عملية الإحصاء هذه لم تتلها أيّ خطوة جدّية تفتح السكان على حياة جديدة، بادر عيّاد إلى إجراء بعض عمليات الإصلاح والترميم على البيت من الداخل سرًّا ودون إشعار المسؤولين أو طلب ترخيص بذلك، والآن صار يحس أنه يسكن في بيت محترم يليق بسمعته كعامل بناء وليس في سكن عشوائي. رحّال هو الآخر أحس سريعا بالفرق. هو الذي كان يعبر قنطرة وادي إيسيل ويقطع باب الخميس في طفولته الصعبة باتجاه إعدادية عبد المومن المجاورة لِحَيّ الموقف، وكان يغبط أبناء هذا الحيّ على انتمائهم لمراكش وعلى سكنهم في قلب المدينة الحمراء، صار اليوم منهم. يعيش في قلب المدينة، ويمكنه منذ الآن أن يعتبر نفسه من أولاد قاع السور ويقدم نفسه للآخرين كمراكشي، من أبناء حيّ "الموقف" العريق.

بدأ بعض شباب الدرب يحتجّ في السنوات الأخيرة على أوراش النجارة التي تخنقهم وتمنع أسرهم من فتح النوافذ لأخذ حصتهم من أشعة شمس مراكش الدافئة في الشتاء القارس. كما احتجوا على المشتغلين بصناعة نقش العظام المنتشرين بشكل مخيف في حيّهم خصوصا بعدما نُشرت تقارير أفادت بأن هذه الصناعة تخلف تلوثا بيئيا خطيرًا. وبعضهم كان يطالب بنقل دار الدباغ خارج حيّ الموقف، فالروائح الكريهة المنبعثة من صهاريج الدباغين تزكم

الأنوف، والمواد الكيماوية التي تستعمل في دبغ الجلود بدأت تثير مخاوف الجمعيات البيئية في المدينة. فيما انبرى بعض الشباب إلى التظاهر من حين لآخر ضد الخضارين وبائعي السمك الذين حوّلوا حيهم إلى مزبلة تعجّ بالنفايات. لكن رحّال ظل بعيدا عن كل هذه المعارك، حتى بعدما صار مدمنا على حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. فهو غريب عن الحيّ في كلّ الأحوال، ثم إنه ظل أسير المقارنة ما بين شروط عيشهم الجديدة في الموقف وانحطاط الحياة في عين إيطّي، ويحمد العلي القدير على النقلة التي عرفتها حياتهم بفضل كرم العمّ وأريحيته.

14

لم ينتبه رحّال للتقطيبة الخفيفة التي عَلتْ جبين حسنية الضّيق وهو يخبرها بأنه "ولد الموقف" خلال اجتماعهما الأول بمكتبة الكلية. عمومًا تقاطيع وجه حسنية ممحوّة تمامًا ومن الصعب على أيٍّ كان أن يقرأ أفكارها من خلال وجهها الخالي من السِّمات. لكن رحّال لم يحمل، مع ذلك، انتسابها إلى حيّ المواسين على محمل الجد. فالسنوات الثلاث التي كرّر خلالها المستوى الأول بشعبة التاريخ والجغرافيا جعلته يأخذ حظه في الاستمتاع بمحاضرات يحيى المواسني عن تاريخ مراكش من زمن المرابطين حتى بداية القرن العشرين. وكان تركيز الدكتور المواسني، أحد أبرز أساتذة الكلية وأكثرهم ظهورا على شاشة التليفزيون، على حيّه العريق

خلال المحاضرات أمرا طبيعيا. فالمواسين بالنسبة إليه من أهم أحياء مراكش وأعرقها. ألم يكن امتدادا للحيّ الملكي المرابطي الذي وُجد به قصر الحجر؟ ألم يكن أحد أهم أحياء المدينة السلطانية التي شيّدها المرابطون قبل أن يعمد الموحدون فيما بعد إلى تخريب قصر الحجر ونقل دار الإمارة إلى قصبة "تامراكشت" وفصل حيّ القصبة، إقامتهم السلطانية الجديدة، عن المدينة المرابطية بأحيائها وأسواقها وحِرفيّيها بمنطقةٍ حرامٍ وأرض جرداء واسعة سمّوها جامع الفنا؟

لا، لم يكن في لكنة حسنية ولا في هيئتها ولا في حضورها ما يفيد أنها من بنات القاع والباع ممن يمكن لتاريخهن الشخصي أن يضرب في عمق هذا التاريخ السلطاني. لكن ماذا عن لقبها العجيب "بن ميمون"؟ تبًّا، كيف فاته هذا التفصيل؟! كان الحيّ يسمّى في زمن الموحدين "حارة أبي عبيدان" اليهودية، وظل كذلك إلى حدود القرن السادس عشر الميلادي. بل إن الأستاذ يحيى أخبرهم مرة بأن تسمية الحيّ بِـ"المواسين" تنسب حسب بعض المؤرخين إلى سوق قديم معزول كان خاصا بثلة من الحرفيين اليهود يصنعون فيه السكاكين والخناجر ومختلف الأسلحة البيضاء وخاصة "الموسى"، فسمّي الحيّ بالمواسين نسبة إلى شاحذي الأمواس به على وزن الصبّاغين واللّبادين والعطّارين وغيرها من أسماء أسواق مراكش العتيقة.

هل كان جدها الأول ابن ميمون أحد هؤلاء الموّاسين؟ لعله ظل يعيش مُتخفّيا داخل الحيّ حتى شحذَتْ عتمة الدهاليز الملامح من وجهه ووجوه سلالته. هل رفض ابن ميمون الامتثال لقرار السلطان الغالب بالله السعدي القاضي بترحيل كل يهود حارة أبي عبيدان إلى حيّ الملاح الذي أمر السلطان ببنائه ليحتضن كل يهود المدينة الذين كانوا موزّعين في السابق على مختلف الحومات؟ هل فضّل العيش متخفّيا في الحيّ السلطاني الجديد قرب مقبرة أجداده، يشحذ أمواس المسلمين في الخفاء ويرقب مسجد الأشراف يُبنى فوق مقبرة الأجداد وإلى جانبه المارستان وسقاية المواسين الشهيرة؟ لعله تابع من مكمنه في أحد الدروب الخلفية للحيّ الجديد صراعات بعض أهل الورع مع فقهاء البلاط المريني بعدما تمّ بناء المسجد وانطلقت الصلوات فيه وبدأ صوت مؤذنه يطغى على أصوات باقي مؤذني المدينة. لاشك أن الدعوة إلى اجتناب الصلاة في مسجدٍ كان في الأصل مقبرةً لليهود صادفت هوى في نفس ابن ميمون.

آه يا حسنية؟ هل يمكن أن يكون الأمر كذلك؟ لا يحتاج رحّال في الكثير من الحالات إلى من يؤكّد له معلومة ما. يكفي أن تقدح الفكرة في ذهنه وتصادف هوى في نفسه حتى يؤمن بها وتصير بالنسبة إليه بديهية من البديهيات. لكن مع ذلك تبقى حكايات الأصل والفصل والانتماء الديني والعقدي والخط الفكري والإيديولوجي

مجرد تفاصيل أهميتها محدودة جدا بالنسبة لرحّال، فما يهمه هو سبر أغوار الحيوان الرابض داخل الكائن، وهذا بالضبط هو مصدر حيرته وقلقه في علاقته مع حسنية.

للحقيقة يبقى انتماء حسنية إلى حيّ المواسين أمرا يدعو للفخر. فرغم أنها ليست لا من درب الشرفاء الكبير ولا من درب الشرفاء الصغير، بل من زقاق مغمور في الحي، إلا أن مقامها يبقى محفوظا مع ذلك. فبالنسبة إلى سليل إحدى قبائل عبدة الفقيرة، الذي يشعر باعتزاز فقط لأن أهله تمكّنوا أخيرا من إيجاد موطئ قدم داخل تجمع سكني عشوائي بأحد "فنادق" حيّ الموقف، يبقى سكن زميلته حسنية متميزا. فهو لا يبعد كثيرا عن "رياض السي عيسى" دار قايد عبدة والشياظمة واحمر، عيسى بن عمر حاكمهم الفظ الشديد. ويكفي حسنية شرفا مثل هذا الجوار العتيد.

لهذا بالضبط، كان رحّال يحرص على إرضاء حسنية والبقاء دومًا عند حسن ظنّها. وما إن شاع خبر عمالة فؤاد للمخابرات وافتضح أمره في أوساط الطلبة حتى جاءها هاشًّا باشًّا بالخبر. لكن حسنية استقبلته ببرود، وأجابته بنبرتها الصارمة وهي تتفادى النظر إليه كالعادة:

- الآن فقط علمتَ بذلك؟ مسكين، دائما مقلوبة عليك القفّة. أنا التي لا أغادر مكتبة الكلية علمت بالخبر منذ أسبوع، ولهذا

لم أعد مشغولة بتهديدات فؤاد. ولهذا أيضا لم أعد أفاتحك في هذا الموضوع. فهمت أن اللـه ضِربه من عنده واعطاه فاش يغرق. لكن باللـه عليك، أنت الذي تتنطّط صباح مساء في حلقات المشعوذين، ها القاعديين، ها العدليين، ها القرينة الكحلا، عاد فقت من النعاس؟ عاد وصلاتك لْخبار؟

بدأ رحّال يعتاد هذه النبرة من حسنية. هو لا يذكر متى بدأت زميلته الضئيلة تتجرأ عليه بهذه الطريقة؟ لكن هذه النبرة صارت مألوفة لديه. بات يتقبلها بالتدريج. بضيق وتبرّم. بنوع من السخط الصامت. لكنه لم يكن يعلّق أو يحتج. وحسنية بدورها لم تكن تتردد في انتقاده والانتقاص منه وتسفيه أفكاره ومقترحاته بمناسبة أو من دونها. والغريب أنه لم يكن يرد. تُصيبه أمامها حالة من الخرس لم يجد لها تبريرًا. ينتابُ سنجابَهُ إحساس غريب بالضعف أمام حيوانها المُتخفِّي.

رحّال ليس غرًّا ليحكي لها قصة فؤاد من أوّلها ويشرح ضلوعه في ما حدث. ثم هي في جميع الأحوال لن تصدّقه. لذا لزم الصمت، وتركها تقرّعه قليلا قبل أن يجلسا لمراجعة الفصل ما قبل الأخير من البحث، فأمامهما ساعتان فقط لإلقاء نظرة أخيرة عليه قبل تسليمه للأستاذ المخلوفي خلال ندوة البحوث التي ستجمعهما به على الساعة الخامسة بمدرج شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم.

ورحّال ينتظر هذه الندوة بالذات على أحر من الجمر فقط ليطمئن على زملائه الأعزاء في مجموعة لبيد بن ربيعة العامري وعلى قائدهم وحامل لوائهم فؤاد الوردي رغم أنه يشك في أن فؤاد، بعد فضيحته المدوية، سيجرؤ على حضور الندوة من الأساس.

15

لم ينتبه فؤاد الوردي إلى وجود رحّال على خارطة الحياة إلا مؤخّرا، حين بدأ المخلوفي يبالغ في الإشادة به وبزميلته. أطال التحديق في وجه رحّال، فأثار انتباهه الخجل المَشُوب بمسحة امتعاض ترتسم على ملامحه كلما أطرى الأستاذ عمله. لم يكن خجلَ العفيف المتواضع، بل خجلَ المُريبِ يكادُ يقول خذوني. "ثمّة خللٌ في الموضوع"، فكّر فؤاد الذي وجد هذا الوجه السنجابي مألوفًا. أحد وجوه الظل التي كانت دائما هناك دون أن تثير فضوله. وجه مألوف في الفصول والمدرجات، دائم الحضور في حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. لكن لم يسبق له أن تدخّل لا في درس ولا في حلقة. لذا حين صار المخلوفي يجلدهم في الاجتماعات بإشادته المُتكرِّرة بالفتح المبين الذي جاء به رحّال وحسنية، طلب فؤاد من

الأستاذ تمكينه من فصل واحد على الأقل من بحثهما ليأخذ فكرة عن طريقة العمل لدى زميلَيْه. من يدري؟ قد تستفيد مجموعة لبيد من منهجهما في البحث وتصميم الفصول وأسلوبهما في الصياغة. ولثقة الأستاذ في فؤاد، سَلّمه نسخة من آخر فصل أنهى مراجعته دون أن يضع عليه خطّه الأحمر إلا في موقعين اثنين نبّه فيهما إلى استطرادين يُمكن التخفُّف منهما دون أن يؤثر ذلك على تماسك الفصل. ولأن فؤاد ليس مغفّلا مثل أستاذه، حدس منذ الصفحة الأولى الصياغة المشرقية للبحث وتأكّد من أن المخلوفي جاهل جهول، فالعمل الذي بين يديه منقول منحول.

رحّال بالمقابل لم ينتظر واقعة البحث ليعرف فؤاد. فهو يتابعه منذ سنتهما الأولى بشعبة الأدب العربي. لم يكن فؤاد قد انتظم بعد داخل فصيل العدل والإحسان، لكنه كان طالبا متّزنا حريصًا على مرجعيته الإسلامية يحيل عليها بمناسبة ومن دونها. وكان أستاذ المناهج النقدية الشاب جلال الرّندي المعروف بنزوعه اليساري ينزعج كثيرا من تدخلات فؤاد المتهافتة التي يريد أحيانا أن يؤصّل بها للبنيوية في الإسلام، أو أن يفضح من خلالها الخلفية الإلحادية للماركسية مع أن النقاش نقاش مناهج لا عقائد. لكن جدّية فؤاد كانت تشفع له. مع أن الأستاذ جلال كان أحيانا يؤاخذه على هذه الجدّية بالذات، ويقول له: "أنتَ شابٌّ يا أخي، فلماذا تتكلّم برصانة أساتذة مدرسة ابن يوسف للتعليم العتيق؟".

مداخلات فؤاد في حلقات الاتحاد الوطني بدورها جعلته يحظى بالاحترام منذ سنته الأولى. ومع أنه لم يكن مواظبا على الحلقات، إلا أن مداخلاته النادرة كانت قوية بما يكفي لتجعله مثار استقطاب الفصائل الإسلامية من عدل وإحسان، وإصلاح وتجديد، وحتى بعض الجماعات السلفية التي اعتزلت اتحاد الطلبة وحلقاته، لكنها ظلت تتابع الساحة عن كثب. وفي سنته الجامعية الثالثة انتظم فؤاد مع العدل والإحسان دون أن يغيّر الكثير من عاداته. إذ ظلت تدخلاته في الحلقات محدودة وظل حريصا على محاضراته أكثر من حرصه على أي شيء آخر.

وحين اختار فؤاد أن يسجل بحث الإجازة مع الأستاذ بوشعيب المخلوفي لم يفعل ذلك عن ضعف أو قلة حيلة. فهو ليس من صنف الطلبة الذين يريدون تلفيق بحث كيفما اتفق والحصول على 17 كنقطة لا ينزل عنها المخلوفي عندما يلتزم الطالب بندواته المملة بغضّ النظر عن جدية البحث وقيمته. فؤاد في الحقيقة التجأ إلى المخلوفي مستجيرا به من أساتذة المناهج والرواية الحديثة والشعر المعاصر اليساريين ممن خبر خلال السنوات التي قضاها طالبا لديهم كم انحرفوا بالأدب عن وظيفته السامية. عرف فؤاد أن العمل مع جلال الرّندي وأمثاله سيكون صعبا وقد يفتحه على صراعاتٍ هُوَ لَها في المُدرّج طبعا، لكنه في غنًى عنها والأمر يتعلق ببحث

سيناقَش في نهاية السنة ونقطتُه قد تكون حاسمة لضمان الحصول على الإجازة بميزة.

وحينما شرع المخلوفي في تقديم لائحة شعراء المعلّقات في بداية السنة لم يختر فؤاد زملاءه ولا فكّر في مدى انسجام فريقه. كان حريصا فقط على الفوز بلبيد بن ربيعة، ليس إعجابا بمعلّقته ولكن حبًّا في هذا الصحابي الجليل الذي عُدَّ من المؤلّفة قلوبهم. يكفي أن خير الأنام قال في حقه: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللـه باطلُ/ وكل نعيم لا محالة زائل"

قبل أن يضيف عليه السلام مستدركا: "إلّا نعيم الجنة".

"لبّيك يا لبيد، أنا لك"، ردّدها فؤاد في نفسه ثم رفع أصبعه عاليا.

لكن ثلاثة من أسخف الطلبة وأسوئهم خلقا رفعوا أصابعهم دفعة واحدة. كان واضحا أنهم ظلوا متربّصين بفؤاد. لم يكن يهمّهم لا شاعر هوازن ولا معلّقته التي ما إن أنشدها في حضرة النابغة، حتى بادره هذا الأخير: اذهب فأنت أشعر العرب. لم يكن يهمّهم رأي النابغة الذبياني. فهم لا يعرفونه أصلًا. تسجلوا عند المخلوفي لضمان نقطة جيدة في البحث، وانتظروا أن يرفع فؤاد أصبعه لينحشروا معه تباعا في نفس المجموعة. وكفى اللـه المؤمنين القتال.

منذ البداية فهم فؤاد أن مجال النقاش مع زملائه ضيّق إلى أبعد

حد. فهم ليسوا من أهل الأدب ليخوض معهم في شؤونه. وليسوا من أهل الرأي ليناقشهم ويساجلهم، وليسوا من متابعي الشأن الطلابي ليوقِّروه كمناضل ويحفظوا له منزلته. هم مجرد عصابة من النصابين لاحظوا في المرات النادرة التي شرّفوا خلالها الدرس بالحضور حيوية فؤاد وسعة إطلاعه فانحشروا معه في نفس المجموعة ليجد نفسه مورَّطا بينهم.

ومنذ اجتماعه الأول بهم فهِمَ أنّ عليه أن ينجز البحث بمفرده. فالإخوة الكرام لا هم في العير ولا في النفير. لذا قرر أن يتوكل على الله ويشرع في عمله على أن يشرح للمخلوفي فيما بعد ورطته مع القراصنة الذين سلّطهم الله عليه. وما إن أعطاهم المخلوفي الضوء الأخضر ليشرعوا في تحرير البحث حتى اعتكف فؤاد في غرفته لأيام صاغ خلالها ثلاثة فصول دفعة واحدة تحدث فيها عن سيرة هذا الصحابي الجليل، عن فروسيته وأخلاقه العالية وحُسْن إسلامه. وهنا توقف فؤاد بشكل خاص عند قصته المشهورة مع والي الكوفة الذي أرسل في طلبه يوما وأمره بأن يقرأ في مجلسه بعضا من شعره فإذا لبيد يرد عليه بحزم: ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران. وعندما بلغ رد لبيد مسامع خليفة رسول الله عمر بن الخطاب سعد به وأمر بإضافة مبلغ 500 درهم إلى ألفين كان الشاعر يتقاضاها من بيت مال المسلمين.

لكن صدمة فؤاد في المخلوفي فاقت صدمة والي الكوفة. فبعدما قدّم فصوله الثلاثة إلى الأستاذ المشرف متصوِّرا أن هذا الأخير سيفرح بمنجزه ويثني على مجهوده، فاجأه المخلوفي بنظرة استنكار، لحسن الحظ أنه وزّعها عليهم بالقسطاس هو وأفراد عصابته:

- يبدو يا أبنائي أن واديا آخر غير هذا الذي نخوض فيه قد جرفكم بعيدا. إطارُ البحث واضحٌ ومُحدَّد: نحن نشتغل على موضوع "التاريخ والبيئة والمجتمع العربي القديم في الجزيرة العربية من خلال المعلّقات". ولمّا نقول المعلّقات فنحن بطبيعة الحال في صلب العصر الجاهلي. وحين كلفتكم بالاشتغال على لبيد، كنت أفكر في معلقته الفريدة: "عَفتِ الديار". لكنني لم أجد تحليلا للمعلّقة في كل ما كتبتم، بل قلما كنتم تشيرون إليها. يعني بصراحة، الرجل عاش قرنا ونيف منها تسعون سنة في الجاهلية وكتب معلقته في الجاهلية وأنتم تتحدثون عن والي الكوفة وعمر بن الخطاب. ما هذا الخلط؟ وما هذا الشطط الذي لا يليق بطلبة في السنة الرابعة من الإجازة؟ يا أبنائي، الرجل لم ينظم سوى بيت واحد في الإسلام قال فيه: "ما عاتب المرء الكريم كنفسه / والمرء يصلحه القرين الصالح". فانسوا كل ما كتبتم أصلحكم الله وأعيدوا قراءة المعلّقة وتناقشوا حولها في الخزانة كما فعل زملاؤكم، وأتمنّى أن يأخذ بحثكم مساره الطبيعي أسوةً بباقي الطلبة.

أسقط في يد فؤاد. اختار صحابيا جليلا ليشتغل على سيرته العطرة ونفحاته الربانية، فإذا بالأستاذ يعود به قسرا إلى الجاهلية الجهلاء. كان فؤاد محبَطا إلى أبعد حدّ. لذلك قرّر أن يرفع يده عن الحكاية برمّتها. ما دامت 17 مضمونة مع المخلوفي في نهاية السنة، فَلْيُنكِّل بالعصابة الآن وليتركها تواجه مصيرها. هكذا انقلب السحر على الساحر بعدما شرح فؤاد لجماعة النحس أنه قد حاول من جهته ولم يكلَّل مجهوده بالسّداد، لذا فالدور عليهم ليقدّموا هذه المرة مقترحهم للفصل الأول في الاجتماع القادم. تمنّى لهم التوفيق وتركهم يبحلقون في بعضهم البعض ضائعين تمامًا كغرقى يتقاذفهم الموج في عرض البحر.

16

رحّال يعرف أعضاء عصابة لبيد واحدًا واحدًا. فهم أبناء حومته: واحد من "الموقف" والآخر من "عرصة الملاك" والثالث من "قشيش". معروفون في المدينة بأنهم من أشهر مشجعي فريق الكوكب المراكشي. يرافقون ممثل المدينة الحمراء في البطولة الوطنية لكرة القدم أينما حل وارتحل. يتابعون مقابلاته بالمجان، ويسافرون على حساب النادي لتأطير جماهيره خارج الميدان بالشعارات المناسبة. وهناك إشاعات تقول بأن عميد الكلية يتدخّل بنفسه ليوصي بهم خيرا أساتذة الشعبة المحسوبين على الإدارة. وصارت عناية العميد بهم أقوى بعدما انتُخب عضوا في المكتب المديري لنادي الكوكب. والمخلوفي كما لا يحتاج الأمر إلى توضيح من أقطاب الأساتذة المحسوبين على

الإدارة. يكفي أنه يعتبر مبالغته في الانحناء أمام السيد العميد مجرد حفظ للمقامات. وأحيانا يحاجج بأن التطبيق الحرفي لقرارات العميد وتوصياته يدخل في باب طاعة أولي الأمر التي ينص عليها الشرع. لذلك وجدت الإدارة في هذا الفيل العَرُوضي خير سند لتيسير أمور الفرسان الثلاثة. ومن يدري، فربما كان المخلوفي مَن أوحى لهم بأن يتسلّطوا على فؤاد الوردي الذي يعرف إمكاناته جيدا حيث درّسه البلاغة والعروض والنحو لسنتين متتاليتين.

المؤامرة كبيرة إذن وخيوطها متشابكة، لكن فؤاد الغبي عِوَض أن يقلب الطاولة على الجميع، أو على الأقل يلاعبهم بطريقة أذكى ويترك العصابة تتخبّط كما سبق وقرّر أن يفعل بعدما رُفضت له الفصول الثلاثة الأولى من البحث، انصاع في النهاية لتوجيهات المخلوفي. وها هو يعود إلى المعلّقة اللعينة التي أحبطته منذ أول بيت. فحين بدأ يُحصي الأمكنة المذكورة في القصيدة أسعده ورود "منى" في مطلعها: "عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها/ بمِنىً تأبّد غَولُها فرِجامُها". لكن ما إن عاد إلى المصادر حتى اكتشف أن الأمر يتعلّق بموضع آخر في ديار بني عامر لا علاقة له بمنى مكة حيث يرمي الحجّاج جمرة العقبة بسبع حصيات في اليوم العاشر من ذي الحجّة. كان كمن يحرث في أرض وعرة كثيرة الشوك والنتوءات هو الذي لم يحبّ شعر الجاهليين قط.

"لكن لماذا حين أعياه الضرب في هذه الأودية المقفرة قرّر أن يُركّز معي أنا وحسنية؟ لماذا ترك لبيد جانبًا وبدأ يشغل نفسه بابن كلثوم ومن معه؟".

انقلب تعاطف رحّال مع فؤاد إلى اغتياظ، فإصرار على الانتقام. ولحسن الحظ أن السلوقي كان مستعدا بالفطرة للتزحلق فوق أية صابونة توضع في طريقه. وسيناريو رحّال كان محكما. هكذا نسي فؤاد الوردي وهو يتفرّغ للدفاع عن نفسه عبثًا من تهمة العمالة للمخابرات لبيد وابن كلثوم والحارث بن حلّزة ومعلّقاتهم، وكذا المخلوفي واجتماعاته التي توقّف عن حضورها.

أما رحّال، فكان يريد فقط إنجاز بحث متوسط والحصول على 17 في نهاية السنة لولا أن حسنية ورّطته في هذا الموقف الذي سلط عليهما الضوء. ورحّال لا يبحث عن الضوء. بل يتحاشاه. كان يعاني من إشادات المخلوفي المتكررة أمام الطلبة التي تُربكه وتُخجله من نفسه ومن العالم، فلماذا يريد فؤاد أن يعمِّق معاناته بتسليط المزيد من الضوضاء على شخصه وبحثه؟ رحّال لا يريد شيئًا من أحد. يريد فقط أن ينهي السنة بإجازة، ولو من دون ميزة، تتيح له فرصة اجتياز مباريات وزارة التعليم: ابتدائي، إعدادي، ثانوي، لا يهمّ. المهم أن يحقّق المعجزة وينجح في مباراة ما ويحصل على وظيفة مع الدولة ويصير له هو الآخر رقم تأجير، فيخلق لحظة فرح يتيمة

في حياة عبد السلام. يريد أن يتحدّى النحس الذي حكمت به الأقدار على قبيلتهم ويفلح في تحقيق شيء يمكن لأبيه أن يفخر به، على الأقل بينه وبين نفسه، بعدما اعتزل الناس في المدة الأخيرة وقلّ تردّده على الدوّار في عبدة.

17

لم تكن حسنية منشغلة بتاتًا بمرحلة ما بعد الإجازة. فالقطيفة الصغير ابن الحاج القطيفة الكبير صاحب أشهر محلات بيع الأثواب بسوق "السمّارين" ينتظر فقط تخرُّجها من الكلية لتستلم عملها لديه. كان عماد القطيفة قد افتتح مدرسة خاصة للتعليم الابتدائي بحيّ المسيرة: منزل سكني فسيح من ثلاثة طوابق في موقع استراتيجي دبّر لهم أحد معارف القطيفة الكبير رخصةً سمحت بتحويله إلى مؤسسة تربوية. ولأن هيام، زوجة عماد، فشلت في تسييرها للمدرسة، خلال سنتها الأولى، فقد نصحه والده باتخاذ حسنية مساعدة لها ابتداء من الموسم الدراسي المقبل.

كل المواصفات متوفّرة في حسنية: هادئة، متعلمة، جدّية، غير

ثرثارة، ومحتجبة. ثم إنها جارتُهم وكبرت أمامهم وبالتالي فعنصر الثقة - وهو الأهمّ هنا - مضمون. إضافة لهذه الاعتبارات، فتقاليد آل القطيفة لا تسمح بتوظيف رجل يساعد هيام على تدبير أمور المدرسة لتقضي الزوجة سحابة يومها في المكتب مع غريب. هذا لا يليق. كما أن غيرة هيام الشديدة على عماد تمنعه من أن يأتي لها بمساعدة من النوع العصري المتبرّج الذي قد يؤزّم علاقته بها أكثر مما هي مأزومة. لذا وجد القطيفة الصغير اقتراح الحاج مناسبا. وهم فقط ينتظرون أن تنهي حسنية دراستها لتلتحق بالعمل.

كثيرا ما كانت حسنية تفخر أمام رحّال بعلاقتهم الأسرية الوطيدة مع عائلة الحاج القطيفة "مول الثوب"، إلا أن السنجاب لم يجد صعوبة كبيرة في تخمين الموضوع برمّته ووضع العلاقة في إطارها الصحيح: ماذا يمكن أن يجمع - غير الجوار طبعًا - أسرة مراكشية عريقة بأم حسنية؟ أرملة تعيش رفقة ابنتها الوحيدة في دويرية صغيرة تلتصق كالقراد برياضهم الفسيح؟ مخيلة رحّال المُتّقدة تُسعفه بكل التفاصيل دونما حاجةٍ إلى راوٍ عليم. تخيّلَ أم حسنية تساعد آل القطيفة في كل الأعمال التي تحتاج إلى مساعدة: التّخْمَال وكل الأشغال المنزلية الكبرى التي تسبق عادة الأعياد الدينية والمناسبات العائلية. إعداد الطعام لضيوف الحاج الذين لا يُعدُّون في ولائمه التي لا تنتهي. غسل القمح الذي يأتي طريا من مزرعتهم بأحواز مراكش وتنقيته في مواسم الحصاد. شقُّ الزيتون الأحمر بالسكين وشجُّ الأخضر

بالحجارة لتخليصه من النوى قبل وضعه في أوانٍ محكمة الإغلاق بعد إضافة الماء والملح وشرائح الليمون الحامض عليه وذلك خلال عملية تخليله في موسم جني الزيتون. مرافقة نساء آل القطيفة إلى حمّام المواسين لدهن أجسادهن بالصابون البلدي وفركها بالليفة ثم شطفها بالماء. وضع الغاسول المخلوط بماء الورد على أجسامهن لتستعيد نضارتها وعلى شعورهن لإزالة القشرة من فروة الرأس. دون الحديث عن مهمة جلب الماء الساخن لهن من "تافضنة" القابعة وسط سحب البخار الكثيف في عمق الحمّام.

كان رحّال يتخيّل كل شيء دون أن ينبس بكلمة. يترك حسنية تحكي ما تريد. ومع ذلك، ينصت باستمتاع. بل بات يتماهى مع موقفها بالتدريج حتى صار كلما صادف الدكتور عبد المولى القطيفة، الأخ الأكبر لعماد، داخلا كلية الحقوق حيث يُدرِّس القانون الدستوري يشعر بالفخر والاعتزاز كما لو أن أمه هو مَنْ تفرك أجساد أم الدكتور القطيفة وأخواته في الحمّام.

18

لا يمكن لبجعةٍ أن تُنجِب سنجابًا من سرعوف. هذا قانون الطبيعة، وهو بالبداهة يمشي وِفق نسق واضح. لكن، من قال إن مصائر بني البشر توافق نواميس الطبيعة وتنضبط لها؟ لذلك حينما رُزقت حليمة برحّال، أعواما قليلة قبل هجرة عبد السلام إلى مراكش هربا من سنوات الجفاف المتعاقبة التي أتت على الأخضر واليابس في الدوّار، كان واضحا أن القدرة الإلهية قضت بإنصاف عبد السلام وحكمت عليه بالفرج. فخلال عقد من الزواج وهو يمنّي نفسه بصَبيّة تشرق شمسُ ابتسامَتِها في وجهه كل صباح أو صبيٍّ يضرم في حياته الرتيبة حرائق الشغب الجميل. إنما ما جابش اللـه، وهو رجل مؤمن. لكنّ صبر حليمة قليل، وإيمانها على قدّ الحال. ثم إنها لم تحتَجْ إلى

مراجعة طبية ولا إلى تحليلات لتُقرّر بيقين تام أنّ "الدّيفُّو" فْ عبد السلام، وتشيع في الدوّار أن هذا البغل - زوجُها - لا قدرة له على إنجاب عيال مثل أقرانه. لذا حينما تحوّلَتْ مُضغةُ رحّال إلى عظام بدأت تكتسي لحمًا يوما بعد يوم داخل بطن حليمة المنتفخ، صار عبد السلام أسعد أهل الدوّار. لم يهتمّ كثيرًا لغمز بعض الخبثاء. فهو يعرف زوجته جيدًا. يمكنها أن تصرخ في وجهه، أن تشتمه، أن تبهدله أمام الجميع، لكن أبدًا لا يمكن أن تخونه. وعموما، كانت فرحتُه ببطن حليمة المنتفخ أقوى من أن يشوِّش عليها غمز أو لمز.

لم تكن لحليمة أية أوهام بخصوص أصلها وفصلها. فهي ليست حفيدة القايد السي عيسى. إنها بنت الدوّار ومن القبيلة نفسها؛ من فخذة أكثر تواضعا من آل العْوينة. لكنها ظلت على قناعة راسخة بأن أهلها أساءوا إليها بموافقتهم على عبد السلام زوجًا هو الذي لا يستأهل ظفرها.

- آويلي ووعدي أنا، آويلي وطليتو اخْضْر، آويلي وعلى رجل ما تدخّلي بوه حتّى من الشتا.

ظلّت حليمة تُشنّف مسامع عبد السلام بهذا الموّال يوميا في الدوّار ثم في عين إيطّي وحتى بعد انتقالهم إلى حيّ الموقف. تبحث عن أيِّ مبرّر مهما كان واهيا لتستلمه وتشرع في جَلْده بلسانها السليط. أمّا رحّال، الذي ظل يتعاطف مع والده في السّر، فقد عجز دائما عن

فهم اعتداد أمه بنفسها خصوصا وأنه لم يجد لهذا الاعتداد المبالغ فيه أي سند لا في التاريخ ولا في الواقع.

كانت حليمة بجعة حقيقية. فمُها واسع عريض. أما مرض الدراق الذي ظهرت أعراضه عليها مباشرة بعد الزواج، فقد جعل غُدّتها الدرقية تتضخّم لتأخذ شكل ورم في منطقة الرقبة تبدو معه كالحوصلة الكبيرة التي تحتفظ بها البجعة أسفل المنقار. أيضا بسبب عجيزتها العظيمة، كانت حليمة تجد صعوبة في الوقوف. وحين تستوي على قدميها، تمشي بطريقة مضحكة تمامًا كبجعة.

عبد السلام بالمقابل كان سرعوفا بأوراقه الثبوتية. طويل ونحيل كالسرعوف، هادئ يوحي منظره بالثقة. سواء في "عين إيطّي" أو حتى بعد الانتقال إلى "الموقف" كان الجيران يحترمونه وينادونه الفقيه، رغم أنه لا يملك من الفقه غير ما تحفظه ذاكرته من سور وآيات يدّخرُها زادًا للمقابر. عموما هو فقيه في نظر الجيران، وهو يعضّ على لقبه بالنواجذ. وليس هناك أفضل من الصمت والطيبة وإشهار السلام في وجه الصغير قبل الكبير وسيلةً لاستحقاق اللقب وتأبيدِ الاحترام. يفكّر رحّال أحيانا أن حشرة والده تمكّنتْ بنفس الأسلوب من خداع الأمم والقبائل واللغات. فهي "نبي" لدى اليونان والجرمان، ويسميها عرب الجزيرة "فرس النّبي". أما اليهود فقد حفّظوها باسمهم مطلقين عليها لقب "جمل اليهود". الإسبان يعتبرونها

قِدّيسة، وجيرانهم الجنوبيون من أهالي طنجة وتطوان وفاس يسمونها "بّا الحاج"، أما الأطفال في أزقة مراكش فكانوا يعاملونها بتبجيل ويطلقون عليها اسم "ناقة بابا ربّي".

احترام السرعوف لمحاصيل الفلاحين وشهيته المفتوحة دائما لالتهام كل أصناف الحشرات جعلت الفلاحين يعتبرونه أفضل حارس لحقولهم ومزارعهم. لذلك بادلوه نفس الاحترام وربّوا أطفالهم منذ الصغر على عدم التعرّض له. وانتقوا له في كل اللغات أسماء تضمن له التوقير. عبد السلام، بدوره، عرف كيف يشتري بآيات الله ثمنا زهيدا في المقبرة وقليلا من الاحترام في الحومة. وهو عموما يضع آياته وسُوَره رهن إشارة جيرانه بالمجّان. يقرأ على المريض والمصابة بالصرع، ويتلو بعض الذكْر عند سرير المحتضر. وكلما حضر في الحيّ عقيقة أو عزاء انخرط مع "الطّلْبَة" في التلاوة الجماعية الساخنة للقرآن دون أن يطلب أجرا على قراءته.

وكان عبد السلام كلما دُعِيَ إلى حفل أو مهمة في بيوت الجيران ارتدى جلبابه الأبيض النظيف. أما المقبرة فيذهب إليها بأحد جلبابيه: الأزرق البحري الداكن أو الزيتوني، وأحيانا بِدَرَّاعته البنّية حين يشتدّ الحرّ. لكن ما لم يفهمه رحّال قط، فهو لماذا يرتدي أبوه، كلما أراد السفر إلى القرية، نفس الجلباب الرمادي الشاحب القديم؟ طبعا الأبيض النظيف مخصّص للحفلات والمُهمّات، وسيكون من غير

المناسب الذهاب به إلى الدوّار. إنما، ماله الجلباب الزيتوني؟ ولم لا يجرّب ولو لمرة واحدة في حياته معانقة الأهل هناك بجلبابه الأزرق البحري؟ لكن يبدو أن للسرعوف نظامه الخاص. فهذه الحشرة النحيلة اعتادت على تغيير لونها ليتلاءم مع لون البيئة التي تعيش فيها، فيسهل عليها التخفّي عن الأعداء. مع أن عبد السلام في الحقيقة كان دون أعداء، بل يمكن اعتباره بارعًا في تفادي العداوات. وكل "الطّلْبة" الذين حاولوا افتعال المشاكل معه في المقبرة واتهموه أحيانًا بسرقة الزبناء منهم، كان يقبّل رؤوسهم معتذرا عن أشياء لم يقترفها، حتى تأكّدوا جميعا بأن من يبحث عن خصومة مع عبد السلام كالباحث عن شعرة بيضاء في كأس لبن. هكذا صار عبد السلام في المقبرة صديق الجميع، من حفّاري القبور حتى باعة التين والتمر وقناني الزهر. صديقهم جميعا، في صمت ومن بعيد.

فقط في البيت يفقد عبد السلام إحساسه العميق بالسلم والانسجام. فحليمة له بالمرصاد. وهو يشجّعها على التمادي في التنكيل به، بصمته أولًا ثم بخوفه الشديد منها. احترام رحّال لوالده منعه من أن يناقش معه الموضوع بشكل مباشر لطمأنته. فتهديدات حليمة مجرد ثرثرة وكلام فارغ، وعليه ألا يأخذها بعين الاعتبار. ثم إنها بجعة وليست أنثى السرعوف التي يمكنها أن تُداهم الذَّكر في أية لحظة فتأكل رأسه.

19

ما حصل في الكلية ذلك اليوم فاجأ الجميع. فمعركة "المصحّة" كانت عادية كباقي المعارك التي خاضها الرفاق باستماتة في الشهرين الأخيرين، ولم يكن أحد يتصوّر أن القوات العمومية سترُدّ بتلك الشراسة. كان الرفاق في الفصيل القاعدي قد سطّروا برنامجا نضاليا تصعيديا دون استشارة أحد وشرعوا في تنفيذه بندًا بندًا. الفصائل التقدمية الأخرى ظلت تتابع المعارك الأخيرة دون انخراط كبير. فمناضلو هذه الفصائل التابعة للأحزاب اليسارية تراجعوا إلى الخلف وبدأوا يلعبون دور المتفرّج بعدما رفض القاعديون مبادرة التنسيق الوحدوي التي تقدّموا بها من أجل بناء أفق جديد للنضال الطلابي المشترك من داخل "أوطم". موقف القاعديين كان قاطعًا: إنهم ضدّ

كلّ مبادرة تُطبخ في مقرات الأحزاب الإصلاحية المهادنة للنظام. ثم إن هذه الطبخة المشبوهة تضمّنت بعض المواقف السياسية التي تتناقض والخط الكفاحي لأوطم.

ليس للطلبة القاعديين أي موقف من العمل الوحدوي كما بيّن ذلك الرفيقان أحمد الضبع وعتيقة البقرة.في حلقتي نقاش مطوّلتين خُصِّصَتا لبحث المبادرة. "بل إن القاعديين - يؤكّد الضبع - هم أكثر فصائل أوطم حرصا على وحدة الصف الطلابي. لكن أيّ وحدة نريد أيها الرفاق والرفيقات؟ أيّ وحدة نريد؟ أو بالأحرى، أيّ وحدة يريدون لنا؟ الوحدة مع الظلام كما يطالب بذلك قومجيو منظمة العمل الديمقراطي الشعبي الذين خانت قياداتهم الشائخة مبادئ اليسار بدخولها إلى الحظيرة المخزنية، واليوم يدعون إلى تبادل الاعتراف بين مختلف المكوّنات الطلابية بغض النظر عن المبادئ التي تحدّد بشكل حاسم الطبيعة الديمقراطية والهوية التقدمية لإطارنا العتيد؟ مع من سنتوحّد أيها الرفاق؟ مع طلبة العدل والإحسان؟ مع عناصر دخيلة كانت حتى الماضي القريب تنعت أوطم بالاتحاد الوثني لطلبة المغرب قبل أن تقرر التغلغل داخل المنظمة لنسفها من الداخل؟ وهاهي بدأت تكشف عن وجهها الفاشستي كما حدث في هجومها بالأسلحة البيضاء على رفاقنا في "ظهر المهراز" بفاس في ما أسموه بكل وقاحة معركة "تحرير كابول".

إنّ تشبثنا بالعمل الوحدوي من أجل إعادة بناء أوطم - يُضيف الضبع - يبقى مسألة مبدئية، ولكن انطلاقا من مقررات المؤتمر الوطني الخامس عشر لمنظمتنا، وانطلاقا من الضوابط التسعة للبرنامج الديمقراطي القاعدي لسنة 1979، ومن تصوّرنا العلمي الذي يوضّح بشكل دقيق آليات العمل الوحدوي القاعدي داخل الجامعة، وفي حضور القواعد الطلابية الصامدة والمناضلة. لذا على رفاقنا في الفصائل الإصلاحية اكتساب الشرعية الكفاحية أولًا، وذلك عبر التواجد اليومي في الساحة، والمساهمة في توسيع القاعدة الأوطمية بما يحفظ الهوية التقدمية والكفاحية للمنظمة. حينها يمكننا الحديث عن الوحدة انطلاقا من أرضية نضالية ملتحمة بالجماهير وليس انطلاقا من صالونات قادتهم في يسار الكافيار".

الإسلاميون بدورهم ظلّوا خارج المعركة. فالغارات الهمجية التي قام بها إخوانهم مدجّجين بالسلاسل والسيوف والهراوات على القاعديين في جامعتي فاس ووجدة جعلتهم في موقف صعب. ولأن علاقتهم بالرفاق في مراكش لم تصل قطّ إلى نفس الدرجة من التوتر، فقد حرصوا على تهدئة الأمور إلى أن تمرّ العاصفة. لذلك، تجنّبوا الدخول في مواجهات مع القاعديين بعد معركة تحرير الكافيتريا. رغم أنهم شعروا بالإهانة وهم يرون الكافيتريا تتحوّل إلى قلعة حمراء. الشيخ إمام وسعيد المغربي ومجموعة أغاني العاشقين ومجموعات أخرى غريبة عجيبة لم تكن في اللائحة التي مرّرها الرفاق خلال

الحلقة الشهيرة التي اتخذوا فيها قرار التحرير. لكن ما أزعج الإخوان أكثر هو تراجع الإدارة الجديدة للكافيتريا، المكوّنة من مناضلين قاعديين سابقين خرجوا للتوّ من السجن والتحقوا بالجامعة لتعزيز المدّ النضالي القاعدي بها، عن قرار منع التدخين الذي كان ساريا. هكذا، بسبب من سُحب الدخان المتراكمة التي أحالت الكافيتريا إلى وكر، صار المكان محرّما على الأخوات وحتى على عموم الطالبات اللواتي لُذْنَ بمقاهي الأحياء المجاورة. طبعا الرفاق لم يكن يهمهم الجانب التجاري، بقدر ما كانوا سعداء وهم يرون الفضاء يتحوّل إلى ناد مغلق خاص بالقاعديين واليساريين وفيالق المدخّنين.

القرارات الصادرة عن قيادات الفصائل الإسلامية التي أمرت قواعِدَها بالتراجع وتوخّي الحذر إلى أن ينتهي التحقيق في ملفات محاولات الاغتيال التي تعرّض لها بعض الطلبة القاعديين بموقعَيْ فاس ووجدة خلال "الغزوات" الإسلامية عليهم، كلّ هذا سهّل حسم معركة الكافيتريا لصالح الرفاق. وهذا ما شجعهم على صياغة برنامج نضالي طموح رغم أنّ الطلبة الآفاقيين بدأوا يغادرون الكلية بالتدريج إلى الصويرة وقلعة السراغنة وغيرها من المدن والقرى المجاورة لمراكش قصْدَ التحضير بين أحضان أسرهم للامتحانات التي صارت على الأبواب. ولهذا حين طرح الرفيق فريد خلال اجتماع صباحي بالكافيتريا مشكل غياب مصحة في الحيّ الجامعي المجاور لكلية الآداب وعزم مناضلي الحيّ على خوض معركة

للمطالبة بحقهم المشروع في التطبيب داخل الإقامة الجامعية، تحمّس رفاق الآداب لهذا الملف. وقرروا إطلاق الشرارة من كلية الآداب على أن ينظّموا في اليوم الموالي مسيرة إلى الحيّ الجامعي تضامنا مع قاطنيه ودعما لمناضليه في معركتهم المشروعة.

20

أين كان رحّال ذلك اليوم؟

أين كان؟

إيه.. كان في اجتماع مع الأستاذ المشرف. الاجتماع الأخير الذي سيلقي فيه بوشعيب المخلوفي خطبة وداع عصماء شكر فيها الطلبة على جدّيتهم ومثابرتهم وعلى التزامهم بتوجيهاته ونصائحه قبل أن يعطيهم الإذن بالطبع ويتمنّى لهم حظا سعيدا مع الاختبارات الكتابية مُطَمْئنا الجميع إلى أنهم حينما يبلغون بحول الله مرحلة الشفوي "ما يكون غير الخير".

لا يؤمن رحّال بالحظ أبدًا، أو بالأحرى يؤمن بسوء الحظ. فهو واثق من أن سوء الحظ لديه وراثي متأصّل لا سبيل إلى دفعه. لكنه

يؤمن مع ذلك بكرامةٍ اسمها رضا الوالدين. شخص وضيع مثل عبد السلام، هل كان يحلم بابنٍ كرخّال يحفظ مقامه كأب ويسمع كلامه ويعامله باحترام حتى وهو خارجٌ للتوّ من آلة غسيل حليمة البجعة؟ هو إذن رضا الوالدين، ورضا عبد السلام بالذات، ما جعل المخلوفي يختار هذا اليوم ليلقي فيه على الكتيبة الجاهلية خطبة الوداع. هكذا وجد السنجاب نفسه بعيدًا عن ساحة الوغى التي خلّفت عشرات الجرحى والمعطوبين وخمسة عشر معتقلا تمّت محاكمتهم في نفس الأسبوع.

كان غياب الجماهير الطلابية واضحا منذ البداية. فالمظاهرة التي انطلقت من ساحة كلية الآداب لم تكن تضمّ غير عتاة المناضلين وبعض قواعدهم المخلصة ممن فضّلوا البقاء في الكلية إلى حين استكمال البرنامج النضالي. مع العلم أن عتيقة طالبت مرارًا بتعليق البرنامج إلى بداية الموسم المقبل، لكن الرفيقين المختار ومراد - الجرذ والجربوع - أصرّا على استكمال البرنامج بل وتعزيزه ببعض الملفات التي لم ينتبهوا لها في السابق كما هو الحال بالنسبة إلى مطلب المصحة الذي فاتهم إدراجه ضمن ملفهم المطلبي الشامل. هكذا انطلقت المظاهرة من بهو الكلية باتجاه مطعم الحيّ الجامعي في وقت الغداء.

توقّع الرفاق تدخلا من عناصر الحرس الجامعي، ولاشك أن لجنة

اليقظة عملت حسابها للردّ على هذا التدخل. لكنهم لم يتخيّلوا أبدًا أنهم سيجدون في استقبالهم في الساحة التي تفصل باب كلية الآداب عن مدخل الحيّ الجامعي جحافل من قوات التدخل السريع التي لم يعرف أحد متى حلّت بالموقع ولا كيف طوّقت المكان. هذا تصعيد مخزني لم يكن على البال. لكن التراجع صعب، ولا أحد من الرّفاق يمكنه أن يلوّث شرفه النضالي بدعوة المتظاهرين إلى العودة إلى الكلية ولو لتدارس الوضع بناء على المعطى الجديد. دعوة عاقلة من هذا النوع ستبقى وصمة عار على جبين من يجازف بإطلاقها. لهذا بدأت الحناجر تزايد على بعضها، وتتعالى بالشعارات أقوى فأقوى.

"أنا يا رفيق ما ناويش نتخلّى

على نضالية الجماهير الشعبية"

وكلّما زاد تسرُّب الهلع إلى القلوب علت الأصوات أكثر.

"لن نركع أبدًا لن نركع

لن يُرهبنا صوت المدفع".

الدماء تغلي في العروق. الرفاق حائرون. لكنهم يصرخون مع ذلك. هيستيريا جماعية تلبَّسَتْهُم.

"قتلوهُم عدموهُم

أولاد الشعب يخلفوهُم"

المظاهرة تتقدم بحذر باتجاه الحيّ الجامعي. تتقدم متشنجةً. بارتباكٍ تتقدم. تنفلت باتجاه باب الحي. ثم كما لو أُطلِقَ سِرْب الذئاب دفعة واحدة من عقال غير مرئي، اجتاحت قوات التدخل السريع مظاهرة الرفاق. اخترقَتْها من كل الجهات ومزقتها إربًا إربًا. بقي المعطوبون والجرحى يصرخون وسط الساحة في حرِّ الظهيرة ولا من يسعفهم بشربة ماء. أما الاعتقالات فقد طالت خمسة عشر طالبا لم يكن من بينهم أيٌّ من الأرقام الصعبة داخل الفصيل.

"المناضل آخر من يُعتقل"، كان الإسلاميون يتندّرون بترديد هذه المقولة القاعدية الشهيرة وهم يناقشون ما حصل في اجتماعهم داخل المشرب الذي خلا من روّاده بعدما شاع أن حملة اعتقالات واسعة النطاق ستطال القاعديين خلال الأيام المقبلة. مسيّرو الكافيتريا اختفوا تمامًا. فهم حديثو عهد بالحرية ولا يريدون التفريط فيها بغباء. هكذا أحكم الإسلاميون سيطرتهم على الوضع داخل الكافيتريا مؤقتًا. منعوا التدخين من جديد، ومنعوا الموسيقى على أساس أن فترة التهييء للامتحانات تتطلب أقصى درجات الهدوء. ومن مكانهم في عمق الكافيتريا بدأوا يحللون ما حدث، مؤكّدين على أن عدم اعتقال رموز القاعديين دليل على عمالتهم للنظام.

ورغم أن بعض الطلبة المغرّر بهم اعترفوا خلال المحاكمة بأسماء

قادة الفصيل وأكّدوا على المسؤولية الشخصية لأسماء بعينها في الدعوة إلى "التظاهر غير المرخّص له في الشارع العمومي" الذي قادهم إلى المحاكمة، إلا أن الاعتقالات لم تشمل أيّا منهم. وبدأت الأمور تتعقّد أكثر بعدما سرَت في صفوف الطلبة إشاعة تفيد أن المختار الجرذ كان من بين المحقّقين الذين وجدهم الطلبة المعتقلون في استقبالهم بمقر المخابرات. ويحكى والله أعلم أنه كان يرتدي بذلة أنيقة بربطة عنق وحذاءً لامعا، ويدخّن المارلبورو خلال التحقيق دون أن يبدو على هيأته وملامحه أن له اسما آخر وحياة أخرى كان يعيشها بينَهُم، هناك في حلقات أوطم الماراثونية.

21

لم يعد النومُ يعرف سبيلَه إلى جفني رحّال. يتقلّب في فراشه عبثًا مثل سمكة في الشبكة. عمومًا رحّال لا يحلم. خارج معاركه التي قلَّت في السنوات الأخيرة، وخارج بعض الاستعراضات التنكُّرية لحسنية التي تزور منامَه تارة على هيئة نسرٍ وتارة في إهابِ فرس أو طيفِ غزال، لم يكن رحّال يحلم أصلا. لكنّ هذه المرة بدأت الأحلام تزوره يوميا، دائما قبل النوم الذي لم يعد يأتيه إلا فجرا. لم تكن في الواقع أحلاما، بل كوابيس يقظة. مرة يتخيل نفسه وسط المظاهرة يصرخ وسط الحشد "أنا يا رفيق ماناويتش نتخلّى.." ثم يتحلَّب الشطر الثاني من الشعار في فمه وتتبخّر الجماهير الشعبية ويتخلّى عنه من كان أمامه ومن كان وراءه ليجد نفسه بمواجهة زرواطة ضخمة تنزل

على رأسه بضربات قوية متلاحقة وهو يغوص كَوَتدٍ إلى أن تتمّ تسويته بالأرض. يبذل رحّال مجهودا خرافيا لانتشال نفسه دون جدوى. يعرف أنه ليس نائمًا. ومع ذلك لا يستطيع فعلَ أيّ شيء. يحسُّ بأنه عطشان، هل يقوم ليشرب؟ يفكّر بالذهاب إلى المرحاض فمثانته تؤلمه، لكنه لا يستطيع ولا يعرف لماذا؟ يبقى هكذا مغروسا في الأرض مثل وتد. لا يرى، لا يسمع. يعاني ضيقًا في التنفس ويحس قلبَهُ يخفق بشدة. يفتح عينيه ولا يرى شيئا. لو فقط أدخلت البلدية الكهرباء لهذا الدرب الحقير لأشعل الضوء الآن وانتصر على ظلمة الكابوس. لكن لا ضوء هناك. لا زرّ جنبَه على الحائط. أمّا إشعال الشمعة فيحتاج إلى مجهود، وهو خائر القوى. كانت عيناه مفتوحتين على الفراغ. الترابُ يتسلّل إليهما والدودُ وخشاش الأرض. ورحّال يصرخ بلا صوت. بلا حنجرة في الحلق.

"رحّال رحّال

يا الحيّ فينا

رحّال رحّال

يا زين السمية"

أحيانًا كان يحلم بعنصرين من المخابرات يقبضان عليه، يستهدفانه هو بالذات من بين عشرات المتظاهرين. يجذبانه بعنف من ياقته

ويقودانه خارج المظاهرة لِيُلقِيا به داخل سيارة كبيرة مهترئة من تلك السيارات التي تنقل فيها الخراف إلى الأسواق أيام عيد الأضحى. هناك وجد في انتظاره من كبّل يديه وعصب عينيه بسرعة ثم ألقى به فوق ركام من الأجساد المشبوحة داخل السيارة. وكان كلما انفتح الباب عن ضيف جديد يسمع نفس الحركة الدَّرِبة السريعة ثم ينزل الكيس البشري فوقه أو فوق الأكياس الأخرى الملقاة إلى جانبه. كانت الأكياس المغلقة تتحرّك. تتلوّى. تتأوّه. كلما حاول أحدهم تغيير وضعيته اختل النظام وتضاعفت التأوهات. والسيارة هناك مركونة غير بعيد عن ساحة المعركة. رحّال يسمع الصراخ بالخارج. صراخ الطلبة. استعطاف الطالبات. عويلهن. صوت الهراوات تنزل على الأجساد. دماغه يكاد ينفجر. يحاول أن يصرخ فلا يستطيع.

يفتح عينيه ويفكر في النهوض من السرير. عليه أن يذهب إلى المطبخ ليشرب. فهو ظمآن وفمه ناشف. يمكنه أن يعرّج في طريقه على المرحاض ليفرغِ مثانته ويتخلص من حرقة البول. لكنه لا يقوم. يحس سخونة لذيذة ترطّب ما بين فخذيه. سخونة مالحة مؤذية. تبا، لقد فعلها في السرير. ومع ذلك لم ينهض. كان صاحيا. عيناه مفتوحتان عن آخرهما. "أنا سنجاب، ولستُ سمكة لأنام بعينين مفتوحتين". لم يعد رحّال واثقا من شيء: سنجاب أم سمكة؟ سمكة تتخبّط في شبكة. لم يكن يعرف ما إذا كان نائما أم صاحيا أم في منزلة بين النوم واليقظة. لم يعد يذكر شيئا، ولم يكن واثقا من شيء. الأسئلة

كثيرة متلاحقة: أسئلة عن الأم والأب، عن الأصل والفصل، عن عين إيطّي والموقف، عن المخلوفي وحسنية، عن وفيق الدرعي والحارث اليشكري وعمرو بن كلثوم، عن البقرة والضبع والجرذ والجربوع والسلوقي والسحلية وحيوانات أخرى اكتشف أنه لم يراقبها جيدًا خلال حلقات النقاش. كان يجيب على كل الأسئلة باستفاضة وتفان ودقّةٍ سنجابية. انهمر بالمعلومات والتفاصيل والسحنات وألوان المعاطف وأصناف السجائر وماركات الأحذية. مثل صنبور فتحوه فتعطّل بين أيديهم ولم يعد أحد يعرف كيف يغلقه. كان يحكي باسترسال. يهذي ويهذي.. وحليمة لا تعرف ماذا تفعل لهذا الولد المسحور. أما عبد السلام فكان يقرأ عند رأسه آيات بينات من الذّكْر في الفجر ولا يقوم عنه إلا وقد علا صوته بالشخير.

***

لم تفهم حليمة سر حالة الصفاء الغريبة التي يتمتع بها رِحّال نهارا كأنه لم يكن يهذي طوال الليل. هل الولد مسحور؟ كانت حليمة تسأل عبد السلام دون أن تنتظر منه جوابا. عيّاد لا يتدخل في شؤونهم. أما عبد السلام فلا يسأل. اعتاد ألا يسأل عن شيء يحدث في هذا البيت. وحدها حليمة تسأل وتجيب.

رحّال بالمقابل انتابه إحساس عارم بالسعادة لأنه لم يكن بين المتظاهرين يوم معركة "المصحّة". في الليل تستبدّ به الكوابيس

وتحاصره السيناريوهات السوداء التي تصف بالتفصيل الممّل ما كان سيحدث له لو كان بينهم. لو سقط بدوره بين أيدي البوليس ضمن النكرات الذين تمّ اعتقالهم، وكلّهم طلبةٌ مغمورون لا يقلّون عنه خمولاً. سعيدٌ لأن كل ما يتعرّض له هذه الأيام يحصل على سريره، وليس في عتمة الأقبية. لهذا صار كلما استيقظ متأخرًا، دائما بعد منتصف النهار، تحلّق مع حليمة وعبد السلام وعيّاد حول مائدة الغداء بملامح راضية ليس فيها شيء من تقلص عضلات وجهه ساعة الهذيان.

الولد مسحور، تخمّن حليمة وهي تحك حَنَكها بكتفها مثلما تفعل البجعات. "الدرّي مسحور، ما فيهاش". ثم وهي تنظر شزرًا إلى عبد السلام:

- آويلي ولدك يا الويل ساحرين ليه واخا ماعرفت آش تقول لي. كلمة وحدة: قلت لك مسحور مسحور.

لكن عبد السلام لم يقل شيئا. عيّاد يبتسم مطرقًا. ورحّال بدوره لم يكن يكلّم أحدا. كان يأكل في صمت. بأسارير منفرجة وابتسامة رضية وجدَتْها حليمة غريبة غامضة. وما إن يقوم عن مائدة الغداء حتى يعود لينبطح على مرتبته المطروحة مباشرة على الزليج المتآكل، بلا سرير، ويستأنف مراجعة المحاضرات. ساعة الغروب يخرج في جولة تقوده دائما إلى جامع الفنا. كل الطرق في مراكش

تؤدّي إلى جامع الفنا، وهو في كلّ مرّة يسلك طريقا مختلفا.

خلال الرحلة كان يعرف كيف يجلب لنفسه بعض المسرَّة. الجلوس في مقاهي الساحة ترفٌ لا سبيل إليه. لكنه اعتاد شراء الزرّيعة والاستمتاع بتكسير بذور زهرة عباد الشمس على امتداد الجولة. كانت هذه متعته الوحيدة. أحيانا يحتال ليسعد بمسرّات أخرى صغيرة مفتعلة. أيام البرد يحمل معه معطفه الوحيد القديم لكن السميك مع ذلك، معطف أزرق قصير مبطّن بالقطن موصول بغطاء للرأس يبدو داخله رحّال لفرط ضآلته أشبه بتلميذ مدرسة. أحيانًا يحمل إحدى كنزتي الصوف اليتيمتين اللتين يتوفر عليهما. اشتراهما أيضًا من سيدي ميمون، سوق الملابس المستعملة المجاور لضريح يوسف بن تاشفين. الأولى من صوف الكشمير رمادية، والثانية كنزة تريكو نقشة الوردة كحلية اللون، كانت حسنية تشك دائما أنها نسائية دون أن تتجرأ على تنبيهه إلى ذلك. لكن رحّال لا يرتدي المعطف ولا الكنزة إلا بعد أن يلسعه البرد. مُتعته في الألم. في الالتذاذ بالألم. يصبر للبرد في البداية. يرتعد قليلا. يرتجف لكنه يكابر. يواصل المشي السريع حتى جامع الفنا، وهناك في الساحة يرتدي لباسه الدافئ وينعم بذلك. يتنعَّم بالدفء ويسعد بحلاوة التجوال وسط الحلاقي والأسواق المجاورة وهو يرتدي شيئا يُدفئ عظامه ويصدّ عنه البرد.

لكنه اليوم لا يحتاج إلى معطف. فالجوّ حار. نحن في ماي. شهر

التحضير للامتحانات. ورحّال يرتدي قميصا صيفيا نص كُمّ كاكي اللون وسروال دجينز رمادي ويجرجر رجليه في صندل جلدي خشن صناعة محلية. يحس جسمه أخفّ ويتحرك برشاقة وهو يشعر بكل سعادة الدنيا تجتاحه. إنه حُرّ، وهذا يكفي. وإذا كانت الكوابيس تداهمه في تلك الساعات المُلتبسة التي صار يقضيها بين النوم واليقظة، فهو عقاب يستحقه بعد أن بالغ في حضور حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ناسيا أن في البلد قانون. "اللـه يعزّ لْحْكام" كانت أمه تردّد دائما. وهو ظن في المدة الأخيرة أن الدنيا سايْبَة. الحمد اللـه الذي جعله يستخلص الدروس دون أن يقضي في السجن بضع سنوات كما حصل لزملائه المساكين الذين فرَّقوا عليهم نصف قرن من الزمن سيقضونه في البرد والعتمة. مع أنهم كانوا هناك بالصدفة. فقط لأنهم لم يسجّلوا بحوثهم مع المخلوفي وبالتالي لم يدعُهم السي بوشعيب إلى خطبة الوداع. أو ربما لأن المنحة تأخرت ولم يكن لديهم المال الكافي لتحصيل تذكرة السفر إلى قراهم ومدنهم المجاورة فأضافوا يوما أو يومين بمراكش في انتظار المنحة، فإذا هي محنة ما بعدها محنة. ربما التحقوا بالمظاهرة كما اعتادوا أن يفعلوا دائما على سبيل تزجية الوقت. ربما كانوا هناك عن طريق الخطأ. واليوم صارت لهم قضايا ومحاكم ومداولات ومحامون وأمهاتٌ يأتين من القرى البعيدة إلى زيارتهم محمّلاتٍ بالقُفف والدموع.

في جامع الفنا، تبدو الحياة مشرقة ليلًا. شموس صغيرة تضيء

ليل الساحة فتُرديه أجمل من كلّ صباحات الدنيا. ورحّال يتجوّل في الساحة مُفعما بالسعادة. لا يعود إلى البيت إلا بعد أن ينام عيّاد وعبد السلام وحليمة. يدخل المطبخ. براد الشاي في مكانه. الخبز وزيت الزيتون. في الحر، يعشق رحّال شرب الشاي باردا. يشرب الكأس الأول بالتذاذ. والثاني مع الخبز والزيت. يتساءل دائما: ماذا كان المغاربة يشربون قبل أن يعتمدوا "أتاي" مشروبَهم الوطني؟ وكيف كان الشعب يُعدِّلُ مزاجه قبل دخول الشاي إلى البلدِ في القرن التاسع عشر؟ يتناول رحّال عشاءه في العتمة وينسلُّ إلى فراشه راضيا بالقسمة غير متبرّم مما ينتظره من كوابيس.

22

من دون أن ترفع عينيها في وجهه، قالت له بصوت راعش وحازم في الآن ذاته:

- لقد فكرتُ مليّا في الموضوع، وأنا موافقة. يمكن أن تتقدّم لخطبتي في أيّ وقت.

أحس رحّال كما لو أن الأرض تدور به. لكنّ حسنية ستضيف بهمسها الراعش، إنما بنفس النبرة الحازمة:

- بالمناسبة، أمي هي الأخرى موافقة. فقط عليك ألّا تتأخّر.

لكأنّ البُنيّة تستخْطِبُك أيها السنجاب.

كان رحّال وحسنية مستغرقين في طباعة البحث. كل الطلبة يطبعون

بحوثهم في محلات مجاوِرة للكلية بالداوديات حيث الرّاقنات دَرِبات، يشتغلن بسرعة ويرقِنَّ بعددٍ محدودٍ من الأخطاء مما يسهل عملية المراجعة. وكلهنّ مارسْنَ رقن البحوث لسنوات على الآلة الكاتبة في زمن لم تكن عملية التصحيح فيه متاحة بالسّلاسة التي يتيحها الكومبيوتر. لكن رحّال، المرعوب من الاعتقال، بحث عن محل بديل يكون بعيدا عن الكلية ومحيطها. وفعلاً عثر على مُجازَةٍ عانسٍ بحومة الولي الصالح سيدي عبد العزيز التّباع، فتح لها والدها محلا صغيرا متفرّعا عن بيت الأسرة، وهي تطبع الصفحة الواحدة بنصف الثمن الذي يطبعون به في الداوديات. اعتبر رحّال العرض مغريا ولم يجد صعوبة في إقناع حسنية. لكن ما إن بدآ العمل حتى اكتشفا أن البنت من دون خبرة. وخارج جهازَيْ الكومبيوتر والفوتوكوبي اللذَيْن تؤثث بهما المحل، لا تملك المسكينة غير لطفها وارتباكها وتفرُّغها الكامل. ولأنّ حسنية لم تتردّد، كالعادة، في تحميل رحّال مسؤولية هذه الورطة فقد تركته يتحمّل تبعات اختياره بنفسه.

هكذا صار رحّال يقضي أيامه معتكفًا مع ربيعة في المحل: يُملي عليها البحث كلمةً كلمةً، سطرًا سطرًا. ينبِّهها إلى مواضع كسر همزة إنّ، ومتى تُكْتَب الهمزة فوق السطر ومتى تُرسم على الياء، ويشرح لها الفرق بين الهمزة المتطرّفة والهمزة المتوسّطة وهمزة القطع وهمزة الوصل. بل صار يُملي عليها الكلمة ويوضّح لها بشكل صريح ما إذا كانت التاء في آخر الكلمة مربوطة أو مبسوطة.

وربيعة تجاوزت خجل الصفحات الأولى وبدأت تشرح لرحّال كيف أنها مُجازة في "الدراسات الإسلامية" وليس في الأدب العربي وهي على كل حال لم تكن تحب العربية منذ الصغر:

- من الابتدائي، وأنا العربية ماعنديش معاها سبحان اللـه العظيم.

- سبحان اللـه، يردّد رحّال في نفسه ساخرًا، وكأنها ضليعة في الفرنسية، أو كأنها كانت تدرُس الفقه والحديث وأصول الدين في الكلية بالآرامية، أو كأنّ القرآن نزل بالدّارجة المغربية التي لا تُجيد غيرها.

لكن لا مجال للنقاش الآن. رحّال في ورطة وعليه أن يتحمّل مسؤولية اختياره. شرحَتْ له ربيعة فيما بعد أن أمّها صاحبة الفكرة. اقترحت على والدها فتح هذا المحل لتخرُج البنتُ من عزلتها بعدما ظلّت حبيسةَ البيت لأزيد من خمس سنوات. منذ تخرّجها من الكلية وهي في سجن. بنتٌ وحيدة بين أب متديّن وثلاث إخوة ذكور. صاروا جميعًا يعاملونها بعد التخرّج كخادمة. وهي تلهث بينهم لتلبية طلباتهم التي لا تنتهي. معزولةً عن العالم. تخرج مع والدتها من حين لآخر إلى مشاوير سخيفة. لكنها لم تكن تملك الاختيار. إما مرافقة الأم في زياراتها المتباعدة لقريباتها الثرثارات أو البقاء حبيسة الجدران. تقدّمَتْ لكل المباريات المتاحة لكن ماجابش اللـه. فشلت في اجتياز امتحان المدرسة العليا للأساتذة. قُبِل ملفها في

مدرسة المعلّمين، لكن مرة أخرى خاصمها الحظ في المباراة. عموما رحّال تفهّم الموقف جيدا. فمشاكِلُها العويصة مع التاء المربوطة والتاء المبسوطة ستجعل قبولها في مدرسة المعلمين بالذات جريمة في حق الغد وأجياله الصاعدة.

كان بحث "صراعات البكريين والتغلبيين، مخازيهم ومفاخرهم، من خلال معلّقتَيْ عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة" أول فرصة تتاح أمام ربيعة التي ظلت منذ فتح المحل قبل بضعة أشهر لا ترقن سوى بعض الشكايات والرسائل الإدارية وقليلٍ من عقود البيع والكراء. كادت تتحوّل في غفلة منها إلى "كاتب عمومي". لكن هذا الجرذ الخجول أطلّ عليها ذات صباح بفرصة ذهبية: بحث إجازة، وبدأ يفاوض باستماتة حول ثمن الصفحة. شرح لها مثلا كيف أن الصفحات التي تتضمن أبيات الشعر يجب احتسابها بثمن أقل بسبب انخفاض عدد كلماتها، ووضّح لها كيف أن الصفحات الأولى المُتضمِّنة للعنوان والإهداء وشكر الأستاذ الباحث لا يحتسبونها في المحلات المجاورة للكلية، وأنه.. وأنه.. لكن ربيعة لم تكن تهتم للثمن، كانت فقط تريد منه أن يبقى. أولًا، لكي تتمرّن. فهي تحتاج شيئا تكتبه لتتمرّن: نصا أطول من عقد كراء. وأيضا لأن أمها أفهمتها أنها لن تتزوّج ما لم تخرج إلى العالم ليراها الناس وتراهم. أمّا إذا ما بقيت في البيت متفرِّغة لتلبية طلبات هؤلاء الجِمَال الثلاثة - إخوتها - فإنها ستضيِّعُ مستقبَلها و"حياتها غادي تمشي خْلَا".

هكذا وجد رحّال نفسه يعاني معها. يستغرقان ساعة كاملة من أجل رقن فقرة صغيرة. وكلما جاء أحدهم للفوتوكوبي، تعتذر منه وتقوم لتلبية طلب الزبون وكأنه هو ضيف أو صديق. أحيانا يطلب الزبون ظرفا أو طابعا بريديا فتطلب من رحّال أن ينوب عنها في العملية وكأنّه شريكُها في المحل. وكلما نادتها أمها أو أحد إخوتها لشأن مستعجل من شؤون البيت تعتذر له وتمرُقُ من الباب الخلفي الصغير المفتوح مباشرة من البيت على الدكان وتغيب لبعض الوقت. أحيانًا تغيب لنصف ساعة أو أكثر، وحين تعود تحضر له معها كأس شاي وقطعة حلوى، فيفهم أنّهم نادَوْها لتناول الفطور. فطور العاشرة الذي يحرصون عليه في مراكش كما لو أنّه سنّة مؤكّدة.

كان رحّال في البداية يتضايق، لكنه بالتدريج بدأ يأخذ مكانها ويُجرِّب أن يرقن بضع كلمات. بضعة أسطر ربحًا للوقت. أو على الأقل لكيلا يقتله السأم. لكنه بالتدريج استأنس بالعملية. بل اكتشف أنه يرقن أفضل من ربيعة وأسرع منها. وبأخطاء أقل. هكذا انقلبت الآية. صارت هي من يُملي عليه وهو يكتب. وربيعة تتعجّب من السرعة التي يكتب بها هو الذي لم يسبق له أن تلقّى أيّ تكوين في الإعلاميات أو الرّقن على الآلة الكاتبة مثلما حصل معها هي. وحين باغتتهما حسنية بزيارة في إحدى العشيات لم تفهم شيئا. رغم أنه حاول أن يشرح لها حقيقة الأمر لم تفهم. أو لم ترد أن تفهم منه في تلك اللحظة أي شيء. بل لا تريد أن تسمع منه أصلا.

ثم جاءت في اليوم الموالي أيضا. وحين زارته في ظهيرة اليوم الثالث انتهزت فرصة استئذان ربيعة منهما لبضع دقائق وخروجها من المحل لتخبره بنبرة حازمة بأنها موافقة وبأن أمها موافقة هي الأخرى. فقط عليه ألا يتأخر.

***

لا يذكر رحّال أنه فاتَح حسنية في موضوع الارتباط بها، ولا لمَّح لذلك ولو بشكل عابر. فهل صارت ترجُمُ بالغيب وتقرأ السرائر؟ لم تُراودْهُ الفكرة أصلًا ليُسِرَّها أو يُعلِنَها. صحيح أنّ حسنية كانت تزوره في المنام أحيانًا، وصحيح أنه لم يدْنُ في حياته من امرأة غيرها، لكن علاقتهما ظلت في إطار واضح على ما يعتريها من غموض. صحيح أيضًا أنه بدأ يضعف أمامها في الآونة الأخيرة، وأنها بدأت تلسعه من حين لآخر ولا تتردّد في تقريعه، حتى حين لا يصدُر عنه ما يستوجب ذلك، لكن هذا لا يفسِّر ذاك.

لكن، هل غارت من ربيعة؟ إنّما، ما علاقة ربيعة بالموضوع؟ لم يجرؤ رحّال على طرح المزيد من الأسئلة. لكنه تذكر حليمة وتعليقاتها اللاذعة التي تجلد بها عبد السلام بمناسبة ومن دونها:

"اللـه يا سيدي ربّي، النّسا محزّمات بالرجال وأنا كتبتيه عليَّ حمار وبهلول، الناس عليه داوية وهو فمّو محلول".

هل لاحظَتْ حسنية أشياء لم ينتبه لها هو؟ مرّةً حدثهم المخلوفي عن هند بنت النعمان بن المنذر: حين سألوها عن بطنها وهي على ذمة الحجاج بن يوسف وكانت تكرهه، أجابتهم قائلة:

"وما هند إلا مُهرةٌ عربيـــةٌ / سليـــلةُ أفراسٍ تحلَّلها بغلُ

فإن أنجبَتْ مهرا فللَّهِ درُّها / وإن أنجبَتْ بغلًا فجاء به البغلُ".

كان رحّال يحبُّ هذين البيتين. فهند، مثله تمامًا، ترُدّ البشر إلى أصولهم الحيوانية. لكن صدى البيتين اليوم بدأ يتردّد داخله كما لو كانت قصيدة أمّه: حليمة بنت الوافي ولد حجّوب. هل هو البغل ابن البغل؟ هل صار يشبه السرعوف إلى هذا الحد رغم أنهما ليسا من النوع ذاته ولا من الفصيلة نفسها؟ هل حدثت أشياء لم يفطن لها، وهاهي حسنية تتدخّل لتُسيطر على الوضع فيما هو مثل أبيه عبد السلام، يبدو كالأطرش في الزفة: "حمار وبهلول، الناس عليه داوية وهو فمّو محلول".

- المهم أن الأمور صارت واضحة الآن، توضح حسنية بنبرة حازمة، بالإجازة أو بدونها سأشتغل ابتداء من فاتح سبتمبر المقبل في مدرسة عماد القطيفة بحيّ المسيرة، ويمكنني أن أضمن لك يا رحّال فرصة عمل معي بالمدرسة. إنما، لا أحد سيمنعك من اجتياز كل المباريات المُتاحة. إذا تمكّنْتَ من ولوج المدرسة العليا للأساتذة سيكون ذلك ممتازًا، ويمكنني أن أذهب معك حيثما تمَّ تعيينك. أما

إذا نجحْتَ في مباراة مدرسة المعلمين، فلن أترك عملي لأتشرّد معك في الدواوير والمداشر والقرى النائية. هل فهمت قصدي؟

***

لكن حليمة لم تفهم. لم تفهم شيئا من كل هذه الحكاية. فالعرض شامل متكامل، ويكاد يكون مستحيلا بالنسبة إلى واحد من سلالة المناحيس هذه: زوجة ضئيلة غامضة لكنها مُجازة مثل ابنها. حماة مستعدّة لاستقبال العريس في بيتها ليعيش وزوجته معها. فرصة عمل معروضة على ابنها إلى جانب حرمه المَصون في مدرسة عماد القطيفة بحيّ المسيرة، ودرّاجة نارية سيشتريها لهما صاحب المدرسة لضمان تنقُّلِهما بسلاسةٍ بين حيّ الموّاسين في المدينة العتيقة وحيّ المسيرة. فماذا يريد الشعب أكثر؟ خصوصا مع ابن سيء الحظ كرحّال لم يفلح في اجتياز لا مباراة المدرسة العليا للأساتذة ولا امتحان المركز التربوي الجهوي، أمّا مدرسة المعلمين التي أبدى بعض التردّد في التقدّم إليها فلم تقبل ملفّه أصلا. لهذا اعتبرت حليمة منذ البداية موضوع حسنية فرصة ثمينة لإنقاذ ابنها من دوامة الفراغ، مع أنها لم تفهم لماذا اضطرت أم حسنية إلى كل تلك "الأعمال الشيطانية" من سحر وشعوذة كي تُسقط السنجاب في فخ الزواج؟ لو جاءتها من الأول لأرسلته إليها مكتوف الأيدي مُكبّل الرجلين على ظهر حمار. فالحكاية لا تستأهل كل تلك

العزائم والأفاعيل التي جعلت النوم يخاصم جفون رحّال لأسابيع. هل خلطت له روث الدواب بمخ الضبع؟ أم استأجرت له أحد خدّام الجنّ من فقيه متخصّص في سحر الجَلْب؟ هل جلبته بالشمع أم بالفلفل؟ بالملح أم باللُّبان؟ في الحقيقة "المراكشيات واعرات، وأفانين السحر تجري في عروقهن أسرع مما تفعل الدماء"، فكّرَتْ حليمة المنبهرة في قرارة نفسها بنساء المدينة الحمراء، والمندهشة من كل ما يحصل، إنّما الرّاضية مع ذلك بهذا النصيب الذي سيفتح حياتها على جديدٍ يُخرجها من رتابة السنين.

حليمة على بساطة تفكيرها كانت تتمنّى أن يبقى رحّال جنبها في مراكش، يبحث لنفسه عن أيّ عمل صغير مناسب، بدل الذهاب إلى أقصى الأرض معلما في مدشر مهجور بإحدى واحات زاكورة أو الراشيدية أو طاطا، أو في دوّار معلّق بين قمم جبال الأطلس المنذورة للبرد والثلوج. أبوه عبد السلام الذي يُضرَب به المثل في الخمول وقلة الحيلة غادر أرض أجداده المنبسطة بسهول عبدة، بإيعازٍ من حليمة حتمًا، ونزح إلى مدينة السبعة رجال، فكيف يترك رحّال القاري والفاهم مراكش ليُفني زهرة شبابه معلقًا بين الجبال أو ملفوظا كنواة في صحاري الجنوب.

- هذي أنا بعدا اللي غي مرا وماقارية مافاهمة ما نبغيهاش لك. واخا يطلبوك ويرغبوك آ وليدي يا رحّال ف مدرسة المعلمين ويرموا

عليك العار ما كنتش غا نخلّيك تمشي ليها. فين تمشي؟ للجايحة؟ اللهم هاذ القنيفيذة اللي جبتي ليَّ بلا خبار بلا شوار، ولا الدِّيعان ف الصحاري والقفار.

***

قنفُذَة..

هل قلتِ: قنفذة؟

ياه.. كيف فاته هذا الأمر؟

كيف لم ينتبه إلى أن لهذه البنت ذات الأذنين الصغيرتين والرأس الذي لا يكاد يُفصح عن رقبة تحملهُ ملامحَ قنفذ؟

ظل رحّال على امتداد الشهور الماضية يطارد حيوان حسنية في ملامح وجهها، في حديثها وصمتها، وفي نبرة الكلام.. في مشيتها وطريقة جلوسها، في حركاتها وسكناتها، في الكتب والأحلام.. دون جدوى. والآن تُخرِجُ حليمة عرَضًا أثناء بثّها التلقائي حيوان حسنية من جُحره بلا عناء.

ستدفن ما تبقى من سنوات عمرك في حضن قنفذة يا رحّال. في حضن حيوان شائك لم تكتشِفْه إلا بعدما حدّدتم موعد عقد النكاح. الناس تنعم باللحم الطري البضّ على فراش الزوجية وأنت تُعِد لحمك لوخز الأشواك. مع أنّ رحّال كان قد استأنس قليلا بشوك قنفذته

الضئيلة في مكتبة الكلية حين كانت تخِزُه بمناسبة ومن دونها بكلامها الجارح. كما ألف انتفاضاتها الغاضبة التي ظلّت ترميه خلالها بشوك كالسهام. لقد تعوّدْتَ أيها السنجاب. ثمّ ما يُدريك أنّ حبل الود الذي سينْفَتِل بينكما على فراش الزوجية لن يسحب قنفذتك من جُحر حذرها الفطري فتمنحكَ طوْعًا روحَها وجسدَها؟ حينها ستقطفُ وردتها عن استحقاق بعدما أبْدَيْتَهُ من جَلَد وصبر على الشوك. ستمرّر كفّك على بطن قنفذتك الصغير لتستمتع بنعومة فَروها. فِراء القنافذ ناعم يا رحّال لولا الأشواك. وهو سيعرف كيف يقنع حسنية بأنه ليس كلبا ولا ثعلبا لتُشهِر في وجهه سهام شوكها، بل مجرد سنجاب مسالم وديع لا خوف منه.

ياه يا بنت الوافي.. ياه يا حليمة..

ها قد فككْتِ اللغز أخيرا.

فالأمور صارت واضحة الآن، ولن يعدم السنجاب وسيلة لترويض القنفذة.

23

رياح الخريف تهبُّ على بساتين مراكش وحدائقها وأشجارها مع نهاية سبتمبر. مرّت فترة المباريات والتحق الناجحون في امتحانات ولوج مدارس تكوين الأساتذة والمعلمين من رفاق رحّال وحسنية بمؤسسات التكوين، وعاد الراسبون ليرتموا في حضن فراغ قاتل. الطلبة يواصلون حياتهم الجامعية ويباشرون موسما جديدا من المحاضرات والحلقات وصراعات الكافيتريا التي لا تنتهي. فيما هم محرومون حتى من روتين التردد على الجامعة. معلقون في الفراغ مثل ملابس منشورة فوق حبل غسيل. الريح تتلاعب بهم. والإحساس باللاجدوى يأكلهم. أمّا رحّال فوجد نفسه أمام اقتراح حسنية وجهًا لوجه. لم يكن أمامه من خيار. ولم يكن يطمع هو نفسُه في حلٍّ أفضل.

وقف صاغرًا مرتبكًا بباب مكتب المديرة، وبعدما استأذنَتْ له حسنية في الدخول، هبّ عماد القطيفة بنفسه لاستقباله.

- تفضّل.. تفضّل.. السي.. السي؟ رحّال.. ياك؟

- ....

- تفضّل.. مرحبا..

كان رحّال يحرّك رأسه فقط، مُظهرًا امتنانه. كان متوترا، مرتبكا، غير قادر على رفع عينيه في وجه عماد الذي بدا لطيفا خلال اللقاء. فيما ظلت هيام، المديرة الفعلية للمؤسسة، جالسة في مكتبها. لم تهش ولم تبش، ولا تململت في مقعدها أصلا. كانت تراقب المشهد في صمت بملامح تُراوح ما بين الصرامة والحياد.

انتهى الاجتماع سريعا، أسرع مما توقع رحّال ودون أن ينبس بكلمة واحدة ليجد نفسه في فناء المنزل الذي صار مدرسة وقد استلم الشغل من يومه وساعته، لكن قبل أن يفهم بالضبط ما هو عمله، ولا ما هي وظيفته بالتحديد. للمؤسسة طاقمُ تدريسٍ صُور أعضائِه وأسماؤهم والمواد التي يُدرِّسونها مثبّتة بالتفصيل في خريطة تربوية معلّقة على الجدار يمين مكتب المديرة، وصورة رحّال ليست بينهم. للمؤسسة حارس يقف ببابها يغسل سيارة هيام ويحرس درّاجة حسنية النارية ودرّاجات المعلمين ويبيع السجائر

بالتقسيط للعابرين، وبالتالي هذا المنصب بدوره غير شاغر. فماذا تبقّى؟ الواضح أن رحّال سيظل مركونا في الساحة كلاعب احتياط في فريق لكرة القدم. سيبقى هناك إلى أن تتّضح الأمور. يراقب دخول التلاميذ وخروجهم، ويضع نفسه رهن إشارة الجميع: عماد القطيفة مول الشي، زوجته هيام مديرة المؤسسة، ونائبتها وكاتبتها الخاصة حسنية بن ميمون.

***

حين وافق عماد القطيفة على اقتراح حسنية بتشغيل زوجها إلى جانبها في مدرسة "أشبال الأطلس" الابتدائية للتعليم الخصوصي كان فقط يريد ضمان التحاقها بمؤسسته. فهناك إجماع داخل مجلس العائلة الذي يرأسه القطيفة الكبير شخصيا على أنّ وحيدة جارتهم أم العيد مؤهّلة بسبب أخلاقها العالية وتكوينها الجامعي لهذه المهمة، كما تبقى أقدر من الغريب على تحمّل تقلّبات مزاج هيام. والشرط الذي ساقته حسنية بلباقة في صيغة اقتراح تمّ قبوله مبدئيا في انتظار أن تتّضح الأمور في المستقبل. هكذا حصل رحّال على هذه الفرصة دون أن يَشْغَل لا عماد ولا هيام بالَهُما بتحديد طبيعة عمله. وجد نفسه موظّفا دون مهام محددة. فخارج مهمته اليومية كسائق للدراجة النارية التي منحتها المؤسسة لحسنية، وخارج مشاويره من أجل إحضار طلبات هيام من المقهى المجاور وجلب ساندويتشات

الغداء له ولحسنية من مطاعم شارع الداخلة بحيّ المسيرة، لم يكن رحّال يُنجِز شيئا يُذكر. يراقب دخول التلاميذ وخروجهم، يحرس هذا القسم أو ذاك كلما غادره المعلم إلى الحمّام أو باتجاه مكتب المديرة، ويزجي الأوقات الطويلة الباقية يتثاءب في باحة المدرسة بكسل وتسليم.

اجتراء حسنية عليه والحدّة التي تخاطبه بها من حين لآخر جعلا هيام تتجرّأ عليه أكثر. لكن ما إن اكتشفت أن الرجل ليس حريصا على اعتباره ولا معنيا بمسائل الكرامة، حتى تركته وشأنه. فهيام تموت في المماحكة والعناد والحروب الصغيرة، وتتفنّن في افتعال المشاكل واختلاق الخصومات. لكن رحّال خامل مُمِل. ليس من الصنف الذي يمكنه مجاراتها في هذا المضمار. ولأن هيام من النوع الذي يعفُّ عند الغَلبة، فقد احتقرته في قرارة نفسها ووضعته سطلا فارغا بلا تقريب.

وحين حدثتها حسنية عن براعته في الرقن على الكومبيوتر، اقترحت هيام بأريحية على زوجها فتح كَراج البناية المغلق في وجه رحّال وشراء جهاز كومبيوتر وآلة نسخ ووضعهما رهن إشارته. هكذا يتكفّل بكتابة ونسخ كل التقارير والوثائق الإدارية الخاصة بالمؤسسة، وكذا وثائق المدرسين وامتحانات الأقسام، على أن يبقى المحل مفتوحا في وجه العموم. هذا سيعطي إشعاعا للمحل والمدرسة.

ثم إنهم بهذا الترتيب سيجدون عملا حقيقيا لرحّال يبرّر الأجرة التي يتقاضاها منذ أربعة أشهر.

عماد الذي رحّب بالاقتراح فكّر أيضا في إبرام عقد مع شركة "اتصالات المغرب" تتيح له فتح تيليبوتيك في الكَراج الفسيح، ليجد رحّال نفسه أمام كومبيوتر وآلة فوتوكوبي وثلاثة خطوط بهواتف معلّقة على الجدار الأيسر للمحل مفتوحة في وجه العموم.

***

رعاية خطوط الهاتف لن تكلّفك يا رحّال سوى تحويل أوراق الزبائن النقدية إلى دراهم، ثم إفراغ بطون هذه الهواتف من حصيلتها المعدنية آخر النهار. وإلا، فأمامك كل الوقت لتتلصّص من وراء مكتبك الخشبي المُتهالك على حيوات الآخرين. آلو نعيمة. آلو الحاج. آلو الحاجّة. آلو الزّين ديالي. آلو حُبّي. آلو. آلو. كاتقطعي التلفون ف وجهي آ القحبة. ها هي ف امك. عقلي فيمن درتيها. مكالماتٌ لا تنتهي. وأنت توفّر القطع المعدنية للزبائن وتتسلّى بالتجسُّس على المكالمات. وعلى حيوات الناس. الفوتوكوبي عملية ميكانيكية لا تقل غباء عن حراسة هذا الفصل أو ذاك في انتظار عودة أحد المدرّسين من المرحاض. أمّا استخدام الكومبيوتر والرّقن عليه ومداعبة لوحة المفاتيح فمُتعة لا تعادلها متعة: مدُّ السبابة للنقر على التاء، والبنصر لمداعبة الميم، والوسطى للضغط الحازم على النون، ضغط خفيف

على الباء، ثم تمرير الخنصر بنعومة على بطن الطاء. الأصابع تتراقص فوق لوحة المفاتيح، ورحّال يلاحق بعينيه المثبتتين على الشاشة ما تخطّه أصابعه المُجنّحة. إحساسٌ غريب بالزهو لا يضاهيه إلا الشعور الذي انتابه وهو يتعلم سياقة دراجة عمه عيّاد النارية فور انتقالهما للسكن معه في بيته بحيّ الموقف. لكن السياقة هنا أكثر متعة وأمانا. سياقة في مدى ضوئي أبيض صاف. لا شوارع مكتظّة ولا درّاجات تحرق الضوء الأحمر، لا حافلات تلوّث الجو بدخانها الأسود الثقيل ولا هدير محركات. لا مارّة خارج ممرّات العبور، لا طوط طوط ولا أبواق سيارات. سياقة آمنة في طريق ضوئي سيّار.

- فوتوكوبي عافاك.

ينهض متثاقلا. يُشغّل آلة الفوتوكوبي. يتسلّم الوثيقة بضجر. ينتظر قليلا إلى أن يسخن الجهاز. ثم: ززززز. يُنهي العملية ويعود إلى الكيبورد. لكنه بالتدريج بدأ يسترق النظر إلى الوثائق. يُطلّ عليها قليلا على سبيل تزجية الوقت في انتظار أن يشتغل الجهاز. إنما مع الوقت سيجد في النّسْخ بعض المتعة. هذا اللقاء مع مجهولين، والتلصّص على حيواتهم من خلال الوثائق التي يقدّمونها له لا يخلو من متعة في الواقع. العملية ليست مملة إلى الحد الذي كان يتصوّره.

إنما دعنا من كل هذا.

ولنعد إلى حصاننا الضوئي المُجنّح.

أصابع رحّال تزداد خفّة ورشاقة أثناء تحليقه على الكيبورد. في قرارة نفسه يحس بالكثير من الامتنان لربيعة. لقد استفاد من الأسابيع القليلة التي قضاها إلى جانبها في محلها الصغير بحومة سيدي عبد العزيز أكثر مما استفاد من المخلوفي وأساتذة الأدب العربي وحلقات أوطم. لَكَم هو سعيد بجهازه. صار يُحلّق أعلى فأعلى، يوما بعد يوم. عثر أخيرا على الذال متخفّيا في صفّ الأرقام، وعرف كيف يسحب الشَّدّة من مكمنها بعدما أضناه البحث عنها في الأيام الماضية. علامة التعجب ما زالت عصية مستعصية، لكنه لن يملّ ولن يكلّ حتى يسحبها من مخبئها هي الأخرى. سيستعمل زرّ "شيفت" ويطوف الكيبورد كاملا حتى يجدها. وأخيرًا. يوريكا. يوريكا. ضغط صدفة على رقم 1 مع زر شيفت وها هي علامة التعجب تمْثُل أمامه ممشوقة القوام. تقف باعتداد فوق قاعدتها الصغيرة الصلبة وهي ترفع حاجبيها إلى الأعلى وتُخرج له لسانها.

ينصر دينك يا رحّال..

اسحَب الفأرة من ذيلها الضوئي وواصِلْ تجوالك البهيج بين الكلمات والجمل. نسّق الفقرات بشكل جيد، اكتُب العنوان بأحرف كبيرة بارزة، غيِّر لون الخلفية، أزل المسافات الزائدة، نسِّق الهوامش والمسافات

البادئة للفقرات، استعمل المدقّق الإملائي أثناء الكتابة..

- خويا واحد الفوتوكوبي عافاك.

- نعم؟

- فوتوكوبي د لاكارت اللـه يخليك.

كانت جميلة فارعة الطول. ترتدي جلابة فيروزية على الموضة بالسفيفة وخيوط الحرير. شعرها أسود فاحم. عيناها كحيلتان. ووجهها حزين.

الاسم: نفيسة كَيطوط

تاريخ الازدياد: 1971.03.14

المهنة: بدون

العنوان: دوار آيت امحمد جماعة (..) إقليم صفرو

يمتـد العمـل بهـذه البطاقـة مـن تاريـخ 1989.08.13 إلى 1999.08.12

لكن ماذا تفعلين في مراكش يا نفيسة؟ لماذا جئت من صفرو بلاد الأرز والكرز، بلاد حَبّ الملوك، ومهرجان حَبّ الملوك، وملكة جمال حَبّ الملوك؟ ما الذي أتى بك إلى هنا يا حزينة العينين؟

العمل؟ أيّ عمل وأنتِ "بدون"؟ أيّ عمل يا نفيسة؟ شابة في جمالك ماذا تفعل في مدينة تبعد عن بلدتها بأكثر من 400 كلم؟

كان رحّال حريصا على مسح الوثائق التي تُسلَّم له بعينيه الثاقبتين قبل نسخها. لكن بعض المعلومات المهمة جدا تضيع من ذاكرته.

نفيسة مثلا: التقط اسم الدوّار والإقليم، لكنَّ الجماعة ضاعت منه؟ هل هي من جماعة حضرية أم قروية؟ من صفرو المدينة أم من البهاليل؟ من هرمومو أم بئر طم طم؟ لم يعد يذكُر. لذلك قرّر ألا يتهاون مستقبلا في مثل هذه الأمور. في المرات المقبلة، سيحرص على أن يوفر لنفسه نسخة إضافية، بشكل سري طبعًا، يدرسها بتمعُّن ودون استعجال بعد مغادرة الزبون.

هكذا بدأ يتجمّع أمام مكتب رحّال أرشيف خرافي: بطائق تعريف، جوازات سفر، شهادات سكنى، عقود نكاح، شهادات ميلاد وأخرى للوفاة، وكالات للبيع وأخرى للشراء، شهادات عمل، جذاذات مدرّسين، تقارير مفتشين تربويين، امتحانات مُعلّمي "أشبال الأطلس" والمدارس المجاورة.

كان رحّال يتسلّى بقراءة تلك الوثائق وتفكيك عناصرها والتفكير العميق في مضامينها. والوثائق التي تثيره أو تستفزُّه أو تُسرّي عنه، يختارها لتدريباته على الكومبيوتر. يضعها على يساره محرّكًا الفأرة بيمناه. يفتح صفحة وورد جديدة، ويشرع في الرّقن.

24

لم يكن حفل زفاف رحّال وحسنية حفلًا. كان يومًا من أيامِ اللـه وليلة فيها من النكد أكثر مما فيها من الفرح. مأدبة صغيرة أعدّتها أم العيد في بيتها بالمواسين: لحم بالبرقوق، دجاج بالزيتون والليمون الحامض، وصينية شاي بمستلزماتها من الحلويات: غريّبة باللوز وكعب غزال، فقط لا غير. لم يكن هناك لا طبَّالة ولا غيَّاطة، لا دقايقية ولا لعَّابات. فقط عبد السلام وأخوه عيّاد وثلاثة من رفاقه من مُقرئي مقبرة باب الخميس إضافة إلى شاهدَيْن عدلَيْن. الحاج القطيفة الكبير حضر المجلس لبضع دقائق. سلّم على أهل العريس وبارك الزواج، أشرف بنفسه على إتمام عقد النكاح، ظلّ واقفا إلى أن سمع العدلان التصريح بالإيجاب والقبول من الزوجين ووثّقاه، ثم دفع لهما وانصرف. وبقيت حليمة البجعة تزغرد وحدها مثل

المجنونة. زغاريد حادة مسترسلة تتمطّط كأنها لن تنقطع أبدا. ظلت تزغرد وتزغرد حتى فطنت إلى أن الكل ينظر إليها باستغراب بمن في ذلك أم العروس، فابتلعت لسانها الطويل وجلست تحدّق في هذا الجمع الواجم وُجُومًا يبدو أقرب إلى مجالس العزاء منه إلى الأعراس. فكرة العزاء ستلح أكثر على حسنية حينما رفع عبد السلام ورفاقه فجأة عقيرتهم بالتلاوة: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

- ألم يجدوا غير "يس"؟ ألا يحفظون غيرها؟، همست في أذن رحّال مستنكرة.

- ولكنها ريحانة القرآن. لكل شيء قلبٌ يا حسنية، و"يس" قلب القرآن يا عزيزتي..

- لا قلب ولا كبد ولا طحال. إنها ليلة عرسي. ثم مالها سورة "طه" مثلا؟ مالها ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾؟ يا أخي فليقرأوا ﴿تَبَّتْ يَدَا..﴾ لو أرادوا. إنما "يس"؟ هذه تقرأ في المآتم، وعلى القبور، وعند رأس المُحتضر، لا في الحفلات والأعراس. لكن اطمئن، ستكون الأخيرة له يا رحّال. إذا وضع أبوك رجله داخل هذا البيت بعد فضيحة الليلة فأنا لست حسنية بن ميمون.

كانت حادثة "يس" كافية لينقلبَ شبهُ العرسِ إلى شبهِ مأتم. العدلان استأذنا في الانصراف، وأم العيد التي انتبهت لتقلُّب مزاج

وحيدتها بدأت في إطفاء الأضواء وجمع المائدة. العروس غادرت غاضبة إلى غرفتها الصغيرة لتُغيِّر ملابسها وتمسح عن وجهها الماكياج الثقيل الذي لم تألف حمله. وعيّاد فهم أن عليهم الانصراف فاقتاد أخاه وصديقيه وغادروا. حليمة كانت آخر من انسحب. أخذت وقتها في تقبيل أم العيد. قبلات صوتية متتالية. عشرة على الخد الأيسر وثلاثة عشر على الأيمن. وأم العيد تبادلها القبل بأخرى أعلى صوتا تُحدِث ما يشبه الفرقعة، خصوصا وأنها كانت تطلقها فقط في الهواء.

***

- نوض آ وليدي ادخل على مراتك.. نوض.

خاطبَتْه أم العيد بابتسامة تحفيز عريضة، إنما بنبرة لا تخلو من استهجان، بعدما لاحظت أن رحّال لا يزال منكمشا في ركن الصالون ضامّا يديه إلى صدره كتلميذ في قسم. ماذا ينتظر هذا المعتوه بعدما انفضّ السامر وذهبت أمه إلى حال سبيلها؟ هل ينتظر مني أن أُكَسْكِسَ له؟

- نوض آ حنيني نوض.

قام السنجاب مرتبكا. اتّجه بخطوٍ متعثّرٍ نحو غرفة حسنية. الغرفة الوحيدة في البيت الصغير إلى جانب الصالون. أما مقصورة أم العيد فهي أصغر من حُجرةٍ وأضيق من مخدع وبلا بابٍ أصلا.

لكن أم العيد من تلقاء نفسها اختارت الاكتفاء بها مباشرة بعد حصول حسنية على البكالوريا والتحاقها بالجامعة. هكذا تركت بنتها، الطالبة الجامعية، تتوسع في الغرفة كما تحب.

- ادخل آ كبيدتي ادخل.. حسنية دابا راها امراتك.. على سنة اللـه ورسوله.. ادخل ما تحشمش.

بدأت السيناريوهات تتزاحم في رأس رحّال وهو يخطو باتجاه غرفة حسنية. كل ما فكّر فيه، كل ما أعدّه، وما قرأه في الكتاب الذي اشتراه من أحد باعة الكتب المستعملة بباب دكالة حول الحياة الجنسية وآداب النكاح وأخلاق المعاشرة، كل شيء يتزاحم في رأسه فيما أنفاسه تتلاحق مضطربة. كان قد رسم عدة سيناريوهات، وحدّد بدقّة خطواته الأولى، وحفظ عن ظهر قلب أزيد من عشر جمل رومانسية لزوم تلطيف الأجواء. لكن كل شيء يتزاحم في رأسه الآن وهو لا يعرف من أين يبدأ.

- داق داق..

- ادخلي..

- لا.. أنا رحّال..

- ادخل..

- ....

- قلت لك: ادخل.. ادخل يا رحّال..

حسنية مضطجعة على السرير في لباس خفيف جدًا. سريرٌ من خشب الشوك الرخيص، لكنه سرير على كل حال، وليس مرتبة مطروحة على أرضية الغرفة مباشرة أيها السنجاب. الوسادتان تبدوان ناعمتين، رشومات الطرز الرباطي توشّي غلافَيْهما ناصعَيْ البياض. طرز رخيص بالماكينة وليس باليد. النصف السفلي من جسد حسنية ملفوف في بطانية مازافيل زرقاء عليها رسم أسد مكشّر. كانت حسنية قد فكّت الربطة التي ظلت تلفُّ شعرها خلال الحفل. ورحّال يرى شعر قنفذته لأول مرة. شعر مُسَشْور بفجاجة أبدت عيوبه أكثر مما أخفتها. قصير من النوع المجعد، جاف متقصّف. كأنه أسود.. أو بُنّي. بل بين الأسود والبنّي الغامق. أما منامتها الخفيفة، التي تكشف عن كتفيها الصغيرين الضيقين وجزءٍ من صدرها الضامر، فلَمْ يتبَيَّن لونَها. كانت غامقة هي الأخرى. في لون شعرها تقريبا.. منامة من النوع الذي..

- أطفِئ النور يا رحّال.

حاول أن يتظارف. فرصتُه كي يهيّئ الجو ويجرّب أساليب الدبلوماسية الجنسية التي خصّص لها مؤلف الكتاب فصلا كاملا.

- ولماذا أطفئ الضوء يا حسنية؟ أريد أن أتفقّد حرثي، أعاين موضع الحرث والغرس. وأتجوّل في بستاني. أرى الرمان ناضجا

والتفاح مورّدا، وأتفقّد حوض النعناع قبل أن أسقيه..

- آش من نعناع وآش من باكور هندي؟ رحّاااال، قلت لك اطفي الضّو.

النبرةُ حازمةٌ هذه المرة. ورحّال الذي كان يمنِّي النفس باللمسات والهمسات وجد نفسه ينطّ من الذعر ويعود ليطفئ الضوء قبل أن يخطو في الظلام باتجاه السرير. البطارية التي بذل مجهودا لشحنها خلال الأيام الماضية نفدت فجأة. حتى دعاء الجِماع الذي حفظه عن ظهر قلبٍ تبخّر.

أنت الآن في جُحر القنفذة. فاصبر وصابر، وادع العلي القدير ألا تُقطِّعك بأنيابها أيها السنجاب.

- يا سيدي ربي.. اللـه يدوّز هاذ الليلة على خير.

***

حينما اندسّ رحّال إلى جانب حسنية اكتشف أنها قد نضَتْ عنها منامتها. فكّت المشدّ عن نهديها الصغيرين، واضطجعت في هدوء. حتى النَّفَسُ غادرها. كانت ساكنة مثل جثة. تحسَّس بيدِه العمياء الجسد الراقد إلى جانبه مثل بحيرة راكدة، فوجد الماء دافئا مع ذلك. احتكاكُه ببطن القنفذة، بفروها الناعم، صيَّره جاهزا. تحسّس بين فخذيه باليد الأخرى. السيف مسلولٌ جاهز للطعان.

ودَّ مع ذلك لو يقول شيئًا حنونًا قبل أن يحضن حسنية ويبدأ باللمس والمداعبة والتدليك والتقبيل، لكنه خشي من ردٍّ فعلٍ مُحبِط.

الأفضل لك يا رحّال أن تشتغل في صمت. خلع عنه ربطة العنق التي خنقته، قميصَه الصيفي والسروال، وأخيرا الكيلوط. لأول مرة في حياته يجد نفسه عاريا أمام لحم حيّ. لحم حقيقي ناعم من النوع الذي كان يتخيّله وهو يحتلم أو يستمني على مؤخرة عتيقة البقرة. تذكّرَ الكتاب. لعن الشيطان في سرّه وتذكّر الكتاب. كانت الجثة جنبه هامدة. لا نأمة ولا حركة. يمكنه إذن أن يأخذ وقته في الاستذكار. تذكّر الفصل الثالث، أهم فصول الكتاب وأمتعها، حيث شرح المؤلف بالتفصيل المُمل الفرق بين البظر والمهبل. وأوضح كيف أن البظر هو العضو الجنسي الأساسي للمرأة وليس المهبل. فبظر المرأة ينتصب كالقضيب تمامًا، ملامستُه والاحتكاك به والاستمرار في مداعبته يوصل المرأة إلى النشوة ويسهّل الإيلاج. دفع رحّال سبّابة يده اليسرى أسفل بطن حسنية. بحث عن حوض النعناع. وجده. غافل قنفذته وأولج أصبعه بسرعة في جُرحِها، ثم..

- آي..آي..

يبدو أنه لم يدرس حركته جيدا. هل فشل في تحديد الموقع؟ أم أن السرعة التي أغار بها على المثلث الأحمر الطري جعلت حركته فظّة فقيرة إلى اللطف؟ على أيّ، سيُعيد الكرّة. سيحاول تمرير أصبعه برهافة أكبر. مثلما في الكتاب.

- شوف اللـه يخلّيك. المسخ وقلة الحيا ما عندي ما ندير بهم. دير داك الشي اللي ف السُّنة ونوض فحالك..

ياه يا رحّال. كنت تريد تبديد مخاوفها بالمداعبات، واستثارتها إلى أن يفرز قنفذها البلل الذي تحدَّث عنه المؤلف فيسهل الإيلاج. لكنها لا تريد. تذكّرَ وضع السُّنة المذكور في كتابه الجامع: رفع ساقيها إلى مستوى كتفه وبدأ يولج سنجابه الصغير في جحرها بلطف. كان مرتبكا خائفا من أيّ ردّ فعل غاضب منها. لكنها عادت إلى سكونها وتقمّصت تحته دور الجثة.

- هئ.. هئ.. هئ.. هئ..

لم يكن صراخا ولا أنينا. لم يكن صوت قنفذ؛ فلهذا الأخير صوتُ رضيع يصرخ. ولم يكن صراخ ألم؛ فالمرأة قد تصرخ بملء فكّيها حين يتمزّق غشاء بكارتها. ولم يكن أنينًا. الأنين صوتٌ يعرفه رحّال جيدا. فحليمة المريضة دائما، والمتمارضة حين تتعافى، جعلت للأنين ألفة خاصة في أذنه. كان شيئا آخر. صوت كالغمغمة الخافتة. أو كالحشرجة. لكنها بالهاء. هئ هئ، هكذا كرّرتها أربع مرات ثم دفعَتْهُ عنها. كان قد أفرغ سائله لأول مرة في بئر حقيقي. لكن دون أن يشعر بشيء. فخارج الإحساس بالدفء، لم يشعر بشيء. تلك الرّعشة التي تهزّ كيانه وهو يحتلم أو يستمني غابت هذه المرة. شيء ما ضاع منه الليلة. أهذا ما كنتَ تُمنّي به نفسك يا رحّال؟ أين

الهزّة التي قرأتَ عنها في الكتاب؟ هزّة الجماع التي ترفع صاحبها إلى أعلى علّيين لثواني معدودات. تلك الذروة التي يبلغها المرء من فرط النشوة قبل أن يسقط خفيفا مخدّرا إلى الأرض حامدا اللـه على أنعمه. لا شيء هناك. مجرد كلام كتب. ثم ماذا عن الدم؟ الظلام يلفُّ المشهد والجثة ساكنة الآن. أريد فقط أن أتفقّد جرحها. أمسح عنه الدم وأسترق النظر إليه لأفرح قليلا بنفسي. لكنها لا تردّ ولا تبدو مستعدة للخروج من سكونها الجنائزي.

﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

لمـــاذا يا عبد الســـلام؟ ألم تجـــد في جعبتك غير هذه الســـورة يا أبي؟

25

لا شك أن لدعوات الحاج القطيفة دورًا حاسمًا في النجاح الذي حالف أعمال ابنه الأصغر. وقف حمار عماد في عقبة البكالوريا. كان واضحًا من علاماته المخجلة أن نجاحه ليس مضمونًا لو كرّر السنة. وحتى إذا ما تجاوز هذه العقبة، فسيجد صعوبة أكبر في التوقيع على مسار جامعي موفّق. لذلك ألحقه الحاج، بإيعاز من ابنه البكر الدكتور عبد المولى، بأحد محلاته بسوق السمارين. بعد فترة تدريب دامت سنة ونصف، غادر عماد، بتدبير من والده دائما، المدينة العتيقة باتجاه حيّ المسيرة الجديد الذي بدأ يستقطب جحافل الموظفين منذ أواخر الثمانينيات. بدأ بمحل صغير لبيع الأثواب، قبل أن يفتح محلا أكبر، من طابقين، لبيع الأثاث المكتبي والمنزلي

والديكورات. عماد الفاشل في دراسته فاجأ الجميع وعرف كيف يكسب بذكائه التجاري الفطري قاعدة واسعة من الزبناء من شريحة الموظفين ممّن يهمّهم تقسيط المبلغ وتسهيلات الأداء أكثر مما تشغلهم أسماء الماركات وجودة الخامات. فراجت تجارته وتوسّع نشاطه بشكل فاجأ الحاج القطيفة نفسه. خلال أربع سنوات فقط انتقل عماد إلى بناية فسيحة قرب قنطرة المسيرة خصّص قسمًا منها للأثواب، تجارة العائلة التي لا يمكن التفريط فيها أبدًا، والقسم الثاني للأثاث: غرف النوم والأرائك الجلدية والبسط والسجاد وطاولات الطعام والخزانات وكل أصناف الإضاءة المنزلية من الثريات البلورية الضخمة إلى الفوانيس الصينية الحمراء.

كان عماد يفرح كلما دخل محله شخص يعرفه: من العائلة وأبناء الحومة القديمة في المواسين الذين انتقلوا إلى المسيرة حتى رفاق الثانوية. زملاء الدراسة بالذات يستقبلهم بحفاوة استثنائية ويخصّهم بتسهيلات ولا في الأحلام. إنها طريقتُه في ردّ الاعتبار لنفسه أمام زملاء توفّقوا حيث فشل هو، وكانوا شهودًا على فشله الدّراسي. بعد حصول زملائه القدامى على البكالوريا تابعوا تكوينهم هنا أو هناك لسنتين أو ثلاث، إلى أربع بالنسبة للمُجازين، ثم التحقوا بوظائف صغيرة مكّنَتْهم من اقتناء شقق في عمارات السكن الاقتصادي بالمسيرة بصيغة "الشراء بثمن الكراء" وبشراكة مع زوجاتهم الموظفات في معظم الأحوال. هم الآن أمام تحدّي تأثيث هذه الشقق، وعماد في

الخدمة طبعًا. يقترح بأريحية كلّ أشكال التعاون. يفرح وهو يسعدهم. يستلم القليل من مدّخراتهم ويفتحهم على تقسيط مريح. الزملاء ذاتهم يأتونه بعد أشهر بأصدقاء في نفس وضعيتهم، وبنفس الاحتياجات. ودائما نفس الجدولة لديون الزبناء الجدد، بالتقسيط المريح دائما. وفي الأخير، صارت هذه الوصفة ورقة عماد الرابحة. أضحى مَلِك الأثاث بالمسيرة والأحياء المجاورة. ملك التقسيط المفتوح على كل التسهيلات الممكنة في الأداء. هي وصفة ناجحة إذن. كل وصفات عماد الناجعة في البزنس حدسها بقلبه وبلغها بأريحيته دون تخطيط مسبق. ثم هناك رضا الوالدين ودعوات الحاج والحاجّة طبعًا.

المدرسة شيء آخر. لم تكن مشروعا تجاريا خالصا، بقدر ما كانت عربون محبة من عماد لزوجته. هيام قريبته من جهة الأم. أبوها الحاج المعطي البلايغي تاجرٌ مرموق في السمارين وصديقٌ حميم لوالده. سحرَتْهُ ابتسامتُها العذبة وعيناها الواسعتان الكحيلتان. نظرتُها الشاردة أغوَتْه وهو طفل لا يزال. آلمه نفورها المتعجرف من أطفال العائلة وأخافته تقلبات مزاجها، لكنه تعلق بها واللي كان كان. خَبِر مزاجَها الصعب وعرف أن حبّها أصعب، لكن قلبه الغبي لم يستشره يوم وقع مبكرا في جيب وزرتها الوردية قصيرة الأكمام. هيام تصغر عماد بأربعة أعوام. وهو ظل يحبُّها وهي تكبر. نهداها يتكوّران، ردفاها يمتلئان، وَعُودها يشتدّ. قامتها تسمق، وجسدها يصير أكثر تناسقا. عيناها تتسعان، وصوتها يعلو. ضحكتها ترنّ،

تقطر عسلا وتصير أشهى. وهو يراقبها في الحيّ وفي المدرسة. ينتظر لمّة العائلة في الأعياد كي يجاورها على طاولة الطعام ويجرّب الاحتكاك بجسدها قليلا، هكذا ببراءة الأطفال. براءةٌ تزداد خبثًا سنة بعد سنة. لكنه خبث بريء صاف. خبث العاشق مسلوب الإرادة. ومع ذلك، عرف عماد كيف يدفن حبه في دواخله ولا يقول. ظل يحبّها بلا كلام ولا رسائل ولا تلميحات. هكذا في صمت.

بعد تخرّج هيام من المركز التربوي الجهوي أستاذة للغة الفرنسية بالتعليم الإعدادي تقدّم لخطبتها. نجاحه في التجارة بدّد خجله من فشله في الحصول على البكالوريا التي كانت هيام قد انتزعتها بميزة. سنة واحدة فقط ستقضيها العروس أستاذة بإحدى إعداديات أحواز مراكش. ثم جاءت فكرة المدرسة لتدخل بنت الحاج المعطي البلايغي وحرم عماد القطيفة عالم البزنس من الباب الذي يناسب تكوينها: مؤسسة للتعليم الخصوصي، مستفيدةً من الإعفاءات الضريبية التي أقرّتها الحكومة لإغراء الخواص بالاستثمار في قطاع التربية والتكوين.

السنة الأولى كانت عسيرة بعض الشيء. متعثّرة ماليا ومشاكلُها عديدة. فهيام وجدت صعوبة في تدبير المؤسسة وكذا في ضبط علاقاتها مع المدرّسين الذين لم تفهم أنه لا يجب بالضرورة أن تستلطفهم وترتاح لهم لكي يشتغلوا معها. لكن مع قدوم حسنية تغيّر الوضع. بنت أم العيد عرفت كيف تعيد الأمور إلى نصابها وتضبط إيقاع العمل داخل المؤسسة. تعامل جدّي مع المعلمين، صارم مع

التلاميذ، والأهم هو أنها عرفت كيف ترضي غرور هيام وتحظى بثقتها. زوجها الضئيل الغامض انزوى في الكَراج المجاور. يبدو أن لديه رواجا لا بأس به في المحل، خصوصا مع نهاية الموسم الجامعي حين يحاصره طلبة الأدب العربي والحقوق والتاريخ والدراسـات الإسـلامية ببحوث الإجازة لرقنها. المهم أنه هناك. يعمل سكرتيرا للمدرسة، كاتبا عموميا للمواطنين، وراقن بحوث للطلاب. دون أن ننسى قبعة السائق. سائق الدراجة النارية. سائق حسنية الخاص من المواسين إلى المسيرة ذهابًا وإيابًا.

أما عماد فقد غادر البيت الكبير بالمواسين واشترى فيلا صغيرة بالمسيرة. استقر بها مع زوجته وانخرط في روتين الحياة السعيدة. بزنس ناجـح. زوجة يحبها فعلا. لكن الحب مثل الصبر له حدود، لذلك جرّب أن يشـغل نفسـه عن حبها قليلا ويشغلها هي بمدرسة "أشبال الأطلس". شلة أنس ظريفة تليق بالمقام. محاميان ومهندس وأستاذ بالجامعة ومدير فندق خمس نجوم. الشلة تلتئم بانتظام مساء الأربعاء والسـبت في بيانو بار الفندق الذي يديره صديقهم بشارع فرنسـا. أمّا الجمعة فيوم مقدس. يجب أن يرى المصلون من أبناء الحيّ القديم عماد وإخوتـه بجلابيبهم البيضاء، والطرابيش الحمر أحيانًا، في الصفوف الأمامية بمسجد المواسين يؤدّون صلاة الجمعة إلى جانب الحاج القطيفة قبل التوجّه جماعةً إلى البيت الكبير حيث تنتظرهم قصعَة الكُسْكس بسـبع خضاري. الحرص الذي يواظب

به عماد على صلاة الجمعة في المواســين لا يقل عن الشغف الذي يقصد به ســهرة شلة الأنس. حتى الأماسي التي يزجيها رفقة هيام في البيت يتسـّكعان بين الفضائيات ويتنقّلان بالتليكوموند من فيلم أمريكي إلى مسلســل عربي ليســت مملة على الإطلاق. فهي في هدوئها الجميل ورتابتها الأليفة، التي يحدث أن تُدمّرها هيامٍ أحيانا بنوبات غيرتها، لا تقلُّ متعة عن الســهر خــارج البيت. لكلّ رُفقةٍ طعمُها الخاص. وعماد يعرف كيف يســتمتع بكل الفُسَح المتاحة. لهذا حجز لنفسه مبكّرا بطاقة انخراط مفتوحة في نادي السعداء.

26

المَغص الخفيف الذي كان يعصر أمعاء رحّال في حضرة وفيق الدرعي بالكلية يداهمه الآن كلما رمق ابن الحاج القطيفة يركن سيارته أمام المحل. عماد مربوع القدّ عريض المنكبين. عيناه تشرقان بطيبة واضحة. ابتسامتُه هي الآخرى تَشي بسماحَته. ابتسامة عريضة تتوسّط وجهه فتُضفي عليه جاذبية خاصة. وجه عماد حليق على الدوام، شعره هو الآخر قصير دائما، يسرّحه بطريقة عصرية طبيعية. عادة ما يفتح أزرار قمصانه من الأعلى صيفًا ليدع زغب صدره يطل منها. أحذيته إيطالية. في الربيع يرتدي جاكيطات لاكوست، ومعاطفُه الشتوية تشبه معاطف نجوم السينما. ساعة كوارتز المذهبة لا تفارق معصمه الأيسر. لكن لم يسبق لرحّال أن

رآه قط ببذلة وربطة عنق. اعتاد عماد أن يرفع يده محيِّيا كلما مرّ من أمام رحّال. يحيّيه بتلويحة قصيرة، وابتسامته العريضة تضيء وجهه الكمثري، ثم يدلِف نحو باب المدرسة. لا يلج محل رحّال ولا يتوقّف أمامه وكأن هذا المحل لا يدخل ضمن مشاريعه وأعماله. لم يكن عماد يهتم للتيليبوتيك. حتى المدرسة، لم يعد يتدخّل في شؤونها. وزياراته تباعدت بعدما اطمئنّ إلى أنّ المشروع وقف على رجليه وبدأ يشق طريقه. وإذ يهُلُّ على "أشبال الأطلس" من حين لآخر، فمن أجل زيارة هيام.

أما ماذا يفعل زوج حسنية بالضبط في جُحره، فهذا آخرُ همِّ عماد. رغم أن العقدة مع اتصالات المغرب باسم عماد القطيفة، إلا أن رحّال من يتابع مع الوكالة كل الحسابات المتعلّقة بمداخيل المكالمات ونسبة الربح الخاصة بهم. ومجموع المداخيل بما فيها ما يُدِرُّه جهاز الكومبيوتر وآلة الفوتوكوبي تُراجِعها معه حسنية. ورحّال لم يكن يقتل نفسه في الشغل. فهو في جميع الأحوال صاحب أجر شهري لا يتأثر بارتفاع المداخيل أو انخفاضها. ومع ذلك، يبدو أن الكل راضٍ عن مردوده بما في ذلك هيام.

كان صعبا على رحّال أن يبقى هو ومحلّه الصغير خارج المجال البصري لهيام التي لم تكن لتتكرّم عليه ولو بتحية صغيرة طائشة. يبدو أنها تلبس نظارة سرية هو على الدوام خارج إطارها.

في البداية، كان حريصا على ترقّب مواعيد دخولها وخروجها. يهبُّ من مقعده، ويتأهب لوضع نفسه رهن إشارتها. من يدري؟ قد تحتاجه في أمر. لكنها لم تكن تنظر باتجاهه أصلا. لم تكن تراه. حتى حين تستدعيه لتُكلّفه ببعض المهام: رقن بعض المراسلات الإدارية والمذكرات التربوية أو نسخ مجموعة من الوثائق، كانت تكلمه ببرود دون أن ترفع رأسها إليه. هل كانت تحتقره؟ ربما. ومع ذلك لم يكن رحّال يشعر تجاهها بأيّ ضغينة. كان فقط يفكّر في علي بن الجهم، ويتذكّر بيته الشهير:

"عيونُ المها بين الرُّصافة والجسرِ/ جلبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري"

لكن، دعك من الرُّصافة الآن، فلسنا في بغداد. نحن في حيّ المسيرة بمراكش. لا رصافة هنا، لا دجلة ولا جسر. فقط قنطرة شارع الداخلة التي لا يعرف أحد من ساكنة الحي السرّ في إنشائها. قنطرة بلا معنى، ولا وظيفة لها. أما العيون التي قتلَتْك يا رحّال فلِمَها تسرح بين الأشبال. مها اسمُها هيام. كنت تأسف لأن الحاج المعطي البلايغي لم يختر لها اسم مها. وتأسف أكثر لأن زوجها الغبي الذي جمع لها أشبال المسيرة في مدرسة خاصة عربون عشق وغرام، لم يبذل أيّ مجهود ليكتشف حيوانها، وهو لا يعاملها مثل مها. بل لعله لم يسمع قط بابن الجهم وبيتِه ليصوِّب نحوها السهم الشعري المناسب.

كلَفُ رحّال بجسدِ الرفيقة عتيقة أيام حلقات النقاش بالكلية، والتصاق صِنْويه الجرذ والجربوع بضرعها في الحلقات والكافتيريا، جعله ينتبه منذ ذلك الحين للانشداد الغريزي الغريب لطائفة القوارض من الذكور إلى فصيلة البقريات من جنس الإناث. والمها بقرة. بقرة وحشية ليست كالبقرات. مهما تشابه البقر. لعلّها حصان. حصان أبيض جميل.. له أيطلا ظبي وساقا نعامة. إنها حصان برأس ظبي. المها ظبيٌ حصان. الفرس التي كانت تمرح في أحلامك يا رحّال وظننتَها حسنية، البياض البلّوري نفسُه، الجسد المتناسق ذاتُه، والذيل الذي ينتهي بخصلة شعر. كانت هيام تزور أحلامك قبل أن تلتقي بها، مرة تحسبها الظبي ومرة تظنها الحصان. وعبثًا كُنتَ تتربّص بجسدها المفتول النّافر تحت جلباب حسنية. ما أخفَّ عقلك!

في البيت، ليلة كل سبت في حدود العاشرة مساءً يحلُّ عيدُ رحّال الأسبوعي، هذا ما لَمْ تشرِّف طلائع الحُمرة الشهرية لتنسف كل شيء. بعد أن يطفئ الضوء ويخلع ملابسه في الظلام وتتقمّص القنفذة تحته دور الجثة، يغمض رحّال عينيه ويبدأ في مطاردة المها. وما إن تلتقي عيناه بعيني الظبي الواسعتين الفتّاكتين، وحتى قبل أن يمرّر يده على الرقبة العظيمة الفاتنة يسبق السيف العذل ليُريقَ سائله سريعًا في بئر حسنية. يحاول مع ذلك أن يحدّق لفترة أطول في العيون السود، يضمّ الظبية إليه ويدفن وجهه بين نهديها، لكن القنفذة الصغيرة لا تحتمل ثقل جسد رحّال فوقها خصوصا بعد أن يكون قد

أنهى مهمته وسقى حوض النعناع. لذلك تُخرِج شوكها فجأة وتشرع في وخزه ليقوم عنها. كل ذلك يحصل في صمت مطبق. حتى "هئ هئ" الضعيفة الخافتة لم يعد رحّال يسمعها من حسنية.

آه يا ابن الجهم..

"وما كلٌّ من قاد الجِيادَ يسُوسها/ وما كلٌّ من أجرى يُقال له مُجْري"

- بالصحة والراحة آ حبيبة. تصبحي على خير، يهمس رحّال في تسليم قبل أن يطفئ الضوء. ليس ضوء المصباح الذي يؤلم حسنية في عينيها حين تكون راقدة تحت وطأة سنجابها العاري، بل ضوء آخر دافئ حميم يشعله رحّال في قلبه خلسة وهو يطارد مَهاتَهُ النّافرة في محمية القنافذ.

***

بقدر ما كان رحّال متفهّما لتقلبات مزاج هيام، متسامحا معها حتى وهي تصرخ في وجهه لأتفه الأسباب، كان عماد يقف له غُصّةً في الحلق.

"يقولون: تبسّمُكَ في وجه أخيكَ صدقة. وهذا الغبي يتصوّر أنه يتصدّق عليّ بالابتسام. يظن أنني أفرح حين يمرّ من أمام المحل ويُلوِّح لي كأنّه ولي العهد. يلعب دور الرئيس العطوف والشاف

المتواضع. لعبتُه انطلَتْ على معلّمي المدرسة الذين صاروا ينسجون حول أريحيته وتواضعه الأساطير، لكنها لن تنطلي عليّ".

لا يمكن لرحّال أن ينسى أنه مجاز. حاصل على إجازة في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة القاضي عياض بمراكش. صحيح أنها دون ميزة، ولم تُمكِّنه من الحصول على وظيفة في سلك التعليم، لكنها إجازة. شهادة عليا معترف بها من طرف الدولة. فيما عماد لم يتمكّن من ولوج الجامعة أصلا ليحلم بهذه الشهادة، فهو لم يفلح حتى في الحصول على البكالوريا. "واليوم، لأنه ابن القطيفة، وجدتُ نفسي موظّفا عنده. وهو يدفع لي، ليس لأنه مقتنع بإمكاناتي، ولكن لأنني زوج حسنية وسائق الدراجة النارية التي اشتراها لها لكي تكون هنا في الوقت المُحدّد: قبل التحاق التلاميذ بفصولهم بنصف ساعة. فيما زوجته لا تلتحق إلا بعد أن تكون الدروس قد انطلقت، وحسنية رتّبت كل شيء".

المغص يعصر أمعاء رحّال كلما مرّ عماد من أمامه أو سمع حسنية تُحدِّث أمها في البيت - بحماس زائد - عن آخر إنجازاته. لكن حينما تصادف العادة الشهرية يوم سبت، ويجد نفسه محروما من نعمة مطاردة المها في محمية القنافذ، ينام رحّال مقهورا. وفي أحلامه الدّامية، يكون الضحية هو عماد المسكين. دائما بالطريقة نفسها. وبالركبة الخاطفة التي تجد بسهولة سبيلها الحاسم إلى الوجه.

مرة دخل رحّال مكتب هيام بشكل مباغت. ضبط عماد يُطوِّقها بذراعيه من الخلف. كانت جالسة في مكتبها وهو يحضنها، هكذا بوقاحة، من الخلف. كان يهمس في أذنها وهي تضحك. ماذا كان يقول لها؟ هل قبَّل جيدها الرحب الطويل؟ هل كان يلحسه؟ أم لعله دغدغ أذنها بشفتيه وأنفاسه؟ هل كان يعضّها؟ لم يستسغ رحّال المشهد. لم يطق هذا الوضع. ودون تفكير، اتّجه صوب عماد بعينَيْن يتطاير منهما الشَّرر، سحبه من شعره بقوة فأسقطه جنب المكتب. هيام انكمشت في كرسيها مذعورة. أما زوجها، فبعدما تخطّى دهشة المفاجأة، تحامل على نفسه وهجم على رحّال يريد دفعه وإسقاطه. لكن هيهات. واجهه رحّال بصلابة، باغته بلكمتين في بطنه، وجرَّه من شعره مرة أخرى إنما ببأس أشدّ هذه المرة. ثم رفع ركبته بشكل خاطف ليغرزها في وجهه، ففار الدم.

حدث ذلك قُبَيْل الفجر بقليل.

السنجاب يدخل العلبة الزرقاء

1

مات الملك، عاش الملك.

ورحّال مثل العديدين من أبناء هذا البلد استشعر الفرق. هناك هواء جديد يتنفّسُه الناس في الشارع والحافلة، في البيت والحارة، في السوق والمقهى، وفي كل مكان. صحيح أن النظام هو هو، فرغم أن المعارضة السابقة وصلت إلى الحكم عام 1998، سنةً قبل وفاة الحسن الثاني، إلا أنها أدارت شؤون البلاد بتَراضٍ كاملٍ معه. "التغيير من داخل النظام.. وفي ظلّ الاستمرارية".. كان هذا شعار المرحلة. الصحف تتحدث عن مقاومة شرسة للمبادرات الإصلاحية التي يطلقها الوزراء الجدد من طرف حكومة الظل وجيوب مقاومة التغيير. الوتيرة بطيئة بعض الشيء. لكن التغيير مُمكِن مع ذلك، والحالمون به يتضاعفون.

مات الحسن الثاني ذات جمعة قائظة من يوليو 1999. شرع التليفزيون المغربي في بثّ آياتٍ من الذّكر الحكيم، والمغاربة يتساءلون عن سبب حالة الورع والتقوى المباغتة التي طرأت على مسؤولي البث والبرمجة في التليفزيون. انفتح الباب على مختلف التأويلات وسَرَت الإشاعات بين الناس. تحدثت وكالة الأنباء الفرنسية عن احتمال وفاة الملك حسب أوساط مقرّبة من القصر. لكن المعلومة بقيت حبيسة فرنسا. فيما ظلّ الشعب هنا يترقّب إلى أن أصدرت وكالة الأنباء الإسبانية قصاصة تعلن وفاة العاهل المغربي.

مات الملك. لكن الملوك لا يموتون لأكثر من بضع ساعات. وبعدها يدخلون درس التاريخ ويرتقون مدارج الأسطورة. موت الملوك لا يدوم أكثر من سويعات. مات الملك، عاش الملك. ففي نفس اليوم تمّت البيعة لولي العهد محمد بن الحسن في قاعة العرش بالقصر الملكي بالرباط. وحكومة التناوب، التي يقودها معارض سابق كان محكوما بالإعدام خلال سنوات الرصاص، بدت أحرص ما يكون على أن تمرّ اللحظة الانتقالية بسلاسة، وعلى أن يأخذ الملك الشاب فرصته كاملة للإسهام في مسيرة الإصلاح.

مات الملك. عاش الملك.

أشياء كثيرة تغيرت يا رحّال. أشياء كثيرة. المخادع الهاتفية تراجعت وحلّت محلّها بطاقات التعبئة والهواتف النقالة. حتى المراهقون

صاروا يتجوّلون أمامك بموبايلات من مختلف الرّنّات. هواة جمع الطوابع البريدية بدأوا ينقرضون، فالرسائل الإلكترونية لا تحتاج ظرفا ولا طابعا ولا حتى ساعي بريد. دراجتك النارية من نوع بوجو 103 التي كانت تُقلّك أنت وحسنية إلى المسيرة تحوّلت إلى سيارة فياط أونو. السيارة مستعملة، لكن محرّكها ما زال ينبض بعزم ويهدر بقوة ويدور بدأب كالنحلة. حسنية نجحت في الحصول على رخصة السياقة، وهي الآن من يلعب دور السائق. وحين تتأخّر في العمل يكون عليك أن تستقل الحافلة إلى جامع الفنا. أحيانا تندسّ وسط كائنات مريبة في تاكسيات منتصف الليل الجماعية. ومن قلب الساحة تنعطف باتجاه أقرب زقاق يُفضي بك إلى المواسين.

صار رحّال يتأخر أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة. فمقهى الانترنت الذي يشرف عليه تُواصل العناكب نسجها لخيوط شبكاته الإلكترونية بهمّة وتفان حتى منتصف الليل، وقد تتجاوزها إلى ما بعد الواحدة حين تشتدّ حرارة مراكش ويصير ليل الحمراء مغريا بالسهر.

زبناء السيبركافي شبابٌ في الغالب. بينهم مراهقون. يحدث أن يزور المقهى بعض الكهول أيضا، إنما دون انتظام. أغلبية الرواد المداومين صبايا وفتيان من تلاميذ الثانوية المجاورة. هناك طلبة أيضا، وبضعة عاطلين.

"فقط لو وافقَتْ حسنية. حياتنا الجديدة صارت هنا في المسيرة وعليها أن تقتنع بهذا الأمر. بيت المواسين القديم المتهالك لم يعد لنا أكثر من مرقد. مرقد بئيس كان مفهوما أن تتّخذه ملاذًا أرملةٌ مُعْدَمةٌ تعيش وحيدةً مع ابنتها، لكنّه لم يعد يناسبنا اليوم. مرقد بعيد يَلزَمُك سفرٌ حقيقي لتَبْلغه. المدينة القديمة ضاقت بأهلها وناسها، والحياة صارت فعلا في مكان آخر. في أماكن أخرى. حتى أبناء القاع والباع من العوائل المراكشية العريقة ينزحون تباعًا باتجاه الأحياء الجديدة. وهاهم اليوم يقطنون بالداوديات والمسيرة وأزلي وحيّ الإنارة، بل حتى في حيّ المحاميد النائي الذي انتشرت تجزئاته ومبانيه كالفطر بمحاذاة مطار مراكش المنارة".

مات الملك. عاش الملك.

"أم العيد انتقلت هي الأخرى إلى جوار ربها منذ ثلاث سنوات. كانت متسمِّرة أمام شاشة التليفزيون في الصالون، تتابع حلقة جديدة من المسلسل المكسيكي المُدبلج، حينما سحب صاحبُ الأمانة من جسدها الضئيل أمانتَه. حلّقت روحُها المتعبة بأجنحة أثيرية خارج جسدها الضعيف في صمت وهدوء ودون سابق إشعار، ومِنْ يوْمِها وأنا أحاول إقناعكِ يا حسنية بأنه لم يعد هناك بعد رحيل أم العيد ما يُلْزِمنا بالبقاء في المواسين.

لنبحث عن شقة صغيرة في إحدى العمارات المجاورة للمدرسة،

نؤثّثُها بالتقسيط المريح من محل "القطيفة" ونستقرّ مثلنا مثل كل الناس. المدينة القديمة لم تعد تصلح للعيش، وبُعد المسافة بينها وبين المسيرة أنهكنا تمامًا. حتى عماد وهيام، وهما من أبناء المواسين أبًا عن جدّ، استقرّا في فيلا صغيرة وأنيقة بالمسيرة. فلماذا تحكمين علينا برحلة العذاب اليومية هذه؟".

2

ما كان عماد ليتخيّل يومًا حجم ما يناله من لَكْم ورَفْس خلال أحلام السنجاب الدامية، وإلّا لما دافع عنه بكل تلك الاستماتة. فحينما اقترحت هيام استغلال العطلة الصيفية لسنة 1999 لإضافة طابق ثالث إلى البناية لتعزيز البنية التحتية لمؤسسة "أشبال الأطلس" بثلاث حجرات درس جديدة، لم يفُتْها أن تقترح أيضا تحويل كَراج الطابق السفلي إلى حجرة إضافية. هكذا تربح المؤسسة أربعة فصول جديدة تؤهّلها لتلبية الطلب المُتزايد.

- ورحّال؟

- مالو رحّال؟ واش ولدتو ونسيتو؟

- لا يا هيام، ما ولدتيه ما ربّيتيه. لكنه معنا منذ البداية، صار واحدا منا ولا يمكنني التخلّي عنه هكذا دون سابق إشعار. ثم إنه زوج حسنية، والحاج يا حبيبتي دائم السؤال عنها وعن رحّال، وهو يوصيني بهما خيرا كلما جئنا على ذكرهما. صحيح أنّ التيليبوتيك لم يعد مزدهرا كما كان عليه الحال في السنوات الأولى، لكن رحّال يجتهد في أنشطته الأخرى ومردودُه ليس سيّئا على كل حال.

تشبّثت هيام بموقفها، وتشبّث عماد بموقفه.

والسنجاب ليس هنا.

فهو كالعادة يشتغل في أمان كما لو أنّ المحلّ الذي يعمل فيه من حُرّ أملاك أبيه. أو كأنّه يتوفّر على عقد عمل ورقم تأجير لا غبار عليهما يؤمّنان له الراتب الشهري والتقاعد المريح بعد سنوات العمل. لذلك يشتغل في أمان تام. يرقن بحوث الطلبة بهمّة، ويتنصّت على مكالمات زبناء التيليبوتيك بفضول جارف تخفيه ملامحه الوديعة المحايدة، ويُخزّن أرشيف الفوتوكوبي باطمئنان. وفي الليل ينتبه جيّدا إلى حركته على السرير ويتقلب بحساب لكيلا يزعج حسنية. وكدأبه، يتسلى مساء كل سبت بمطاردة المها في محمية القنافذ، وينكّل بعماد في منامه كلما نزَفَ سبْتُه ودارَتْ حسنية جُرحَها عنه. لكن عماد، الذي لم يعتد الانتصار في معاركه مع هيام، وجد مَخرجًا يحفظُ كرامته ويُرضي ريحانة قلبه.

ما يهمُّ هيام هو السطو على الكّراج. لذا سمح لها بإغلاق محل رحّال وتحويله إلى حجرة دراسية، فيما فكّر هو في استثمار كفاءة زوج حسنية في مجال الكومبيوتر بشكل أفضل. وليس هناك ما هو أفضل من فتح مقهى انترنت. ومن حسن حظه أن محلا تجاريا بشارع الداخلة لا يبعد كثيرًا عن المدرسة كان معروضا للكراء. المحل فسيح، ويناسب طموحات عماد الذي بدأ يستعد بجدّية لمغامرة السيبركافي. أما رحّال فقد تأكّد بالملموس وهو يسافر يوميا عبر الشاشة الزرقاء ويتسكّع صباح مساء بين المواقع الإلكترونية أنّ الحياة صارت فعلا في مكان آخر.

3

ياه يا رحّال..

ما هذا الهناء؟

أوَ كنتَ تحلم بهذه السِّعة؟ وتتوقّع كلّ هذه الحظوة؟

ليست الشاشاتُ المبثوثَةُ في أركان المحل ما أسعد رحّال وأفعم قلبه بالفخر، ولا المهمةُ الجديدةُ التي صار يزاولها وهو يفتح لزبنائه الجدد أبواب الإسراء باتجاه ملاذات من ضوء ومراسي من أثير أزرق، وإنما المرحاض العصري النظيف الذي يتوفّر عليه المحل. مرحاض حسن الإضاءة بطلاء أزرق فاتح يحتل موقعا استراتيجيا أمام مكتب رحّال. باب المحل بينهما واسع تُزيّنُ واجهتَهُ من فوق لوحة إعلان زرقاء أنيقة تحمل الاسم الذي اختارته هيام بنفسها:

"سيبركافي أشبال الأطلس". أجهزة الكومبيوتر مرصوصة في عمق المحل وعلى الجنبات بشكل يجعل الزبناء يبحرون ووجوههم مشدودة إلى شاشات الأجهزة المسنودة على الجدران فيما يستطيع رحّال أن يتلصّص من موقعه على كل الشاشات من وراء ظهور الزبائن حيث يبقى الشخص الوحيد الذي يسند ظهره للجدار ليتحكّم في القاعة ويراقب ما يجري. وكلما تعب من التلصُّص على شاشات الآخرين، اتّجه ببصره نحو الفضاء الوحيد المفتوح في وجهه، والمقابل لمكتبه: المرحاض. لذلك يتعمد فتح باب المرحاض ليستمتع بنظافته العجيبة وطلائه الأزرق الحالم.

فكّر رحّال في أن يغطّي كرسي المرحاض بكيس لكي لا يستعمله أحد. أن يُحرِّم استعماله حتى على نفسه. سيجعل من هذا الفضاء الأزرق النظيف مطبخا يُهيّء فيه طواجنه اللذيذة سهلة التحضير التي تأكل عليها حسنية أصابعها: ربع كيلو دجاج. حبتا طماطم. بصلة واحدة. أربع حبّات بطاطس. فص ثوم. ملعقة زيت واحدة. قليل من الملح والإبزار وسكنجبير والفلفل الأحمر. يأكل هو فيشبع، أمّا حسنية فتأكل أصابعها. طرقت الفكرة رأسه أكثر من مرة خصوصا مع ندرة استعمال زبناء السيبر للمرحاض. فهم حريصون على استثمار الساعات وأنصاف الساعات كاملةً في الإبحار والدردشة. لم يكن لديهم وقت للتردّد على المرحاض.

ألحّت عليه الفكرة أكثر من مرة أثناء سرحانه في الطلاء الأزرق النظيف الذي يقابله، لكنه طردها بحزم. مرحاضُه أنظف مِنْ أن يُلوّثهُ بالطبيخ وروائح الطاجين. ورحّال غير مستعد للتضحية بالعمق الرومانسي الأجمل في محله الجديد فقط من أجل طاجين سيحمله إلى المدرسة ليقتسمه مع حسنية. ومن يدري؟ قد تدعو حسنية هيام إلى الطاجين فينال إعجابها وتصدر الأوامر بتعيين السنجاب طبّاخا رسميا لهما هو الذي لم يصدِّق بَعْدُ أنّه تخلّص من دور السّائق.

رحّال تخلّص أيضا من سفره اليومي من المدينة القديمة إلى المسيرة ذهابا إيابا، بعدما انصاعت حسنية أخيرا لأوامر هيام. فبعد إنجابها لتوأم، انشغلت هيام بهما عن "أشبال الأطلس". صارت تتأخّر في الالتحاق بالمؤسسة، وبدأ الشغل كله يتراكم على حسنية. حسنية الآن أول من يحضر وآخر من يغادر. صارت فعلا الكلّ في الكلّ. لذا أصدرت هيام أوامرها المطاعة بأن تنتقل حسنية للسكن في المسيرة. وعماد كان هناك ليُضفي على القرار الصارم لمْسَته الحانية. هو من وجد الشقة في عمارة تشرف على قنطرة المسيرة، يعني خمس دقائق مشي بالنسبة لحسنية ورحّال. وهو من تكفّل بتجهيزها على حسابه الخاص من ألفها إلى يائها. كان على السنجاب وقنفذته دفع ثمن الكراء. لكن مع الزيادة في الراتب التي أقرّها عماد لحسنية، نظير مهامّها الجديدة، صار ممكنا تحمُّل كلفة إيجار شقة جميلة ذات نوافذ مفتوحة على شارعين، وتشرف أيضًا

على قنطرة شارع الداخلة التي حفروا الطريق لكي يغرسوها هناك كقطعة ديكور لا مبرِّر لها قبل أن تفاجئهم الحفرة بتحوُّلها مع كل تهاطلٍ للأمطار إلى بركة ماء تقطع حركة السير.

وهما يغادران بيت المواسين سيكتشف رحّال لأول مرة أن تلك الدويرية الملتصقة كقُرادَة برياض القطيفة هي في الحقيقة جزءٌ لا يتجزّأ من الرّياض. فالدّويرية ليست لأم العيد، وإنما كانت الأرملة تعيش هناك مع ابنتها فضلًا من الحاج وإحسانا. لكن ما فاجأ رحّال أكثر هو حالة الاكتئاب التي تلبّست قنفذته. لم يفهم لِمَ كل هذا الأسى؟ كأنها أبو عبد اللـه الصغير يغادر قصر الحمراء باكيا مثل النساء مُلكا لم يحافظ عليه مثل الرجال. لكن حسنية لم تسكب دمعا، فعيناها شحيحتان. لم تبك ولم تنشج. فقط تقلّصت ملامحُها وازداد وجهها صفرة وغمرها شرود غريب.

أما رحّال فقد أسعدَتْه الشقة الجديدة بغرفة نومها المودرن، وأثاثها الشِّيك. رغم أن ما يهمه أكثر هو أنه صار ينام في مكان لا يبتعد كثيرا عن المحلّ. فرحُه الحقيقي كان هو المحلّ: سيبر "أشبال الأطلس". المكان الآخر الذي انتقلت إليه الحياة.

4

المحل الجديد فسيح فعلا. فسيح ونظيف. سقفه عال بشكل ملحوظ. أما الأرضية فمن زليج إسباني "بيج" فاتح بالغ النعومة حتى أن رحّال أحسّ وهو يخطو فوقه أول مرة كما لو يتزلج على جليد.

ياه، هل تعرف معنى أن تجد نفسك في محل فسيح بسقف عال وأرضية ناعمة ومرحاض نظيف حسن الإضاءة؟

في عين إيطّي كان المرحاض تَرَفًا غير متاحٍ للجميع. أغلب ساكنة الحيّ العشوائي يفعلونها في أكياس بلاستيكيةٍ سوداء تُرمى في خنادقَ محيطةٍ بالحيّ مُعَدَّةٍ لهذا الغرض. أما الاحتياجات البسيطة، مثل التبوّل والاستنجاء فيمكن قضاؤها في البيت لتأخذ طريقها عبر قنوات الصرف غير الصّحي التي كانت تنتهي في مجاري صغيرة

تعبر الأزقة باتجاه وادي إيسيل. كان رحّال وأسرَتُه يأخذون راحتهم في مَعْزل ضيّق لا تتجاوز مساحته المتر مربّع، تتوسّطُهُ فتحةٌ صغيرةٌ تصبُّ في الأخدود الذي يخترق الزقاق. لكن حين تكون الأمور جدّية يتخوّف الكل من اختناق الفتحة، فيصير الكيسُ البلاستيكي الحلَّ الوحيد المتاح لمن لا يريد الذهاب بعيدا إلى أطراف الحيّ حيث يمكن للواحد من أبناء عين إيطّي - وحتى بناته ونسائه - قضاء الحاجة في الهواء الطلق محروسين بالعناية الربانية ونباح الكلاب الضالة.

نباحُ الكلاب..

لا شيء يُحفِّز رحّال على التخلّص بسرعة مما في بطنه من فضلات مثل النّباح. وإلّا، حين لا يسمع نباحًا في الخلاء المجاور، تستعصي الأمور. منذ طفولته وهو يعاني عسرًا غريبًا في التبرُّز. فقط عندما تنبح الكلاب، ومن فرط خوفه منها، يفتح اللـه عليه فيُلَيِّن ما في بطنه ليجدَ العجينُ القذرُ سبيلَهُ خارج مصران المُستقيم بقدرة السميع العليم.

لكن، في إعدادية "عبد المومن" لم تكن هناك كلاب.

بلى.

للحارس كلبان ضخمان أسودان. كلبان كسولان قليلا النباح، مربوطان دائما جنب بيته المجاور للملاعب الرياضية. كان الحارس

علال يفك رباطهما بعد مغادرة التلاميذ في السادسة مساء فيبدآن في الركض داخل ساحة المدرسة وفي الملاعب. هكذا يسعد الحارس بصحبة أطفاله مساءً والارتماء في أحضان زوجته ليلًا ليُوكِل للكلبين مهمة حراسة المؤسسة نيابة عنه.

لكننا الآن في الفترة الصباحية، ومسكن الحارس بعيد عن المراحيض، والكلاب مربوطة، ولم يكن هناك ما يخشاه رحّال وهو يقعي في المرحاض مجاهدًا لطرد الفضلات من جسمه. يضغط على عضلات بطنه بقوة. فخذاه مُنْثَنِيان تحت بطنه، وأنفاسه تكاد تنحبس من شدة الضغط. يضغط ويضغط دون جدوى. كان رحّال يكتفي بحصة تبرُّزٍ واحدةٍ في اليوم، يفضّل أن يقضيها في المدرسة بدل الكيس القذر أو الهواء الطلق حيث تصفع الريح مؤخرته العارية أيام البرد ويتهدَّدُه خطر الكلاب السائبة ويفزعه نباحها. كان دقيقا وهو يضع ذلك الموسم ما يشبه استعمال زمن مدرسي للتغوّط. برنامج مدروس بعناية راعى أثناء وضعه عدم لباقة أن يستأذن للذهاب إلى المرحاض الأستاذ نفسه مرتين في الأسبوع. وهكذا جعل موعده صباح الإثنين مع أستاذ التربية الاسلامية في حصة التاسعة. الثلاثاء في ساعة العربية. الأربعاء حصة التربية البدنية. الخميس يستأذن أستاذ الرياضيات. الجمعة لا مشكلة، فهو يقضي حاجته في مرحاض المسجد قبل وضوء صلاة الجمعة. والسبت يؤجّلها إلى آخر حصة في الأسبوع: حصة العلوم الطبيعية، ساعتان بين

الرابعة والسادسة مساء. ويوم الأحد يفعلها في المقبرة حين يزور والده عبد السلام هناك.

***

العُسر الذي يعانيه رحّال في قضاء حاجته عرَّضه مرارًا للعقوبة. لم يكن ينتبه إلى مرور الوقت وهو يعصر أمعاءه في المرحاض. مرة استأذن مع بداية الحصة ولم يعُدْ إلّا وزملاؤه يتأهّبون للخروج، ممّا عرّضه لتقريع جارح من طرف أستاذ التربية الإسلامية. ظل الأمر على هذه الحال، إلى أن ألهب أستاذ الرياضيات مرّةً خدّه بصفعة جائرة.

كان رحّال مجروحا مكسور الخاطر. قرفص في المرحاض يعصر قولونه ويضغط على عضلات بطنه فيما الفضلات معتصمة داخل أمعائه الغليظة ترفض الخروج. أشفق على نفسه حين تذكّر صفعة الأستاذ. كان يضغط بشدة وهو يتحسّس خده حينما عنَّ له أن يلتقط بين أصابعه طبشورة حمراء مبلولة كانت ملقاة أمامه. تبًّا، إنها رائحة بول. أحدهم بال عليها. لكن، لا يهم. تشبّث رحّال بالطبشورة القذرة بين أصابعه وخطَّ على الباب أمامه بسرعة: "اليعقوبي أستاذ الرياضيات حمار". لم يكد ينهي الجملة حتى أحس ساقيه تصطكّان وقلبه يخفق بشدة. تخيّل الأستاذ والمدير وأعوانه يفتحون الباب بقوة ويضبطونه متلبسًا بالكتابة: حمااا.. ارتعشت يده وتلاحقت ضربات

قلبه ومع ذلك لم يعرف كيف واتته القوة لينهي الجملة وهو يعصر أمعاءه ليفرغها دفعة واحدة.

من يومها لم يعد يذهب إلى مرحاض المدرسة إلا بطبشورة أو قلم لَبَدِي مُلوّن أو بركار في الجيب. وما إن يستوي مقرفصا حتى يبدأ في الكتابة: المدير مكلّخ. السي خليفة الحارس العام عروبي موسّخ. بوشتة الدكالي كفّات ضرّاب الخمسة. سليمة الشاوي قحبة طايحة مع أستاذ الرياضة. يبدأ بالتلاميذ الذي يحتقرونه، ثمّ الأساتذة الذين يعاقبونه أو يُغْلِظون له القول، فالإداريين لأنّهم إداريون. وحتى حين لا يكون مغتاظا من أحد، يروِّح على نفسه بالتّجنّي على أحد زملائه أو زميلاته يختارهم هكذا كيفما اتّفق، فقط من باب خلط الأوراق. مرة شتم نفسه، ربما لإبعاد التهمة عنه. الأهم هو أن يخطّ شتيمة ترفع نسبة الأدرينالين في دمه وتجعل قلبه يخفق فيضغط بشدّة ويحرّر أمعاءه ليعود إلى القسم دونما تأخير.

لم يفهم رحّال لماذا تلحّ عليه هذه الذكريات الخرائية هنا والآن. كان قد استأنس جدا بالطّلاء الأزرق الرومانسي لمرحاض المحل. لذا ترك الباب مواربا لتتموَّج أمامه الزرقة مكسِّرة لون البيج الطاغي في المحل جدرانا وأرضية. الأزرق نظيف وكرسي المرحاض يلمع، ورحّال لا يتردّد في فتح باب المرحاض كلما أحكم إغلاقه زبونٌ بعد الاستعمال.

كان يزحلقِ رجليه على البلاط الناعم ويمسح بقطن نظراته جدار المرحاض. لكن ما إن يشرد قليلا، حتى تعود به الذاكرة إلى مراحيض الطفولة.

***

"مراد المريني كا يموت على نورا الشهبة الثانية 4"

آي ياي ياي..

الجملة محفورة على باب المرحاض ببركار. فهل هي صرخة عاشق ولهان؟ اعترافٌ يائسٌ؟ أم لعلها وشاية رقيب فظّ؟

في البداية ظنّ رحّال أنه وحده يخطّ على جدران المراحيض وأبوابها بسبب عُسر التبرّز لديه. لكنّه اكتشف فيما بعد أن الأمر يتعلّق برياضة شعبية يمارسها كلّ التلاميذ تقريبا. إنهم يُغَرْفِتُون بجميع الوسائل. بكل أنواع الأقلام المتوفّرة لديهم بما فيها أحمر الشفاه بالنسبة إلى البنات. حتى الذي يجد نفسه دون قلم في الجيب، يمرّر أصبعه على زجاج النافذة المكسُوِّ بالغبار ويوقّع رسالته. الخربشات في "إعدادية عبد المومن" تكسو الجدران والطاولات، تتخفّى وراء الأجنحة المتحرّكة للسبورات، أحيانا تطفو مثل بقع شنيعة على مكاتب المدرِّسين. لكنّ رحّال مُكْتَفٍ بالمرحاض. بحاجته الماسة لأن يخربش شيئا فقط ليفرغ أحشاءه بأسرع وقت ممكن ويعود إلى القسم.

"مراد المريني كا يموت على نورا الشهبة الثانية 4"

الجملة طريةٌ لا تزال، كأنّها نُقِشت للتوّ.

كان رحّال هو الآخر يحمل بركارا في جيبه. ولأنه لم يكن قد حضّر شيئا لشَخْبَطةِ اليوم ولا حدّد هدفا لغارته المرحاضية، انشغل بالجملة أمامه. هو لا يعرف مراد ولا معشوقته الشقراء، وليس متأكّدا من الحب الذي تحكي عنه الخربشة. لكنه لن يدع الفرصة تمر. امتشق بركاره وهو يقعي في المرحاض ضاغطا على عضلات بطنه، وبدأ يطعن في جثة الحب المصلوبة أمامه:

"مراد المريني مراهق مغفّل، ونورا الشهبة قحبة ناكها كل تلاميذ الثانية 4"

وانتهى الأمر.

زرّر رحّال فتحة سرواله على عجل وعاد إلى قسمه. فالمفروض أنّ الحكاية انتهت.

لكن حين ولج بعد أكثر من أسبوع نفس المرحاض - الأخير في صفّ مراحيض الأولاد - وكان هذه المرة مغتاظا من أستاذ التربية الإسلامية حريصا على النيل منه بجملة بغيضة ما زالت لم تتشكّل بعدُ في رأسه. استلّ قلمه الجاف وترك يده ترتجل وحدها الشتيمة المناسبة. وهو يبحث عن حيّز ملائم وسط الخربشات المتراكمة

على الباب، فاجأته جملة محفورة بمقص هذه المرة أسفل جملته القديمة:

"مراد ناك امك آ الزامل.. ونورا بزّاف عليك وعلى القحبة الخانزة ديال اختك"

الرائحة في المرحاض نتنة بشكل خاص ذاك الصباح. زكمت أنف رحّال، لكنه سيتحمَّل. حتى الفضلات المعتصمة داخل أمعائه لم يهتمّ بها. نسي أستاذ الاسلاميات. عليه الآن أن يجد الرد المناسب على هذا السافل الذي شتمه وشتم أمه، بل بلغت به الوقاحة مداها ليجترئ على أخته. رحّال وحيد والديه، لا إخوة له ولا أخوات، ومع ذلك فإن شتم أخته بهذا الفُحش واتهامها بالعهر أمر لا يمكن السكوت عليه.

"مراد لو كنتَ رجلا كُون تكلّمت مع القحبة ديالك مباشرة، ماشي تبقى تستمني عليها ف التواليت، واسيادك ف الثانية 4 والثانية 5 شابعين فيها نيك من اللُّور ومن قدّام. ولكن انت براسك محتاج اللي ينيكك آ الزامل".

هذه المرة جاء الفرج سريعا إذ تحرّرت أمعاء رحّال وهو في منتصف ردِّه الناري على مراد، أو على الواشي الخبيث الذي ورّط المدعو مراد المريني في هذه المعركة النّتنة.

5

مراد المريني. سليمة الشاوي. نجوى بنرحمون. وداد الطبايلي. أحمد الرّوندة. أسماء عديدة تحلّق في سماء ذاكرتك يا رحّال منذ أيام الدراسة في إعدادية عبد المومن بن علي الكُومي وثانوية محمد الخامس باب أغمات فيما بعد.

أسماء كانت تتكرّر مرتبطة بالشتائم الجنسية الفاحشة في المراحيض، أو بالغــزل العفيف على الســبورات والطاولات، أو كانت تضيء لوحدها الجدران مثل فوانيس صغيرة معلّقة.

أحمد الرّوندة قيس الثانوية الذي ظل الجميع يتساءل عن هوية ليلاه. قيس المعشوق الذي لم تصبر ليلى على نار حبه، فبدأ شبحها يطوف بالثانوية في غفلة من الجميع ليحفر بوحها بكل اللغات الممكنة

على الأبواب والجدران:

Ahmed Errounda.. Je t'aime

أحمد الرّوندة.. كانحماق عليك

Ahmed Errounda.. I love you

عاشقة أحمد الرّوندة لم تترك حائطًا لم تخطّ عليه لواعجها ولا سبورةً لم تنقش فوقها أسرار هواها.

ولأنّ كلّ التلميذات، والتلاميذ أيضا، صاروا معنيين بالتعرُّف على كاسر قلوب العذارى الذي يدرس معهم في الثانوية، فقد بدأ السؤال عنه ليكتشف الجميع أن هذا الفتى المعشوق أقرب إلى عنترة بن شداد العبسي منه إلى قيس بن الملوح. كان أسود البشرة أفطس الأنف مفتول العضلات بشعر خشن وابتسامة جميلة مع ذلك.

من هي سيئة الحظ اللي طاح حبّها على عنترة؟ فأينكِ يا عبلة أينك؟ متى تحلّين بالجَواء؟

ظلت عبلة بثغرها المتبسِّم طيّ الكتمان. أما عنترة فكل بنات الثانوية اللواتي صرْنَ يراقبْنَه زمن الاستراحة انتبهن إلى جمال ابتسامته. وفعلا فقد تربّع الروندة على عرش النجومية في الثانوية لأسابيع.

لكن بعد ثلاثة أشهر فقط من ذيوع اسم أحمد الرّوندة وشيوع

أسطورته، سيفاجأ تلاميذ ثانوية محمد الخامس ذات صباح ببلاغ للسيد الناظر مكتوب بخط صارم الرّسم واضح الحرف على السبورة الحائطية يُعمِّم قرار المجلس التأديبي للمؤسسة توقيف أحمد الرّوندة عن الدراسة لمدة أسبوعين بعدما ضبطه علال الحارس وراء المخادع الرياضية منهمكا في غَرْفَتَةِ جملته الأثيرة "أحمد الرّوندة كانحماق عليك" مستعملا بخَّاخ صباغة هذه المرة، من النوع الذي لا يستعمله إلا الرّاسخون في الغرافيتيا.

***

لم يكن رحّال مُغْرَما باسمه لينقشه على الحيطان، ولا مجنونا ليوقّع سخافاته المرحاضية باسمه. عموما لو فعلها لانكشف أمره بسهولة. فقد كان "رحّال" الوحيد في إعدادية عبد المومن. وحتى في ثانوية محمد الخامس باب اغمات، لم يُسْمَع برحّال آخر غيره في كلّ المؤسسة.

رحّال يا عبد السلام؟

رحّال؟

عبد السلام مثلا اسم معقول. ليس تحفة ولا فلتة من فلتات الزمن. لكنه اسم معقول. مقبول يعني. لا يثير اهتمام أحد. فلِمَ لم تبعثني عبدًا بين العباد: عبد العزيز، عبد الغفور، عبد الحق، عبد الرحيم،

عبد الرحمان، عبد السميع، عبد الودود، عبد الحي، كلها أسماء تشبه الأسماء.. لكن رحّال؟

تقول حليمة إنك أطلقت عليّ هذا الاسم تيمّنا بالولي الصالح بويا رحّال البودالي. لكن بويا رحّال دفين زمران وأصله من تمدولت بوادي أقا وأنت من عبدة؟ آش جابك ليه يا الغْوينة؟ كنتَ اخترْتَ وليًّا من أولياء عبدة باسم أقلّ سخفًا وأنهيْتَ الموضوع.

يحكي عمّي عيّاد أنّ بويا رحّال كان في طريقه إلى تادلة قصد زيارة سيدي محمد بن داود البوزيري، فلما بلغ وادي أم الربيع وجد السيل قد اجتاح الوادي والنهر قد فاض. قرأ بويا رحّال كلاما من أذكار الصوفية فانشقّ النهر نصفين وصار بينهما طريق يابس عبره هو وأصحابه آمنين. شي اللـه آ بويا رحّال. لكن ما دخلي أنا؟

الصورة التي في الصالون. الصورة القديمة المهترئة التي ظلت تتبعنا من بادية عبدة إلى عين إيطّي حتى صالون بيت عمّي عيّاد في الموقف تُظهر رسما عجيبا لبويا رحّال راكبا على ظهر أسد في السجن. يحكي العارفون أنها كرامة من كرامات دفين زمران. فحين أراد السلطان الأكحل التخلّص منه وسجَنه مع أسد، لم يفترسه هذا الأخير. وحين جاء السلطان ليتفقّد الوضع فوجئ بالشيخ رحّال البودالي ممتطيا ظهر الأسد وملك الغاب يبصبص بذنبه تحته مثل قطّ.

لكنّك سرعوف يا عبد السلام وزوجتك بجعة، فما شأنكما بالأولياء الذين تُحوّل كراماتُهم السّباع إلى قطط؟

لم يكن رحّال سعيدا باسمه ليستعرضه على الأبواب والجدران. بل ظل يجد صعوبة في نطقه أمام الملأ. لكن في الجامعة، وبالضبط في مظاهرات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، سيُضَمِّد رحّال جرح اسمه بضماد نضالي. اكتشف رحّالًا آخر، بكرامات معاصرة، جعله يتصالح قليلا مع اسمه.

كان الحشد يتقدّم هادرا باتجاه مكتب العميد خلال معركة إرجاع المطرود. ورحّال لا سبيل له للعودة إلى الكلية إلا بالمشاركة في المعركة. كانت الشعارات تتوالى منذ الصباح، حينما ارتفع فجأة شعار خفق له قلب السنجاب:

"سالو رحّال.. سالو زروال/ والثورة ماشي مُحال"

اسألوا رحّال؟ رحّال من؟ وعن ماذا؟

طبعًا لا يمكن أن يكون بويا رحّال البودالي؟

لا، إنه رحّال آخر سيتعرّف عليه السنجاب بشكل أفضل يوم الحفل الكبير: حفل انتصار الجماهير الطلابية الصامدة والمناضلة في معركة إرجاع المطرود. يومها تعرّف رحّال لأول مرة إلى وفيق الدرعي الذي قرأ قصيدة عنوانها "لن يطردوك من الهواء". كلام

عجيب غريب لا علاقة له بالشعر كما يعرفه رحّال ويفهمه ومع ذلك نال استحسان الرفاق والإخوان على السواء وانتزع تصفيقاتهم. لكنَّ ختام الأمسية كان مسكًا. صعدت فرقة غنائية موسيقية تتكوّن من شباب وصبايا من المدينة القديمة يرتدون الأسْوَد جميعا، كأنّهم في حداد، ويضعون على أكتافهم كوفيات فلسطينية وبدأوا في الغناء:

"دوس ما انتَ دايس ع الزّناد / نحرّر يافا ونابلس والبلاد".

لم يكن رحّال يريد تحرير لا نابلس ولا سبتة. كان يريد فقط أن يعود ليتسجّل في الكلية بشعبة الأدب العربي بعد إخفاقه التاريخي مع التاريخ وفصوله والجغرافيا وخرائطها.

الأغنية الأخيرة كانت مفاجَأة الحفل. غنّوا هذه المرة للبلاد:

"بلادي

ما عاكْرة.. ما هجّالة

يامّا يا معشوقة

واخّا باعوك

في سوق الفرنك والدولار

واخّا لبّسُوك

العار والدّربالة

مازال دمّ الأحرار يسيل يسيل

باسميّة رحّال رحّال رحّال

رحّال رحّال

يا الحيّ فينا

رحّال رحّال

يا زين السّمية"

كان الرّفاق يحفظون الأغنية عن ظهر قلب وكأنّها نشيدهم الوطني الموازي. يغنّونها بانخراط يكاد يكون صوفيا. كأنهم في حالة جذبة. الكل يردّد اللازمة بحماس: "رحّال رحّال يا الحيّ فينا.. رحّال رحّال يا زين السمية".

هذا الاسم الذي لم يكن يعجبك أيها السنجاب الغبي؟ انظر حكمة عبد السلام. أعطاك اسما مستقبليا لم تستشعر قيمته إلا في هذه اللحظة الفارقة من حياتك وأنت تذوق طعم الانتصار لأول مرة وتفرح بعودتك الظّافرة إلى رحاب الكلية.

سيعرف السنجاب فيما بعد أن الأمر يتعلّق بالشهيد رحّال جبيهة، أحد أبرز مناضلي منظمة 23 مارس الماركسية. اعتقل سنة 1974،

وقضى أزيد من سنة بالمعتقل السري الرهيب درب مولاي الشريف حيث تعرّض ورفاقه لشتى أنواع التعذيب قبل أن يُقدَّموا للمحاكمة في يناير 1977 لتصدر في حقهم أحكام قاسية كان نصيب رحّال منها 32 سنة سجنا نافذة. خاض رحّال ورفاقه عدة إضرابات عن الطعام من أجل تحسين وضعيتهم داخل السجن بلغت مدة أحدها 45 يوما، وهو الإضراب الذي استشهدت على إثره سعيدة المنبهي. ويوم 13 أكتوبر 1979، استشهد رحّال أثناء محاولته التخلص من ربقة الاعتقال.

"رحّال رحّال يا زين السمية"

اسم جميلٌ في الأغنية. صعبٌ في الحقيقة. ثقيلٌ في الواقع. بدأ السنجاب يشعر ببعض الفخر وهو يحمل اسما بهذه الرمزية. وفي الآن ذاته يستشعر ثقل المسؤولية. من الصعب على سنجاب خامل مثله أن ينوء بحمل اسم له كل هذا الثقل.

ياه يا عبد السلام. مالها عبد الرحمان أو عبد الغفور أو حتى عبد النبي؟ لِمَ حمّلتني ما لا طاقة لي به أيها السرعوف؟

6

مات الملك، عاش الملك.

عاش الموبايل من مختلف الرّنّات. عاشت التكنولوجيا الحديثة. عاشت الشاشات الزرقاء.

عندما يتوفّر الشعب الفقير إلى اللـه على موبايل، ويبحر في ملكوت الإلكترونات ينسى فقره. صار العالم قرية صغيرة. أصبح مُتاحًا بين أيدي أبناء الشعب في مقاهي الانترنت التي بدأت تنتشر كالفطر بأسعار ديموقراطية. لا غلاء على مسكين. درهمان للزيارة الخفيفة العابرة. ثلاثة دراهم للنصف ساعة. وخمسة للساعة الكاملة. أما الساعة الثانية بالنسبة للزبون الوفي فيصير ثمنها أربعة دراهم وهكذا. دراهم معدودة ورصيد لغوي لا يتجاوز بضع مفردات من

كل لغة أجنبية ليبحر شعب اللـه الافتراضي في مضارب الشقرة من مختلف الرّطانات. هذا عن الذكور. أما الإناث، فالعربية الرّكيكة تكفي لتتراقص القلوب الإلكترونية الحمراء من المحيط إلى الخليج.

عاشت التكنولوجيا.

أمّا رحّال، فكان في قلب الحدث.. في الوقت المناسب تمامًا.

فتح حسابا في هوتميل لا ليراسل منه أحدا، بل فقط ليكون له حساب في هوتميل. وأنشأ آخر على مكتوب لا ليدردش عبْرَه مع عرب الشبكة، إنما من الطبيعي أن يكون له حساب على مكتوب. الثالث في ياهو، هكذا لأنه ياهو. والرابع: لم يقرّر بعد.

كل زبناء السيبركافيٍ حديثو العهد بالميدان. أغلبهم في طور الاستكشاف. لذا كلما حلّ وافدٌ جديدٌ على المحل وقف أمام رحّال يطلب منه الجهاز ويد المساعدة. هذا يريد فتح حساب في هوتميل والآخر في ياهو، ورحّال يسهر على فتح حسابات إلكترونية لهم هنا وهناك. خدمة جديدة تبدو سحرية لمن يقصد السيبر لأول مرة. لذا حدّد لها مبلغ 30 درهما. الحساب مجاني. لكن رحّال يفوز بثلاثين درهم عن كل حساب يفتحه والزبناء يجدون ذلك طبيعيا. إذ لا يمكن الحصول على حساب إلكتروني له نفس أدوار صندوق البريد الذي يحفظ للزبناء رسائلهم في مكتب بريد المسيرة المجاور هكذا بالمجان. ثم إن صندوق رحّال أفضل، لأنك لن تدفع أكثر من رسوم التسجيل

في اليوم الأول ليبقى مفتوحا في وجهك على الدوام.

الزبائن يروحون ويجيئون. يتناوبون على أجهزة الكومبيوتر وعلى رعي الفئران الضوئية على سطوح المكاتب. لكنّ أسْرَةً صغيرةً بدأت تتشكّل حول رحّال بالتدريج. سليم تلميذ البكالوريا المنبهر بالعالم الافتراضي الجديد. له إيميلان لحد الآن، واحد في هوتميل والآخر في ياهو. يأتي أحيانًا رفقة والده وحينًا رفقة أخته الصغرى لمياء. دائم البحث عن مصادر المعلومات التي تتيحها الشبكة، وفي حاجة يومية إلى طباعة خلاصات بحثه التي يعرف كيف يزهو بها على زملائه في الفصل.

سميرة وفدوى، تدخلان معًا وتخرجان معًا وتجلسان معًا. تخصُّص غرف مُحادثة. تندمجان في شخصية افتراضية واحدة. تحبّان الدردشة مع الشباب بالعربية والفرنسية والإنجليزية. اسم الشهرة: نجمة مراكش.

- اثنان في واحد: شمبوان ومُلَيِّن في نفس الوقت، يشاغبهما قمر الدين السيوطي كلّما لمحهما داخلتين إلى السيبر.

قمر الدين، ابن شهاب الدين السيوطي أشهر أساتذة التربية الإسلامية في ثانوية المسيرة وأقواهم حضورا في نكات التلاميذ.

- شكون فينا الشامبوان؟ وشكون المُلَيِّن؟ تسأله فدوى متواطئة.

- فـ الحقيقة، هاذ النقطة ما زال كانبحث فيها، ملّي نقرر أنّكِ أنتِ هي الشامبوان غادي نقولها لك.

كان قمر الدين يعرف كلّ قصص "نجمة مراكش"، خصوصا وأن فدوى وسميرة اعتادتا اللجوء إليه في كل مراسلاتهما بالإنجليزية. يشرح لهما ما غمض من رسائل العالمين، ويصحّح لهما ردودهما لتسافر عبر الشبكة الإلكترونية بأخطاء أقل.

إنجليزية قمر الدين جيّدة. فرنسيته أيضًا. لكنه يردّد دائما، بمناسبة ومن دونها، أن عربِيَتَهُ ضعيفة مع الأسف. لا يبدو على ملامح قمر الدين أيّ أسف وهو يُردّد هذا الاعتراف. بل تكاد تشرق في وجهه لمعة فخر خبيئة. هل يقول ذلك نكاية بالأستاذ شهاب الدين؟ مدرس العربية الذي تحوّل إلى التربية الاسلامية ليس عن فائض تديُّن، ولكن عن كسل ورغبة في التنصُّل من دروس النحو والإعراب. التربية الإسلامية مادّةٌ غير أساسية لا بالنسبة للعلميين ولا بالنسبة للأدبيين. ساعتان في الأسبوع لكل فوج. والعديد من التلاميذ يعتبرون تلك الحصة فسحة يقضونها في ملاعب الرياضة أو أمام الثانوية أو عند رحّال لمن يملكون ثمن التزحلق على جليد الشاشة والإبحار في أمواج الضوء، خصوصا وأن الأستاذ السيوطي لا يلتزم بتقييد الغياب.

قمر الدين لا يكره أباه في الواقع، لكنه يكره الحديث عنه. يفضّل

دائما أن يرافق أصدقاء لم يدرسوا في ثانوية المسيرة، وبالتالي لا يعرفون شيئا عن شخصية الأستاذ شهاب الدين، ولم تمرّ عليهم نكاته ومواقفه الطريفة. فدوى وسميرة تشكّلان استثناء. رغم أنهما درستا عند الأستاذ السيوطي إلا أن علاقتهما بقمر الدين بنتُ السيبر ولا علاقة لها بالمؤسسة. ثم إنه شاب وسيم متألق في اللغات. وبذلك صارت صداقتُه مكسبا حقيقيا لـ"نجمة مراكش" معًا.

كان قمر الدين متوفّرًا باستمرار في المحل حتى صار رحّال يتركه يهتم بالسيبر في غيابه كلما اضطرّه ظرفٌ طارئٌ للخروج أو ذهب إلى المدرسة لتلبية إحدى طلبات هيام المستعجلة على الدوام. بدأ قمر الدين يستمتع بمغامرات "نجمة مراكش" وفتوحاتهما الإلكترونية شرقا وغربا. هذا جادٌّ وهذا عفيف، والآخر قصدُه شريف. هذا يريد زيارة مراكش من أجل عيونها ويسأل عن أفضل الفنادق وأنسب الخطوط الجوية. والآخر يقترح عليها المجيء إلى لندن على أن يتكفّل بأمر بطاقة الطائرة وسيتولّى استقبالها في شقته لتقيم معه معزّزة مكرّمة لأسبوع أو لشهر كامل إذا سمح وقتها الثمين بذلك. وآخر يقترح عليها بخشوعٍ مريبٍ قضاء عمرةٍ في مكة المكرّمة.

لكن ما إن تشرق شمس أميليا النيجيرية في السيبر حتى يُصيب نجمة مراكش الخسوف. انتبهت فدوى إلى أن قمر الدين يفقد تركيزه

كلما هلّت الشمس النيجيرية السوداء. أحيانا تأتي أميليا وحدها. أحيانا ترافقها صديقتها فلورا. ياكابو يلتحق بهما دوما فيما بعد. ربما هي خطة لكيلا يمنعهم رحّال من الجلوس ثلاثتهم أمام جهاز واحد. فقانون المحل معروف: شخصان فقط لكل كمبيوتر.

لا أحد يعرف طبيعة علاقة ياكابو بأميليا وفلورا. هل هو أخوهما؟ قريبهما؟ أم لعله عشيق إحدى الفتاتين؟ مع الأفريكانو يصعب التّخمين دائما. على كلٍّ هم محظوظون، فأصحاب الشقق والعمارات لا يسألونهم عن الأوراق. حتى ولو كانوا من مسلمي مالي والسينغال. لا يُدقّقون معهم كما يفعلون مع المغاربة. شباب البلد يجدون صعوبة في المُساكنة مع رفيقاتهم دون عقد زواج. أما الأفريكانو فلا أحد يسألهم. لذا يسكنون مع بعض. تجدهم يتكدّسون من خمسة إلى عشرة في شقة صغيرة من غرفتين ومطبخ وحمّام. عمومًا، قمر الدين لا يهتمّ كثيرا لهذه التفاصيل. فهو ليس مغرما بأميليا. إنه فقط يفرح بها. طلّتُها تُسعده وابتسامتُها تُبهجه، وحسبُه ذلك. كما أنه يجد في الجلوس معها فرصة مواتية للدردشة بالإنجليزية التي تتقنها. لكن هناك سببًا أهم.. حسّاسًا بعض الشيء. ويستحسن عدم الخوض فيه أمام الآخرين، خصوصا أمام فدوى وسميرة.

قمر الدين يريد أن يفلت بجلده من البلد بأيّ وسيلة. أرهقَهُ شهاب الدين، وأرهقته الحياة المملّة التي يعيشها في البيت. في الكلية التي

لم يعد يتردّد عليها إلّا لماما. وحتى في هذا السيبر اللعين الذي أدمنه على ما يبدو. أرهقه تلصُّص رحّال. كلما التفت وجد الجرذ يراقب شاشته. أرهقه نقاش أساتذة التاريخ في الثانوية. يأتون جماعة إلى السيبر. ليست لهم مواعيد محددة. لكن حين يُشرِّفون يفعلون ذلك جماعة وكأنهم ذاهبونٍ إلى المسجد. يحتلون جهازا لكل واحد منهم وعوض أن يركب كلٌّ موجته ويبحر، يبدأون في الثرثرة وكأنهم في قاعة الأساتذة. يحكون أن الحياة أيام الحسن الثاني كانت ألعن، وأن ظروف البلد تحسنّت كثيرا مع قدوم الملك الشاب، فقد صارت هناك هوامش حرية وحيوية جديدة وبوادر تحوّلات. قمر الدين لا يهتمّ لحكايات زملاء والده. هو لا يرى تحوّلا ولا بطيخا أحمر. ثم من قال إنه يريد أن يعرف كيف كانت الحياة أيام الحسن الثاني؟ كان صغيرا حينها. واليوم، يحس أنه كبر. ولا يريد العودة إلى الوراء. ليس لديه وقت يضيّعه في مثل هذا الكلام. قمر الدين يريد حياة أخرى. الحياة كما يراها في الأفلام. كما يراها في التليفزيون. الحياة كما يعيشها شعب اللـه المختار في الشمال. قمر الدين يريد أن يفرّ بجلده من هنا. الهجرة حق مقدّس. وهو لا يفهم لماذا عليه أن يبقى في مكان يخنقه مع كائنات لا يحبّها. لا يفهم لماذا لا يحقّ له أن يطرُد كل هذا العالم المضجر من أيامه ولياليه، من حياته ومستقبله، وينطلق.

7

- طبعًا مسيحية، لماذا تسأل؟ ردّت أميليا.

- مجرد سؤال عادي. لكن هل يمكن أن نحكي في الخارج؟

تركَتْ فلورا مشدودة إلى الجهاز لوحدها. استأذنَتْها بلهجة نيجيرية محلية لم يلتقط منها قمر الدين غير اسم ياكابو الذي تردّد ثلاث مرات. في الخارج، دعاها إلى مقهى "ميلانو" المقابل للسيبر. اكتشف أن أميليا تدخن. ما إن وضعت أسماء، النادلة، أمامها فنجان القهوة حتى أخرجت من جيبها علبة "ماركيز". أشعلت سيجارة ومدّت العلبة إلى قمر الدين.

- عفوا لا أدخن.. ولن أطيل عليك. لكنني أريد أن أعرف منك

عن المسيحية. أقصد: أريد أن أعرف أكثر. قرأت على النت حول التثليث والتوحيد. حول لاهوت السيد المسيح وناسوته. حول الفرق بين المسيحية الأرتوذكسية والكاثوليكية، ثم بين البروتيستانت والإنجليكان. كما قرأتُ "عِظة الجبل" عشرات المرات وأحفظ منها مقاطع بالعربية والفرنسية والإنجليزية. تتأكدين؟ إليك هذا المقطع: "سمعتم أنه قيل: عينٌ بعَينٍ وسنٌ بسِن. أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا من يسيء إليكم. من لطمكَ على خدّك الأيمن، فأدِرْ له الأيسر. ومن أراد أن.. من أراد أن.." انتظري نسيت.. لكن هناك مقطع آخر. الذي يليه: "سمعتم أنه قيل: أحِبَّ قريبك وأبغِض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءكم، وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم، فتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات. فهو يُطلِع شمسه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين".. هناك أيضا "اطلبوا تجدوا" أحفظها عن ظهر قلب.. اسمعي..

- لا اسمع أنت يا قمر..

- عبد المسيح.. اسمي الجديد عبد المسيح.. أنتِ أول شخص أبوح له به، على أن يبقى سرّا بيننا.

- اسمع يا عبد المسيح.. يبدو أن هناك لُبسًا ما. حينما أجبتك أنّي مسيحية، كنتُ أحدّثك بشكل عام عن ديانة العائلة. لكن صدّقني، لست مسيحية بالمعنى الذي تظنه. أنا لا أتردّد على الكنائس ولا أقرأ الكتاب

المقدس ولا أحفظ عِظة الجبل. يعني مسيحية والسلام. خذها مني هكذا ببساطة. ودعنا نعود إلى السيبر رجاء، ففلورا تنتظرني.

أُسْقِط في يد قمر الدين. كان اكتشافه للمسيحية مصادفةً. بدأ بالإبحار في مواقع البورنو. ولأن الجرذ الذي يسهر على المحل كان يجلده من الخلف بنظراته الفضولية الجائعة غيَّر المَوْجة إلى مواقع الهجرة. بعدها انصرف إلى ممارسة رياضة القفز الحرّ في المدى الإلكتروني. ثم هُوب. قفزة حرّة أخرى ووجد نفسه يعبر دون سابق ترتيب إلى الشاطئ المقابل ليتبع يسوع المسيح:

""يا مُعلم، أتبعك أينما تذهب"، فأجابه يسوع: "للثعالب أوكارٌ، ولطيور السماء أعشاشٌ، وأمّا ابن الإنسان، فلا يجد أين يُسنِد رأسه"".

صدقت يا معلمي. أمّا ابن الإنسان، فلا يجد أين يُسند رأسه.

كان قمر الدين مصدوما وهو يتلقى ردّ أميليا البارد. كان في أمسّ الحاجة إلى من يسانده في هذه الفترة الدقيقة من بحثه الإلكتروني عن الحقيقة. كانت أميليا ملاكه الأسود، أباه الذي في السيبر. أمه. أخته. لا فرق. كان يجد في ابتسامتها سماحة القدّيسات. لكنها خيّبت ظنه بشكل تأذّى منه كثيرا. تصوّروا: لا تقرأ الكتاب المقدس ولا تحفظ عظة الجبل!

أما أميليا فقد أصابها الذهول. كانت فلورا وياكابو قد أثارا انتباهها

منذ بداية تردّدهما على السيبر إلى تعلّق قمر الدين بها. أو على الأقل إلى اهتمامه الملحوظ بها. من يومها وهي تراقبه. أعجبتها وسامته. أحبّت قفشاته، مرحه ولباقته، إنجليزيته الجيدة، وطريقته المهذّبة في الحديث مع الجميع. لِمَ لا؟ شاب لذيذ يستحق اهتمامها. كانت أميليا مستعدة لكل شيء مع قمر الدين، من الجوى المشبوب إلى المغامرة العابرة. وحين دعاها تلك الظهيرة إلى المقهى، خرجت معه سعيدة متحمّسة. فإذا بالمجنون يزجّ بها في حديث ثقيل عن التثليث وعظة الجبل. أميليا تعرف هوس قمر الدين بالهجرة، لكنها لم تتخيّل أن جنونه سيقوده إلى التفكير في المسيحية كذريعة لمغادرة البلاد. ثم هي مسيحية أمّا عن جدّة؟ لو كانت هناك أولوية لأتباع السيد المسيح في الذهاب إلى أوروبا لهاجرت مباشرة من لاغوس، معزّزة مكرّمة، ولم تحتج إلى هذه الرحلة الطويلة عبر الصحراء قبل أن تجد نفسها ورفاقها محبوسين في المغرب. لا هم توفّقوا في التسلّل إلى إسبانيا. ولا هم قادرون على العودة إلى بلادهم ومواجهة الأهل والأصحاب بخيبتهم، بعدما بدّدوا نقود العائلة في رحلة شاقة طويلة.

8

قمر الدين يبدو مستمتعا بدور صديق الجميع في السيبر. يتنقّل بين الأجهزة مثل فراشة إلكترونية. مرّةً مع سليم يساعده على إنجاز واجب مدرسي، ومرّةً مع فدوى وسميرة يشرح لهما رسالة بالإنجليزية وردت للتّوّ على هوتميل "نجمة مراكش". حينًا يأخذ مكان رحّال أثناء غياب هذا الأخير، وأحيانا يتهامس مع ياكابو بعدما اكتشفَ متأخّرًا أنّ الفتى النيجيري أكثر تديُّنا من رفيقتَيْه.

على النقيض تمامًا من عبد المسيح، كان أبو قتادة.

لا يكلّم أحدا. يدخل السيبر برجله اليمنى وهو يقرأ المعوّذتين. حقًّا إفشاء السلام في جمع المسلمين واجب. لكن أبا قتادة يجد عسرا في رفع عقيرته بالسلام كلما دخل السيبر ووجد الكاسيتين العاريتين

هناك وبينهما ذلك القُنْذع الدَّيُّوث المُسمّى ظلما وبهتانا قمر الدين.

"آش من قمر الدين؟ قمر الخرا هذا. قمر الويل ماشي قمر الدين. اللـه يلعنها ولدة".

أمّا جماعة الأفريكانو، فأبو قتادة حريصٌ على ترك المسافة الكافية بينه وبين مجلسهم. صحيح أنه "لا فرق بين عربي أو أعجمي، ولا أبيض أو أسود إلّا بالتقوى. لكن وجوه الأفريكانو الكالحة لا تشي بحياء ولا تشعُّ منها تقوى. ليس لأنهم سود، معاذ اللـه. فسيدنا بلال مؤذّن الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام كان عبدا حبشيا. والإسلام أكرمه حتى أن الحبيب المصطفى وصفه بأنه رجلٌ من أهل الجنة، وقال عنه: نِعْمَ المرء بلال، هو سيّد المؤذّنين. والمؤذّنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة". انتبه أبو قتادة إلى أنّ عنق ياكابو طويل نحيل مثل عنق الزرافة. "لكن وجهه المظلم أبعد ما يكون عن أن يشعّ منه نور الإسلام هو والأمَتان الدَّميمتان اللتان لا تكادان تفارقانه. تبدوان أشبه بمعزاتين. تبّا له ولهما". فكّر أبو قتادة مستدركًا ثم استغفر اللـه.

اسمه المحجوب ديدي. موظف في الوكالة الجهوية للماء والكهرباء. متزوّج وأب لطفلين. أكثر ما يثير حفيظته أن يداعبه زميل ثقيل في العمل بالغناء: "ديدي، ديدي، ديدي واه". غِلظتُه جعلت زملاءه يتحاشون ترديد أغنية الشاب خالد الشهيرة أمامه، لكنهم يتغامزون

بها في غيابه. أمّا "أبو قتادة" فكُنية اختارها له أحد الإخوة جازاه اللـه خيرا في مجلس ذكر عَطِر. ومن يومها واسمه في المجالس الرّبانية والمواقع الإلكترونية النورانية أبو قتادة تيمُّنا بالصحابي الجليل أبي قتادة الأنصاري الخزرجي رضي اللـه عنه وأرضاه.

9

Big Brother is watching you!

كان قمر الدين يردّد هذه الجملة من حين لآخر غامزا من قناة رحّال..

آسف آسف.. أريد أن أقول:

Little brother is watching you!

ويهتزّ السيبر بالضحك.

يجب الإقرار بأن إنجليزية رحّال فوق الجهلِ بقليل. أما معرفته بالأدب الإنجليزي فلا تزيد كثيرا عن معرفة أميليا بمذهب الإمام مالك. وعلى كل حال، رحّال ابن شعبة الأدب العربي تخصُّص

شعر قديم: مُعلّقات، شعر أموي، عباسي، أندلسي، مغربي.. أما الروايات، فهو لا يقرأها حتى بالعربية التي يتقنها، لكي يتهجّاها بلغات الآخرين. ولأن أحدا لم يشرح له أن الأمر يتعلق برواية جورج أورويل الشهيرة "1984"، حيث الأخ الأكبر يراقب الجميع، ظل دوما يتساءل في قرارة نفسه: "لماذا يتبجّح قمر الدين بالحديث عن أخويه، الأكبر والأصغر، في السيبر رغم أن له أختا واحدة فقط تتابع دراستها العليا في الرباط؟".

Little brother is watching you!

تعريض قمر الدين برحّال ما كان ليحرّك في السنجاب ساكنا. فقمر الدين يحتجّ على الطريقة التي يستبيح بها رحّال شاشات زبناء المحل التي لا يجد أدنى حرج في تثبيت عينيه الفأريتين عليها. كان ذلك يسبّب لقمر الدين الكثير من الضيق في المرحلة الأولى من حياته الافتراضية حين كان مدمنا لا يزال على المواقع البورنوغرافية. وحتى اليوم، يكره أن يتلصّص أحد على مواقعه المباركة. لذا صار يتفادى الصفحات المصوّرة حيث الكنائس والأيقونات والرسوم الكنسية. في الغالب، ينقل النصوص ويلصقها على صفحة بيضاء محايدة ثم يأخذ راحته في القراءة على الوورد. وحين ينتهي يقذف بالملف إلى سلة المهملات الإلكترونية ويغادر.

لكن في مملكة رحّال العْوينة، لا مجال لسلّة المهملات. إثر

مغادرة آخر زبون بعد منتصف الليل يأخذ رحّال بضع دقائق، قد تمتد لتتجاوز الساعة، يفحصُ فيها الأجهزة. يتفقدُّها واحدا واحدا. ينبش في أحشائها ويهتك أسرار من آووا إلى أفيائها الرقمية من الرّواد. العديدون يتركون حساباتهم الإلكترونية مفتوحة. أعضاء المنتديات كذلك. الأخ أبو قتادة مثلا اعتاد بعد سماعه أذان العشاء أن يسدل الستار ويخرج لتبقى صفحة المنتدى مفتوحة والنقاش متواصلا بين الإخوة: مرةً حول وجوب القتال وبذل النفس إذا ما وطئ الاحتلال أرضا مسلمة، وأخرى حول فساد الانتخابات كوسيلة للوصول إلى الحكم والظفر بالمناصب. كان النقاش محتدّا هذه المرة، ودائما في موضوع الانتخابات. الإخوة في اللـه يعترضون بشدّة على بدعة تزكية المرشحين لأنفسهم، وكذا على تساوي كافة أفراد المجتمع في أصواتهم أيّا كانت درجة علمهم وتقواهم. أما دروس عبد المسيح وإصحاحاته فكان رحّال يستعيدها من سلة المهملات وينقل المُعرَّب منها إلى جهازه الخاص ليتفرّغ لمراجعته في اليوم الموالي.

هذه مجهودات إضافية يقوم بها رحّال قبل الإغلاق، وإلا فهو من فتح لكل أعضاء النادي حساباتهم الإلكترونية أول مرة. وذاكرته السنجابية تُخزِّن أسماء وُلوجهم جميعا، حقيقية ومستعارة، وتحفظ كلمات السر. رُفِعت الحُجُب وكُشِفت الأسرار. فرحّال الغْوينة يعرف كل شيء عن رعايا مملكته السيبرنيتية السعيدة. حتى الجالية النيجيرية في سيبر "أشبال الأطلس" انكشفَتْ له أسرارُها بعدها نقلَتْ أنشطتَها

إلى المجال الإلكتروني. أميليا وفلورا سحاقيتان من قوم لوط. لكنهما تمتهِنان الدعارة مع الذكور حاليًا في انتظار اختراق السوق النسائية الناشئة والواعدة في مراكش. وياكابو يشتغل لهما مرافقا وحارسا شخصيا ووسيطا. أما علاقته مع فلورا فهي للتمويه يا قمر الدين. للتمويه فقط.

إيه يا رحّال. تراهُم يتحرّكون أمامك مثل الكراكيز. لا يعرفون أنهم جميعا في جيبك. أسماؤهم الحقيقية والمستعارة. ظاهرهم وباطنهم. أحلامهم وأوهامهم. أحابيلهم وألاعيبهم. صداقاتهم الافتراضية البريئة ومغامراتهم الإلكترونية الداعرة. كل شيء في جيبك يا رحّال، وعليك أن تُحسِن التصرّف. كن أحرص الناس على أن تبقى هذه الأسرار طيّ الكتمان. احتفظ بها لنفسك أيها السنجاب الضئيل. وإلا، لو علم أبو قتادة مثلا أن قمر الدين زاغ عن هَدْيه وخرج عن المِلة والدين ليصير اسمه عبد المسيح، وأن النيجيريتين من بنات الليل، لأعلن الجهاد من يومه وساعته، ولاندلعت حرب طاحنة في السيبر. لذا كان رحّال يستمتع بالتلصّص على أفراد أسرته الجديدة مع الحرص على أن يمنح كلَّ واحدٍ مِنهم إحساسًا تامًّا بالأمان. ثم إنهم فعلا في بيتهم وبين أحضان أسرتهم السعيدة هنا في هذه الآجام الافتراضية لسيبر "أشبال الأطلس".

10

كلّو كوم، و"هوت ماروك" كوم.

Hot Maroc

المغرب الساخن.

هكذا جاء اسم الموقع.

جريدة إلكترونية تغطّي الأحداث ساعة بساعة. كل أخبار البلد تجدها هناك طرية طازجة: سياسة. مال وأعمال. رياضة. فن. رحلات وأسفار. دين وفتاوى. دوليات. أخبار الأقاليم والجهات. احتجاجات واعتصامات. حريات عامة. جرائم. كواليس السياسة والمجتمع. مقالات رأي. فيديوهات. حوارات ساخنة. سكوبات حصرية. وأيضًا: للثقافة أخبار.

صار رحّال يستهلُّ صباحه بأخبار "هوت ماروك". أول ما يقوم به بعد أن يفتح المحل ويشغّل الأجهزة هو فتح جريدته الإلكترونية العجيبة التي أعادَتْهُ إلى الشأن العام. هو الذي لم يسبق له أن اقتنى جريدة ورقية في حياته. مُذْ غادر حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في الكلية، انفصل نهائيًّا. لم يعد يعرف غير القنفذة ووخزها. البجعة والسرعوف، ورتابة أيامهما الكسول في بيت عمّه عيّاد، حيث الثلاثي العبدي يأكل القوت وينتظر الموت. هيام ومشاويرها المضحكة والمستعجلة دائمًا (حتى حمّام النساء بعثته إليه مرّةً على جناح السرعة لأنها نسيت موبايلها هناك). وهذه الأسرة الطارئة التي تحاصره ويحاصرها، تحصي عليه أنفاسه ويحصي عليها أنفاسها هنا في السيبر.

"هوت ماروك" بطاقة سفر مجانية أعادت رحّال إلى بلده. تمامًا مثل مهاجر غاب لسنوات وراء البحار فانقطعت عنه أخبار الوطن، وها هو أخيرا يعود، دون كلفة سفر، ليغرق في شؤون البلاد وشجونها.

عاجل.

سكوب.

حصري.

دائما هناك خبرٌ عاجلٌ يتصدّر الصفحة الأولى. الأخبار العاجلة تتوالى تباعًا. ساخنة مثل خبز طازج مسحوب للتوّ من بيت النار. حيّة مثل سمكة تجذبها من القاع صنّارة صياد. ورحّال أدمن خبز الجريدةِ الطازج وسمكها الطري. أدمن العودة إليها على رأس الساعة ليرى ما إذا هلّ خبر عاجل آخر.

لكنّ "هوت ماروك" ليست مجرد جريدة إلكترونية بالنسبة لرحّال. إنها فضاء تعبير وتشهير. مرحاضُه الجديد. لم يصدّق نفسه في البداية حينما انتبه إلى أن باب التعليقات مفتوح. تحت كلِّ مقالةٍ أو خبرٍ مجالٌ للتّعليق. كان أمرا مذهلا. يمكنك يا رحّال أن تكتب ما شئتَ دون أن تزكم أنفك رائحة النتانة. علِّق براحتك وأنت مُسترخٍ فوق مكتبك، وليس وأنت تقعي بفخذين منثنيين تحت بطنك فيما تعصر أمعاءك في مرحاض. صار بوسعك أن تتفاعل مع ما تقرأ من موقعك هنا في حيّ المسيرة في سيبر "أشبال الأطلس". يمكنك أن تقول رأيك بحرّية، وبكل سرّية دون أن يسألك أحدٌ عن اسمك أو لقبك. انتبِهْ إلى لائحة المعلّقين: أسماء كاملة صريحة. وأخرى تكتفي بالاسم الشخصي: كريم. خالد. منى. سعيد. توقيعات تحيل على مدن أو مناطق: سميرة المراكشية. فريد المكناسي. الكازاوية. ولد صفرو. الصحراوي. أمازيغي حُرّ. بنت الشمال. فقط اكتب اسمك وبريدك الإلكتروني، وعلِّق كما يحلو لك.

كاد رحّال يُجن وهو يقرأ تعليقه الأول منشورا دقائقَ معدودةً بعد إرساله. كانت مقالة رأي عن الانتخابات والديمقراطية في المغرب والوطن العربي من توقيع المفكر المغربي المعروف عصام اللوزي. حاول المقال أن يشرح كيف "نُطابِق في العالم العربي بين الانتخابات والديمقراطية رغم أنه من حيث المبدأ لا يمكن المطابقة بين الجزء والكُلّ، أو بين الوسيلة والغاية. صحيح أنه لا يمكن للعملية الديمقراطية أن تتمّ دون انتخابات حرّة ونزيهة - يضيف صاحب المقال - إلا أن الانتخابات وصناديق الاقتراع لا تفضي بالضرورة إلى الديمقراطية. كيف ذلك؟..".

المقال طويل والتحليل مُوجِع للدماغ، ورحّال لن يُضيع وقته في قراءته كاملا. لكن تعليقه جاهز. أينك يا أبا قتادة أينك؟ تذكر النقاش الذي كان مُحتدِمًا قبل أيام تحت خيمة أبي قتادة الإلكترونية حول حكم الشرع في الانتخابات. استعار اسم المحجوب ديدي الحركي وإيميله، وما ترى عينك إلا النّور:

"عن أيّ ديمقراطية وأيّ انتخابات وأيّ بطيخ أحمر تتحدّث أيها العلماني المتحذلق؟ الانتخابات التي تساوي كافة أفراد المجتمع في أصواتهم: المؤمن والفاسق، المحتجبة المصُون والمتبرّجة المومس، العالم والجاهل؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ؟﴾. ثم أليست الانتخابات سببا للشرك برب العالمين؟ فالتشريع لله وحده. والحكم لله وحده ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ

مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟".

ينصر دينك يا أبو قتادة.

لم يكن رحّال يتوقّع هذا الكمّ من اللايكات. أكثر من خمسين لايك لحدّ الآن، في حين لم يحظ المقال الأصلي بأكثر من سبع لايكات. القرّاء أعجبهم تعليقك أيها السنجاب. صحيح أن رحّال غير متفق مع أبي قتادة فيما ذهب إليه. فهو ليس متطرّفًا ليكفُر بالديمقراطية والانتخابات بهذه الطريقة الشنيعة، لكنّ احتضان جمهور القراء لتعليقه ملأه حماسًا وزهوًا. عليه أن يبحث عن موضوع آخر ليُدلي بدَلْوِ أبي قتادة فيه. والله وليُّ التوفيق.

11

ماذا؟

ابن الونّان؟

نزل عليه الخبر كالصاعقة.

كانت صبيحة باردة من صباحات ديسمبر. المحل فارغ لا يزال. ورحّال متقنفِذٌ في معطفه الكاكي ومع ذلك يرتجف. يحتاج أنفاس المبحرين حواليه ليدفأ قليلا. وفي انتظار مقْدَم فرقة الغوّاصين النيجيرية التي صارت تُبكِّر إلى السيبر هذه الأيام لأسباب لم تنكشف بعْدُ للأخ الأكبر، بدأ رحّال جولته الإلكترونية الاعتيادية بـهُوت ماروك، فإذا الخبر يزلزل كيانه.

لم تكن مجرّد قصاصة خبرية، بل مقالة طويلة عريضة تتصدّر الصفحة الأولى. تحدثت عن مسار وفيق الدرعي وتجربته المتميزة، عن ديوانَيْه الجديدَيْن اللذَيْن أصدرهما تباعًا هذه السنة عن دارَيْ نشر مرموقتين في بيروت والقاهرة، كما تشرح الحيثيات التي جعلت لجنة التحكيم تختاره هو بالذات للحصول على جائزة ابن الونان التي تمنحها رابطة الشعر المغربي سنويا للشاعر المغربي الأقوى إنتاجا والأكثر بروزا خلال الموسم.

لم يُتمّ رحّال قراءة المقالة، لأن الألم منعه من ذلك. عاد المغص يقطع أحشاءه. مغص طارئ شديد لا ينفع معه كمُّون ولا زنجبيل ولا بابونج.

وفيق الدرعي؟

منذ اختفائه عن الأنظار أيام الكلية، بعدما اكتشف الرفاق عمالته للمخابرات فطردوه من حظيرتهم شرّ طردة، لم تعد أخباره تصلك يا رحّال. لكأنّك نسيته؟ ها هو يعود ليتصدّر المشهد ويفوز بجائزة ابن الونّان. ابن الونّان يا رحّال؟ أبو العباس أحمد بن محمد بن الونّان التواتي الفاسي. ابن الونّان الذي درسناه في السنة الثانية وبقينا لموسم كامل نُحلّل "شمقمقيته" مع الأستاذ عبد المقصود الطاهري في حصة الأدب المغربي. أتحدّاك يا وفيق أن تأتيني ببيت واحد من الشمقمقية؟ واللـه العظيم هزُلَت. وفيق كان طالب أدب فرنسي،

فما علاقته بابن الونّان؟ أقطع ذراعي إن كان قد قرأ الشمقمقية أو سمع بها أصلًا، وأتحدّاه أن ينشد لنا بيتًا واحدا من هذه الأرجوزة التي جاءت على رويِّ القاف في 275 بيتا.

ياه يا أستاذ عبد المقصود..

وزَانَ عِلْمِي أَدَبِي فَلَنْ تَرَى / مَنْ شِعْرُهُ كَشِعْرِيَ الْمُنَمَّقِ

فَإِنْ مَدَحْتُ فَمَدِيحِي يُشْتَفَى / بِهِ كَمِثْلِ الْعَسَلِ الْمُرَوَّقِ

وإِنْ هَجَوْتُ فَهِجَائِي كالشَّجَا / يَقِفُ في الحَلْقِ كَمِثْلِ الشَّرَقِ

فَإِنْ يَكُ الشِّعْرُ عَصَى غَيْرِي فَقَدْ / أطَاعَنِي فِي عَيْهَقٍ وحَنَقِ

وإنْ يَكُنْ تاجًا فَقَدْ زادَ سَنًا / جوْهَرُهُ مُذْ حَلَّ فَوقَ مَفْرِقِي

وإنْ يَكُنْ بَحْرًا فَقَدْ غُصْتُ على / جَوْهَرِهِ وكُنْتُ نِعْمَ المُنْتَقِ

وهَلْ أنا إلاّ ابْنُ ونَّانَ الذِي / قَرَّبَهُ كَمْ مِنْ أَمِيرٍ مُرْتَقِ

هزُلَت يا أبا العباس. هزُلت حتى بدا من هُزالها كُلاها وحتّى سَامها كلُّ مُفلِس. جائزةٌ باسمك صارت تُمْنَح لشعراء الفروماج. لكن لا عليك يا أبا الشمقمق. سآخذ بثأرك في الحال.

الخبر ساخن لا يزال والمقالة طرية ولا تعليق في الأسفل. لذا يمكنك يا رحّال أن تفتتح الإرسال.

الاسم: قاعدي سابق.

عنوان التعليق: شعرية الوشاية.

"قرأتُ باهتمام مقالكم حول أمير شعراء الفروماج المدعو وفيق الدرعي الذي تُوِّج بجائزة ابن الونّان لهذا العام، وفاجأني أن كاتب المقال أغفل محطّة أساسية في مساره وهي العمالة للمخابرات ولم يوضح أثرها في شعره. فمناضلو كلية الآداب بجامعة القاضي عياض بمراكش وهم يعرفون شاعركم المُلفَّق - أريد أن أقول المُفلَّق - خير المعرفة خبروه أساسا كعنصر مخابراتي كان مدسوسا على مناضلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. فلماذا تمّ إغفال هذا الجانب المهم جدا من سيرة الرجل؟ فالشاعر ابن بيئته، ومن ألِفَ التعاون مع المخابرات والوشاية بالمناضلين الشرفاء وكتابة التقارير البوليسية عنهم لا يمكنه أن يتخلّص تمامًا من هذه الخلفية أثناء ذهابه إلى القصيدة. لذا نرجو من النقاد جازاهم اللـه عنا خير الجزاء أن ينتبهوا في دراساتهم المقبلة إلى هذا الجانب من شخصية شاعرنا ويدبِّجوا لنا دراسة حول "شعرية الوشاية عند وفيق الدرعي". ورحم اللـه ابن الونّان مرة أخرى، فقد أعدتم قتله اليوم بمنح جائزة تحمل اسمه لجاسوس جبان".

بدأ رحّال يتخلّص من المغص بالتدريج دون وصفة ولا علاج. صار أفضل الآن. لكنه لن يتوقّف. فما زال في جراب الحاوي المزيد:

الاسم: ولد المواسين.

عنوان التعليق: فخر واعتزاز.

"لا يسعُني كأحد أبناء حومة المواسين إلا أن أُعْلِن فخري واعتزازي وأنا أتلقّى هذا الخبر السعيد. ابن حومتي يفوز بأهم جائزة شعرية في بلادنا. أكاد أطير من الفرح. لذا اسمحوا لي بأن أقدّم أحرّ التهاني للكوميسير السرّاج ولكل عائلة الدرعي في المواسين على هذا الإنجاز. فمن كان يظن بأن وفيق الذي كنا نسميه "وفيقة" أيام الطفولة، وكثيرا ما كنا ننزع عنه تُبّانه في حمّام الحومة ونعبث بمؤخرته ونحن صغار، سيصير شاعرا كبيرا؟ لذا أعتذر يا وفيقة - عفوًا، يا وفيق - عن كل ما حصل في الحمّام أيام زمان وتأكّد من أنني ندمت أشدّ النّدم ومعي كل أبناء الحومة. فقد نسينا تلك الأمور ونسأل اللـه المغفرة، ونحن اليوم فخورون بك معتزّون بموهبتك. وفّقك اللـه ومتمنياتنا لك بالمزيد من التألق".

لكن الأستاذ عبد المقصود الطاهري سيكون له رأي مخالف. رحّال في الواقع لا يعرف ما إذا كان الأستاذ عبد المقصود، الذي درّسه الأدب المغربي في آخر سنة له قبل التقاعد، قد لبّى نداء ربه أم لا يزال حيًّا يُرزق. لكن المؤكّد أن الرجل أبعد ما يكون عن الشبكة الإلكترونية. وما يهمّ رحّال الآن هو رمزية هذا الاسم بالنسبة لجيلٍ كاملٍ من طلبة الأدب العربي بمراكش وكل المتخصّصين

في الأدب المغربي من خرّيجي مختلف الجامعات المغربية الذين درسوا جميعا كتابه العمدة: "شعر المغاربة منذ دولة الأدارسة حتى عهد العلويين".

الاسم: عبد المقصود الطاهري.

عنوان التعليق: شعر أم شعير؟

"باسم اللـه الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد، أوّلا أتحفّظُ بشدّة على التعليقين المنشورين أعلاه. فأنا لا تهمُّني علاقة الشاعر المذكور بجهاز المخابرات، ولا بغيره من أجهزة الدولة السرية والعلنية. كما لا أحبّ أن نتورّط في حديث المؤخّرات. سواء كان الشاعر فحلا من الفحول أو مجرد مُخنّث بلا شرف ولا رجولة، فهذه السفاسف لا تشغل بال الناقد العلّامة والدارس البحّاثة. ما يعنيني أصلحكم اللـه هو الشعر ذاته. هل ما يكتبه المدعو وفيق الدرعي شعر أم شعير؟ هل هو من الكلام الموزون المقفى الذي يغذّي الروح والوجدان أم مجرد طعامٍ للحمير؟ هذا هو السؤال الذي أطرحه باستنكار على اللجنة المشبوهة التي انزلقت بجائزة ابن الونّان الرفيعة إلى هذه المهاوي الوضيعة. بل وأطرح سؤالي على وفيق الدرعي نفسه هو وأمثاله من أشباه الشعراء: هل بهذيانكم المريض واستعاراتكم الذهنية وكلامكم المعمّى عن "مسلخ الفراشة" و"الطيور التي تنبح على رغوة النّشاز" و"بروتوكولات

الفقر الهندسي" و"المومياءات اللائي يمارسن الجنس على مرأى من العدم" سنُحرِّرُ فلسطين ونُعيد للأمة العربية عزّتها وكرامتها؟ لا وألف لا. ثم هل اطّلَعتم على الشعر المغربي الذي تريدون اليوم التسلل إلى حياضه والترامي على رياضه؟ هل تعرف ابن الونّان يا وفيق الدرعي؟ هل تعرف نابغة وقتِه وسَحْبانَ زمانِه أبا العباس أحمد بن محمد بن الونّان الفاسي الملقب بأبي الشمقمق؟ هل تعرف الرّجل الذي فزت اليوم بجائزة تحمل اسمه؟ لا جواب لديّ، ببساطة لأنني أحدس أنْ لا جواب لديك. فافرحوا بشعيرهم بعدما طردتم الشعر من مملكة الهراء التي أسّستموها على أنقاض القصيدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

سيكون من عدم اللياقة تركُ أسئلة الأستاذ عبد المقصود الطاهري مُعلّقةً هكذا دون جواب. لذلك تدخّلَتْ عتيقة متجاوِبةً. استغرب رحّال كيف تبادرَ اسم عتيقة إلى ذهنه الآن. تبسَّم إذ تذكّر عطفها القديم على وفيق؟ لعلّكِ غيّرْتِ موقفكِ أخيرًا أيتها البقرة الثورية؟ وكانت الفراشة المدخل هذه المرّة: "الفراشة في طريقها إلى المسلخ"، عنوان الديوان الأول لهذا الدَّعِي. "فهل يمكنكَ إجازةُ هذه الجملة الفاسدة عنوانًا لديوان شعري أستاذَنا الجليل السي عبد المقصود؟".

توقُّفُ عتيقة النّبيه عند العنوان بحسٍّ نقدي حصيف، رُوحها التفاعلية المُحبَّبة، وكذا الحيوية التي تجاوبَتْ بها مع الأستاذ

عبـــد المقصود الطاهري، كلٌّ ذلك راق رحّــال كثيرًا، فكافأ البنت بإفساح المجال أمامها للاسترسال:

"بأيّ جِلْدٍ ستذهبُ فراشتُك إلى المسلخ أيها الشعرور؟ المفروض أنّ سلخ الجلد يستدعي كشطَهُ ونزْعَهُ عن اللحم، فماذا ستسلخ في فراشة لا تملك غير جناحَيْها؟ الجناحان أرهفُ مِنْ أن يُسلخا أيّها المتشاعر الغليظ. ولأنهما من مادة أثيرية، سرعان ما يتبدّدان بفركة صغيرة بين أنمُلتين. لو كان لك أدنى حسّ لسُقْتَ فراشتكَ المسكينة إلى محرقة صغيرة، لا إلى مسلخ. كأنك لم تسمع عن ولع الفراش بالضوء؟ كأنك لا تميِّز بين فراشة ووطواط؟ لكن ما العمل، وأمثالك من شعراء آخر الزمان يُلفِّقون الجمل الهبلاء كيفما اتّفق ويُسمّون صنيعهم السمج شعرًا وقصيدة نثر. سحقًا للشعر إذا كان هو تلك الحجارة التي تلفُّونها في ورق السلوفان وتقذفون بها العالم والناس مثل حمقى مطمئنّين إلى تفاهتهم. سحقًا للشعراء إن كانوا مثلك وعلى شاكلتك".

ثم انفتح الصنبور. كل التعاليق صبّت في التوجُّهات التي سطّرها الأخ الأكبر: شتمُ شعراء آخر الزمان من مقترفي هذه القصيدة اللقيطة الفاسدة التي يطلق عليها اسم "قصيدة النثر". سبّ وفيق الدرعي ووليّ نعمته الكوميسير السرّاج وإدانة تحكّم جهاز المخابرات في الحياة السياسية والثقافية في البلد. إدانة الشذوذ الجنسي وتبيان موقف

الشريعة الإسلامية من اللواط. ولقد تكفل الأخ أبو قتادة جازاه اللـه خيرًا بالتفصيل في هذا الموضوع بالذات، موضحا أن اللواط يُعدّ من أشنع المعاصي وأكبر الكبائر التي يهتزّ لها عرش الرحمن. ثم إنّ الحدّ الشرعي لهذه المعصية في الدنيا القتل، وفي الآخرة يُعذَّب مرتكبها في نار جهنم خالدا فيها أبدا. فقد رَوى أبو بكر الحَضْرَمِيّ عَن الإمام جعفر بن محمد الصَّادق أنه قال، قال رسولُ اللـه صلى اللـه عليه وعلى آله: "مَنْ جَامَعَ غُلَامًا جَاءَ جُنُبًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يُنَقِّيهِ مَاءُ الدُّنْيَا وَغَضِبَ اللـه عَلَيْهِ ولَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصيرًا". ثم قَال: "إِنَّ الذَّكَرَ لَيَرْكَبُ الذَّكَرَ فَيَهْتَزُّ الْعَرْشُ لِذَلِك، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْتَى فِي حَقَبِهِ فَيَحْبِسُه اللـه عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إلى جَهَنَّمَ فَيُعَذَّبُ بِطَبَقَاتِهَا طَبَقَةً طَبَقَةً حَتَّى يُرَدَّ إلى أَسْفَلِهَا ولَا يَخْرُجُ مِنْهَا".

12

لكن، وَوفيق الدرعي؟

أينَهُ مِن كلّ هذا؟ وماذا فعل اللـه به؟

يُقايِضُ السنجابُ عمرَهُ بنظرةٍ خاطفةٍ إلى وجه وفيق وهو يفتح هوت ماروك على هذا السيل الهادر من مياه المجاري الإلكترونية. يموت ويعرف ردّ فعل صديقه القديم. كان موقع هوت ماروك أول من أورد الخبر الذي لن تتداوله الصحف الورقية إلّا ابتداءً من الغد. لذا لا شك أن وفيق وحوارِيّيه وصويحباته ومعهم كل قبيلة الشعراء قد تلقّوا الخبر جميعا من خلال جريدة المغاربة الأولى وواحتهم الإلكترونية الظليلة. ورحّال أجاد استقبال الجميع بتعليقاته المسمومة. لعل وفيق ندم الآن على اليوم الذي طرق فيه باب

القصيدة أول مرة، وعلى اللحظة التي استقر فيها رأي لجنة التحكيم عليه لتتويجه بجائزة ابن الونّان لهذا الموسم. لكن لِمَ لا يرُدّ؟ عرفتُك يا وفيق في حلقات الاتحاد الوطني خطيبا مفوّها ومحاورا ذكيا ومُناظِرا حكيما راجح العقل، فلِمَ لا تردّ؟ لم لا تدلي بدلوك؟ أم أن مياه المجاري أحاطت بك من كل جانب فلم تعد تعرف بأيّ الدّلاء تُلقي ولا في أيّ قرار؟ لكن من قال إنني سأنتظر ردّك؟ لحظة فقط يا وفيق. لحظة من فضلك وسترى منّي ما لم يخطر لك على بال.

خفَّ السنجاب إلى قمر الدين. ترجّاه أن ينوب عنه فيتكفّل بأمر أبي قتادة الذي توقّف حاسوبُه فجأة عن الاستجابة. لن يحتاج الأمر في الغالب إلى أكثر من إعادة التشغيل. لكن الغبي ما زال عاجزا عن إعادة تشغيل الكومبيوتر حتى بعد أن صار يتسمّر أمام شاشته بالساعات الطوال. عموما هو يكتفي بفتح مواقعه الجهادية والنهل من معينها الذي لا ينضب. يتابع النقاش في المنتديات المباركة بشغف وقلّما يكلّف نفسه عناء المساهمة بتعليق صغير.

نهض قمر الدين متثاقلا. نبَّه المحجوب بفظاظة إلى أن اللياقة تقتضي منه القيام وفسح المجال أمامه للجلوس. قام أبو قتادة من مجلسه على مضض. أربكه تقريع قمر الدين له. الخبيث أخذه على حين غرّة. لكنه الآن في حاجة ماسّة لخدماته. لذا سيُفَوِّت عليه فرصة افتعال خصومة معه في هذا الظرف الحرج. جال ببصره

في القاعة. كانت أعين الجميع معلّقة على الشاشات. الحمد لله. لا يبدو أنهم أخذوا بالاً بما جرى له مع هذا المخنّث. حتى رحّال الذي يحصي على أمة محمد أنفاسها يبدو مستغرقا في الكتابة بحماس وهو يلهث مثل كلب صيد رابض فوق طريدة:

الاسم: وفيق الدرعي.

عنوان التعليق: وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة.

"لم أتصوّر أيها الإخوة أن تسدّدوا إلى صدري كل هذه السهام في يوم مشهود توقّعتُ احتفاءكم خلاله معي بالجائزة التي شرّفني بها إخواني في رابطة الشعر المغربي. آلمني جدا أن يعود بعض الأصدقاء إلى الدفاتر القديمة للتقليب فيها. لا أريد أن أناقش كل ما قيل. لكن، بربّكم، أليس من حق الانسان أن يُخطئ في صباه ويفاعه؟ وهل من الجريمة في شيء أن يكون للواحد منا قريب في جهاز الأمن؟ هل يكفي ذلك لنتّهمه بالعمالة للمخابرات؟ ثم نحن أبناء اليوم أيها الإخوة. وحتى إذا افترَضْنا أن شخصا أخطأ في فترة سابقة من حياته، أوَلَمْ يقل نبينا الكريم بأن 'الإسلام يجُبُّ ما قبله". إنني فعلا حزينٌ في يوم ظننتُ أنني سأكون خلاله أسعد مخلوق على وجه الأرض. حزينٌ بشكلٍ لا يُصَدَّق".

هذا التعليق بالذات راجعه رحّال بدقّة. أضاف له بعض التوابل من قبيل "تسديد السهام" و"بربِّكُم" و"التقليب في الدفاتر القديمة"، كما

حرص على أن يُضمِّنه حديثا نبويا شريفا لغاية في نفس السنجاب. واحد. اثنان. ثلاثة. ثم أطلق التعليق من عقاله. دقيقة. دقيقتان. وها هو يظهر على الشاشة بحرف بارز مضيء. لكن من أين جاءت كريمة العروسي هذه؟ أيُّ غيمة شاردة هطلت بها هذا الصباح؟ ففي تجاوب عاطفي سريع مع تعليق وفيق أبدت كريمة في تعقيب لها تحت عنوان "أعداء النجاح" امتعاضها من هذه التعليقات الموتورة الصادرة عن حسدة حاقدين يعاقبون بكلامهم الفظّ شاعرنا الرّقيق على نجاحه، وكأنّ التّتويج جريمة والتفوّق خطيئة، قبل أن تهنّئ في ختام تعليقها شاعرنا "الفذ" مطالبة إياه بمواصلة مساره الإبداعي "اللافت" رغم "كيد الكائدين".

رغم كيد الكائدين؟

تعالي أيتها القحبة، لقد وقع نقبُكِ على كَنِيف.

ليست كريمة وحدها ما يشغل بال رحّال الآن، بل الخوف من توالي التفاعلات العاطفية. لذلك قرّر الردّ السريع الماحق، بصرامة وحزم، على هذه المُغْرَمة الولهانة ليسدّ الطريق على أيّ انحراف بالنقاش عن الوجهة التي رُسِمت له.

الاسم: حبيب قديم.

عنوان التعليق: الهوى غلّاب.

"مساء الخير كريمة. ستعرفين من يخاطبك بمجرد قراءتك لهذا التعقيب. أنا الشخص الذي ظلّ يُحبُّك بصدق وتفان لمدة خمس سنوات قبل أن تديري له ظهر المجن وتخونيه مع ذلك السافل وفيق الدرعي. ولَكَمْ حزنتُ لمّا علمتُ من صديقتك صفاء أنه سرعان ما رماك رمية الكلاب بعدما قضى وطره منك. لكنني حزنتُ أكثر وأنا أرى أنك ما زلت مغرمة به وتدافعين عنه باستماتة رغم كل ما اقترفه في حقك. صحيح أنّ الحب أعمى والهوى غلّاب".

جيّد يا رحّال. هكذا ستلجم جموح ذلك الحشد من الغواني الغاويات لشعر وفيق الدرعي. والآن عليك أن تتصدّى بنفسك للرد الحاسم على صاحبك. فتعليقه المتضرِّع "وظلم ذوي القربى" بدأ يُدرُّ عليه بعض التعاطف. لذا عليك أن تتدخّل بسرعة أيها السنجاب. غريمك أمامك، فسدِّد إلى وجهه الآن رُكْبتك الإلكترونية.

الاسم: ولد الشعب.

عنوان التعليق: سِرْ اللـه يعطينا وجهك.

"وجهك قاسح آ صاحبي. تقول بكل وقاحة إن الإسلام يجُبُّ ما قبله، وكأنك بوذي أو مجوسي لم يبلغ الإسلام دياره إلا قبل أيام. سِرْ اللـه يعطينا وجهك. لقد عرفناك قاعديا في الكلية وكتاباتك المنشورة في الصحافة تفضح بشكل لا غبار عليه علمانيتك البغيضة، فكيف تجرؤ على كلام سيِّد الخلق وتستعمل حديثه الشريف في ردّك النجس

ودفاعك المهزوز؟ اللـه يلعن اللي ما يحشم. آسيدي كن مع المخابرات أو مع السِّيخ أو حتى مع الصابئة، نحن لا يهمّنا أمرُك. مؤخّرتك هي الأخرى، أنت حرٌّ فيها. فقط، لا تزجّ بقرّاء هذا المنبر المُوقّر في شؤونها. ما يهمّني يا سيدي الكريم هو أموال الشعب التي ستذهب إلى جيبك دون وجه حقّ. عشرة ملايين سنتيم كاملة ستلهفها ظلما وبهتانا من أجل أشعار تافهة ما أنزل اللـه بها من إلهام، بل وما كانت لتعرف طريقها إلى النشر أصلا لولا علاقاتك المشبوهة. طبعًا ما كان الأمر ليُحرِّك شعرة في رؤوسنا لو أن أصحابك الفاسدين المفسدين في رابطتكم الشيطانية دفعوا لك من جيوبهم. لكن الشيك ستدفعه وزارة الثقافة من جيوب دافعي الضرائب. هكذا ستأكل والعياذ باللـه مال اليتامى والأرامل والمساكين بالباطل. هل فهمت الآن ما الذي يزعجنا بالضبط أيها الشُّويْعِر؟ مالُ الشعب هو ما يهمّنا وليس عبث المراهقين بمؤخرتك في الحمّامات أو قرابتك مع الكوميسير فلان أو الكولونيل علان. لذا نُعلمك منذ الآن، والدعوة موجّهة بالمناسبة لكل الشرفاء من قرّاء جريدة هوت ماروك الغرّاء، أننا سنعتصم أمام المسرح الوطني يوم السبت القادم لنمنع المهزلة. لن نسمح لك بالسطو على أموالنا ومصِّ دمائنا، وإنَّ السبت لناظره قريب".

صباح الأحد أجهش السنجاب بالبكاء وهو يقرأ هذا الخبر. هل كان فخورا بنصره حدَّ البكاء؟ أم لعلها طيبة قلبه غلبَتْه فاستبدّ به التعاطف مع صديقه القديم؟ على كلٍّ، الخبرُ أقوى من أن يحتمله

شخص في هشاشة رحّال:

"لحسن الحظ أن وزير الثقافة غاب عن حفل تسليم جائزة ابن الونّان الذي احتضنه المسرح الوطني بالرباط مساء أمس السبت بسبب التزام حكومي طارئ. وإلا فإنّ موقف الوزير كان سيبدو صعبا وهو يحضر احتفاليةً غاب عنها الشاعر المُتوَّج وفيق الدرعي دون سابق إنذار. فقد فوجئ المنظمون في رابطة الشعراء المغاربة بهذا الأخير يغلق هاتفه ويقطع كلّ اتصالٍ بهم يومين قبل الحفل. هكذا نابت الشاعرة المراكشية سمية البلغيثي عضو المكتب الإداري للرابطة عن الشاعر المتوَّج في استلام دَرع الجائزة من يد السيد مدير ديوان وزير الثقافة. انطلاقة هذا الحفل شهدت بدورها بعض الارتباك حين بادرت فئة من الحضور يناهز عددهم العشرين إلى رفع شعارات مندّدة بالفساد الثقافي والسياسي وقصيدة النثر وهدر المال العام، مما استدعى تدخّل الشرطة التي اضطرّت لاستعمال القوة قصد إخراجهم من المسرح. وجدير بالذكر أن رابطة الشعراء المغاربة أصدرت بيانا استنكرت فيه سلوك وفيق الدرعي اللامسؤول والذي لا يُشرِّف الشعراء المغاربة".

13

"هل ضعُف سمع السرعوف إلى هذا الحدّ؟ أم أنه صار يتعمّد تركي أبرِّح باسمه كالمجنونة وهو كأنّه ليس هنا؟".

عبد السلام يعرف أن حركة زوجته ثقيلة منذ شبابها. لذا كانت دائما توزّع أوامرها عليه وعلى رحّال من مكانها في المطبخ. وكانا يأتيان معًا إلى مجلسها صاغرين. اليوم صار عبد السلام ينزوي داخل الغرفة المظلمة التي كان يحتلها رحّال أيام الجامعة ويترك حليمة تنبح في المراح وهو في عزلته الهادئة أذنٌ من طين وأخرى من عجين.

الغريب أن عيّاد يكون بجانبها في أغلب الأوقات. يشربان كأسا من شاي العصر الخفيف المنعنع ويثرثران. لكنها كلما احتاجَتْ شيئا

ولو تعلّق الأمر بملعقة تنادي عبد السلام ليُحْضِرها من المطبخ. وعبد السلام يجرُّ قُبَّ جلبابه فوق رأسه ويقطع الإرسال.

- عاطيني النّخّال ياك؟ كأنكَ فقدْتَ سمْعَك؟ إيوا سِرْ يا الغْوينة بغيت لك الطّرش أكثر من هذا اللي ضاربك. عارفني مريضة يا ولد الحرام ومخلّيني نصيح ونبرّحْ.

لكن متى كُنْتِ بعافيةٍ أيتها البجعة؟ حليمة امرأةٌ مهنتُها المرض. لا تحكي إلا عن العِلل والأوبئة ووصفات العلاج الشعبية هي التي صارت مع الزمن خبيرة في التداوي بالأعشاب. عمومًا الأمراض أكثر من الهمّ على القلب. لها أعراض مختلفة وطرق علاج متنوعة وعقاقير وأدوية يصفها الأطباء لمرضاهم فيحصل الشفاء بإذن الله. لكن حليمة ظلت طوال عمرها مخلصة لمرضين نادرين لا ثالث لهما. "بوطابك" وهو مرض قَبَلي محض لا يصيب غير قبائل عبدة والشياظمة، وكأن الباري تعالى خصَّهُم به دونًا عن العالمين. كانت هناك طبيبة اختصاصية وحيدة تعالج هذا المرض النادر هي فطّومة بنت مسعود الزّنبوب. كلما اشتدّت على حليمة وطأةُ المرض يصير السفر إلى الدوّار سبيلها الوحيد لاستعادة العافية. تدهن لها فطّومة تحت إبطيها بزيت الخرّوع. تدلك المنطقة جيدا ثم تغسل الإبطين بالماء والصابون. بعدها تدهنهما من جديد بزيت الأركّان الساخن ثم تبدأ بمصِّ المناطق الغامقة تحت الإبط بفمها وتتفل في طست وهي

تتمتم بتعويذة يبدو أنها سرٌّ حكمتها. يتواصل العلاج لليلتين وفي اليوم الثالث يمكن لحليمة أن تعود إلى مراكش سليمة معافاة كأنّها كانت تكذب. المرض الثاني اسمه "بومزوي". مرض غامض آخر يتمتّع بشعبية واسعة في قبائل عبدة والشياظمة. لكن يبدو أن أطباء مراكش الذين تناوبوا على علاج حليمة في مستشفى الأنطاكي الكبير بباب الخميس خلال الثلاثين سنة الأخيرة حاروا فيه. طبعًا انتفاخ البطن مع ما يرافق ذلك من آلام في المنطقة السفلية منه، إضافة إلى تواتر القرقرات الصادرة عنه، والألم الزئبقي الذي سرعان ما ينتقل إلى الجهة اليسرى أسفل البطن، هذه كلها أعراض القولون العصبي. لكن الصداع الذي يكاد يقسم رأس حليمة نصفين والحرارة التي ترتفع أسفل ظهرها وكذا شعورها الغريب بالاختناق كلها أعراض إضافية ظلّت تشوِّش على الأطباء وتخلط أوراقهم ووصفاتهم. أما حليمة فكُلّما سألتها جارة عن حالها مع المرض تتنهّد بمرارة قبل أن تردّ: "آبنتي حمدنا اللـه. هو اللي كا ينزّل العفو من عندو. كذب عليك كذّاب واش كاين شي طبيب من غير اللـه سبحانه".

ظلت حليمة تردّد الجملة نفسها، بالحرف والتنهيدة، لثلاثةِ عقود. ورحّال يستغرب كيف أن البجعة لا تملّ من ذلك، وكأن الأمر يتعلّق بحوارات مسرحية يرفض المخرج بشكل قاطع إقحام أبسط تعديل عليها.

إذا بادَرَتْها جارةٌ ورمضان يلفظ لياليه العشر الأخيرة: "ها سيدنا رمضان فات بالسلامة والعافية، ما بقى ليه والو، سعدات اللي صام وقام"، تسحب حليمة تنهيدة عميقة حارقة من قاع معدتها وتفحُّ مثل الأفعى: "آحْ يانا يا بنت سيدي، عمرنا اللي كايفوت. أمّا رمضان مالو؟ يمشي رمضان ويجي رمضان".

"كيف بقيتِ مع الصهد؟"، هو السؤال الأكثر تردّدًا على ألسنة الجارات في تحاياهنّ الصباحية في صيف مراكش الحار، ابتدعت له حليمة جوابا مسرحيا تفرح كلما استُدرِجت لأدائه. تضع يدها تحت خدها ثم تبدأ في تحريك رأسها بشكل دائري قبل أن تفرد يديها كما لو ستشرع في الغناء، وتوظف تنهيدتها الشهيرة التي لا غنى عنها لمصاحبة الحوار: "آحْ يانا يا الحبيبة ديالي، احنا ضعاف قدام سيدي ربي سبحانه. إذا جا البرد يغلبنا، وإذا جا الصهد يهلكنا. سبحانك يا عظيم".

رغم أن رحّال حفظ عمليًا كل حوارات حليمة المسكوكة، إلا أنه يبقى مأخوذا ببراعتها في الأداء. تدهشهُ تلك الذِّلّة الطارئة والمسكنة المفتعلة، مع التظاهر بالورع والتقوى والانسحاق التّام أمام قدرة الخالق الديّان وكأن المرأة القانتة التي تتكلم الآن غير تلك التي كانت ترغي وتزبد في وجه عبد السلام وتلعن آله وعشيرته منذ جدّه الأول حتى جدّه الأخير الذي أطفأ اللـه عينه اليمنى مبكّرا وظل يبصر

باليسرى فقط ومع ذلك وضع العينَ العمشاء الباقية في خدمة سعادة القايد، حيث ظلّ يرقب بها تحركات فدائيّي القبيلة والدواوير المجاورة أيام الاستعمار وينقل أخبارهم أوّلًا بأوّلٍ لصاحب السعادة.

رحم اللـه أيام زمان. أيام الغْوينة الجَدّ. كان الغْوينة الكبير من بطانة القايد، واللي رضى عليه القايد زبّي بغاه. استمر الزمن الجميل حتى فترة السبعينيات. كانت عبدة غارقة في الخير والخمير قبل أن تُشتِّت سنوات الجفاف المتعاقبة شمل الدوّار وتُرغِم شبابه، وبعض كهوله أيضا، على الهجرة إلى المدن المجاورة. ظل الحنين إلى ليالي الحصاد القديمة يأكل قلب عبد السلام، ويملأ عليه روحه وكيانه. هو يسمع صراخ حليمة وطلباتها التي لا تنتهي، لكن كلما حلَّق باتجاه الدوّار أيام الصبا والشباب وتذكّر طيبوبة أمه يامنة، وشقاوات أخيه عيّاد، واستعاد أيامه الحلوة البسيطة هناك قبل الجفاف، انفصل تمامًا. لم تعد نداءات حليمة وشتائمها تصله. صارت تخبط في حائط من زجاج سميك بارد أحاط به نفسه في السنوات الأخيرة وصار يستَمْتِع بمنظر صراخها الممطوط يرتطم بالحاجز اللامرئي قبل أن يتهاوى أمامه، وهو كأنّه ليس هنا.

وتقول إنها مريضة. منين جاها المرض وهي أصحّ من ظالم؟ ما تعانيه هو فقرٌ حادٌّ في الهواء. الناس تتنفّس ببطء وتأخذ حصتها المجانية من الهواء كاملة وهي لا تتركه يبلغ رئيتها. خطوتها ثقيلة لكن

أنفاسها سريعة متلاحقة. كأن منخريها وهي تتنفس كيرٌ مخنوقٌ تنفخ منه على نار باردة. إنها تنهَجُ ولا تتنفّس. حتى تنهيداتها المسرحية، فرصتها الوحيدة لإخراج الزفير ببطء من فمها ليرتاح قلبها ومعدتها قليلا، لا تعرف كيف تستفيد منها.

وتقول إنها مريضة. المريض هو عبد السلام. مذ غادر رحّال البيت ومنعَتْه القنفذة من أن يضع قدمه في جُحرها بالمواسين وهو مريض. حاول في البداية أن يوغِر صدر البجعة. بدأ يشرح لها أن من حقهما، بل من واجبهما، زيارة العريس في بيته للاطمئنان عليه. لكن حليمة تذرَّعت بأن رحّال حديثُ عهدٍ بالزّواج، ودويريّتهم صغيرة، ثم إنه ليس لوحده هناك. فزوجته ما زالت تعيش في كنف أمها. وزايدون، آش غا نمشيوا نديروا عندهم أصلًا؟ وعبد السلام يعرف أنّها مثله تتحرّق شوقًا لزيارة ابنها لكنها تخشى القنفذة وتتحاشى أمها. تقول بأن المراكشيات سحّارات، مايقدر عليهم غير اللي خلقهم. وعبد السلام بقي وحده كالغريب في بيت أخيه عيّاد. حتى عندما تهيِّءُ حليمة شايها الأثير قبيل آذان العصر تدعو عيّاد إلى الشاي، ولا تتذكّره هو إلا حينما تكون قد نسيت شيئا في المطبخ. فترفع عقيرتها بالصياح:

- عبد السلام.. آ عبد السلام.. إيوا سِرْ يا الغْوينة بغيت لك الطّرش أكثر من هذا اللي ضاربك.

وتقول إنها مريضة. لكن إذا كانت البجعة قد اتّخذَت المرض مهنة، فهوايتُك السَّرَحان والصمت أيها السرعوف. حتى راديو صغير ببطارية استكثرتَهُ على أسرتك أيّام عين إيطّي. هذه بالذات لم ينسَها لك رحّال. كان زملاؤه في مدرسة الأنطاكي الابتدائية بباب الخميس يصدحون في حصة الأناشيد بأغاني الصباح التي كانت تتلاطم على أمواج الإذاعة الوطنية. كانوا يُنشدونها في القسم جماعةً وبحماس. أحيانا تحت إشراف المعلمين. ولم يكن رحّال يستطيع مجاراتهم لأن عبد السلام لم يقدّر أهميّة توفير راديو للأسرة. راديو صغير تافه. ومع ذلك كنتَ تحرص كلّ عيد أضحى على أن تجرجر كبشا سمينا أقرن داخل عشوائيات عين إيطّي. طالما انفلت الكبش من بين يديك فتطوّع المُستَنِدون الأبديون على الحيطان من شباب الحيّ العاطل إلى مطاردته والإمساك به ثم مساعدتك في جرِّه إلى البيت. كنت تشعر بالفخر في قرارة نفسك أيها السرعوف وأنت تدخل الدرب بكبشك السمين فيما يشبه الموكب. الأضحية سنّة مؤكّدة، لكنها مجرّد سنّة. حتى أبو بكر وعمر، وهما مَنْ هما، لم يلتزما بها. فهل كان من الضروري أن تواظب عليها كل عام أنت الذي لم تكن تجد المال لتشتري لفلذة كبدك ملابس جديرة بالدخول المدرسي؟ كبش أملح أقرن سمين ثمين لا يعيبُه عرج ولا احمرار في العينين. خروف كما في السُّنّة تمامًا. وراديو تافه ببطارية لم تفكّر فيه قطّ يا عبد السلام؟

***

لذلك حينما أكرم اللـه عناكبه الإلكترونية بنعمة "اليوتوب" وجد رحّال نفسه كمن يستعيد حياة قديمة. لم يكن عليه فقط أن يربح الوقت، بل أن يستعيد الزمن الضائع أيضا.

كل الأغاني التي تسرّبت من طفولته القديمة بدأ يستعيدها: يا صاحب الصَّولة والصولجان.. وحقِّك أنت المُنى والطّلب.. أهواك واتمنّى لو أنساك، وانسى روحي ويّاك.. يا مراكش يا وريدة بين النخيل.. صوت الحسن ينادي بلسانك يا صحرا.. العيون عينيَّ، والساقية الحمرا ليَّ، والواد وادي يا سيدي، الواد وادي.. بساط الريح يا أبو الجناحين، مراكش فين وتونس فين؟.. غاب عليّ الهلال.. مرسول الحبّ فين مشيتِ؟ وفين غبتِ علينا؟ خايف لتكون نسيتنا وهجرتنا وحالف ما تعود..

ثم تلك الأغنية التي درّسها لنا المعلم في السنة الثالثة ابتدائي يوم 21 مارس بمناسبة حلول فصل الربيع. كانت عن الربيع، وعنوانُها.. عنوانُها.. ربيع الأطلس. للثلاثي آمنًا. ياه يا رحّال، هل تذكر تلك الأغنية؟

"رفرف العُصفور يحكي غزَلا / للروابي وهي تهوَى قُبلا

لفَراشٍ هامَ بين الشجَرِ/ وحنينٍ في ابتسامِ القمرِ

السواقي مسحَتْ وجه الحقول/ واستحمّ العطر في كلّ السهول"

ثم تلك الأغنية الأخرى. لم تكن للثلاثي آمنًا. لا لم يكن الصوت مغربيا. كان صوتا شجيا كأنه الحلم. اعصر ذاكرتك يا رحّال. تعلَّق القلب. بالضبط هكذا كان العنوان: تعلّق القلب. رقنَ العنوان على اليوتوب وشغّل محرّك البحث، فانفجر في وجهه شريط للشيخ الداعية أبو هتّاك المطيري. بدأ الشيخ يصرخ مع بداية الشريط: "والله ما تعلّق القلبُ بغير الله إلا عُذّب". لا يا سيدنا الشيخ. لم تكن "تعلَّق القلب" هكذا في المطلق. بل قلبي. قلبي أنا. تعلَّق قلبي. عليك نور. هي هكذا. يا سلام يا رحّال:

"تعلَّقَ قلبي طفلةً عربيةً / تنعَّمُ في الديباج والحلي والحُلل

لها مُقلة لو أنها نظرَتْ بها / إلى راهبٍ قد صام لله وابتهل

لأصبح مفتونا مُعَنًّى بحُبها / كأنْ لم يصُم لله يوما ولم يُصَلّ"

سمعها على اليوتوب بصوت طلال مداح، ثم بصوت طارق عبد الحكيم. لكن حين جرَّب هيام يونس خفق قلبه وارتفعت حرارته واندفعت الدماء في عروقه. هذا هو الصوت الذي كان يملك عليك حواسك بقي عالقا بوجدانك منذ زمن الطفولة أيها السنجاب. كان ما إن يلج باب الخميس، وهو في طريقه إلى مدرسة "الأنطاكي" قادما من عين إيطّي، حتى ينصِب أذنيه مثل لاقطٍ هوائيّ، فيتقاذفه موج الإذاعة الدافئ. إذاعة واحدة يسمعها الجميع. هنا الرباط. إذاعة المملكة المغربية. والآن مع وصلة جديدة من أغاني الصباح. يتمهّل

أمام محلّات الحدّادين وصانعي البرادع. كلهم على نفس الموجة. وهيام يونس، التي لم يكن يعرف اسمها، تصدح بصوتها الطفولي فيعشقها هي ويتعلق قلبه بها كما لو أنها الطفلة التي في كلام الأغنية، ويتمنّى لو أن عبد السلام اشترى لهم راديو صغير ببطارية ليستمتع بدوره بأغاني الصباح. ياه يا هيام..

"حجازيةُ العينين نجديةُ الحَشى/ عراقيةُ الأطراف روميةُ الكفَل

تهاميةُ الأبدان عبسيةُ اللَّمى/ خُزاعيةُ الأسنان دُرِّيَةُ القُبل"

ثم إن اسمها هُيام. اسمع يا عماد. اسمع يا ابن القطيفة. كان اسمها هيام. وصار اسمها هيام. كأنّنا موعودان لبعضنا منذ الأزل. اسمعي فقط يا بنت الحاج المعطي. إليكِ الأغنية للنهاية:

"ولاعَبْتُها الشطرنج خَيْلي ترادَفَتْ/وَرُخّي عليها دارَ بالشّاهِ بِالعَجَل

وقد كان لعبي كُلّ دَسْتٍ بقُبلةٍ/ أقبّلُ وجْهًا كالهلال إذا أطلّ

فقبَّلتُها تسعًا وتسعين قُبلةً/ وواحدةً أخرى وكنتُ على عَجَل"

على اليوتوب وجد رحّال أخيرا ذلك الراديو الصغير الذي لم يشتره عبد السلام. واكتشف كم هو راسخ حبُّه لهيام. تعلّق قلبُه بها من أيام باب الخميس ومدرسة الأنطاكي. أما روحُه فعاشقةٌ لها منذ الأزل.

آه يا هيام، لو كنتُ شاعرا لكتبت فيك ديوانا أُسمِيه

"رياض المها"، ولتغزّلتُ بكِ بأجمل ممّا أنشد قيس وأبدع ممّا قالت الأغنية. لكنَّ الشعر قلّ والشعراء غادروا، وأنا لست متنطّعًا لأقول فيك أيّ كلام. إنما الليلة لن أدعَكِ تُفْلِتين. سأطارِدُك في محمية القنافذ وحين أطوّقُ عنقك ويصير خدك الأسيل في متناول يدي سأقبِّلك تسعًا، على عجل طبعًا، فالقنفذة لا صبر لها على لهو السـرير، وسرعان ما تشرع في إطلاق السهام.

14

بعد مرور عشرة أيام بالضبط على حفل الزفاف، عاد رحّال وحسنية من المدرسة متأخرَيْن بسبب زحمة المواصلات، لم يكونا قد حصلا على الدراجة النارية بعد، فوجداه هناك. صينية شاي، بلاطو غُرَيِّبَة، والأرملة مستمتعة بحكايات عامل البناء المتقاعد حتى أنها، وأمام استغراب ابنتها، أصرّت على استبقائه للعشاء. لم يكن عيّاد في حاجة إلى كثيرِ إلحاح ليستعيد مجلسه الدافئ أمام التلفاز. تعشّى معهم وانتشى بشرب كأس آخر من الشاي الثقيل المُحلّى ولم يغادر إلا بعد أن أطفأت حسنية التليفزيون. ولم تكن تلك الزيارة بيضة ديك.

بعد وفاة الأرملة وانتقال رحّال وحسنية إلى حيّ المسيرة، تواصلت

زيارات عيّاد. يكون رحّال مُنهمكًا في صياغة إحدى تعليقات "ولد الشعب" النارية حينما يطرق عيّاد باب المحل بحزمة مفاتيحه وهو يبتسم. كأنه يتوقّع من السنجاب أن يرفع رأسه ويلمح جبهته المتغضّنة وعينيه الملتصقتين وملامحه الفأرية فيبتهج بالزيارة السعيدة. رواد السيبر لا يُضايقون رحّال عادة. ينسلُّ الواحد منهم في هدوء باتجاه الجهاز الشاغر وهو يتمنّى ألا يخرج السنجاب من حالة الاندماج سريعا. فرحّال لا يشرع في احتساب الوقت إلا ابتداءً من اللحظة التي ينتبه فيها إلى وجود الزبون. وهذا يُكسِب الرواد، خصوصا من مراهقي الثانوية، بعض الدقائق المجّانية التي قد تتجاوز ربع الساعة أحيانا، فيما يُوَفّر رحّال بهذا التعاقد غير المعلن لكلٍّ من ولد الشعب وأبي قتادة الهدوء الذي يحتاجانه لصياغة تعليقاتهما النّاسفة.

إنما عيّاد، كيف تجعله ينتظر؟

فهم السنجاب أن زيارات عمه تنزل هكذا مثل قضاء الله، لا سبيل إلى ردّها أو استمهالها. لذا يطلب من قمر الدين أن يرعى المحل في غيابه لبضع دقائق ويخرج مع عيّاد إلى مقهى ميلانو. قمر الدين، الذي صار مُقيما في السيبر لا يكاد يبرحُه إلا في موعد الإغلاق، يفرح بهذه المهمات. فرحّال يكافئه على رعايته السيبر في غيابه وكذا تقديمه يد العون للزبناء كلما وقف الحمار الإلكتروني لأحدهم أمام عقبةٍ ما بِمَنْحِه، من حين لآخر، كارْتًا مجّانيا من فئة عشر ساعات

إلى عشرين حسب قيمة الخدمات التي يكون قمر الدين قد أسداها له ولروّاد المحل. كل زبون من المداومين صار له كَارْتٌ عددُ ساعاته يتراوح ما بين الخمس ساعات والعشرين. يؤدّى ثمن الكارت مقدَّما بسعر تفضيلي حدّده رحّال في ثلاثة دراهم للساعة لأصحاب خمس وعشر ساعات ودرهمين ونصف لأصحاب العشرين.

الغريب أن أسماء تطلب دائما من رحّال ماذا يشرب، أما عيّاد فلم تعد تسأله. تلاطفه كما لو كان صديقًا، وتحضر له براد شاي ثقيل بالشِّيبة وتضع أمامه قِطعًا إضافية من السكر. حتى نادلة مقهى ميلانو صارت تعرف كم هو مُحلّى شايُك يا عيّاد. يرتشف رحّال شايه أو قهوته سريعًا ثم يعود ليتفقَّد مخلوقاته الإلكترونية العجيبة مواصلًا قيادتها في معاركها الدونكشوتية ضد العالم والناس. أمّا عيّاد فيفضّل الانتظار في المقهى.

انتظار ماذا أيها الفأر؟

موعد الغداء إذا كانت الزيارة صباحية، والعشاء إذا كانت مسائية. ولأنه لا رادّ لقضاء الله، يكون رحّال مجبرًا على اصطحابه إلى البيت لكن بعد أن يُعذّبه بالانتظار. فالسنجاب يتعمّد التلكّؤ عسى العمّ يضجَرُ فيبدِّل الساعة بأخرى. لكن قد تُزلزَل المقهى تحت قدمَيْ عيّاد وتُخسَف بعمارات شارع الداخلة الأرض ولا ينقلع من مكانه. وجبة غداء رحّال بائتة دائما. فهو يُحضِّر الطواجن قبل النوم. يهيء

طاجين الغداء ليلًا وينام بعد أن يكون قد شرب شايًا وأكل معه شيئا خفيفا. بيضة مسلوقة يرفسها في زيت الزيتون ويضيف لها قليلا من الملح، أو قطعة جبن "لافاش كيري" مع شريحتَيْ مورتديلا. أما حسنية فمن المستحيل أن يعرف النوم طريقه إلى جفنيها قبل أن تحفر أخدودا عميقا في طاجين الغد.

حين كانت أم العيد حيّة ترزق لم يشغل رحّال باله أبدًا بحكاية الأكل. كانا يدخلان البيت فيجدان الأرملة تكفّلَت بكل شيء. ومباشرة بعد رحيلها اكتشف السنجاب الحقيقة المُرّة. فالقنفذة التي تُقبل على الأكل بشراهة فرس النهر لا تعرف كيف تقلي بيضة. حتى الشاي عليه أن يُحضِّره بنفسه إذا أراد أن يستطعمه. هكذا ارتدى مريولة المطبخ صاغرًا.

***

المزعِج في عيّاد هو تدخّله فيما لا يعنيه. يصعد مع رحّال إلى الشقة من أجل الغداء فإذا به يصر على انتظار حسنية. يا عمي يا حبيبي شهامتُك الكاذبة احتفظ بها لنفسك. نحنُ لا ننتظر بعضنا على الغداء. كلما وجد أحدُنا الفرصة يصعد إلى الشقة ويأكل ما قسَّم اللــه. نحن نشتغل ولا نلتقي في البيت إلا ليلا. بعد الأكل هناك تقليدٌ مُقدَّس اسمه القيلولة، فوحدَها الشياطينُ لا تَقيل. وإذا كان السنجاب قد فرّط في هذا الطقس، فعيّاد أبدًا لا يتهاون في مثل هذه

الأمور. هكذا يغادر رحّال الشقة ويبقى عيّاد يشخر في الصالون كملاكٍ غليظ. في البداية كان يترك حسنية تُفاجَأ بالمشهد، لكن بعدما شرحَتْ له أنها ستقلب الدنيا فوق رأسه إذا ولجت في المرة القادمة شقتها على إيقاع شخيرِ أيٍّ كان، صار يدعو عمَّه إلى برّاد شاي ثان عند أسماء في مقهى ميلانو.

عيّاد مُصرٌّ دائما على التدخّل في ما لا يعنيه. هو الوحيد الذي تجرّأ مرة وسأل حسنية عن الذّرّية. فاجأ رحّال بإطلالته المزعجة ذات ضُحىً، فأخذه إلى المقهى عند أسماء حيث تركه يرشف الشاي في انتظاره. وحين دخلا الشقة للغداء، وجدا حسنية قد سبقَتْهما تلك الظهيرة. أعدّ رحّال السّفرة وتحلق الثلاثة حول الطاجين. بدت حسنية مُتضايقة من غارة عيّاد. لكنها اعتادت أن تخفي ضيقها بالصمت. بالإيغال في الصمت. كان عيّاد يُحدِث صوتًا مزعجًا أثناء المضغ. صوتٌ مثل فرقعة العلك يُوتِّر حسنية. وكما لو أن عيّاد تعمَّد أن يوتِّرَها أكثر، باغتها بالسؤال:

- إيوا، آش كا تتسنّاي آ حسنية؟ ما زال ما بغيتيش تجيبي لنا شي وليّد ولا بنيّة باش نفرحو؟

فوجئت حسنية بالسؤال. وقفت اللقمة في حلقها. تناولت كوب ماء. شربت جرعتين، ونظرت إلى رحّال شزرًا، وكأنه مَن أوعز إليه بالسؤال. لعلّها تريد منه أن يردّ.

تمتم رحّال مرتبكًا:

- ذاك الشي ديال اللـه آ عمّي.

- ولكن اللـه عزّ وجل كا يقول: "سبّب آ عبدي وأنا نعاونك" صدق اللـه العظيم.

- فعلًا، صدق اللـه العظيم، علّقت حسنية ساخرة قبل أن تقوم مغتاظة عن مائدة الأكل. اختفت لدقائق ثمّ أطلّت على الفارين وعلى ملامحها ارتسمت ابتسامة احتقار. قالت لعيّاد:

- سلّم لي على أخيك وزوجته، ولا تنس أن تدقّق مع عبد السلام في أيٍّ من سُوَرِ القرآن وردت تلك الآية. ثم صفقت الباب وراءها وغادرت.

لم يسبق لرحّال أن تحدّث مع حسنية في هذا الموضوع. لا يعرف إن سبق لها أن فكّرَتْ، قبل سؤال عيّاد، في موضوع الإنجاب؟ لكن هو على الأقل كان سعيدًا هكذا. لا قِبَل له بأيّ طارئٍ قد يخرّب حياته. حملٌ ومخاض وولادة ومستشفى أطفال وكومة لحم تنعق في البيت ليل نهار. حليب ورضاعة وتغيير حفّاظات. أبدًا. لا يستطيع رحّال تحمُّل زلزال كهذا. هو سعيد بيوميِّه الرّتيب، متآلفٌ معه. ولا حاجة له بأيّ طارئ يقلب حياتَهُ رأسًا على عقب. ثمّ، تصوّر يا رحّال أنّك أنجبت؟ هل ستهدي للإنسانية ملاكا ساحرًا بابتسامة عذبة؟ هل سيكون رضيعُك مثل صِبْيَة إعلانات "دلع" و"بامبيرس"؟ لا شك

أنّك ستنجب جرذًا يشبهك. سنجابا خاملا بعينين فأريتين يركض وراءك وهو يزعق. وحين يتسلّقك لاهيا فتنزله عن ظهرك وتحاول ملاعبته، تدغدغه مثلًا، يكشّر في وجهك ثمّ يزعق. ستجد نفسك أمام جرذ صغير بملامح مقزِّزَة. ستكرهه يا رحّال، وستكره نفسك أكثر. رحّال يتفادى التحديق في المرآة لأنَّ ملامحه الفأرية تُربكه وتُوتِّرُه. فلماذا تريد له يا عيّاد مرآةً شنيعةً من لحم ودم؟

حتى البنت لن تكون سوى قنفذة مثل أمّها. قنفذة قد تنغّصُ عليك حياتك أكثر. لا، أبدًا. لا نريد أطفالًا يا عيّاد. لا حاجة لنا بهم. وحسنية، لا شكّ أنها تفكّر مثلي. يكفيها سنجابٌ واحد في البيت، وتكفيني قنفذة. وإذا كانت حليمة مَن سلّطك علينا فطمْئِنها إلى أنّ البجع، مثله مثل النعام ذي العنق الأحمر والنسر الإمبراطوري، قد انقرض من هذه البلاد.

- عمّي. أنا الآخر عليّ أن أعود إلى شغلي. لكن قبل ذلك، أدعوك إلى كأس شاي عند أسماء.

15

لم تكن أسماء فائقة الجمال، لكن دلالَها الطبيعي الأصيل الذي لا افتعال فيه ولا تغنُّج يعصرُ قلب السنجاب. جسدُها المتناسق البديع يوجعه، فلا يستطيع التحديق فيه طويلا. صدرٌ واسع ونهدان جامحان مثل مُهْرَيْن يكادان يمزّقان التيشورت الضيّق دائما، وخلفية محترمة تُجيد تأطيرها في سروال دجينز لاصق. لكنها متطلّبات الشغل، وإلا فالبنت في عمقها قروية وديعة طيبة. لا شك أن أباها هاجر مثل عبد السلام وعيّاد والآخرين من إحدى القرى المجاورة ذات جفاف. ولأن أغلب النازحين من القرى المُجدبة فشلوا في تربية الأبناء وتعليمهم، فمن الطبيعي أن تجد أسماء نفسها نادلة مقهى.

لكن أسماء لا تنوي البقاء هنا في مقهى ميلانو. إنها تريد مغادرة

المقهى والسفر إلى ميلانو. ميلانو الحقيقية التي في إيطاليا وليس ميلانو حيّ المسيرة الصاخبة المزدحمة فاسدة الهواء بسبب سحائب الدخان التي تغطّيها وكأنّ مسابقةً غير مُعلنَة تجري بين روادها حول من سيُحرق صدره بأكبر عدد من السجائر. أحد الرواد حدَّث أسماء عن فرصة عمل هناك في مجال الخدمات الفندقية.

- عمل لا يختلف كثيرا عما تفعلينه هنا، لكن على أشْيَك. وفي ميلانو. ميلانو بالذات.

- واللغة الإيطالية؟

- في العمل الذي أرشّحك له لا تهمّهم اللغة كثيرا. الجُمل التي ستحتاجينها، لزوم الشغل، سيُلقّنونها لك في 24 ساعة. فقط عليك أن تكوني بشوشة، جدّية، دؤوبة، وتتفانَيْ في عملك مثلما تفعلين هنا وسط هذه الغوغاء التي لا تستحقك.

كان اسمه يونس، ويلقبونه طاليوس. يسكن في الطابق الأول بالعمارة المقابلة للمقهى، مباشرة فوق سيبر أشبال الأطلس. شاب وسيم في الثلاثين، دائم التنقل بين إيطاليا والمغرب. يطلب لنفسه أكثر من مشروب في الجلسة الواحدة ولا يدخّن غير المارلبورو. بخلاف الآخرين الذين يخفون عُلبهم جيدا قبل أن يسحبوا منها السجائر مشتعلة تقريبا، يعزم طاليوس جُلساءه بأريحية على سجائره. لا يختفي طويلا عن المقهى. شهرين، ثلاثة، ويعود. كل مرة يأتي

بسيارة جديدة. ألسنة السوء تقول إنه يشتغل في التهريب. حشيش على سيارات مسروقة. لكن أسماء لا يهمّها كل ذلك. مادام يدخل ويخرج معزّزا مكرّما، يجتاز سُدُود الجمارك وحواجز شرطة الحدود، وحين يأتي إلى المقهى يسدّد ثمن مشروبه ومشروب جلسائه ويترك بقشيشا محترما فوق ذلك، فهو أهلٌ للثقة. أما كلام الناس فلا ينتهي. أغلبهم يتكلمون عن حسد. هاذ المرُّوك شحال محسادين. هو على الأقل إذا حسدوه عندو علاش، أمّا أنا مازال مادرت علاش نتّحسد. ولن أدعهم يحسدونني على حلم. على ضوء يومض من بعيد. على بصيص أمل يبدو بريقُه خافتا، ومع ذلك عليّ أن أتشبّث به. لن أخبر أحدا بالموضوع. لكن لن أدع الفرصة تفلت مني.

أعطاها يونس إيميل مدير المحل الذي ستشتغل فيه. شرح لها أنه مغربي من خريبكة ويمكنها أن تكتب له بالعربية. كلُّ المطلوب نسخة من بطاقة التعريف الوطنية وخمس صور جذابة تُبرِز جمالها وعنفوان جسدها.

- اهتمّي بالصور. يجب أن تكوني جميلة فيها. بشوشة، مبتسمة وسعيدة. يجب أن تظهري سعيدة في الصور. هذا ضروري جدا. في إيطاليا، لا أحد يُشغِّل شخصا حزينا. اذهبي عند مصور محترف، والأفضل أن يلتقط لك الصور في حديقة أو صالون فخم، وليس عنده في الاستوديو. جرعات إضافية من الغنج لن تضرّك في شيء.

المصور سيساعدك. إنهم يعرفون كيف تُلتَقط الصور هذه الأيام.

- لكن كيف أبعث له كل هذه الأشياء؟

أشار يونس إلى السيبر أمامها:

- لديهم سكانر في السيبر. والإيميل الذي أعطيتكِ كافٍ جدا. فقط خذي بطاقة التعريف والصور للأخ الذي يشتغل هناك، اشرحي له المطلوب وسيتكفّل بالإرسال.

كان السنجاب يشعر بالانسحاق كلما وقفت هذه اللبؤة أمامه في المقهى. يُفكّر في الشاي فيجد نفسه يطلب قهوة. يُمنِّي نفسه بقهوة مُركَّزة فيرتجّ عليه فإذا به يطلب عصير برتقال. لا يفهم لماذا يرتبك أمام أسماء بهذا الشكل؟ هو لا يحبها ولا يشتهيها، لكن جسدها يسحقُه. ضعفُك أيها السنجاب أمام صنف البقريات ثابت مشهود، فما بالك باللبؤات؟ إنما، ما الذي قاد هذه اللبؤة الفتية إلى جُحرك؟

حين شاهد رحّال صور أسماء صُعِق تمامًا. شيء يفوق الوصف. يتجاوز قدرته على التحمّل. جسدٌ مكتنزٌ ورشيقٌ في نفس الوقت. متدفّقٌ من غير تهدُّل. قويٌّ مشدودٌ إنّما في لَطافةٍ ولِين. كان قميصُها في الصور أحمر بفتحة في الصدر مدروسة بعناية. تُتيح للمُهْرَيْن أن يُطِلا بخَفَرٍ دون أن يجْمَحا إلى الخارج. وكعادة أسماء كان القميص ضيّقا بما يكفي ليُبرز مفاتن جذعها، قصيرا يكشف عن سُرّة

جميلة أشعلت في دواخله النار. كانت تلك أول مرة تلج فيها باب السيبر، لذا بدت مرتبكةً وهي تشرح لرحّال المطلوب. أفْهمَها أن الأفضل أن يفتح لها حسابا في الهوتميل، منه يبعث الرسالة وبطاقة التعريف والصور للمعني بالأمر، وكذلك كان. المطلوب خمس صور فقط، لكن رحّال مسح ضوئيا كل الصور التي كانت بحوزة اللبؤة. أكثر من عشر صور. خمسة منها في صالون مغربي جميل، لعله استقبالات فندق. والأخرى في الحديقة. بعث رحّال خمسة منها، صور الصالون لأنها الأكثر شبقا وإثارة، وتركها أمامه طافية مثل فقاعات من ضوء على سطح مكتب الكومبيوتر فيما دفن الصور الباقية في الأرشيف.

غادرت أسماء المحل وظلّ رحّال يتفقّد إيميلها دون جدوى. كلما جاء عيّاد واضطرّ السنجاب إلى رَكْنِه مثل وديعة في مقهى ميلانو إلى أن يحين موعد الغداء يلتقي أسماء فتسأله عن الجديد. ودائما لا جواب. حتى طاليوس اختفى. اعتقلوه في ميناء الخزيرات وسيارته معبّأة بثلاثة كيلوغرامات من الحشيش خبّأها داخل تجويف مزدوج ركّبه بطريقة جهنمية داخل هيكل السيارة، هكذا يقولون في المقهى.

16

رغم سمعة أبي قتادة لدى الأخوات والإخوة الذين وجدوا في هذا الرجل الذي لا يخشى في اللـه لومة لائم، ضميرَهُم الحيّ اليقظ، المتحمِّس دائما لفضح مغالطات العلمانيين وأكاذيب الديمقراطيين وترَّهات الليبراليين ومن تبعهم بإساءةٍ إلى يوم الدين، يبقى "ولد الشعب" حالة خاصة لا يمكن مقارنتها بأي مُدبِّج تعليقات آخر. صار نجم هوت ماروك بلا منازع. لنَحْتكِم إلى اللايكات. أهمّ أصحاب الأعمدة في هوت ماروك يكتبون مقالاتهم الجامعة المانعة في قضية رأي عام يكون البلد كلّه مشدودًا إليها وإلى تداعياتها فيحصل الواحد منهم على مائتي لايك بعد أسبوع من النقاش. أما رحّال فقد يخطّ في دقيقتين، وعيّاد واقف على رأسه ينتظره، رأيا سريعا حول خبر

يومي تافه فتنهال عليه اللايكات من كل حدب وصوب. يشرب شايه بسرعة ويركن عمّه في المقهى ويعود فيجد ماكينة اللايكات قد اشتغلت. أحيانا يجمع خمسمائة لايك في ثلاثة أيام. هل هو توفيق من اللـه؟ أم نوع من أنواع القُبول؟ المهم أنّ ولد الشعب صار نجم الموقع بلا منازع. لديه قرّاء تغنيهم تعليقاته على الهامش عن قراءة المتن. ومعجباتٌ لا يُطِقن غيابه.

مَنْ أشرقت بدايتُه أشرقت نهايتُه، صدقتَ يا ابن عطاء اللـه. أصبْتَ أيها السَّكَندري. فولد الشعب منذ تعليقه الأول وقّع على دخول ملكي إلى المعترك الإلكتروني. مثل لاعبٍ احتياطيّ يُقحَم في مباراة نهائية في الأنفاس الأخيرة من الشوط الإضافي الثاني فيحرز الهدف القاتل. لم يفعل ولد الشعب أكثر من صياغة تعليق بسيط جدا على جائزة ابن الونّان التي عادت تلك السنة للشاعر وفيق الدرعي فانقلبت الدنيا رأسا على عقب. الوزير اعتذر عن الحضور. والشاعر المُتوَّجُ قاطَع الحفل. الجهة التي منحته الجائزة أصدرت بيانا تشتمه فيه. وحفنة من مشرّدي الانترنت تجمّعوا في إحدى جنبات المسرح الوطني بالعاصمة وأخذوا في ترديد الشعارات. كسرت الشرطة أضلع ستة منهم واعتقلت ثلاثة آخرين. وجاء في قصاصة لوكالة الأنباء أن المعتقلين الثلاثة حاولوا الانحراف بالوقفة عن مسارها الاحتجاجي السلمي برفعهم شعارًا يُطالِب بإسقاط النظام.

من حق رحّال أن يفخر بولد الشعب ويُفَضِّله على أندادِه. فهو، مثله، يُتقن حسم الأمور بالضربة القاضية. ولَهُ الرُّكبية الخاطفة ذاتُها التي اعتاد السنجاب أن يُهشّم بها وجوه خصومه في الحلم. ولد الشعب ببساطة يبدأ من الآخِر. يكره المراوغة واللفّ والدّوران. عُدّتُه جاهزة: التخوين، الاتهام بالعمالة للمخابرات، التعريض بشرف صاحب حاجته وشرف أمه وزوجته وبناته وعمّاته وخالاته، وتقديم معطيات مخجلة عنه. يحرص ولد الشعب دائما على أن يكون جزءٌ ممّا يُقدِّمه من المعطيات صحيحًا لضمان ثقة القراء، خصوصًا ممن يعرفون الشخص المُستهدف عن قرب، وبعدها لَفِّقْ ما شئت. ولد الشعب حريصٌ جدًّا على ثقة القراء، مع أنهم لا يقرأون. أغلبهم يطلّون من شرفة العنوان على الصورة المرافقة للموضوع ويبدأون في البحث عن ردّ "ولد الشعب". بعد عشرين تعليقا مثلا تناقش موضوع المقال، تتّفق أو تختلف مع كاتبه، تهاجم أو تدافع عن الشخصية التي أُنجِز عنها المقال، يطلق ولد الشعب طلقته المدوية فتتوالى التعليقات. أربعون. خمسون. مائة. مائتان. أغلبها لا تعود إلى المقال الأصلي لتناقشه. بل تدور في فلك ولد الشعب. تستعيد كلامه. تتفاعل معه. قد تختلف معه أحيانا. لكن معه هو ومع تعليقه، وليس مع المقال وموضوعه.

حتى بعدما أُقْصِي المنتخب الوطني من كأس إفريقيا، وهو موضوعٌ لا يهمّ رحّال لا من قريب ولا من بعيد، ارتفعت الأصوات

تطالب ولد الشعب بالتعليق. عاد المنتخب يجرّ أذيال الخيبة من الدور الأول، وصدرَ الخبر في الصفحة الأولى من هوت ماروك: "الأسود يغادرون كأس إفريقيا من الدور الأول" بعنوان فرعي أعجب رحّال كثيرا: "أسود الأطلس لا تحسن الزئير في الأدغال الإفريقية". لم يقرأ رحّال المقال أصلا. فسيّان عنده أُقْصِي المنتخب أو تُوِّج بالكأس. الأمر لا يعنيه بتاتًا. فقط بحكم العادة وجد نفسه يتصفّح التعليقات. فإذا بخديجة من الناظور تكتب بحُرقة فيما يشبه الاستغاثة: "لماذا لم نقرأ تعليقك يا ولد الشعب على هذه الكارثة التي حلّت بنا؟ ألا تستشعر طعم الإهانة؟ أيُرْضيك أن تنتصر علينا منتخباتُ دولٍ تطحنُها الحروب الأهلية وتنهشُها المجاعات؟".

ماذا تريد هذه القحبة بالتحديد؟ منتخبكم الفاشل أقصي من كأس إفريقا، فماذا سأفعل له أنا؟ لماذا تستصرخينني؟ هل أنا المعتصم بالله؟ كاد يضرب صفحًا عن الموضوع ويقلب الصفحة لولا أن التعليق الموالي قرع نفس الجرَس: "فعلا أختي الكريمة؟ لا أفهم كيف تخلّف ولد الشعب عن التعليق على هذا الموضوع بالذات هو الذي نعرف جميعا مدى غيرته على الوطن. نخشى فقط أن يكون مريضا أو أصابه مكروه، عموما الغايب حجتو معه، وعسى أن يكون المانع خيرا". قارئة من جرسيف تكتب في العنوان: "ولد الشعب الله يشافيك آ خويا".

لا يا رحّال. يجب التّدخل فورًا لإيقاف سيل التعليقات المعتوهة. صحيح أنه لا علاقة لك بالموضوع، لكن ما العمل؟ نداء الواجب يا أخي. نداء الضمير. عموما اعمل لهم حركة استعراضية سريعة. لقد أدمنوا شقلباتك البهلوانية فلا تحرمهم منها. خديجة من الناظور مثلا لن تنام الليلة ما لم تعطها حُقنتها. ثم إن الأمر لا يحتاج إلى معرفة بقوانين كرة القدم ولا إلى مشاهدة المباريات التي لا تُتابِعها أصلا، ولن يُكلّفك إنجازَ تحرِّيات في الموضوع. الحكاية بسيطة جدًا. يمكنك أن تزايد على الجميع بطريقتك، وقُرّاؤك يا ولدي يموتون في المزايدات:

الاسم: ولد الشعب.

عنوان التعليق: ويسألونك عن الأسود؟

"لستُ مريضا أيها الأصدقاء. لكنني امتنعتُ عن التعليق تجنُّبًا لأيّ صدام معكم. فهناك تعليقات يتوهّم أصحابها أنهم محللون رياضيون مُعتمَدون لدى الفيفا. وأخرى لمنظّرين يقترحون خططا طويلة الأمد لتحسين مستوى كرة القدم المغربية. وكل هؤلاء يتحدثون عن أسود الأطلس دون أن يرفّ لهم جفن. الأسود انقرضت من الأطلس منذ زمان ولا تجوز عليها الآن سوى الرحمة. فقط القرود ما زالت تتقافز هناك. مثل القرود التي لعبت بطولة إفريقيا. قرود مخنثة بسلاسل من ذهب تبدو معنية بتسريحة الشعر أكثر من اهتمامها بإحراز النصر.

معظمهم من أبناء زماكْرية فرنسا وهولندا الذين لا يحفظون حتى النشيد الوطني. هذا المنتخب، أصدقائي، لا يهمني ولا أتوقّع منه شيئا. ولست معتوها كي أطالب عبثًا قرود الأطلس بالزئير".

وقفت فدوى وسميرة عند رأس رحّال تنشُدان مساعدته على إنشاء بروفايل لـ"نجمة مراكش" على الفيسبوك. لم يكن قد انفتح بَعْدُ على هذه القارة الإلكترونية الجديدة. أحالهما على قمر الدين مؤقتا على أن يتدرّب لاحقا على العملية. فالتجربة علّمته أن العدوى تسري في الأمشاج الإلكترونية سريان النار في الهشيم. اليوم فدوى وسميرة، غدًا سليم، وبعد غد الأفريكانو، ثم تبدأ الجحافل الإلكترونية في دخول الفيسبوك أفواجًا وكأنهم مجموعة من الضائعين الحيارى لم يصدّقوا أنّ دينا جديدا ظهر في الجوار حتى سارعوا إلى اعتناقه. عليه أن يستعدّ للأمر منذ الآن. يفتح لنفسه حسابًا على الشبكة الاجتماعية الجديدة، يتدرّب على تقنية إنشاء البروفايلات بها، يتمرّن على استخدام أيقوناتها، ثم يحدّد التسعيرة المناسبة.

"لكن الآن أنا مشغول، شوفوا مع قمر الدين".

ما إن تحلّقت البنتان حول النصراني بلا خبار سيدنا عيسى حتى وجد رحّال نفسه مُندسّا بينهما. كأنه غيَّر رأيه؟ عليه أن يتعلّم طريقة الاشتراك الآن. وهي مناسبة للحصول على كلمة السّرّ التي ستتيح لنجمة مراكش أن تضيء سماء الفيسبوك.

لم يستغرق قمر الدين في العملية أكثر من خمس وعشرين دقيقة، كانت كافية ليطمئن رحّال على دجاجته الإلكترونية الجديدة. وكافية أيضا ليلاحظ بعد عودته إلى هوت ماروك هول الانقلاب الذي قاده ولد الشعب هناك. 70 لايك في أقل من نصف ساعة، وخمسة وعشرون تعليقا. و"هذي البداية، ومازال مازال"، كما تقول الأغنية. كلّ التعليقات قدّم أصحابُها نقدا ذاتيا. اعتذروا لولد الشعب وأشادوا بحكمته وبُعدِ نظره قبل أن يعاهدوه على ألا يهينوا الأسود بعد اليوم. صار الكل يتحدث عن قرود الأطلس ويردّد كلمة القرود بشكل عادي جدا حتى أن معلقا شاردا طالب قراء هوت ماروك بالتحلي بالروح الرياضية، مُوضّحًا أن الهزيمة مثل النصر، والإقصاء مثل التتويج، يجب تقبّلهما بأريحية قبل أن يتمنّى في ختام تعليقه كل التوفيق لقرود الأطلس في الاستحقاقات الدولية المقبلة.

17

فتح رحّال إيميله على الهوتميل. خفّفه من رسائل السبّام غير المرغوب فيها والتي تراكمت في صندوق بريده. اكتشف أنه بالكاد يتفقّد إيميلاته، فيما يُمضي وقتا طويلا في التسكّع بين إيميلات الآخرين. لكن فيم سيحتاج إيميله هو؟ هل ليبعث منه رسائل إلى حليمة وعبد السلام؟ أم ليتفقّد من خلاله أحوال القرى في عبدة؟

اليوم دخل إلى هوتميل فقط ليتأكّد من أن حسابه ما زال جاريا. فهو يحتاجه من أجل إنشاء بروفايل على الفيسبوك. حوائط الفيسبوك أغرت رحّال أكثر من باقي التطبيقات الأخرى التي يتيحها الموقع. هو لا يريد إنشاء ألبومات صور، ولا الاشتراك في مجموعات خاصة، ولا تهمّه قوائم الأصدقاء. كل ما يطمح إليه حائط للكتابة،

يُشخبِط فيه كما يشاء. حائط فقط، يخطّ فوقه كلمته ويمضي. يخربشها بكل حرية، ويُوقِّعها باسمه الفيسبوكي الجديد: سمير الليل والنهار. لكن الحائط على الفيسبوك يمتدّ إلى ما لا نهاية. لا حدود له. ليس مثل جدار المدرسة أو حائط التواليت. اكتب يا رحّال اكتب. دبِّج ما شئت من رؤى وخواطر. لكن كيف السبيل إلى القرّاء؟ هذه ليست صحيفة هوت ماروك التي أتاحَتْ لمخلوقَيْك الافتراضيين أبو قتادة وولد الشعب أن يتربّعا على عرش النجومية. هذا فضاء آخر أكثر اصطخابا. بحرٌ متلاطم الأمواج يُصيب راكبه بالدُّوار، وأنت أيها السنجاب لا لوح لك ولا شراع.

اختار سمير الليل والنهار لصورته لوحةً تشكيلية بالخط العربي لبيت محيي الدين بن عربي: "أدين بدين الحُبِّ أنّى توجَّهَتْ/ ركائبُهُ، فالحبُّ ديني وإيماني". وحرص على تقديم نفسه شاعرًا من مواليد 1981. طلب هكذا بشكل اعتباطي صداقة بعض البروفايلات الشاردة. لكن الاستجابة لم تكن مثلما توقّع. بدأ يخطّ على جداره بعض الأقوال والعبارات الرومانسية الحالمة، إنما دون جدوى:

"لا تهتمّ بمن يكون رائعا معك في البداية، بل اهتمّ بمن يكون رائعا معك حتى النهاية".

"الوحدة مؤلمة لكنها أجمل بكثير من مرافقة الذين يتذكّرونك فقط وقت الفراغ أو الحاجة".

"الدموع لا تُغيِّر الواقع، لكنها تُريح القلب".

"لا يصنع الرجل حياة إلا حينما تصنع الحياة منه رجلا".

"لا يمكنك اقتلاع عبير زهرة حتى ولو سحقتها بقدميك".

أجابَتْهُ بِصَلَفٍ طالبة شابة أحبّ حضورها المَرِح وروحها المُنطلِقة من ألبوم صورها المُتاح للعموم فطلب صداقتها:

"اسمح لي آ السي مصطفى لطفي المنفلوطي، ما تدبرهاش مني قلة الصواب، ولكن بصراحة ماعنديش مع الرومانسية".

كأنَّ السنجاب ندم على تقديم نفسه لهؤلاء الأوغاد بصفة الشاعر الرقيق. أرأيت يا وفيق؟ أرأيت أيها الغبي؟ تتقمّص دور النجم فيما لا أحد يهتمّ بالشعر والشعراء أصلا. بنات هذه الأيام لسن رومانسيات أيها الأخرق.

لكن ماله وفيق يا رحّال؟ ما شأنه بما يحصل؟ انس الرجل قليلا يا أخي. أنت من اختار سمير الليل وأدين بدين الحب والحديث عن الوحدة والدموع وعبير الأزهار. وفيق الدرعي لا علاقة له بالموضوع، فلا تبالغ. عموما احتفِظْ بسمير الليل والنهار، فهذا البروفايل ليس سيّئًا تمامًا. قد تحتاجه ذات يوم. أما الآن فيمكنك أن تزوبع هذه الأجواء الفيسبوكية الهادئة إذا شئت. فقط أخرج اللبؤة من جُحرك أيها السنجاب وأطلقها في هذه البراري الإلكترونية الشاسعة وسترى عجبا.

قفز رحّال من مكانه. وقف بباب المحل وسرح بعينيه بين طاولات مقهى ميلانو. كانت أسماء هناك تحمل صينية مليئة بالطلبات: ثلاث قهوات واحدة إكسبرسو وزوج نصّ نصّ، براد ديال أتاي، عصير برتقال، وثلاث هلاليات. كانت تتحرّك مثل لبؤة جريحة رمى بها حظها التعس إلى سيرك تافه. وعوض أن ترتع في البراري وسط الأدغال، ألْفَت نفسها مجبرة على التنقل بين طاولات المروّضين والمهرّجين والبهلوانيين هنا في هذا المقهى السخيف الأشبه بسيرك من الدرجة العاشرة.

لم تعد أسماء تسأل رحّال عن مصير الإيميل. لم تعد تترقّب ردّا من أحد خصوصا بعد اختفاء طاليوس. يبدو أنها يئست. أما رحّال فلم يخبرها بأمر الإيميلين: الأول جاء يسأل عن يونس مباشرة بعد اختفائه وقبل أن يشيع خبر اعتقاله في مقهًى ميلانو، والثاني بعده بشهرين يطلب من اللبؤة أن تبعث رقم هاتفها المحمول في أسرع فرصة ليتّصلوا بها من ميلانو للشروع في ترتيبات السفر وتهييء الأوراق اللازمة بعدما تمّت المصادقة أخيرا على طلبها. لم يرتح رحّال للإيميلين الغامضين خصوصا وأنهما جاءا دون توقيع، مثلما لم يرتح لهذا الشغل المشبوه الذي ستتسلمه أسماء هناك في إيطاليا دون أن يحتاج منها ذلك تعلُّم الإيطالية. فقط تلك الصور المُتهتِّكة التي تُبرز المفاتن وتصرّح بالممتلكات. لا يا أسماء، لن أتركك تُلقين بنفسك إلى التهلكة. لذا ضرب رحّال صفحًا عن الموضوع بعدما أصدر حكمه الغيابي برفض العرض.

اللبؤة قادمة أيها الأوغاد.

يا قطعان الثعالب والذئاب.

اللبؤة قادمة، فأفسحوا الطريق.

اختار لها من الأسماء هيام. هكذا. تولُّهًا بحبِّ هيام، أو ربما نكاية بها. اسمها هيام وكفى. دون لقب ولا كنية. طالبة بجامعة القاضي عياض. المدينة: مراكش. البيانات الشخصية يجب أن تُدرج بحِساب. تاريخ الازدياد: 14 فبراير 1990. الجنس: امرأة. الوضعية العاطفية: C'est compliqué. هكذا اختار رحّال إسوة ببعض البروفايلات الملغومة. ما معنى أن تكون وضعيتكِ العاطفية معقّدة؟ هل أنت مرتبطة أم لا؟ لديك حبيب، زوج، خطيب أم لا؟ بصراحة، ما معنى مُعقَّدة؟ هل نفهم من ذلك أن لديكِ عصفورا في اليد لكنك مستعدّة للتنكّر له إكراما لعيني أول صقر يحطّ فوق الشجرة؟ إنما لا بأس. هذه العبارة التي عذّبت رحّال سيستعملها بدوره لتعذيب الآخرين. هيام طالبة جامعية منفتحة، مستعدة للتعارف مع الجميع ذكورا وإناثا، ووضعيتها العاطفية معقّدة. وماذا أيضا؟ يكفي هذا القدر من البيانات.

اختار رحّال صورة البروفايل بعناية. صورة مثيرة كأنها لممثلة إغراء إيطالية وليس لنادلة مقهى ميلانو. الصور الأربعة الأخرى جمعها في ألبومٍ فتحه في وجه الجماهير. وكتب على الجدار جملة

واحدة. اختارها من بين قبسات سمير الليل والنهار المنفلوطية:

"الدموع لا تغير الواقع، لكنها أحيانا تُريح القلب".

أطلق عقال اللبؤة ومنذ الدقائق الأولى فاجأته وفرة الطرائد. طلبات الصداقة تتوالى بشكل لا يصدّق. أمّا التعليقات فتتهاطل كالشآبيب:

"فعلا الأخت هيام، منتهى الحكمة. الدموع لا تغير الواقع لكنها تريح القلب. أجدتِ التعبير. تبارك اللـه عليك. أحس أنك تخفين داخلك روح شاعرة جميلة".

"كل دمعة لها نهاية، ونهاية كل دمعة بسمة ☺".

"يا دنيا يا لئيمة، لا تسكبي الدمعة على الخدِّ الأسيل".

"لا تلمني على الدموع الجَواري/ فهي عوني على فراقِ الجِوارِ".

"أتمنّى أن تقصد الأخت هيام دموع الفرح. ألم يقل حافظ إبراهيم مرة: شكرتُ جميلَ صُنعكم بدمعي/ ودَمْعُ العين مقياسُ الشعور".

أولاد القحبة، صاروا جميعا شعراء. الكل يحاضر في أسرار الدمع. يستشهدون بعيون الشعر ويشرحون مقاييس الشعور. كانت هيام تكتفي باللايكات. تعمل لايك بخفة ورشاقة، وتقبل طلبات الصداقة وهكذا.. حتى سمير الليل والنهار طلبها فقبلته. لكنه لم يُعلّق على حكاية الدموع التي تُريح القلب. يبدو أنه ما زال مجروحا من جواب تلك المُتبجّحة التي وصفته بالمنفلوطي.

18

حدث ذلك تمامًا كما في الأفلام. أفلام السينما التي لا يعرفها رحّال لأنه خارج أفلام الكاراتيه القليلة التي شاهدها أيام الطفولة توقّف منذ زمن عن ارتياد السينما. وأفلام التليفزيون ظلّت خارج مدار متابعته لأنه لم تكن هناك كهرباء أصلا سواء أيام عين إيطّي أو في بنايتهم العشوائية بحيّ الموقف. بعد الزواج والاستقرار في المواسين، كانت أم العيد مُسمّرة دائما أمام الشاشة تتابع مسلسلاتها المكسيكية والبرازيلية التي لا تنتهي، ثم التركية فيما بعد. وحتى بعدما قضت أم العيد ورحل الزوج السعيد إلى المسيرة، ووجدا أن عماد القطيفة قد وفّر لهما ضمن تجهيز الشقة جهاز تليفزيون رفيع بتصميم أنيق مع بارابول جبّار اجتمع فيه ما تفرّق في غيره

من قنوات الشرق والغرب، كان رحّال يأتي من السيبر متأخّرا لا يفكّر إلا في طاجين الغد الذي تتعشى منه القنفذة، قبل أن يخلد إلى النوم.

لأجل ذلك لم يفهم أنَّ ما حصل معه تلك الليلة يحدث كثيرا في الأفلام بالطريقة نفسها، والسيناريو عينه. كان قد أنهى جولته التفقّدية السريعة على الحواسيب، أخمد نيرانها الإلكترونية، أطفأ الأضواء وأغلق السيبركافي. ثبَّت يديه داخل جيبي معطفه الكاكي ثم بدأ يحسب خطواته إلى البيت. "كل معاطفك وجاكيتاتك كاكية يا أخي. كأنّك مُجنّد في القوات المساعدة"، علّقت حسنية مرّة على هندامه وهي مغتاظة. لكن هذا المعطف بالذات كان يُشعر رحّال بوافر الدفء والأمان. كان يمشي محنيَّ الرأس مقوَّس الظهر، لذا لم ينتبه لهما إلّا وهما يطوّقانه. كانا طويلين عريضين، غليظين شديدين، يرتديان معطفين داكنين. أحدهما بشارب كثّ والآخر وجهُه مُرقّط من أثر بثور قديمة. حين رفع رأسه وجد نفسه مضغوطا بينهما مثل كامخٍ في ساندويتش.

- زيد معنا، بلا هضرة بلا غوات. معاك البوليس.

- تـ..تـ..تـ..تـ..

- قلنا بلا هضرة. حتى لْثَمَّة وتفهم كل شي.

لكنه لم يكن يتكلّم. لم يكن يريد أن يتكلّم. كان فقط يصطكّ. أحس رحّال أنه لم يكن يمشي وهو يرافقهما باتجاه السيارة. بل كان بينهما مرفوعا في الهواء. هما يمشيان وهو مسحوبٌ بينهما مثل شاة عرجاء.

في السيارة كان صاحب الشارب الكث يضع عصابة حول عينيه حينما لكزه الآخر قائلا:

- ناولني هاتفك بسرعة؟

- أيّ هاتف؟ تساءل السنجاب المذعور بصوت جاف خافت كالفحيح.

- لا تتغابى عليّ. هاتفك النقّال أيها الجرذ.

"لكنني لا أملك أيّ هاتف. لا أحتاجه أصلا. يبدو أن هناك التباسا في الموضوع. أنا قابع بينكما الآن بالغلط. ثم إنه فعلا لا هاتف لي. فيم سأحتاج الموبايل؟ لدينا موبايل وحيد في البيت عند حسنية. تستخدمه فقط للردّ على هيام. اشترَتْه أساسا من أجل هيام. أما أنا فلا أحتاجه. من سيتّصل بي؟ من يحتاجني أصلا ليتّصل بي؟ لا شكّ أنّكما تطلبان شخصا آخر. أنا هنا بالغلط".

كان هذا الكلام يدور في ذهن رحّال دون أن يبلغ حنجرته. فصوته ضاع تمامًا داخل صدره. حتى الفحيح خذله، فيما بعد،

ليجد نفسه مثل الأخرس بينهما. لكنَّ مرافقَيْه لم يكونا مستعجلَيْن. كانت السيارة تنهب الطريق. هدير المُحرِّكات في الخارج. ضجيج الكلاكسونات. طوط طوط طوط. إنما بالتدريج بدأت تخِفُّ الضوضاء ليسود الهدوء. لا شك أنهم في أطراف المدينة الآن. بعد نصف ساعة تقريبا توقّفت السيارة. نَبَحَ كلبٌ في الجوار. سُمِع صريرُ باب ضخم ينفتح. دخلت السيارة. ثم هوب. فُتِح باب السيارة بحركة سريعة، وتمّت جرجرة السنجاب في ردهات ملتوية. صعود. بضع خطوات متعثرة. انحراف إلى اليسار. نزول أربع درجات. انعطافة على اليمين. خطو سريع. ثلاث طرقات. صوت عميق يأتي من خلف الباب: "ادخل"، فدخلوا.

- أهلا بك، أزيلوا العصابة عن عينيه أولا. أهلا بك يا رحّال. تفضّل.. اجلس.

كان شابا في الثلاثين. استقبله بابتسامة أليفة وكأنهما صديقان. فَهِم من الاحترام الذي أظهره صاحب الشارب وذو الوجه المُبقّع في حضرته أنه الضابط، وأنهما يشتغلان تحت إمرته.

- آسف فعلا، لم تكن هناك طريقة أخرى لاستدعائك. لم يكن بِوُدِّنا أن نُرَوِّعك. لكننا في أمسِّ الحاجة إليك وإلى تعاونك. وطبيعة عملنا تقتضي التزام السرية. لذا أحضرناك بهذه الطريقة، وفي هذا الوقت. أكرّر أسفي..

بدأ السنجاب يسترجع بعض تماسُكه. تململ فوق كرسيه. اشرأبَّ بعنقه قليلا إلى الأعلى. ثم صفعه السؤال مباشرا لا لفَّ فيه ولا دوران.

- خبّرني رحّال، من هو أبو قتادة؟

- كيف؟ قالها رحّال متلعثما بصوت لم يغادِرْه وَهَنُه وارتباكه بعد.

- سؤال واضح آ صاحبي. عندك في السيبر شخص كُنيته أبو قتادة. من هو؟

- آه، أبو قتادة.. أكيد أعرفه.

قالها رحّال هذه المرّة دون أدنى ارتباك. صحيح أنه نطقها بصوت ضعيف راعش، لكن مشرق وواثق في نفس الوقت.

- إذن تعرفه؟

- طبعًا طبعًا. إنه من روّاد السيبر عندي. اسمه الحقيقي المحجوب ديدي. موظف في الوكالة الجهوية للماء والكهرباء. متزوّج. أب لطفلين ويسكن في العمارة المقابلة لمسجد النور. وهو بالمناسبة منتسب لجماعة العدل والإحسان.

لم يتمكّن الضابط من كبح ابتسامة خفيفة برقَ طيفُها على محيّاه.

رفع بصره إلى البغلين الواقفين عند الباب بنظرة حادّة لها أكثر من معنى، ثم عاد إلى رحّال.

- برافو رحّال. ممتاز. أحيّيك على تعاونك. لكن المحجوب ديدي نعرفه جيدا. ولأننا نعرفه، نشك فعلا في أن يكون هو نفسُه أبو قتادة.

- أقسم لك إنه هو أبو قتادة. الرجل يوميا عندي في السيبر. يوميا أمامي. أمامي مباشرة. أعرفه جيدا. ويمكنني أن أؤكّد لك..

- حسنا، لا بأس. دعنا من أبي قتادة الآن. سنعود إليه فيما بعد. لكن قل لي، هناك شخص آخر من روّاد السيبر عندك أخطر من أبي قتادة يهمّنا أمره، وأرجو أن تكون المعطيات التي ستقدّم عنه بنفس دقّة معلوماتك عن المحجوب ديدي.

هذه نهايتك يا عبد المسيح. لقد انكشف أمرك. قرّرتَ أن تصبح نصرانيا بلا خبار سيدنا عيسى، هكذا في نزوة عابرة وكأن البلاد سائبة، ما فيها لا مخزن ولا قانون. ألا تسمع ما يردّد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في الصبح والمساء عن الأمن الروحي للمواطنين؟ ألا تقرأ هوت ماروك؟ القيامة قائمة هذه الأيام ضدّ المُبشِّرين والمُتشيِّعين المغاربة. نحن سُنَّة مالكيون أيها الأخرق. ألم تقرأ منظومة ابن عاشر؟ ألم تحفظ عن أبيكَ الأستاذ الجليل شهاب الدين السيوطي بيتَ ابن عاشر الشهير: "في عَقْدِ الأشعري وفقهِ مالكِ/ وفي طريقةِ

الجُنَيْدِ السالكِ"؟ هذه عقيدة المغاربة يا صديقي. عقيدة أهل السنة والجماعة. عقيدة التوحيد والتنزيه التي تقتضيها الفطرة السليمة. عقيدة أبي الحسن الأشعري. ثم إننا على طريقة أبي القاسم الجُنيد نقول بالإحسان. به تصلح الأحوال وتستقيم الأعمال وتسلم تصرفات الإنسان. أما المذهب فمالكي. فمالَكَ ومال النّصرانية؟ لذا، لا تتوقّع مني أن أتستّر عليك اليوم يا عبد المسيح.

- تفضّل سيدي، أنا رهن إشارتك.

- قل لي رحّال، من هو ولد الشعب؟

- ماذا؟ ولد الشعب؟ أحسّ رحّال بالأرض تدور به. الأرض تدور والسماء تتخبَّط فوقها وهو يتضاءل داخل الكرسي.

- ولد الشعب يا رحّال. لا تخيّب ظني فيك. حتى الآن أنت جميل ومتعاون. لكنني بدأت أشتاق إلى صوتك. لاحظ أنني ما زلتُ أنتظر جوابك.

تمنّى لو أنّ الأمر يتعلّق بكابوس. كابوس فظيع خانق، لكن في المنام وليس هنا وسط هذه الجدران الكالحة. لو أن الأرض انشقّت فابتلعتك أيها السنجاب. لو أن زلزالا ضرب مراكش في هذه اللحظة.

وفي تلك اللحظة بالذات، انفتح الباب. دخل شخص ضئيل قصير القامة. تقريبا في الأربعين. يرتدي بذلة رمادية داكنة من خامة رفيعة،

وقميصا موف فاتحا وربطة عنق موف هي الأخرى لكن غامقة. يبدو كما لو أنها كانت معروضة هكذا على مُجسَّم في أحد المتاجر، فاقتناها كاملة لكي لا يُتعِب نفسه في اختيار الألوان وضمان تناسُقها. كان يحمل علبة سجائر مارلبورو في يده. دخل بخطى سريعة واثقة. وقف الجميع احتراما بمن فيهم الضابط.

- أيها الأوغاد، ماذا فعلتم بالرجل. ألم أوصِكُم بالتلطّف معه؟ أنت بالذات يا حكيم، أوصيتك عليه بشكل خاص؟ ألم أقل لك إنه صديق قديم؟

ودون أن ينتظر جوابا، اتجه صوب رحّال فاردًا ذراعيه بحركة مسرحية فيها بعض المبالغة وكأنه يريد احتضانه، قبل أن يتوقّف في منتصف الطريق. كانت عينا السنجاب مشدودتين إلى الوجه الفأري الذي لم تُفقِده السُّمنة المكتسَبَة ملامحه الأصلية.

- مَن؟ الرفيق المختار؟

- آش من المختار ولا المحجوب؟ العميد العيادي هذا. تكلم بأدب مع سعادة العميد. لكزه صاحب الشارب الكث بفظاظة.

لم يعلّق العميد على فظاظة صاحب الشارب. ربما راق له أن يقوم أحدهم بفركة صغيرة لأذن السنجاب لكي يُقدّر الأمور بشكل أفضل.

- كيفك يا رحّال؟ تزوجتَ طالبة كانت معك في الكلية، وتُدير الآن سيبركافي في المسيرة. جيّد جدا. لكن هل شرحوا لك لماذا دعوناك؟

تدخّل الضابط:

- سألناه مون كوميسير عن أبي قتادة فألصقها بالمحجوب ديدي ديال العدل والإحسان. تصوَّر؟

- هاهاهاهاها..

كانت قهقهة من القلب هذه المرة. ضحكة صاخبة أطلقها العميد حتى أن عينيه فاضتا بالدمع. أطرق هنيهة ليمسحهما بمنديل ورقي وهو يقهقه دائما، قبل أن يواصل:

- لئيم يا رحّال. لئيم كعادتك. هل نسيتَ يوم ادّعيت في الكلية أن وفيق الدرعي يشتغل لحساب المخابرات؟ عصفتَ بالمسكين. ذبحْتَه ذبحا. هاهاهاها. من يومها عرفتك ماشي ساهل.

فجأة استعاد وجهُ الجرذ صرامته. حدج صاحبَ الشارب وذا الوجه المجدُور بنظرة فاتكة ثم صرخ فيهما:

- أنتما؟ ماذا تنتظران؟

تبادلا النظرات، ثم هرولا إلى الخارج في خطى مرتبكة حتى أنّ صاحب الوجه المجدُور تعثّر وكاد يقع على وجهه. ابتسم رحّال

في سرِّه وهو يرى البغل يتعثّر. وتقول لي "لا تتغابى عليّ، سلّمني هاتفك أيها الجرذ". من الأغبى الآن: أنا أم أنت يا عديم النظر الذي لا يعرف الفرق بين جرذ وسنجاب؟ الجرذ أيها البغل هو هذا الذي زعق في وجهك الآن حتى كدت تقع من طولك. أما أنا فسنجاب، ولا موبايل لديّ.

- اسمع يا رحّال. ليس لديّ وقت أضيّعه معك. يمكنك أن تلعب مع الآخرين من أمثال هذا الشاب الظريف، وأشار بيده إلى الضابط حكيم الذي كان يسند ظهره إلى الحائط ويتابع الحوار، لكن ليس معي أنا، مفهوم؟ أنا مصارينك عارف آشنو فيها.

***

كان السنجاب مشدوها وهو ينصت إلى رفيقه القديم. عجيب! الجرذ يعرف كل شيء عن أبي قتادة وولد الشعب والآخرين! ولم يكن غاضبا من رحّال، بل على العكس بدا سعيدا به، بتعليقاته النارية ومراوغاته الذكية وشقلباته البهلوانية في هوت ماروك.

- فقط علينا اليوم أن نغيّر أسلوبنا. سنمرّ من الهواية إلى الاحتراف. هل فهمت يا رحّال؟ ستبقى كما أنت. لكن هامش المناورات سيضيق. بالمناسبة، هناك بنتٌ تُعلّق في هوت ماروك بانتظام. اسمها المستعار "حذامِ"، هل تعرفها؟

- إلّا أعرفها؟ مرارا مسحتُ بها الأرض. ولد الشعب بالذات ينكِّل بها دائما.. حتى أنه آخر مرة..

- غبي، قاطعه الجرذ منفعلا قبل أن يشعل سيجارة ويحاول استعادة نبرته الهادئة، ولهذا دعوناك يا رحّال. لهذا بالضبط دعوناك. المفروض أنك طالب أدب عربي، ألا تعرف البيت الشهير: "إذا نطقت حذامِ فصدِّقوها / فإن القول ما قالت حذامِ"؟

- بلى أعرفه.

أجاب متلعثما بصوت مرتعش كتلميذ أساء الإجابة في موضوع يحفظه عن ظهر قلب.

- أعرفه يا سيادة العميد.

تدخّل حكيم. قال جملته بهدوء صارم وهو يضغط على مخارج الحروف. كان يوجّه كلامه لرحّال. وصلت الرسالة لتزيد من ارتباك رحّال الذي تململ فوق مقعده، ثم خرج صوته الضعيف أكثر ارتعاشا:

- أكيد أعرفه يا سيادة العميد.

- جيّد أنك تعرفه، لكن ما يجب أن تعرف أيضا هو أن حذامِ لا دخل لها بالنقاشات. لا وقت لديها لتُضيِّعه في المُهاترات لا مع أولاد الشعب ولا مع أولاد القحاب. هي هناك لتقول كلمتها وتمضي. مهمة

أمثالك أن يصدّقوها. يصدّقونها أولا، ثم يضعون توجيهاتها حلقة في آذانهم، وبناءً عليه يتصرّفون. بعدها يمكنك أن تخلع سروالك على هوت ماروك إذا شئت، يمكنك أن تخرى على الجميع بمن فيهم أمك وأبوك. الأمر لا يهمّني.

- هناك أيضا نعيم مرزوق مون كوميسير.

لأول مرة يقاطع الضابط حكيم العميد. فعلها بلطف. هزّ العميد العيادي رأسه مؤمّنا على قيمة الملاحظة:

- آه، هذه مهمة. جيّد أنك ذكَّرْتني يا حكيم.

ثم حوَّل نظره إلى السنجاب مستفسرًا:

- آجي، مالك مع نعيم مرزوق؟

- لا شيء. لا علاقة لي به سيدي العميد. أتابع كل ما يكتب. أقرأ له ككاتب عمود بارع. أحيانا أختلف معه. هذا كل ما في الأمر.

- ليس هذا كل شيء يا رحّال. ولد الشعب يتحامل على نعيم كثيرا. يتجاسر عليه بمناسبة ومن دونها. صحيح أنه كاتب مُتعجرف، مغرور قليلا وأحيانا يبالغ. لكنه موهوب، والكثيرون يحبّون أسلوبه. والأهم أنه شخص يُوحى إليه. هل فهمت قصدي؟ هذا الرجل يوُحى إليه. لذا عليك من الآن فصاعدا أن تعتبره نبيا مُرسَلا. هل يُناقَشُ حديثُ الأنبياء؟ ربما يحتاجُ بعض الشرح والتفسير، أحيانا قليلا من

الإيضاح والتعليل. وهو دور يمكن أن يضطلع به ولد الشعب فيما بعد، هذه أيضا سجّلها عندك، خصوصا وأن خصوم مرزوق بدأوا يتضاعفون في الآونة الأخيرة. مفهوم؟

- مفهوم سيادة العميد، هجَس بها رحّال بصوت خافت.

- إذن مادمت قد فهمت، فعلى الضابط حكيم أن يشرح لك المطلوب.

- لم تترك لي شيئا أضيفه مون كوميسير. رحّال شخص ذكي ولا شك أنه فهم المطلوب. بقي فقط أن أؤكّد على ضرورة المحافظة على نفس الوتيرة اليومية في العمل. لكن مثلما قال السيد العميد، لقد مررت الآن من الهواية إلى الاحتراف. ستصلك مني وبانتظام معلومات عن بعض الأشخاص. أعرف أنك ستُحسن استخدامها. وراتبُك ستتوصّل به عبر "وفا كاش" شهريا. ستصلك رسالة نصّيّة برقم الحوالة على هاتفك المحمول. هذا هو الهاتف هدية مني. بالمناسبة فيه البطاقة ورصيد كاف ورقمه مسجّل عندنا. أما بالنسبة للراتب، فسيادة العميد كان كريما معك. ربما لأنك صديق قديم، قرّر أن يصرف لك عشرة آلاف درهم في الشهر. والأهم أن يظل عملنا ومراسلاتنا مُحاطين بسرّية قصوى. مفهوم؟

هل ردَّ "مفهوم"؟ عموما هو لم يسمع شيئا. كان كالمُسرنم. تذكّر أن الجرذ صافحه بحرارة. الضابط حكيم رافقه إلى الباب. وهناك

استلمه صاحب الشارب الكث، ووضع ذو الوجه المجذُور العصابة على عينيه من جديد. لم يحس بطول الطريق هذه المرة. كان كأنّه ليس هنا. كأنّه لم يستفق بَعْدُ من حلمٍ هو أشبه ما يكون بالكابوس. فاجأه البغلان وهما يلقيان به من السيارة قبل أن تتوقّف كما لو أنّه كيس متلاشيات، ثم انطلقت السيارة بسرعة البرق. فرك رحّال عينيه. شارع الداخلة فارغٌ من المارّة. لا حياة هناك. فقط قطّتان شاردتان تتبادلان المواء أمام مقهى ميلانو.

تذكّر قُنفذته. ماذا سأقول لها يا رب؟ ليس عن العميد العيادي والضابط حكيم وذي الشارب الكثّ وصاحب الوجه المُبقّع. فهذا سرٌّ دفنّاه. لكن عن الطاجين. ماذا سأقول لها وهي لا تستطيع النوم ما لم تحفر أخدودا عميقا في طاجين الغد؟

ما إن أدار رحّال المفتاح حتى قفزت حسنية من مكانها. كانت قابعة في الصالون تترقّب عودته. شعرها المُتقصِّف اليابس منكوشٌ بطريقة مُريعة. مثل شوك حقيقي لقنفذة برية. لكن وجهها بالمقابل بدا غريبا على رحّال بعدما عَلَتْهُ صُفْرةٌ خرائيةٌ أفقَعُ من صلصة الخردل. لم تكن حسنية قد غيّرت ملابسها بعد. لم تكن قد ارتدت بيجامتها البرتقالية الفضفاضة التي تجعلها تبدو مثل مهرّجة سيرك.

- أين كنت يا رحّال؟

بالكاد خرج الصوت من حلقها. وبالكاد سمعها.

- عند البوليس.

- البوليس؟

- كنت جاي من السيبر فاستوقفتني سيارة الأمن. كانت فيها شرطة تحقيق الهوية. لم أكن أحمل البطاقة الوطنية، فأخذوني إلى المركز للتأكّد من هويتي..

- ....؟

كانت تتساءل بعينيها، بملامح وجهها، بكل جوارحها. لسان حالها يصرخ "وماذا بعد؟"، لكن الصوت خذلها.

- هناك في المركز وجدتُ ضابطا من أبناء المسيرة يتردّد على السيبر من حين لآخر تعرّف عليّ وتدخّل من أجلي فأخلوا سبيلي على ضمانته. هذا كل شيء..

وصْلةُ الرّشق بالسهام ستنطلق الآن.

كان يتوقّع أن تشرع القنفذة في تقريعه، وينتظر ذلك بتسليم. لكل امرئ من دهره ما تعوَّدا، ورحّال تعوَّد على وخز القنفذة. لكن حسنية تهالكت فوق الأريكة التي تتوسّط الصالون قبالة الباب مباشرة، وهمست بصوت خافت:

- وعلاش آ رحّال ما تهزّ لاكارت ديالك؟ بدا تهزّ لاكارت الله يخليك.

جاء صوتها منكسرا تُخالِطُه نبرة رجاء. لم يُصدِّق نبرَتها ولا صدَّق خَلاصَه.

- هل تعشيتِ؟ بادرها مُرتبكا، وشعور فادح بالذنب يتلبَّسُه.

- لا..

- أهيئُ لكِ شيئا؟

- لا.. لا.. إنها الثالثة فجرا.. يجب أن ننام.

لكنهما لم يناما. كان رحّال يستعيد الوقائع الغريبة لهذه الليلة من الأول. منذ أن أحاط به البغلان وهو يغادر السيبر. الرفيق المختار. العميد العيادي. إذا نطقت حذام. الوحي الذي ينزل على نعيم مرزوق والقرّاء نِيَام. أما حسنية فظلّتْ تتقلَّبُ على غير عادتها هي التي تشرع في الشخير بمجرّد أن تضع رأسها على الوسادة.

ياه، قنفذتُك جبانة أيها السنجاب. أجبن مما كنت تتصوّر. أم لعلها بدأت تحبك وتخاف عليك وأنت لا تدري؟

19

الحياة ليست مالًا فقط، وإلا فرحّال لا يعرف أصلا ماذا يفعل به. والدليل أنه اليوم حائر إزاء راتبه الجديد. لا يعرف كيف يُدَبِّره ولا فيمَ يُبذِّره. يعمل رحّال عند عماد القطيفة في السيبركافي بـألفين وخمسمئة درهم. حسنية تدير مدرسة أشبال الأطلس بمفردها وتظل تشتغل مثل المجنونة في المؤسسة صباح مساء مقابل راتب لا يتجاوز خمسة آلاف درهم. كراء الشقة يكلّف ألفي درهم. وما تبقّى بالكاد يؤمِّنُ لهما حياة كفاف. وهما سعيدان بحياتهما. على الأقل لا يشتكيان. أو فقط لا يتحدّثان في هذا الموضوع ليشتكي أحدهما للآخر. أو بالأحرى لا يتحدّثان أصلًا، لا في هذا الموضوع ولا في أيِّ موضوع آخر، حتى تكتشف القنفذة ما يدور في رأس السنجاب،

وليعرف السنجاب ماذا تخفي القنفذة تحت جلدها الشوكي. لكن عشرة آلاف درهم دفعة واحدة، ماذا ستفعل بها يا رحّال؟ راتب موظف محترم في السلم الحادي عشر. ومن أجل ماذا؟ من أجل حكايات إلكترونية تافهة تُسلِّي بها نفسك أثناء العمل.

التعليقُ هوايتُكَ يا رحّال، وها قد صار مهنتَك. مهنة غريبة عجيبة تليق بابن عبد السلام الغْوينة وحليمة الزّنبوب. أمٌّ هوايتُها التّمارُض، ومهنتُها المرض. وأبٌ هوايتُه الصمت ومهنتُه مواكبةُ الموت. وأنا مهنتي الجديدة هي ذاتُ هوايتي: الرّقص على الحبال الافتراضية. التّلفيق. تسمينُ الإشاعات. والوخز بالإبر الإلكترونية. هكذا في صمت، ومن بعيد. لكن عشرة آلاف درهم دفعة واحدة! هذا كثير يا ربّي..

طبعًا حسنية يجب أن تظلّ بعيدة عن الموضوع. لكن عليه أن يجد للراتب الجديد بعض أوجُهِ الصّرف. فكّر رحّال في البداية في تخصيص تعويض شهري صغير لعبد المسيح. هكذا يُشغِّله في السرّ دون أن يأخذ عماد القطيفة علما بذلك. لكنه خاف من تبعات هذه المجازفة. لذا اكتفى بأن يشرح لقمر الدين أنه سيحتاج منه المزيد من المساعدة في السيبر. بالمقابل، سيُمتِّعه بكارت بلانش تتيح له مجانية الإبحار في سيبركافي أشبال الأطلس على طول.

- فأنتَ الآن صديق يا قمر الدين، ولن أعاملك كالآخرين، أضاف رحّال بأريحية مباغتة.

لم يصدّق قمر الدين سَمْعَه في البداية. آخر شيء يتوقّعه من رحّال، هو حركة شهامة مماثلة. لذا تلبّسَه إحساس عارم بالتأثر. وبحرارة عانق السنجابَ الذي اكتشف أنْ لم يسبق أن عانقَهُ أحدٌ طوال حياته. لا البجعة ولا السّرعوف ولا حتى القنفذة التي لم تحضُنْه قطّ لا في السرير ولا خارجه. حتى حين يمتطيها، وهو يطارد المها في محمية القنافذ، تكون يداها مُسدَلتَيْن. اليوم فقط، وقمر الدين يضغط جسده الضئيل بين ذراعيه، انتبه إلى ذلك. ياه كم ينقصُكَ من الحنان أيها السنجاب. لعنة اللـه عليك يا حسنية. ثم إن قمر الدين لم يفهم، لحظتَها، لماذا أجهش السنجاب بالبكاء.

صباح اليوم الموالي أشعَر رحّال قمر الدين أنه سيغيب ابتداء من الثالثة ظهرا وعليه أن يحل محله في السيبر. سيتولّى كل المهام نيابة عنه بدْءًا بالاستقبال وتقديم خدمات الطباعة والمسح الضوئي وغيرها لمن يطلبها، وانتهاء بالصندوق. "لكن أهم شيء هو معاملة الرواد باحترام، جميعهم دون استثناء، بمن فيهم المحجوب ديدي. فهمت يا قمر الدّين؟".

جاءت زيارة رحّال للأسرة أشبه بالغارة. دخل متسلّلا بعدما اكتشف وهو في الباب أن مفتاح البيت القديم ما زال معه. لم تعرف حليمة كيف تفرح بِطَلّة السنجاب. تململت في مجلسها وحرّكت يديها مُرحّبة. بدت مثل بجعة لا تعرف كيف تلبط بجناحيها على

اليابسة، ولا كيف تقفز بأقدامها المتشابكة. كان عيّاد مبطوحا قربها مثل جحش كسول خامل. قبّل رحّال رأس والدته، مدّ يده مصافحا عمّه، وسأل عن عبد السلام.

- راه هامد ف بيتك. برّحت حتى عييت. بغيتو يجي يشرب غي كويّس ديال آتاي، حلف ما يجاوبني. ماعرفت مالو وْلاّ كايضربها بصقلة.

ثم رفعَتْ عقيرتها بالصياح:

- عبد السلام.. آ عبد السلام..

لكن السرعوف استجاب هذه المرة. بدا سعيدا بزيارة رحّال. قبّل السنجاب يد والده ثم جلس. بدأت البجعة في البثّ، فيما رحّال وعبد السلام وعيّاد يرتشفون الشاي. حالة البيت تحسّنت كثيرا في الواقع. أعاد عيّاد صباغته. الكهرباء شرَّفَت أخيرا بعدما قام بعض شباب الحيّ المناضل بالتظاهر أمام الوكالة الجهوية للماء والكهرباء ثم أمام بلدية المدينة. لم يعد من المقبول أن يبقى هناك زقاق في قلب العاصمة السياحية للمملكة محروما من الكهرباء في انتظار إعادة هيكلة مزعومة يلوِّحون بها منذ سبعينيات القرن الماضي. صار هناك تليفزيون في البيت. أفلام ومسلسلات تتابعها البجعة، ونشرة أخبار رئيسية يحرص عليها عبد السلام وعيّاد ولا يتخلّفان عنها إلا إذا صادفت صلاة العشاء التي يُؤدّيانها مع الجماعة في المسجد.

- حسنًا، سأحتفل معكم بدخول الكهرباء إلى الدرب بثلّاجة عليكم أن تتدبّروا لها مكانا من الآن لأنها ستكون عندكم في ظرف شهر.

يحتاجون ثلاجة هم أيضا ليشربوا الماء البارد مثل باقي الخلق خصوصا عندما يشتدّ حرُّ مراكش، فكّر رحّال. كانت القُلّة الطّينية العتيقة قابعةً عند مدخل المطبخ. القُلّة التي طالما شرب منها رحّال أيام "الموقف". ليست هي عينُها. فمع بداية الربيع اعتادت البجعة أن تأتي بقُلّة جديدة، قُلّة مُزيَّنة بالقطران. لكن كل القلل تتشابه في النهاية. والآن من حقّ عبد السلام أن يشرب الماء البارد مثل الناس. مثل الناس الذين يسكنون في المدن، ولهم أبناء يشتغلون ويكسبون. غريب، لم تسأله حليمة: كيف ومن أين؟ بدت سعيدة متحمّسة، وشرعت من فرط حماسها تقسم بأغلظ الأيمان بأن مخترع الثلاجة لن يدخل جهنم أبدًا حتى لو كان يهوديا. فقد برَّد على الناس جميعا وسوف يبرِّد الله عليه يوم القيامة. خصّصت حليمة تلك العشية بتّها بالكامل للحديث عن الثلاجات ومزاياها وأنواعها وأثمنتها. كلُّ معلومةٍ إضافيةٍ تسوقُها كانت تؤكّد جهلها التّامّ بالموضوع. لكنها أسرَّت لرحّال في النهاية بنصيحة أساسية. لم تكن حول مساحة الثلاجة وطاقتها الاستعابية، ولا حول ضرورة الانتباه إلى حجم استهلاكها للكهرباء. بل كانت حول البيض. يجبُ أن تكون علبة البلاستيك الخاصة بالبيض على باب الثلاجة بالضرورة مُغطّاة.

20

أشياء كثيرة بدأت تتكشف للسنجاب الآن. يبدو أن العصابة التي وضعها البغلان على عينيه وهما يجرجرانه إلى لقاء الجرذ العميد لم تكن شيئا يُذكر أمام القفّة التي ظلّت مقلوبة عليه طوال هذه السنوات. سنوات وأنت تعلِّق يوميًّا أيها الغبي في هوت ماروك دون أن تستشعر اتجاه الريح. كنتَ مثل بهيمة تسرح بلا شُكال. تبًّا لك. وتفرح بتخريجاتك العبقرية وشقلباتك البهلوانية وردّك على هذا وغمزك من قناة ذاك. وأنت مثل أطرش في الزّفّة، لا في العير ولا في النفير. يجب أن تحسّ بالخزي لأنّك كنت مثل عاهرة مخبولة تفتح رجليها بالمجان.

أبو شرّ الغيفاري اليساري المتطرّف الذي كنتَ دومًا تتحاشاه

وتُبعد ولد الشعب عن طريقه بعدما لمسْتَ من حدّته وسلاطة لسانه، كان بدوره داخل اللعبة. هل قرأت التعليق الذي ساقه هذا الصباح مباشرة بعد توجيه حذامِ؟

بدا عمود نعيم مرزوق ثقيلا هذا الصباح وهو ينزل به على ظهر رجل الأعمال المعروف رضوان البيضاوي. كان رضوان قد شرّع فمه على ما يبدو في ندوة دولية نظّمها الاتحاد المتوسطي للمقاولين في باريس، حيث دعا المغربَ إلى تخليق الحياة الاقتصادية في المملكة والتخلّي عن اقتصاد الريع الذي يضرب عمق الاقتصاد الوطني ويُكبِّد ميزانية الدولة خسائر فادحة سنويا، مؤكّدا على أن محاربة اقتصاد الريع، وكذا الرشوة والفساد المرتبطين به عضويا، يتطلّب إرادة سياسية جريئة ليست متوفّرة إلى حدود الساعة. كما طالب البيضاوي بفتح المجال أمام المقاولات الوطنية لتشتغل في جو نظيف يتيح المنافسة الشريفة وتكافؤ الفرص. ردُّ نعيم جاء طويلا عريضا. تحدّث عن إدمان البيضاوي لصنفٍ راقٍ من أصناف الويسكي ودعاهُ إلى الانتباه لصحّته فالإدمان يؤثّر كثيرا على سلامة المرء الجسدية وكفايته العقلية. كما ترجّاه - بمناسبة الأخلاق والتخليق - أن يخصّص بعضا من وقته الثمين لكريمته سلمى التي صارت مدمنة على الكوكايين. ثم إن حُرَّاس علبة نيغريسكو الليلية يشتكون من المتاعب التي تُسبِّبُها لهم بخصوماتها المتكرّرة في الملهى ومن الكلام الواطئ الذي تشنّف به أسماعهم وهي تشتم صديقاتها وأصدقاءها

والعاملين في العلبة. والغريب أن نفس الشلة التي تكون قد ولجت رفقتها الملهى أول الليل هم بالضبط أعداؤها في آخره. لذا لا بأس من عرض الآنسة المصونة على طبيب نفسي لتتوازن قليلا وتُحسِّن من سلوكها وألفاظها حفاظا على ما تبقّى من سمعة العائلة، هذا إذا بقيت لعائلة البيضاوي سمعة أصلا في البلد. كلمة حذامِ جاءت مختصرةً جدًّا إنّما دالّة وموجِّهة:

"عاهرة تُحاضِر في الشرف".

كان رحّال قد بدأ يُقَلّب الموضوع على أوجهه المتعدّدة باحثا عن زاوية معالجة تجعله عند حسن ظنِّ الجرذ ومَنْ وراءه من ثعالب وبنات آوى. لكن فيما كان يتلمّسُ طريقَهُ باحثا عن رأس خيط طالعَهُ أبو شرّ الغيفاري بتعليق مُحكَم:

"المغاربة شعب حُرّ مُناضل. والجماهير الشعبية ترفض رفضا قاطعا أن تتلقّى الدروس من البورجوازية المتعفّنة. لقد طردنا الاستعمار من الباب، ونرفض أن يعود من النافذة. وإذا كانت البورجوازية المعروفة بتبعيتها العمياء للرأسمالية الغربية وولائها للإمبريالية العالمية تحنُّ إلى الزّمن الاستعماري، فالمغاربة الأحرار وطليعتهم الثورية من عمال وفلاحين وطلبة يرفضون العودة إلى زمن الإملاءات الاستعمارية. نرفض أن تملي علينا باريس سياستنا الاقتصادية. وندين كل الخونة الذين يتحالفون مع مستعمر الأمس ضد بلدهم وشعبهم. وعاشت الطبقة العاملة".

عاشت الطبقة العاملة يا أبا شرّ.

ليسقط الويسكي والكوكايين.

عاد نعيم مرزوق إلى الموضوع في عمودين إضافيين خصّصهما بالكامل للتّنكيل برضوان البيضاوي. كان يشتمه بحقد خالص. كأنَّ الرّجل قتل أباه. عموما نعيم مرزوق أفّاق محترف، لكن يجب الاعتراف له بالبراعة والتفاني. حتى رحّال، الذي كان يتضايق من عنجهيته في السابق، صار اليوم معجبا به ومتعاطفا معه في الوقت ذاته. يعني من المفهوم أن تتفنّن في شتم شخص أساء إليك مباشرةً، أو ترُدَّ الصاع لخصم عنيد ضايقك في أكثر من مقام وأحرجك في أكثر من موقف. لكن نعيم مرزوق يشتم أشخاصا لا يعرفهم ولا علاقة له بهم. بل ربما هو في قرارة نفسه يحترمهم. لكن التعليمات هي التعليمات. لهذا بالضبط يتعاطف معه رحّال ويقدّر صعوبة مهمته. إنه يشتم تبعًا لتعليمات، ومع ذلك يشتم من قلبه وبكل جوارحه. هل هناك إخلاصٌ في العمل أكثر من هذا؟ أن تنخرط بتفانٍ في شتم أشخاص لا علاقة لك بهم فقط لأنك ملزمٌ بأداء واجبك على أكمل وجه؟ وكلما تذكّر مرزوق كم هم شرفاء هؤلاء الذين يشتُمهم، ألّبَ نفسَهُ عليهم وتفنّن في الشتائم أكثر لكي يقنع ذاتَه أولًا بأنهم ليسوا كما يظُنّ. ليسوا كما كان يظُنّ. وما إن ينهي عموده ويقرأه حتى يصير مقتنعا تمام الاقتناع بمضمونه، فيتحوّل تحامُله الطّارئ على

خُصومِه إلى كراهية مكينة. كيف لا تتعاطف مع شخص مثل نعيم وتشفق عليه. شخص يتفانى في عمله. ويكره من القلب. بل توفَّق في أن يُبرمِج قلبه على الكراهية.

لكن، أليس الأجدر بك أن تحتفظ بتعاطفك لنفسك أيها السنجاب؟ أنت مجرّد عضو تافه ضمن جوقة الكورال التي تقف وراء نعيم مرزوق ومع ذلك يمنحونك عشرة آلاف درهم في الشهر، راتب موظف في السلم الحادي عشر. نعيم مرزوق برأيك، كم يدفعون له؟ تعاطَفْ مع نفسك أوّلًا أيها الأبله. أنت في النهاية مجرد أرنب سباق. واحد من أرانب السباق الذين يركضون في كلّ الاتجاهات لتبقى الحرباء دائما في الصّدارة.

آه، نسيت أن أخبركم أن نعيم مرزوق حرباء. حزمُه حزمُ حرباء. لا يترك ساق شجرة حتى يمسك ساقا أخرى. تنقّل بين أكثر من صحيفة في البلد وكان يعرف دائما متى يغادر وكيف. مُغادَراتُه صاخبة دائما، ودائما يخرج بغسيل قذر يعرف كيف يبيعه. يبدأ بنشره على حلقات في الجريدة المنافسة التي يكون عادة قد رتَّب معها كلّ شيء في السِّر قبل مغادرة سابقتها. ألم تقل العرب قديمًا "أحزم من حرباء: لا يُرسِلُ الساق إلا مُمْسِكا ساقا"؟ انطوائيته انطوائية حرباء. نشروا عنه قبل أسابيع بورتريها في موقع "أطلس ماغازين" أوضحوا فيه أنه شخصٌ خجولٌ في الواقع. يعيش وحيدا، لا يسهر، لا يرتاد المطاعم والحانات، وليس له أصدقاء. يعني مثلك أيّها السنجاب

الحربائي. هناك شبَهٌ بينكما. هل فهمت الآن لماذا اختاروك لتكون له أرنبَ سباق؟ الطريقة التي يباغت بها خصومه وهو يوجّه لهم سهاما لم تكن في حسبانهم تشبه إلى حدّ كبير طريقة الصيد بالمُباغَتة التي تجيدها الحرباء. وكما تدور الحرباء مع الشمس ووجهُها لها كيفما دارت، يدور مرزوق مع الفلس ويدور ويدور. ومثلما تُغيّر الحرباء لون جلدها يفعل مرزوق. ثم إن مرزوق حيوان مفترس تمامًا كالحرباء التي لا تتردّد في أكل أيّ شيء يستطيع أن يدخل فمها من حشرات وزواحف وقوارض. وإذا كانت الحرباء لا تتنقل للحصول على فريستها، فإن مرزوق بدوره لا يبذل مجهودا كبيرا في الحصول على موادّه. كل المعطيات تأتيه كافية وافية. هو فقط يعيد الصياغة، يُرشّق التعابير، ويضيف بهاراته المعروفة فيصير الطبق جاهزا لحمل توقيع الشّيف نعيم.

***

لكن يبدو أن الحرباء نجحت هذه المرة في أن تضع قوائمها على ساق شجرة فيما ذنبها الطويل مُلتفٌّ على غصنٍ أخرى. أطبقت في الآن ذاته على غصنين متعانقين من شجرتين عظيمتين مثقلتين بالثمار. فقد عرضت يومية "المستقبل" الصادرة حديثا بالرباط على نعيم مرزوق أن ينشر فيها عموده الشهير. طبعًا لا يمكن. فالعقد مع هوت ماروك يقول..

"لا عقد ولا هم يحزنون. لقد اتفقنا مع هوت ماروك، وانتهى الموضوع. ليس كل المغاربة إلكترونيون. لدينا شعب مهمّ ينشّ الذّباب في المقاهي بالساعات. يطلب قهوة نصّ نصّ بخمسة دراهم ويعصر عليها خمس ساعات كاملة. درهم للساعة. ولأن أصحاب المقاهي يشترون الجرائد ويوفّرونها بالمجّان لهذه الشريحة من المواطنين، قدَّرْنا أن إطلالتك عليهم ستُبْهِجُهم. هم عموما متوفّرون في المقاهي بغزارة، والوقت يبدّدونه في الكلام. لا بأس من أن نحفزّهم على القراءة. وسننجح. فهُم، خلافًا لما يعتقد المُتثاقفون ومتفلسفو آخر الزمن، ليسوا عازفين عن القراءة. بل يحتاجون فقط شيئا يثير اهتمامهم. وأنت يا نعيم تعرف كيف تكتب هذا الشيء. فاكتب من أجلهم. وقتُ القراءة متوفّر لديهم، أما التعليق عندهم فشفويّ حرّ. ثم هم أيضا يحبّون إطلاق النار على كلٍّ من يتحرّك. ويموتون في الشتائم. فاشتُم ولا تهتمّ. كلما شتمت أكثر ازداد حبهم لك. وكلما فضحت لهم فساد كل هذه النخب الانتهازية التي تتحرّك أمامهم يتوازنون ويشعرون بالرّضا عن الذات هم الذين يجلسون في المقهى فقط. لا يخطئون ولا يفعلون أي شيء. على الأقل هم نظيفون. فقط يجلسون في المقهى يشربون القهوة نصّ نصّ ويدخّنون ويسعلون ويتمخّطون ويضرطون ويتردّدون على المرحاض من حين لآخر ويعودون لقهوتهم الباردة ويدخّنون ويسعلون ويتحدّثون عن الفساد الذي عمّ البلاد والعباد. سيفرحون بك لأنك ستؤنسهم

يا نعيم وستعيد لهم الاعتبار. لذلك اتفقنا مع الزملاء في هوت ماروك. وأنت لن تخسر شيئا. نفس المقال سنُعيد نشره ورقيا، وسينوبك عنه تعويض مُجْزٍ. أما زال لديك اعتراض؟".

***

لم يعرف لا نعيم ولا غير نعيم أيّ منطاد حطّ بإبراهيم التنوفي في حظيرة الصحافة. الصحف المنافسة تقول "قطر بِه السقف". لكن نعيم مرزوق يعرف أكثر من غيره أن سقف البيت حديد. لا يقطر أبدا. ولا شيء يحدث صدفة في البلاد. هناك حكمة ما في تحوّل التنوفي، لاعب كرة القدم السابق وصاحب محلات التنوفي للحلويات، إلى مدير أهمّ جريدة وطنية. جريدة مستقلة عن الدولة والحكومة والأحزاب والنقابات والجمعيات ولوبيات المال والأعمال. تقريبا مستقلة حتى عن الشعب والمجتمع. ومع ذلك، ورغم استقلاليتها - أو ربما بسبب هذه الاستقلالية بالذات - تحصل على إعلانات تجارية من أهمّ المؤسسات الاقتصادية وأكبر الشركات في البلد. صارت الجريدة أيضا مصدرا قويا للسكوبات والأخبار الطازجة. دائما تحرز قصب السبق. ومصادرها موثوقة على الدوام. عدا كونها منصّة جاهزة لإطلاق صواريخ نعيم مرزوق على كل من يتحرّك أو يُقدِم على مبادرة دون إذن. فالبلد ليس سائبا كما لا يخفى على علم الجميع.

وخلافا للتقليد الصحافي الجاري به العمل حيث تُنشر الأعمدة اليومية الثابتة في الصفحة الأخيرة من الجريدة أو أسفل الصفحة الأولى، بدأت صحيفة المستقبل تنشر عمود نعيم مرزوق في صدر صفحتها الأولى مرفوقا بصورة نصفية له يرتدي فيها تيشورتا صيفيا وقبعة مائلة. كما لو كان من الشعب ومع الشعب. والظاهر أن سياسة التنوفي التحريرية قد آتَتْ أُكْلها. حيث لقيت الصحيفة رواجًا غير مسبوق. حتى رحّال صار يواظب على اقتنائها بعدما كتبت حذامِ مُعلقة على تقرير نشرته هوت ماروك حول نجاحات المنبر الجديد: "عَجِبْتُ لمن يخوض اليوم في الشأن المغربي وهو لا يقرأ المستقبل". أمّا عمود مرزوق وبعد المشاحنات التي صارت تحدث بسببه في مقهى ميلانو، ولأن كل الطاولات تطلب الصحيفة في نفس الوقت من أجله، من أجل عموده هو بالذات، ولأن المقهى لا يمكنه أن يتحمّل شراء نسخة لكل طاولة، اهتدت أسماء إلى حلٍّ لا بأس به. كل صباح وهي تقتني الجرائد تمرُّ على محل الفوتوكوبي وتنسخ عمود مرزوق في عشر نسخ على الأقل وترتاح. هكذا صارت توزّع العمود على شعب المقهى مع الطلبيات، وتخرج إلى الباب لاستنشاق هواء نقي. لم تعد أسماء تطيق قرف السجائر بالداخل. لم تعد تطيق أشياء كثيرة لم تكن تعيرها أدنى اهتمام في السابق. صار مزاجها سيّئا وقواها خائرة على الدوام.

يبدو أن صحتك بدأت تخونكِ أيتها اللبؤة.

21

رغم أن هيام لم تَلِج السيبر منذ افتتاحه إلا أنّ أوامرها ونواهيها ظلّت تسري على الجميع طوال هذه السنوات. وقفت عند رأس رحّال يوم الافتتاح وأمرته بأن يرقن ما يشبه القانون الداخلي للمحل ويفرض احترام بُنوده على كل الرّواد. قانون داخلي مُصغّر من أربع نقاط أمْلَتهُ عليه بنفسها:

ممنوع جلوس أكثر من شخصين إلى الكومبيوتر الواحد،

ممنوع التدخين،

ممنوع إحضار الأكل والسندويتشات،

ممنوع التحدّث بصوت عال.

ظل قانون هيام ساريا على الجميع مع استثناءات قليلة نادرة. أحيانا يتجاوز رحّال عن الأفريكانو ويتركهم يتزاحمون ثلاثتهم أمام الكومبيوتر. أساتذة ثانوية المسيرة بدورهم حين يأتون يتوزّعون على الأجهزة والمواقع ويبدأون في الثرثرة كما لو أنهم مازالوا في قاعة الأساتذة بالثانوية يستمتعون بفُسحة الاستراحة. لكنّ هؤلاء زياراتهم متباعدة. لذلك ظلّت حُرمة المحل محفوظة إلى أن هلَّ هلال اليزيد على سيبر أشبال الأطلس.

ما الذي جعل اليزيد يغادر مجلسه الدائم في مقهى ميلانو ليفكّر متأخّرا جدّا في الالتحاق بالقافلة الإلكترونية؟ هناك سرٌّ في الموضوع. لأن اليزيد كان قد اختفى عن الحيّ والمقهى سنةً كاملةً يقول إنه كان خلالها في كندا. ويقولون في ميلانو إنَّ كندا الحقيقية التي حجبت شمس اليزيد عن المقهى والحيّ والمدينة كلها لم تكن سوى سجن بولمهارز. أسباب الاعتقال ظلت مجهولة. لكن، كيفما كان الحال، قرّر اليزيد بعد عودته أن يُوسِّع من مدار حياته قليلا فأضاف السيبر إلى مجاله الحيوي.

كان الكل في السيبر يتعامل مع اليزيد بحذر. حضورُه مستفِزّ، وتظارُفُه سخيف، أما تلميحاتُه الجنسية فوَقِحَة. فضلا عن أنّه يتكلم بصوت عال وكأنّه جالس في صالون بيته.

منذ اليوم الأول، فهم رحّال أنّ محنتَهُ ستكون عسيرة مع هذا

الكلب الذي لم يبذُل السنجاب أدنى جهدٍ ليكتشف انتماءه إلى فصيلة النبّاحين.

دخل اليزيد يختال في درّاعية بيضاء وينتعل بَلْغَة صغيرة بالكاد تَسَعُ مشطي قدميه، فيما يظلّ الرسغان خارج الإطار. هكذا يتهادى في مشيته جيئةً وذهابًا في تطاوس مضحك. كان يتأبّط نسخة فوتوكوبي من مقالة نعيم مرزوق - الظاهر أنه سطا عليها من ميلانو - ويحمل قهوة نصّ نصّ وبعد "سلاااام عليكم" استعراضية ألقاها بصوت جهوري ليلفت انتباه الجميع تهالك فوق الكرسي أمام الكومبيوتر الوحيد المُتاح وبدأ يشتغل بصوت مرتفع. يتقدّم بين الأمواج السيبرنيتية ويقوم بالنقل الحيّ المباشر لكل حركاته وسكناته الإلكترونية.

- آرا هاذ الحريرة ديال هوت ماروك نشوفوها واش باقية سخونة ولا بردت. آجي آجي آجي.. وهذاك الفيسبوك لا يغلبوك؟.. آجي آ الأخ، كيف يدير الواحد إذا بغى حتى هو يتحشر مع هاذ قطّاع الطرق ديال الفيسبوك؟ آجي عافاك..

كان بثّه متواصلا وهو يستمتع بالرشف من كوب القهوة. اعتاد رحّال أن يلج الزبائنُ محلَّه بقناني الماء أو الليمونادة. لكن القهوة، هذه أول مرة تحصل. يمكن لشخصٍ لا يبدو عليه الحرص مثل اليزيد أن يقلب بسهولة كأس القهوة فوق الكيبورد. وهذا أمر مزعج. ثم إن رحّال لا يريد لهذا السلوك أن يتكرّر في محلٍّه. ربما عليه أن يُوضِّح الأمور منذ البداية لهذا الأخ.

- آ الأخ.. آ الأخ.. اللـه يخلّيك ممنوع.

- آش اللي ممنوع؟

- القهوة.

- القهوة ممنوعة؟

- إيه ممنوع. القهوة ممنوعة، قالها رحّال بصرامة بعدما استجمع كلّ شجاعته.

- واراه سميتو سيبر كافي.. الحمار اللي ولدك.. كافي.. كافي.. واش قاري ولا ما قاريش؟ سميتو كافي. يعني القهوة. وكون كان سميتو سيبر بار، كُن جبت لأمّك البيرة والرّوج هنا، وآجي قل لي ديك الساعة ممنوع.

صعق السنجاب. بدأ يتقلّص داخل كرسيه حتى تضاءَل تمامًا. خالد بطّوط جديد هذا الذي ابتلَيْتَني به يا ربي. يبدو أن أيّام الهنا في السيبر صارت مُهدَّدة مع هذا الوغد. المهم أن لسان رحّال عقده الخرس. غلبه جُبْنُه الطبيعي. جُبْنُه المُتأصِّل. لكن ما حصل فيما بعد، جعله لا يصدّق عينيه.

فتح اليزيد بريده الإلكتروني. اكتشف رحّال أن للرجل حسابا في هوتميل. ربما فتحه في كندا إذ لم يسبق له أن استفاد من خدمات أشبال الأطلس. ثم بشكلٍ تلقائيٍّ جدًّا وهو يتصفّح بريده سحب من

علبته سيجارة أشعلها. أخذ نفسا عميقا، ورشف من كوب القهوة واهتمامُهُ مشدودٌ إلى الشاشة.

- الأخ.. الأخ.. اللـه يخلّيك، ناداه رحّال بتضرُّع.

- آش خصّك ثاني؟ تساءل اليزيد بنفاد صبر.

- اللـه يخليك. اقرأ شو مكتوب فـ الباب: ممنوع التدخين. وهذا ماشي القانون ديالي. أنا غير خدَّام. هذا قانون واضعينه أصحاب المحل.

- لا لا ماتخافش. ماحدِّي معاك هنا ماكاينش دين أمُّه اللي يقدر يشعل ݣارّو فـ هاذ المحل.

- ولكن ها انتَ شعلتيه؟

- لا.. كن هاني، طمأنه اليزيد، حتى حدّ آخر ما نخلّيه يكمي فـ السيبر. غير ادّيها فـ شغلك.

كان اليزيد يطبِّق مع رحّال سياسة الأمر الواقع بهدوء، ودون تشنّج. يشرب قهوته ويدخّن سيجارته ويَعِدُ رحّال بالإشراف شخصيا على التطبيق الصارم للقانون الداخلي للمحل، وسيمنع أيّ تجاوز مُحتمل من قبل الآخرين. ويقصد الآخرين فقط.. أما هو، فخارج الحساب طبعًا.

يقولون: هذا الشبل من ذاك الأسد. والظاهر أن هذا المثل يسري على فصيلة الكلاب أيضًا. فاليزيد هو ابن مولاي أحمد الملْخَة عدوّ الصبيان في مسجد النور. يُحصي عليهم أنفاسهم في المسجد ولا

يتردّد في النباح على كلّ من ضبطه يعبث في محلات الوضوء أو يتشاغب بين الصفوف. رغم أن الآباء اشتكوا مِرارًا للإمام والمؤذن من غلظته وسوء معاملته لأطفالهم، إلا أنّ مولاي أحمد كان يصمُّ أذنيه عن الشكاوى. فلبيت اللـه حُرمة، وهو هنا ليحفظ للبيت حُرمته من عبث الشياطين الصغيرة. لكن في قرارة نفسه كان ينتقم من الصغار لأنهم يفشلون دائما في كظم ضحكاتهم أثناء قراءة الحزب جماعةً بعد صلاة المغرب. كانوا يضحكون عليه. لم يسبق لمولاي أحمد أن حفظ القرآن لا في مسيد ولا في كُتّاب. لكنَّ عجرفتَهُ تمنعه من أن يمدّ يده إلى خزانة المصاحف ليسحب منها مصحفا يقرأ منه مع الجماعة. بالمقابل، كان يستغلُّ ارتفاعَ الأصواتِ خلال التلاوة الجماعية فيبدأ بمسايرة جمهرة القراء والحفَظة محرِّكًا شفتيه قبل أن يرفع صوته في نهاية الآيات التي يحدسها حدسا. فبعد السميع تأتي العليم غالبا. لكن أحيانا يشرد مع العليم فيما الجماعة تقرأ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾. ليس هناك حَكَم شرط يراقب العملية ليرفع في وجهه راية الشرود. فقط الأطفال الخبثاء لا يتردّدون في الضحك منه والقهقهة في وجهه. هؤلاء الشياطين الصغار. الكفرة باللـه. والكافرون لهم عذاب... أليم. العذاب في القرآن أليم في العادة. لكن ما إن يتعلق مولاي أحمد بأهداب الآية ويطلق العنان لصوته الجهوري حتى يكتشف أن هذه الآية بالذات أبت إلا أن تخذله وهي تُفضِّل الشِّدَّة على الألم. ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. الكبار يواصلون تلاوتهم

الجماعية للقرآن في انخراط من نزلت عليهم السكينة وحفتّهُم الملائكة وغشيَتْهم الرّحمة، لكن الأنذال الصغار يضحكون. يفضحون ارتباك مولاي أحمد. يفضحون حالات شروده المتكرّرة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾. هذه المرة كان حدسك في محله. وما ربُّك بظلّام للعبيد. صدق اللـه العظيم. وما إن يتمّ المصلون قراءة الحزب ويختم الإمام بالدعاء حتى يبدأ مولاي أحمد فصلا جديدا من فصول مطاردته لهاذ "أولاد الزّنا" الذين لا يُقيمون أيّ اعتبار لحرمة بيت اللـه.

قبل أن يتوب اللـه عليه ويهديه إلى طريق الفلاح، كان مولاي أحمد فارسا من فرسان حانات مراكش الأشاوس. خبِرَ الحانات كلّها وسكر في كل طاولة من طاولاتها ومُنِع من دخولها جميعا، فتاب عن الكأس مُكْرَهاً لا بطلا. ومع ذلك كانت التوبة نَصُوحًا بفضل اللـه. أمّا قصّةُ منعِهِ من ولوج الحانات، فتعود إلى أن مولاي أحمد الملْخَة كان يتوسّط المجلس داخل الحانة ويتزعّم الطاولة التي يجلس إليها. بل يتعامل بأريحية مع الزائرين الجدد ويدعوهم إلى الالتحاق بالمجلس وإضافة طاولة أخرى إذا لزم الأمر. وإذ توشك السهرة على الانتهاء، يأخذ مِن كلِّ مَن بالمجلس ثمن ما شرب زاعما أنه سيتكلف بمحاسبة البارمان. وفعلا يغادر الرواد ويبقى مولاي أحمد أمامه عشرات قناني البيرة الفارغة ودستة من قناني النبيذ. وحين يأتي النادل للحساب، يشرح له الشريف أنه لا يملك نقودا ويمكنه بكل بساطة أن ينادي على الشرطة.

هناك قانون مغربي يحظر بيع الخمور للمغاربة المسلمين. قانون أقرّه الاستعمار الفرنسي زمن الحماية بهدف منع الأهالي من التطفّل على الحانات والاختلاط بالمعمّرين فيها. لكن هذا القانون الاستعماري العنصري القديم وافق هوى التيار المحافظ في البلد فبقيَ ساري المفعول حتى والمغرب يُنْتِج 40 مليون لتر من الخمور سنويا يتمّ استهلاك 85 في المائة منها محليا. هذه الثغرة بالضبط عرف مولاي أحمد كيف يتسلّل منها. ولأن لا أحد سيتصل بالشرطة في النهاية - تفاديًا لعقوبات السجن والغرامة وسحب رخصة بيع الكحول من المحل - فقد كان مولاي أحمد يجد نفسه مرميا أمام البار بأضلع مرضُوضة ووجه مُدمّى. كان ينال من الحانة الواحدة عدّة مرات. مرّة يأتيهم بجلّابة تقليدية، ومرّة بمعطف طويل، ومرّة ببذلة شيك وربطة عنق. مرّة يعتمر قبعة، ومرّة طربوشا فاسيا، ومرّة يسحبُ قُبّ الجلباب. أيضا تراه يومًا بلحية، ثمّ بشارب كثّ من دون لحية، فبوجهٍ حليقٍ تمامًا وهكذا دواليك. وظل مولاي أحمد الملْخَة على هذه الحال لسنوات إلى أن صارت هيئاتُه كلها مكشوفةً ممنوعةً من كلّ حانات مراكش دون استثناء.

هذا الشبل من ذاك الأسد. واليزيد سرٌّ أبيه. ما عليك يا رحّال إلا أن تُصَرِّف مكتوب الله. فاللهم إنّا لا نسألك ردّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه.

22

لا ينبغي أن نظلم الناس. فليس اليزيد من عكّر مزاج رحّال حتى تراجع أداؤه. يجب الاعتراف أن السنجاب منذ البداية استشعر ثقل المسؤولية. في السابق، كان يعلّق في هوت ماروك من موقع الغُفْلِية. لا أحد يعرفه. أو على الأقل، لم يكن يشعر بأن هناك من يعرفه ويراقبه. اليوم صار مُجَنَّدا للكتابة والتعليق. هناك من ينتظر تعليقه، وسيُقيِّمُه بالتأكيد، فيرضى عنه أو يجده أضعف من المتوقَّع. لهذا بالضبط صارت كتابة تعليق صغير أعسر عليه من خلع ضرس.

ومع ذلك، عليك أن تشتغل أيها السنجاب؟ عليك أن تعود لوتيرتك القديمة في الإنتاج. رغم أن أحدا لم ينبّهك إلى تراجُع أدائك، ورغم أن راتبك يصلك، إلا أنّك تبقى مُطالبًا بإثبات جدارتك. فلا تُخيِّب أمل الجرذ العميد فيك.

ظل رحّال يجتهد. المعطيات التي تصله من الضابط حكيم يوظّفها بذكاء، وعدد اللايكات التي تحصدها تعليقاته تُطَمْئنه إلى أنّ ولد الشعب وأبا قتادة لم يفقدا نجوميتهما بَعْد. مع ذلك، لم يعد يفتح هوت ماروك بفرح كما في السابق. إنها عملُه الآن، فهل هناك عاقلٌ يذهب إلى شُغلِه سعيدا مبتهجا؟ المغاربة يذهبون إلى العمل غصبا عنهم. مُرغمين لا أبطال. غالبيتهم لا تشتغل. وإنما "تدوِّزُ الساعة باش ما اعطى اللـه". ورحّال أصبح يُقْبِل على هوت ماروك بنفس المزاج الخاسر الذي يذهب به المغاربة عموما إلى الشغل. ومع ذلك يكتب تعاليق نبيهة تحصد من اللايكات أكثر مما تحصده تعاليق أيّ زميل آخر في جوقة الكورال التابعة للمايسترو نعيم مرزوق، بمن فيهم منافسه القويّ أبو شرّ الغيفاري.

وكلما اختنق السنجاب داخل هوت ماروك، وكثيرا ما يختنق، يبحث عن بعض التسلية في الفيسبوك. الفيسبوك لا يغلبوك، اللي خلّاها اليزيد. الكثيرون اكتشف رحّال وجودهم على الفيس بالصدفة. وفيق الدّرعي. عصام اللوزي الكاتب المعروف. جلال الرّندي أستاذ المناهج بكلية الآداب. فؤاد الوردي صاحب لبيد. عزيز السلوقي. بل حتى عتيقة البقرة التي ازدادت سمنة. تُقدّم نفسها على الفيسبوك بصفتها مناضلة نسائية وأستاذة بإحدى ثانويات أزيلال.

ثمّ مَنْ؟ خالد بطّوط؟ إنه هو. بلحمه وشحمه. قصيرٌ بدينٌ لا يزال.

انتبه رحّال إلى أنّ غريمه القديم يبدو منكسرًا في الصور. عموما هو لم ينشر أكثر من ثلاث صور بدَتْ هيئتُه فيها بالغة الرثاثة. حتى الطبيعة رثّةٌ من حوله. شجيرات زيتون عجفاء في حقل بور، سنابل عطشى، ونبات شوكي، وهو يبتسم للكاميرا ببلاهة. علّق بطّوط على صورة الغلاف: "مع زملائي في الحقل المجاور لمكتب البريد". كانوا يشربون الشاي بفرح ساذج وهم يحدّقون جميعا في عين الكاميرا! كأنّ صديقك يشتغل ساعي بريد في قرية بائسة. حتى تدويناته لا تقلّ بؤسا: "من كانت همَّتُه في بطنه فقيمتُه ما يَخْرج منها". ياه يا بطّوط. كأنّك لم تغادر بَعْدُ مدرسة الأنطاكي. ما زلتَ تردّدُ حتى اليوم تلك الأمثال التي كان يكتبها المدير على السبورة الحائطية ويطلب من معلميه شرحها لنا في نهاية الحصّة. فكّر رحّال في أن يطلب صداقة خالد بطّوط ليهتمّ بأمره قليلًا، لكنّ الرجل أتفه من أن يهتمّ به أحد. وليس من شيم رحّال أن يطلق النّار على سيارة إسعاف، أو أن يوجّه لكزة افتراضية إلى خصمٍ مهزومٍ واقعيًّا بالضربة القاضية. لذلك، غادر صفحته الكئيبة وهو يشعر بالرثاء لحاله. استغرب فعلا كيف تحوّلَتْ نقمتُه الرّاسخة على غريمه القديم إلى مشاعر متضاربة تتراوح ما بين الشماتة والشفقة.

المحجوب ديدي كان أيضًا هناك. المحجوب الذي عارض بشراسة في البداية فكرة الالتحاق بهذا الموقع المخابراتي المشبوه،

بل وكان يُروِّج لعريضة عالمية تطالب بحجبه، ها هو حاضر باسمه الصريح وصورته الحقيقية.

إنّما كيف غيّرتَ رأيك يا أبا قتادة؟

شرح له المحجوب أن دعوة المقاطعة كانوا قد أطلقوها على إثر إهانة نبي الأمة عليه أزكى الصلاة والسلام، بعد ما لاحظوه من تواطؤ إدارة الفيسبوك مع من كانوا يطلقون الشتائم على سيِّد الخلق حيث كانوا يتيحون لهم المجال للتحرّك في هذا الموقع الاجتماعي المشبوه بلا حسيب أو رقيب. لكن ضعف الاستجابة بسبب ضُمور الوازع الديني لدى مُسلمي الفيسبوك أفشل الحملة الإسلامية لمقاطعته. لذلك اقترح بعض الإخوة تغيير الخطّة وتنظيم عودة جماعية إلى حياض الفيسبوك حيث نحاول حاليا، يضيف المحجوب، تقويض المخطّط اليهودي المسيحي المُتصهين لهذا الموقع الشيطاني من الداخل، وذلك من خلال ثلاث جروبات قوية أنشأها الإخوة جازاهم الله عنا خير الجزاء: جروب "النبي محمد أعظم قائد في كل العصور"، وجروب "شباب الصحوة الإسلامية"، وجروب "سنصلي في القدس: من أجل فلسطين". المئات بل الآلاف يلتحقون يوميا بهذه الجروبات المباركة يا رحّال وعليك أن تُنشئ لنفسك بروفايلا على الفيسبوك في أقرب فرصة وتلتحق بنا لتعزّز جند الرحمان في هذه الحرب الفيسبوكية المُقدَّسة التي سيطول أمدها على ما يبدو. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

لم يلتحق رحّال بأيٍّ من جروبات أبي قتادة المُجاهِدة. هو عموما لا ينوي الصلاة في القدس. حتى مسجد النور المجاور لم يسبق له أن وضع فيه قدمًا. ليس عن كفر أو إلحاد والعياذ بالله، ولكن فقط لأنه مشغول هنا في السيبر وسيكون من الصعب عليه أن يترك شغله كل مرّة ويذهب ليُسوِّي الصَّف مع المحجوب ديدي ومولاي أحمد الملْخَة والأستاذ شهاب الدين. لهذا لا يمكنك يا أبا قتادة أن تعوّل عليّ في حكاية القدس هذه.

لكن دعك من القدس الآن، وشُدَّ الرحّال إلى مارسيليا.

بالضبط إنها مارسيليا.

إلى مارسيليا، إذن، أيها السنجاب.

يبدو أن لديهم مهرجانا متوسطيا للشعر في تلك البلاد. وهاهم يدعون وفيق الدرعي وكأنّ الشعراء قد انقرضوا من أرض الكنانة وبلاد الرافدين وحواضر الشام وغيرها من منابع الشعر العربي الأصيل. ابن القحبة هذا الشُّويعر المغرور، ماذا يفعل هناك؟

كان سمير الليل والنهار قد تسلّل إلى لائحة أصدقاء وفيق منذ مدّة. طلب صداقته برسالة طويلة مؤدّبة أخبره فيها بأنه من قرّائه الأوفياء وأنه يتابع تجربته المدهشة منذ ديوانه الأول "الفراشة في طريقها إلى المسلخ"، وهو فعلا مُعتزٌّ بموهبته فخورٌ بتجربته المتألقة ويُشرِّفه أن يتواضع الشاعر الكبير ويقبل صداقته. أجابه رفيق برسالة

مقتضبة مهذبة وقبله على الفور. ومن يومها ظلّ سمير الليل لابِدًا هناك. يُحصي على الشاعر أنفاسه الإلكترونية. لا يساهم لا بتعليق ولا بـ"لايك". كان يراقب فقط إلى أن غافَلَه وفيق هذه المرّة لِيُطِلّ عليهم بألبوم صور رائقة. ومن أين؟ مِنْ مارسيليا..

كانت صويحبات وفيق قد ملأن الرّحب بالتعليقات السعيدة بوجود شاعرهنّ المحبوب في تظاهرة كبرى من حجم مهرجان أصداء المتوسط. اللايكات تتطاير في الهواء. لو أتاح لهن الفيسبوك خدمة إطلاق الزغاريد لسمعت زغاديهن تصمّ الآذان. الأجواء احتفالية على جدار الشاعر. ووفيق يحرص على أن يعمل لايك على كل تعليق يُنشر أسفل ألبومه. تعليقات على الألبوم. وأخرى على الصور. على كلِّ صورةٍ على حدة. لكن سمير الليل والنهار فضّل التعليق على الألبوم: "هل هذه هي وظيفة الشعر يا وفيق الدرعي وأنت من كنّا نفتخر به؟ هل هذه وظيفة الشعر؟ أطفال الأمة يموتون في فلسطين والعراق وأنت تعيش في بهجة هناك؟ الشاعر الذي كان ضمير هذه الأمة وصوتها المجلجل يسكر مع الفرنسيين في مهرجان يحضُره إسرائيليون ويبتسم ببلاهة في الصور غير عابئ بدماء الأطفال الزكية الطاهرة التي تسيل في أكثر من بلد عربي وإسلامي؟ لقد صُدِمْتُ فيك أخي وفيق. ويبدو أنك ستدفعُني إلى الكفر بالشعر والشعراء".

كانت الطلقة مدوّية. تردّد صداها قويًا على جدار وفيق الدرعي. حاولتْ إحدى صُويحِبات وفيق الدفاع عنه.

"لاواه لاواه.. لا يجب أن نبالغ. الأمر يتعلق بمهرجان شعري دولي. وشرفٌ للمغرب أن يشارك أديبنا الشاب في هذا المحفل الأدبي، لذا يجب عدم المبالغة رجاءً".

"عن أية مبالغة تتحدّثين أختي الكريمة، لأنني بكل صدق لم أفهم؟ أنا هنا أتحدث عن الدور الحضاري والأخلاقي والتربوي للشاعر. هذا كل شيء. إذا كان هذا الدور لا يهمك، فأنا أحترم وجهة نظرك. لكنّه يعنيني شخصيا. حين تمعَّنتُ في الصور ووجدت شاعرنا المحبوب وفيق الدرعي يتعاطى الخمور في المطاعم والحفلات مع اليهود في فرنسا كما هو واضح في أكثر من صورة في الألبوم، قلت ربما من واجبنا عليه أن ننبّهه إلى أنه ابنُ ديانةٍ تُحرِّم شرب الخمر، ومن حقّه علينا أن نذكّره بأنه كشاعر مُؤتمنٌ على وجداننا وعلى ضمير أمّتنا التي يتعرّض أطفالها يوميًّا للتقتيل من طرف أولئك الذين يسكر معهم في الصور. وأريد أن أنبّهه إلى أن العلي القدير حسم هذا الأمر في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ صدق اللـه العظيم. وإذا كنتِ قد وجدتِ في كلامي أيتها الأخت الفاضلة أيّ إساءة للأخ وفيق فأنا أعتذر".

"لا.. لا داعي للاعتذار يا سمير الليل والنهار - أيّ سيلٍ حطَّ هذا المَوْتُورَ هو الآخر؟ لا صورة له، واسمُه المستعار ابنُ جلا. لكنَّ اللعبةَ ستزدادُ إثارةً بعد تدخّله - لا داعي للاعتذار لأنك هجسْتَ بما في ضمائر العديدين. فلا تعتذر عن غيرتك على أمّتك. شخصيا كنت

أحترم هذا الشاعر وأتعاطف مع تجربته. لكن بعدما ظهر اليوم على حقيقته، فإنني أعلن على رؤوس الأشهاد أن صداقتهُ لم تعد تُشرِّفني. وسأضع لها الآن حدًّا. وأدعو كل الشرفاء إلى الحذو حذوي لكي يفهم هؤلاء الأدباء المُتسلِّقون المُستلَبون ممّن يلهثون خلف مهرجانات الغرب أننا أبناء أمّة حرّة أبيّة لا تقبل على نفسها الضيم وتلفظ كلّ من لم يُراع حُرمَتها، وكل من خذلها وخان أمانتها".

الغريب أن أكثر من صديق مفترض لوفيق الدرعي عملوا لايك على كلام سمير الليل ورفيقه. وهناك خمسة عناصر أعلنوا استجابتهم الفورية لنداء ابن جلا بإشهار سحبهم لوفيق الدرعي من لائحة أصدقائهم. لكن سمير الليل والنهار بقي هناك لابِدًا في مكمنه، يرقب ما ستؤول إليه الأوضاع. ولم يخذله وفيق. بعد ساعةٍ فقط دخل الشاعر إلى الفيسبوك. كان عائدا للتوّ من سهرة جديدة. أضاف صورة له وهو يقرأ الشعر وإلى جانبه فرنسية حسناء. لعلّها المترجمة. كان ينظر إليها بفرح وهي تقرأ شعره بالفرنسية. الجمهور بدا غفيرًا. الظاهر أنهم يقرأون في ساحة عمومية. هناك إلى جانب الجمهور الجالس للإنصات صبايا وشباب يتجوّلون في الساحة استوقفهم الشعر. الفضاء ساحر فعلا يا وفيق. أضاف صورة أخرى لجماعة من الأدباء يتعشون في مطعم أنيق. كانت قناني النبيذ مبذولةً فوق الطاولة والكؤوسُ مُترَعة. وفيما بدأت الصورتان الجديدتان تحصدان اللايكات، كان سمير الليل والنهار يفكّر في تعليق جديد يقصم به

ظهر الشاعر. لكن ما إن استوى التعليق في باله وأراد أن ينفثه كالسُّم أسفل الألبوم، حتى اكتشف أن الألبوم لم يعد هناك أصلا. لا ألبوم ولا صُوَر ولاهم يُلَيِّكون.

وفيق الذي جاء من قراءته الشعرية مفعمًا بالرّضا عن الذات، ومخمورًا بعض الشيء، أراد أن يُشْرِك أصدقاءه وصويحابته في الجوّ من خلال الصور الجديدة التي شرع في نشرها لحشد اللايكات. فإذا التعليقاتُ المسمومة تُخرِّبُ مزاجه. فاجأه الانقلاب الذي قاده سمير الليل والنهار، فحذف الألبوم جملة وتفصيلًا. ولعله غادر الفندق الآن، هو الذي كان يستعدّ للنوم، ونزل يبحث عن حانة جديدة يُعالِج فيها روحه.

ياه يا وفيق، لَكَمْ أنت هشٌّ يا رفيقي القديم. لو أنّي أعرف هذا المنحطّ الذي دعا إلى حذفك من لائحة الأصدقاء، لأخذتُ بثأرك منه. لكن لا تهتمّ، لقد عملتُ له "بلوك" فيما يخصّني. وأقترح أن تعمل له "بلوك" أنت أيضا. ثم إنّي، بكل صدق، فخورٌ بك وبمسارك يا وفيق. لولا أنك تبالغ أحيانا في استفزاز مشاعر أصدقائك بمثل هذه الصور المُدمِّرَة. نحن الآن في شهر يوليو يا أخي، وجهنم الحمراء مُستعِرة والحرّ في مراكش لا يطاق. وأنت تنشر صورا مستفزّة في مطاعم فاخرة تأكل السمك وتكرع البيرة والنبيذ الأبيض مع الشقراوات في جو بديع، تعانقهن بتلقائية ويعانقنك بلا تحفّظ، وأنا

هنا في هذا الحرّ مع اليزيد يخنقني بحضوره الثقيل. سامحك اللـه يا وفيق. سامحك اللـه يا صديقي.

***

لكن، انتظر.. انتظر.. لا أصدّق عيني.. مَنْ؟

عماد القطيفة شخصيًّا؟

لم يلتق رحّال بعماد على ناصية شارع إلكتروني، ولا جاوَرَهُ صُدفةً في رصيف إحدى المقاهي الافتراضية. بل إن ابن الحاج القطيفة جاء برجليه إلى أجمة اللبوة. طرق الباب بكثير من اللطف والتودّد، ثم مثل طريدة غبية ولج من تلقاء نفسه عرين هيام.

الاسم: عماد القطيفة. المدينة: مراكش. المهنة: رجل أعمال. الوضعية العاطفية: متزوّج.

إذن، ماذا تريد يا عماد؟

شرح لها القطيفة أن لديه ضعفًا خاصا تجاه اسم هيام: "لي مع هذا الاسم قصة قد أحكيها لك لاحقًا إذا أتيح لنا أن نتعارف أكثر. أما سبب طلبي صداقتك الأخت هيام فهو أنني معجب بشخصيتك. بنتٌ في حُسنِكِ وجَمالك ومع ذلك تحافظ على أخلاقها وتهتمّ بالشعر والأدب. لا تعتقدي أنني أتسرّع في الحكم عليك أو أنني أجاملك بهذه الكلمات. أبدًا، فمنذ مدة وأنا أتابع بروفايلك. والحقيقة أنكِ كلما نشرتِ

تَحْدِيثة جديدة إلا ووجدتُني أتعلّمُ منها شيئا. قلت في نفسي: هذه شابة مثقفة وواسعة الإطلاع رغم حداثة سنها. لذلك طلبتُ صداقتك، هكذا بمحبة وبراءة. وسرّني فعلا أن قبلتِ بكل لطف. وما دمنا من نفس المدينة، يسعدني جدا أن نتعارف أكثر وثقي عزيزتي هيام أنك لن تندمي على ذلك".

لن أندم؟! أندم على ماذا أيها الغبي؟ أكيد لن أندم يا ابن القطيفة. وردّي عليك لن يتأخّر طويلا.

"شكرا لك الأستاذ عماد على لطف رسالتك. بروفايلك لا يوضِّح مع الأسف الكلية التي تخرّجت منها ولا التخصّص العلمي أو الأدبي الذي تابعتَ فيه دراساتك الجامعية. هذه مسألة حيوية بالنسبة لي. أحرص على الاستئناس بالمجالات المعرفية لأصدقائي الفيسبوكيين لتكتمل الفائدة. لذا يهمني أن تعطيني في رسالتك المقبلة فكرة عن مجال تخصُّصك. كما يسعدني بدوري أن أتعارف معك في إطار صداقة محترمة عبر الانترنت، لكن لا تطمع في أكثر من ذلك. فبكلّ صراحة، رغم أنني فتاة منفتحة جدا لن أسمح لنفسي بأن ألتقي بشخص متزوّج وأشرب معه قهوة مثلا. سأحس كما لو أنني أخون زوجته. وإذا قبل هو على نفسه الخيانة، فأنا لن أقبلها على نفسي. إنما مرّة أخرى، تسعدني صداقتك ما بقيت في إطارها الفيسبوكي البريء. وأنتظر منك في رسالتك المقبلة أن تجيبني أيضا على حكاية "هيام"، ما الذي يشدّك إلى اسمي؟ وهل تعشق هيام يونس؟"

لكن الجواب جاء مخيّبًا للهيام. عماد القطيفة اعترف في رسالته بأنه لا يعرف هيام يونس. يجهل من تكون هيام يونس. لأول مرة في حياته يسمع بهذا الإسم. ولماذا خلق اللـه غوغل أيها الغبي؟ لماذا بعث اللـه في الأميين من عباده الإلكترونيين سيدنا غوغل عليه السلام؟ أليس لنلجأ إليه حين تسألنا فتاة جميلة محترمة عن شيء ولا نملك الجواب؟ على الأقل نرقن الإسم في غوغل وندعه يقوم بشغله ثم نجيبها. لا أن تقول لها، هكذا بغباء، إنك لا تعرف. ثم فوق ذلك، تسألها هي عن هيام يونس؟

خابَ أملي فيك يا عماد. ظننت أن مستواك الثقافي قد تحسّن بعد كل ما راكمته من ثروات. لكن الجحش الذي لم يتوفَّق في الحصول على البكالوريا رغم الدروس الخصوصية وحصص الدعم والتقوية لا يمكنه أن يصير عبقريًا بين عشية وضحاها. خاب أملي فيك فعلا يا ابن القطيفة، واسمح لي بأن ألقنّك درسا صغيرًا، بعد إذنك طبعًا.

"عزيزي الأستاذ عماد. لم تجبني على سؤالي بخصوص تخصّصك العلمي والأكاديمي مع العلم أنني أكّدت على هذه النقطة في رسالتي إليك. وهذا له تفسيران لا ثالث لهما. إما أنك لم تقرأ رسالتي ولم تتعامل معها باحترام وهذا يؤلمني جدا. لأنني بقدر ما أحترم أصدقائي الفيسبوكيين أطالبهم هم أيضا باحترامي. وإذ لا تجيب

شخصا على أسئلته فإنك عمليا تستهين به. وإما أنك دون مستوى أكاديمي أصلا. وفي هذه الحالة، اسْمَحْ لي بأن أكون واضحة معك. ماذا سأستفيد شخصيا من صداقتك أنا التّوّاقة إلى المعرفة والنقاش الأدبي والفكري؟ أما عن هيام يونس التي لا تعرفها، فاسمح لي بأن أقترح عليك روابط باقة من أجمل أغانيها، وهي متوفّرة على اليوتوب كما ستلاحظ. كان بإمكانك أن تبذل مجهودا صغيرا فتبحث عنها بنفسك في غوغل، لكن يبدو أنك من النّوع الذي يفضّل الأمور السهلة. وأنا لست امرأة سهلة. حتى صداقتي على الفيسبوك الأخ عماد ليسَتْ بالسهولة التي تظنّ. تحياتي. هيام".

لقد أصبْتَهُ في مقتل أيها السنجاب. مسحْتَ بابن القطيفة الأرض. لن يقترب بعد الآن من عرين اللبؤة. سيندم على اليوم الذي فكّر فيه أن يكتب لهيام. وسيندم على اليوم الذي بادر فيه إلى إنشاء بروفايل على الفيسبوك.. سـ..يـ..

لا، غير معقول؟ إنه هو. عماد القطيفة..

"الأخت هيام.. قرأت إيميلك وأنا الآن حزين. أحتاج رقم الموبايل حالا يا هيام. يجب أن أكلّمك. يجب أن أشرح لك الكثير من الأمور لكي لا تفهميني خطأ. يجب أن أكلّمك هذه الليلة. أرجوك".

23

وأخيرا هبَّت على هوت ماروك ريح تغيير خفيفة. سياسة المنبر وتوابثه الأساسية لم تتغيّر، ولكن على المستوى التحريري حصلت تحوّلات لافتة بعدما استقدموا للصحيفة الإلكترونية رئيس تحرير جديد. شاب مُخنَّث كان يُشْرِف على صفحة "ثقافة وفنون" بجريدة "المنتصف" حيث أنجز ثورة ثقافية حقيقية. رغم أنه من النوع الذي يمكن لرحّال، خرّيج شعبة الأدب العربي، أن يقسم إنه لم يُتِمَّ قراءة كتاب واحد طوال حياته. ومع كلّ ذلك أنجز الرجل ثورته المباركة.

أول ضحايا ثورة أنور ميمي - المشهور بميمي فقط - كانت اللغة العربية شخصيًا. لا ثقافة ولا فكر ولا أدب ولا إبداع فني دون لغة.

لذا كان من الطبيعي أن تبدأ الثورة من هناك. ولأن ميمي كان يكره على ما يبدو درس النحو والإعراب في المدرسة الابتدائية فقد بدأ بالقواعد أولا وشرع يُنكِّل بها مع سبق الإصرار. الجميل أن ميمي من طينة طريفة من البشر تعرف كيف تُحوِّل أعطابَها إلى مفاخر. هكذا تجده في الحانات يكرع البيرة مع ممثلات من اللواتي تخرّجن من حانات الدار البيضاء بدل المعهد العالي للفن المسرحي بالرباط وحالفَتْهن الشهرة مع ذلك، تجده يتفكّه معهن على الصحافيين الذين ما زالوا يستعملون "حيثما" و"بما أنه" و"من ثمة" و"بناء عليه". ويعتبر لغته الجديدة التي لا مجال فيها للربط وأدواته، ولا للتفكير في مواقع همزة إن، أو التدقيق في المُشتقّات وعملها، ولا للانتباه إلى الجموع وأحكامها، لغة العصر الأقرب إلى الناس. وميمي مرتاح من هذه الناحية. فالمغرب، في صحافته المُعرَّبة بالتحديد، لأن صُحُفَه الفرنكوفونية لا تسمح لأحد أن يمزح على صفحاتها مع موليير، قد يكون البلد الوحيد في العالم الذي يمكن أن تمارس فيه الصحافة المكتوبة دون حاجة بك لمعرفة القواعد الأساسية للغة التي تكتب بها. لأنه في النهاية لا أحد يهتمّ.

ثم جاء الدور على الثقافة التي اختزلها ميمي في خصومات الأدباء ومعاركهم حول السفريات والجوائز وما إليه من القضايا "الأدبية" الخلافية. أخبار النجوم. ممثلين وممثلات. مطربين ومطربات خصوصا من النوع النشيط الذي يُدوِّر الناعورة في كاباريهات الدار

البيضاء حيث يسهر ميمي بانتظام. وهكذا كانت أخباره تأتي على هذه الشاكلة:

"شوهد الممثل الوسيم عماد التاغي خارج (اً) من حمّام شعبي بدرب غلّف على الساعة الحادية عشر(ة) ليلا في (من) أول أمس. كان يرتدي جلّابة بنفسجية داكنة مشغولة بالسفيفة العريضة والعقاد ذوي (ذوات) الحجم الكبير، ويلبس (ينتعِلُ) بلْغَة صفرا(ء) عبارة عن نعل من الجلد الخالص. آسيدي بالصحة والراحة الجلّابة والبلغة والتحميمة".

"لا حديث هذه الأيام في درب السلطان إلا عن الحالة المزرية التي يظهر عليها أديب معروف يكتب للتليفزيون وأصدر مؤخّرا (تمّ تصحيح وضع الهمزة) فقط عن دار نشر بيضاوية مرموقة رواية وديوان(ا) دفعة واحدة. فهو يعود يوميا في نص الليل تتقاذفه الحيطان وهو سكران. اللـه يعفو وصافي".

"شوهدت المطربة الصاعدة سلوى الخفاجي في جلسة كوووول ببهو فندق في إفران مع مخرج سينمائي معروف ماغاديش نقول اسميتو لكيلا تغضب منا زوجته الممثلة السمراء المحبوبة. المهم، ما يمشيش بالكم بعيد. ربما يتعلق الأمر فقط برحلة بريئة (تمّ تصحيح وضع الهمزة) للتمتع بطبيعة إفران الخلابة بعيدا عن سخب (المقصود: صخب) الاستوديوهات وخنقة البيت".

"داخل مول شهير بالدار البيضاء، شوهدت إحدى بطلات مسلسل "جنان الزيتونة" وهي تتشاجر مع بائعة في محل للمجوهرات. لم تُراع (حذَفْنا الياء احتراما لحرف الجزم) الممثلة المذكورة لا حرمة المول ولا حرمة التليفزيون الذي تطل من شاشته على النظارة الكرام. مصادرنا اللي تابعت المشاجرة عن كَثب (لاواه "عن قرأ". الثاء مُعجَمة أيها الغبي) أكّدت أن الممثلة المشهورة اعطات لصاحبة حاجتها بالسّب ماكاين غير الكلام الماسخ من الحزام للتحت، قبل أن ترتمي على شعرها وتضربها لها بنتفة. إيوا اللـه يعطيكم الشوهة. الممثلات ديال أربعة د ريال".

العارفون بالكواليس يقولون، والعهدة عليهم، أنه ليست هناك لا مشاجرة ولا مول ولا هم يحزنون. فقط المسلسل حقّق نجاحا لافتا لا من حيث نسبة المشاهدة ولا من حيث الاحتفاء الإعلامي. ولأن ميمي دائم التنطّط في المقاهي والبارات ليس لديه القاع - ولا اللغة ولا الأدوات - ليكتب مقالا من ثلاثمائة كلمة عن المسلسل مثل زملائه من الصحافيين الذين مازالوا يتصوّرون أن الصحافة هي أن تكتب موضوعا بعناصر واضحة وبحدٍّ أدنى من التحليل، لذا فضَّل مقاربة الموضوع بطريقته. ولأن بطلات المسلسل الأربع من خريجات المعهد العالي للفن المسرحي، فقد كنَّ بعيدات عن متناوله. لذلك أطلق سلوقيته بذلك الشكل. وفعلا نجحت الخطّة. حيث اتّصلت الممثلات، كل واحدة على حدة، برئيس تحرير المنتصف

الذي حيّا مواهبهُن وأثنى على براعتهن في التشخيص قبل أن يُحيلهن على ميمي. كانت كل واحدة تؤكّد أن الخبر الذي أعادت نشره العديد من الصحف والمواقع الإلكترونية - بعد تصحيحه من الأخطاء - قد شوّش على سمعتها. كان من الأجدى لو تمّ تحديد هوية المعنية بالمشاجرة إذا كان ذلك قد حصل فعلا، "لا أن نعاقَبَ جماعيا على سلوك مشين صدر عن واحدة فقط. لتتحمَّلِ المُسيئة تبعات سلوكها ونُنهي الموضوع". لكنَّ ميمي، الذي أكّد صحّة الواقعة التي وقف عليها شخصيا بالصدفة، يفضّل أن يحتفظ باسم المعنية بالأمر سرًّا لكيلا يُشوِّش على مسارها الفني وهي لا تزال شابة في بداية الطريق. مع التنويه إلى أن هذه كانت فقط فرصة تعارف، واعتبري - قال لكل واحدةٍ منهنّ - أنّ المنتصف جريدَتُك. كل أخباركِ وأنشطتكِ ستجد طريقها للنشر في صفحتنا الفنّية بكل فرح.

مقالب لا تُحصى من العيار نفسه استعملها مع العديدين ودائما يعرف كيف يحتفظ في النهاية بأرقام هواتف ضحاياه، دون أن تعني صداقتُهُ معهم أنه لن يتربّص بهم ثانية. حركاته المُخنَّثة وتسبيلة عينيه تجعلهم يطمئنّون إليه حين يلتقون حول كأس أو عشاء. لكن ما إن يسقط بين يديه، صدفةً، خبرٌ مثيرٌ أو إشاعةٌ مشتعلةٌ حتى يضرب دون شفقة. لا يترك الخبرَ الصغيرَ العابرَ يفلت من يده حتى ولو كان قد سكر بالأمس فقط على حساب المعنيّ به. هكذا صار

المُخنّث ميمي صحفيًا مرهوبَ الجانب. يُدعى إلى جميع مهرجانات المملكة دون استثناء. الفنانون والصحافيون والنقاد يناقشون الأفلام والمسرحيات والعروض الفنية، وهو يتصيّد هفوات المنظّمين في الافتتاح ويتسقّط أخبار التوترات والمشاحنات الجانبية ويلتقط خلسة صور الممثلات وهن يرقصن والممثلين وهم يسكرون في سهرة الاختتام لينشرها فيما بعد في "المنتصف" مصحوبة بتعليقات خبيثة. مرة نشر صورة مدير مهرجان سينمائي يعانق صبية فاتنة. أرفق الصورة بتعليق سافِل، قبل أن يكتشف أنها ابنتُه.

***

ما إن حطّ ميمي رِحالَه بهوت ماروك حتى بدت لمسَتُه التحريرية واضحة. باستثناء نعيم، الذي لم تكن له أدنى سلطة عليه، طالب ميمي كل الكتّاب والمحرّرين بتوخّي الاختصار. فالناس لا يحبّون الإطالة والإطناب. الناس يأتون إلى هوت ماروك ليس لكي نطبخ لهم رؤوسهم بالنظريات والأفكار والتحاليل السياسية المُعمَّقة. "اللي بغى السوسيولوجيا والانتروبولوجيا والتخربيقولوجيا اللـه يعطيهم ليه ف العظام"، يخاطب صحافييه متظارِفًا وهو يُقهقه. إذ لا أحد يجد الوقت اليوم لمثل هذا الكلام الفارغ. الناس تريد أخبارا فقط. حتى ولو كانت غير موثوقة. الخبر غير المؤكّد نُعيد نشره في اليوم الموالي بصياغة جديدة فيصير مؤكّدا. نهمس به في المقهى في أذن

زميل آخر من منبر آخر ليعيد نشره بطريقته، وها هو قد تأكّد. أين هي المشكلة؟ المهم أن نستوعب دورنا ومهمّتنا في هوت ماروك. نحن هنا لنقدم للناس أخبارا. أخبار، أخبار، أخبار، وبلا فلسفة. الناس يحبّون قراءة الخبر في دقيقة أو دقيقتين على الأكثر ثم يقصدون التعليقات ليروا كيف يتفاعل الشارع مع ما يجري. ولأن ما يهمّ الناس هو هذا التفاعل مع الشارع بالضبط، يجب علينا بدورنا أن نكون قريبين من الشارع ولغته. لذلك جاؤوا بك يا ميمي يا حبيبي. ثورتك الثقافية في "المنتصف"، في شقِّها اللغوي بالخصوص، أثبتت نجاعتها في بلد حريصٍ على أمّيته. وأيضا لأنك تعرف كيف تجد الأخبار، وكيف تختلقها حين لا توجد هناك أخبار.

الأسلوبُ نفسُه الذي كان ميمي يُعالج به كواليس الفن وفضائح الفنانات صار يقارب به أمور السياسة وأخبارها. مستفيدا من مناخ حرية التّشهير السائد في البلد. ثم إن السياسة بالنهاية ليست أفكارا، ولا نظريات ولا مبادئ. السياسة أخبار وكواليس، وهذا بالضبط ما تقوم به هوت ماروك. الأولوية للخبر. والخبر الذي لا يتسابق القراء إلى التعليق عليه ليس خبرا.

ومع ذلك يجب الاعتراف لميمي بنقطة تحوّل إيجابية عرفها عهده الزاهر، إنها الانفتاح النسبي على الأصوات المعارضة. في السابق، لم يكن هناك مجال لأن يُعَلِّق معارض معروف أو صاحب رأي جادّ

مهما كان نوعه. كان الحصار مضروبا تماما على هؤلاء. وحدها المُؤلّفةُ قلوبُهم من أمثال ولد الشعب وأبي شرّ الغيفاري وأبي قتادة وأندادهم يتحرّكون هناك، إلى جانب جحافل العابثين والمتسكّعين والطفيليين والببغاوات والسّنافِر الغضبانة ولُقَطاء الشبكة وقطّاع طرقها الافتراضية وأبناء الشوارع الإلكترونية ممَّن لا طحين وراء جعجعتهم. أمّا أصحاب المواقف الواضحة والكلام الذي من رصاص، فلا مكان لهم في هوت ماروك. لكنّ انفراجا هامّا سيحصل في عهد ميمي جعل الموقع أكثر ديمقراطية. إنّما، لا فضل لميمي فيما حصل.

كتب أمين الرّفاعي مقالة نارية حول الرّشوة التي يرفضها الجميع مبدئيا، لكنَّ الكلّ يتعايش معها وكأنها قدرٌ لا يُردّ. كان مقالا غاضبا. صادرا عن وعي شقي لمناضلٍ اعتزل العمل الحزبي مبكّرا وغادر العمل النقابي مباشرة بعد التقاعد لينشط ضمن دينامية المجتمع المدني في مجال محاربة الرشوة. كان يمكن التسامح مع المقال لأنه صادر عن غيرة ومواطَنَة صادقة من شخص لم يسبق له أن ادَّعى الثورية ولا انحاز إلى التطرّف. لكنّ تعزيز المقال بمعطيات دقيقة حسّاسة دفع جهاتٍ ما إلى تأديب الرّفاعي لتجعله عبرة لمن يعتبر. ومرة أخرى، وُزِّعت المهام بين كل من رئيس الجوق نعيم مرزوق وكوراله المعروف. وما ترى عينُكَ إلّا النّور. كل الخطايا التي ارتكبها أو يُتخيَّل أن يرتكبها شخصٌ مرَّ من نفس مسار الرّفاعي

في وزارة العدل تمَّ تجميعُها في مقال خبيث لنعيم مرزوق كلُّ جملةٍ فيه رصاصةٌ تقتل جَمَلًا. ثم توالَت التعليقات كالسهام. ولد الشعب ذكَّر الرّفاعي بالسنوات التي قضاها موظّفا في محكمة الاستئناف بمراكش وكيف زكمت سَمْسَرتُه في القضايا الأنوف مع بعض المحامين عديمي الشرف ليتمّ تنقيله تأديبيا إلى الراشيدية. غيثة من الراشيدية اعترفت أنها كانت جارة الأستاذ وتحدثت عن فساد أخلاق زوجته التي كانت تستقبل عشيقها، تاجر تُمور معروف بالراشيدية، ما إن يغادر زوجها إلى عمله. وكان بعض فاعلي الخير ينوون إشعاره بخيانة زوجته له في حينه. لكن بعدما علموا بأمر فساده هو الآخر وبسمعته السيئة في المحكمة ردّدوا قوله تعالى ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ واستغفروا اللـه. أما أبو شرّ الغيفاري فقد ذكّره بالتحرّكات المشبوهة التي قام بها لدى رفاقه السابقين في الحزب لكي يضمن لابنه البكر منصبه الحالي أستاذًا بالكلية. نبيلة المكلومة ذرفت دموعا ساخنة على الجدار الإلكتروني قبل أن تعلن قرارها اعتزال العمل النقابي نهائيا إثر صدمتها في الرّفاعي الذي كانت تعتبره رمزًا وقُدوة قبل أن تكشِف لها هوت ماروك مشكورةً بشاعةَ وجهِه الحقيقي.

صُعِق أمين الرّفاعي وهو يتلقّى كل هذا الرّصاص الغادر. لكنه تماسك مع ذلك وصاغ بيان حقيقته. ذكّر بسيرته المهنية النظيفة ومساره النضالي المعروف لدى الخاص والعام. وشرح أن تنقيله

من مراكش إلى الرّاشيدية كان تعسفيّا إثر إضراب قطاعي شرس قادته نقابته. كما دافع عن أخلاق زوجته التي ربَّت أبناءه أحسن تربية قبل أن يأخذها فاطِرُ السماوات إلى جواره وهي في قمة عنفوانها، وكيف تكفّل بتربية أبنائه بنفسه حتى تخرّجوا جميعا أطر دولة يفخر بهم كل من يعرفهم. أما ابنه البكر، الناقد والباحث الأدبي المعروف، فمؤلفاته وأبحاثه ودراساته المنشورة كفيلة بالدفاع عن جدارته الأكاديمية. وأخيرا أوضح أنه لا يملك سوى شقته التي يعيش فيها الآن والسيارة التي باعها قبيل أشهر بعد أن قلّت تحركاته بعد التقاعد واعتزال العمل النقابي. البيان لم تنشره لا هوت ماروك ولا صحيفة المستقبل. فظلّ المسكين يحمله في جيبه لأكثر من أسبوعين يطوف به في المقاهي والمُنتديات ليتلُوَه على من يريد أن يسمعه من أصدقائه ورفاقه قبل أن تداهمه جلطة في المخ. فانتقل إلى عفو اللـه عن سنٍّ يناهر الخامسة والستين.

من يومها بدأ ميمي يسمح للجرحى والمعطوبين بأن يمارسوا حقّهم في الأنين على صفحات هوت ماروك، جريدة المغاربة الأولى. والذين طلبوا منه التسامح بعض الشيء مع بيانات الحقيقة ونشر مقتطفات منها، نبَّهُوه أيضا إلى ضرورة أن يستَرْجِل قليلا. هكذا ربَّى شنبا ضئيلا مضحكا، ونزع القرط الذي كان يُزَيِّن أذنه اليسرى، وأمام ذهول شلَّة الحانة أكّد لهم أنه يُفَكّر جادًّا في الزّواج.

24

يبدو أن رحّال قد أخطأ عندما لَمْ يُوصِ أبا قتادة على عبد المسيح. كان كلما خرج لقضاء غرض من الأغراض أو فقط لزيارة حليمة وعبد السلام في حيّ الموقف يكرّر على مسامع قمر الدين نفس الشريط. يوصيه أوّلًا بتفادي أيِّ احتكاكٍ باليزيد وبعدم السقوط في فخّ تحرُّشاته. كما يوصيه خيرا بأبي قتادة.

"أخوك المحجوب ديدي حمار في الكومبيوتر، ويغرق في شبر ماء. لذا إذا تركتَه يتخبّط يا قمر الدين ستتنكّد عليه أوّلًا وستُضيِّع على المحل الوقت الذي سيقضيه بانتظاري لأعيد ربطه من جديد مع إخوانه في اللـه. لذا رجاءً تعامل معه كزبون دون حساسية فارغة".

وكان عبد المسيح يتدخّل دوما لمساعدة أبي قتادة حتى أنه آخر مرة بعدما أعيَتْه الحيلة مع الكومبيوتر الذي كان يستخدمه ديدي وفشل في إعادة تشغيله تنازل له عن جهازه الأثير بالكثير من الأريحية. ولم يكن يعرف أنه ارتكب بحركته النبيلة تلك غلطة العمر.

لا يمكن لأبي قتادة أن يخون أخاه في اللـه الأستاذ شهاب الدين السيوطي. يُصلّيان معا في مسجد النور، وبينهما رحمة ومودّة. فكيف يطّلِعُ على سرٍّ بهذا السوء ولا يُطْلع عليه أخاه. إنّها لَخِيانةٌ عظمى إذن. لهذا أخبرَه بما رأى بالضبط.

"كان ابنك يا أستاذ شهاب الدين مستغرقًا في الحديث مع جرجس القبطي وكأنهما والعياذ باللـه أبناء مِلّة واحدة. قمر الدين يقول له يا أخي جرجس. والمصري يجيبه: يا أخي عبد المسيح. ثم إن عدو اللـه القبطي كتب له آية يبدو أنها من كتابهم الذي يسمّونه مقدّسا ونحن نعرف كم هو مُحرَّف مليء بالتناقضات: "فَكَمَا أَنَّ لَنَا فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ أَعْضَاءً كَثِيرَةً، وَلكِنْ لَيْسَ لِجَمِيعِ هَذِهِ الأَعْضَاءِ عَمَلٌ وَاحِدٌ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ الْكَثِيرِينَ جَسَدٌ وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ، وَكُلُّنَا أَعْضَاءٌ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ". هنا يا أستاذي الفاضل أذَّن المؤذّن صادعا بصوت الحق، فنقلتُ الآية المحرّفة وجئتك بالخبر اليقين. كنت أركض وأنا أردِّد في سري الدعاء الذي روته عائشة رضي اللـه عنها عن سيّد الخلق: "اللهم يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك. اللهم يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك"".

لم ينتظر الأستاذ شهاب الدين إقامة الصلاة. بل هو يشكّ أنه ما زال محافظًا على وضوئه. غادر المسجد فورا باتجاه السيبركافي. كان رحّال قد عاد للتوّ، وعبد المسيح يقدّم له كشف الحساب، حينما دخل الأستاذ شهاب الدين في حالة لم يره عليها أحد من قبل. كان يلهث كأنما جاء ركضًا. يلهث ويرتجف. لم يفهم عبد المسيح ماذا هناك حتى ارتمى عليه الأستاذ شهاب الدين بكل قوّته. بطحه أرضا وبدأ يضربه. يريد أن يضربه ولا يعرف كيف. يحاول أن يعضّه فيفشل وتخذله أسنانه. جرَّ شعرَه. كان يجرُّه بكلتا يديه. يسحبه بقوة ويخضُّ رأسه ويخبطه بالأرض وهو يعوي مثل ذئب جريح والدم يتدفق في عروقه هائجا مجنونا. ثم يرفع يده اليمنى إلى أعلى ويلطمه بها على وجهه، ويصيح:

"مسيحيٌّ أيها المرتدّ! تسجّلتَ بالجامعة ولم تلتحق بها، فقلنا شابٌّ له نظرة مختلفة للحياة والمستقبل، وتركناك. انقطعتَ عن المسجد، فقلنا غِرٌّ وسيعود إلى صوابه وأهملناك. أقمتَ في هذا الجُحر الموبوء، فقلنا دعه ينفتح عِلى العالم ولم نكن نطاردك بالمراقبة والسؤال. والنتيجة؟ مسيحي مرّة واحدة! هكذا أيها الوغد. ماذا سيقول النّاس عنّي؟ جزّار ومعشّي باللّفت! لو كنتَ شاذًا يعبث بمؤخرتك الزُّناة لدعونا لك بالستر. لو شكّكت في وجود الخالق لقلنا حتى نبي الله إبراهيم شكّ فسأل ثم اطمأنّ قلبه، ولدعونا لك بالهداية. لكن، مسيحيٌّ

أيها الساقط! نصرانيٌّ وكأن ربَّ العزّة لم يختر لهذه الأمة ومنها نبيَّها الخاتم!؟".

الكثيرون لم يفهموا تلك الليلة ماذا حصل بالضبط.

حملت سيارة الإسعاف الأستاذ شهاب الدين إلى المستشفى في حالة انهيار عصبي حاد. قمر الدين قضى الليلة في السيبر، فلم يكن لديه وجهٌ يقابل به أمّه بعد عَمْلته السوداء. أما المحجوب ديدي فقد غاب عن السيبركافي لأزيد من شهر. هل كان خائفا من قمر الدين أم من رحّال العْوينة؟ لكنه حين عاد ذات عشية لم يُكلّم أحدًا. ولم يُكلّمه أحد.

25

لم يصدّق رحّال عينيه في البداية. جاء طلبُ الصداقة غُفْلا من أيّ رسالة مرفقة. لكنه طلبُ صداقة. ومِمَّنْ؟ من سموّ الأمير فارس شخصيا. هل تصدّق ذلك يا رحّال؟ هل تصدّق عينيك؟ الأمير يطلب صداقة اللبؤة. هل كان بمقدور رحّال أن يرفض أو يتلكّأ؟ أن يشرح لصاحب السموّ أنّ هيام ليست هيام؟ الحكاية أكثر تعقيدا ممّا يتصوّر الأمير. لكن رحّال سيقبل الطلب. لا يملك إلّا أن يقبل. قبِلَ الطلبَ الأميري والأرض تدور به. قبِلَ الطلب وهو يفكّر في الجرذ العميد وفي ثعالب الانترنت، في ثعابينها وعقاربها، وفي كلّ الذين يحصون بها الأنفاس الإلكترونية على العالمين. ماذا سيقول لهم وكيف يجيبهم إذا ما ضبطوه يتلاعبُ الآن؟ وبِمَنْ؟ بأمير. تتلاعب

بأمير أيها الجرذ الحقير! أيها الجرذ الذي يتنكّر في ذيل سنجاب. إنه هو. سموّ الأمير فارس تمامًا كما نراه في التليفزيون. كان يرتدي بذلة سموكينغ أميرية سوداء، ويبتسم. كما يفعل في نشرات الأخبار، في الأعياد الوطنية، في التدشينات، وفي الصور.

في اليوم الموالي، دخل رحّال يتفقّد البريد فصُعِق. كانت رسالةً من الأمير شخصيًّا. رسالة بالغة التهذيب يؤكّد فيها سموُّه إعجابَه ببروفايل الآنسة هيام، واعتزازه بذوقها الأدبي الرفيع، قبل أن يسألها: هل كل المراكشيات هكذا؟ وختم رسالته بابتسامة. ابتسامة فيسبوكية من النوع المتداول عادة في مثل هذه المراسلات لكن بلمْسَة أميرية. حتى على الفيسبوك لا يبتسم الأمراء كما نفعل نحن. لهم ابتسامة من حرير. ابتسامة مخملية تستدعي تلقّيا خاصا. لكن لو تفطّن الأمير مثلا إلى أنّ من يتلقّى رسالته الآن ويطّلع على محادثته البريئة مع هيام هو رحّال الغْوينة ابن حليمة البجعة وعبد السلام السرعوف، فماذا سيكون مصيرك أيها الوغد؟

هل كل المراكشيات هكذا؟

الأمير من الرباط. وُلد بالرباط ويعيش هناك، في العاصمة، ولعلّهُ لا يعرف المراكشيات جيّدا. أمّا أنا، فلا أعرف لا المراكشيات ولا غير المراكشيات، فبِمَ أجيبه الآن يا هيام؟

هل ستتكرّر حكاية السندريلا؟

رحّال المُرتبك لم يعرف بِمَ يجيب. ترك قمر الدين يهتمّ بالمحل وذهب إلى مقهى ميلانو. طلب قهوة سوداء وجلس. وضعت أسماء القهوة أمامه دون حماس. حتى حين سألها عن صحّتها، كما يفعل معها عمه عيّاد، لم تجبه. سمعته وحرّكت رأسها كما لو ستقول شيئا دون أن تنبس بكلمة. جرجَرَتْ قدميها بعيدا ووقفت تُحدِّق في الخارج. كأنها غير البنت التي يعرف. كانت مرهقة ذابلة تتحرّك بين الطاولات بهِمّة فاترة. العربي صاحبُ المقهى جالسٌ بالباب هو الآخر. لأول مرّة تمعّن فيه رحّال فلمح شبَهًا من زوجة الأب القاسية التي في الحكاية، لكن العصافير والفئران الطيبة التي ساعدت سندريلا بأعمال البيت لا وجود لها هنا في مقهى ميلانو. تقف أسماء على قدم واحدة منذ السابعة صباحا. تشتغل حتى العاشرة ليلا. لا عصافير هناك يا أسماء. لا ساحرة، ولا حذاء. والأمير يسأل هل كلّ المراكشيات مثلك، فلا أعرف كيف أجيب؟

لم ينم رحّال تلك الليلة وهو يفكّر بمَ يُجيب الأمير؟

"سموّ الأمير، أسعدني ميساجُكم السامي. وأعتبر وجود سموّكم إلى جانبنا على الفيسبوك دليلا على تواضعكم. لذا تقبّلوا يا صاحب السموّ شكري الخالص على التفاتتكم الكريمة وكذا محبّة سكان مراكش وكل فيسبوكيّي العاصمة السياحية لمملكتكم السعيدة. وتأكّدوا من أن كل المراكشيات والمراكشيين مثلي يلهجون بالشكر لكم على

ما تبذلونه من مجهودات من أجل رقيّ هذه الأمة وازدهارها. دمتم ذُخرا لنا، والسلام عليكم ورحمة اللـه".

أرسل جوابه وتنفّس الصعداء. كَمَنْ أزاح عن صدره صخرة عظيمة. والآن يا صديقي، عليك أن تعيد النظر في كل هذا الفيلم. هيام قنبلة موقوتة ستنفجر في وجهك أيها المتهوّر. يجب أن تتخلّص منها فورا. اغْتَلها. اعترِضْ سبيلها وادهسها بسيارة حسنية، أو اجعلها تنتحر. لكن، يجب ألا تبقى هناك. هذا ليس عماد القطيفة يا رحّال. هذا سموّ الأمير فارس. هل تفهم ماذا يعني ذلك؟ سموّ الأمير فارس. كان لا يزال يقلِّب الأمر على أوجُهِه المختلفة حينما سكنَتْ بريدَهُ جمرةٌ أخرى أكثر استعارًا من سابقتها:

"ماذا لو تركتِ لي هاتفكِ الأخت هيام؟ سأزور مراكش قريبا وقد أتّصل بك "☺... مع ابتسامة أميرية طبعًا.

لعنة اللـه عليك أيها السنجاب. ألم أقل لك تخلّص منها؟ لِمَ لَمْ تفعل؟ الآن فكّها يا من وحّلتيها؟ ماذا ستبعث له الآن؟ هاتفك المحمول؟ هاتف قنفذتك؟ بم ستجيبُه باللـه عليك؟ هذا أمير أيها الواطئ. فهل ستمزح الآن مع الأمراء؟ من أنت أيها الجرذ لتُلاعِبَ الأمراء وتَمْكُرَ بهم؟

أغلق رحّال الفيسبوك وغادر. وفي اليوم الموالي، لم يأت إلى السيبر. ليس لأنه لا يريد، ولكن لأنّه لم يقدر. حرارته ارتفعت بشكل

مفاجئ وسكنت عظامَه الحُمّى. جاءه قمر الدين إلى الشقة واستلم المفتاح وعاد ليفتح المحل. ظل رحّال طريح الفراش ثلاثة أيام كاملة. في اليوم الرابع أرغمَتْه حسنية على الذهاب إلى العمل.

"لا يجب أن تستسلم للمرض. ثم إن الحمّى غادرَتْك، فلا تبالغ يا رحّال"، قالت حسنية.

كان متردّدا لولا أن علامة استفهام كبيرة وصلته عبر الهاتف. إنه الضابط حكيم. علامة استفهام جافة من دون تعليق مُرفَق. حاول رحّال تأويلها: أينك؟ ماذا بك؟ لم اختفيت؟ بل لعلّها كل هذه الأسئلة. عاد رحّال إلى المحل. تحامل على نفسه وعاد. استعاد مقعده في صدر المجلس. فتح هوت ماروك. وهناك تلقّى الخبر على الصفحة الأولى: اعتقال شاب مغربي يعمل موظفا في بنك بمدينة القنيطرة بتهمة انتحال شخصية الأمير فارس. المحكمة اعتبرت ما أقدم عليه الموظف الشاب "أعمالا دنيئة" والدفاع يرى بأن التهم المنسوبة إلى موكّله غير قانونية، ما دام لا يوجد هناك نص قانوني يؤطّر استعمال الانترنت في المغرب. أما نقابة الصحافة فأصدرت بلاغا تُنبّه فيه إلى أن موقع "الفيسبوك" لا يجب أن يُحمَل على محمل الجدّ. فيما تضامنَتْ أكثر من جمعية حقوقية وتنظيم شبابي مع الموظف الشاب. رحّال لم يكن لديه الوقت لا لِيُدين الشاب ولا ليلتمس له العذر. دخل إلى الفيسبوك. ولج عرين هيام. ذهب إلى صندوق

الرسائل. كانت الرسالة لا تزال هناك: "ماذا لو تركتِ لي هاتفكِ الأخت هيام؟ سأزور مراكش قريبا وقد أتّصل بك "☺. حاول أن يعبُرَ من الرسالة إلى بروفايل الأمير، لكنّه لم يكن هناك. اختفى الأمير. اختفت الصورة الأميرية بالسموكينغ. اختفت الابتسامة. ياه، لولا أنّني مشغول، والضابط حكيم ينتظر مني عملا جديدا، لسافرتُ إلى القنيطرة لأتظاهر أمام المحكمة ضدّك أيّها الأرعن. ضدّك وضدّ نقابة الصحافة والجمعيات الحقوقية والتنظيمات الشبابية التي تتضامن معك، وضدّ المحامي الأهبل الذي يرافع عنك. فقعْتَ مرّارتي أيها الوغد، ومع ذلك يتضامنون معك. يا سيدي، الأمير أمير، فوق مقامي ومقامك، وقد يغفر لك حماقتك. لكن، ما ذنبي أنا؟ كدت تقتلني لعنة اللـه عليك.

26

واللـه فيكُما الخير يا "نجمة مراكش".

فدوى وسميرة أصرّتا على تنظيم زيارة للأستاذ شهاب الدين السيوطي في المصحة. رافقهما سليم وأخته. واعتذر رحّال. لكن ما لم تتوقَّعْه البنتان هو دخول ياكابو على الخطّ. النيجيري ذو العنق الطويل، الأشبه بعنق زرافة، ألحّ على مرافقة الوفد لعيادة الأستاذ السيوطي. بدا إلحاحُه غريبا في البداية خصوصا وأن تشكيلة الوفد تتألّف أساسا من قدماء تلاميذ وتلميذات الأستاذ السيوطي. لم يكن ممكنا الاعتذار لياكابو. ثم هي عيادة خفيفة لمريض ستأخذ منهم خمس دقائق يطمئنّون خلالها على صحة الأستاذ ويعودون.

لكن مع ياكابو، استمرّت الزيارة ساعتين بالتمام والكمال. ولم تغادر الكتيبة المصحة إلا أن بعد أن أجهزت على كل العصائر التي راكمها الزوار جنب سرير الأستاذ شهاب الدين خلال اليومين اللذين قضاهما هناك.

بدأ الأمر بملاحظة عابرة لفدوى أكّدت فيها أنها غير مصدّقة حتى الآن لما سمعت عن قمر الدين، خصوصا أن المصدر هو المحجوب ديدي.

"كلّ مَنْ في السيبر، يا أستاذ، يعرف أن المحجوب يحقد على قمر الدين رغم أن ابنك لا يتردّد في تقديم يد العون له كلما اعترضه مطبٌّ إلكتروني. لكن قلب المحجوب ممتلئ بالحقد. يكره كل من في السيبر. ويحقد بشكل خاص على قمر الدين. لهذا أخشى أن تكون وشايته كاذبة ولا أساس لها من الصحة".

هنا، تدخّل ياكابو. فرنسِيتُه مُرتبكة لكن أفكاره واضحة وحجّته أقامت الأستاذ السيوطي من سريره.

"لا، مسيو السيوطي.. هناك أساسٌ من الصحة لما قاله المحجوب. فابنك قمر الدين مفتونٌ بالهجرة، ويريد مغادرة البلاد بأيِّ وسيلة. واعتقَدَ لسذاجته أن ادّعاء المسيحية قد يشفع له ويتيح له فرصا أفضل للهجرة إلى أوروبا. مرارا كان يسألني عن هذا الموضوع. لهذا من المحتمل أنّه تواصل فعلا تحت اسمٍ مسيحيٍّ مستعار مع

بعض مَنْ تصوّر أن بإمكانهم مساعدتُهُ على تحقيق هدفه. مؤخّرا بدأ يتحدث عن جورجيا. لا أعرف من أوحى له بهذه الوجهة. ربما لأنّ عددا من أقباط مصر بدأوا يهاجرون فعلا إلى هناك. لكن هذا لا يعني أن قمر الدين صار مسيحيا. أبدا.. هذا غير ممكن.

أولا، لكي يتنصّر ابنك يا سيدي يجب تعميده. المسيح نفسه تمَّ تعميده. غطسه يحيى بن زكريا ثلاثًا في نهر الأردن. وأنا أعرف أن قمر الدين لم يغمس جسمه كاهن ولا رشَّه بالماء قسيس لا باسم الأب ولا باسم الابن ولا باسم الروح القدس. وقبل التعميد، تختار له الكنيسة أبوين مسيحيّين يوافقان على تبنّيه فيحمل اسمهما العائلي، على أن تختار له اسما شخصيّا جديدا فيما بعد. لم يحصل أيّ شيء من هذا مع قمر الدين. أنت والده الوحيد أمام اللـه والملائكة والقديسين والجامع والكنيسة وكلّ العالم. أما اسم عبد المسيح الذي حكى عنه المحجوب فمجرّد اسم مستعار من الأسماء التي نستعيرها جميعا على الشبكة. ابنك طائش يا سيدي، لكنه ليس مسيحيا. لكي يتنصّر يجب أن يمارس طقس الاعتراف. وابنك لم يعترف بشيء لا لكاهن ولا لغيره. لا اعتراف هناك. فقط وشاية كاذبة من المحجوب ديدي، ومن المؤسف أنّك صدّقتَه دون تمحيص. لكن لا تهتمّ يا أستاذ السيوطي، سنعود لزيارتك غدا أنا وفدوى وسميرة. وسيكون معنا قمر الدين. وستتعانقان أمامنا. غدا صباحا مسيو شهاب الدين".

كان الأستاذ السيوطي مطرقًا. غمامة كثيفة، كانت تحجب عنه العالم والناس، بدأت تنفرج من أمام عينيه. لم يعرف كيف يجيب على هذا الأفريكانو الناحل طويل العنق. تمنّى لو واتَتْه القدرة ليضمّه إلى صدره. ليعانقه هو أولا قبل أن يحضن ابنه في الغد. بدا السيوطي مشوّش البال. لكن سعيدا في قرارة نفسه. سعادتُه مرتبكةٌ لا يعرف كيف يُعبِّر عنها. فقط كان كلّ مرّة يفتح كرتونة عصير ويصبّ لهم:

- تفضّلوا يا أبنائي؟ اشربوا العصير.

27

حينما يرنّ هاتف اليزيد تتوقّف الحركة داخل السيبر. يصير الجميع مشدودين إلى حكاياته. عمومًا، الرّجل يأخذ راحته في الحديث وكأنه في غرفة نومه. يتحدّث في الهاتف بصوت مرتفع. أحيانا يصرخ. ويكذب كثيرا. يكذب مثلما يتنفّس.

"واصاحبي راني دابا ف الرباط. والله إيلا ف الرباط. ياك البارح قلت لك غادي للرباط. عندي واحد الغرض، نقضيه ونمشي غدا لكازا، ونهار السبت إن شاء الله نرجع لمراكش، وهاني عندك. صافي، صلّي ع النبي".

المكالمة في حدّ ذاتها مُتعة. استراحة طريفة لم تعُدْ تُضايِق زبناء السيبر. لكن اللحظة الأقوى هي تعليق اليزيد بعد إقفال الخطّ. دائما

لديه كلمة أخيرة يحتفظ بها للنهاية. شتيمةٌ يُداريها طوال المكالمة ولا يُطلقها إلّا في الختام. دائما يشتم ببذاءة. طبعًا بعد إنهاء المكالمة. وحتى حين لا يشتم، يُفاجئ الرواد بقولٍ جازمٍ يُلغي كل ما كان يَعِدُ به مخاطبَهُ قبل قليل. ثم يعود إلى ركوب أمواجه الإلكترونية الزرقاء وهو يمارس نقله الحيّ المباشر لما يجري أمامه على الفيسبوك أو يعلّق على ما تمّ نشرُهُ من أخبار عاجلة على هوت ماروك.

أحيانًا حين يكون مزاجه رائقًا وهاتفه المحمول معبّأ، يُفاجئ عائلته السبرنيتية بمكالمات استعراضية عجيبة. يخفي رقمه لكيلا يظهر لدى مخاطَبه البعيد، ثم يركّبُ رقمًا غامضًا، أحيانًا هكذا كيفما اتفق. يفخّم صوته ويجهّز مخزونه من اللؤم وعدّته من الشتائم، ويشرع في تعكير صفو شخصٍ غريبِ الصدفةُ وحدَها وضعت رقمه في مرمى أصابع اليزيد. يُشغِّل أحيانا مكبّر الصوت فتنحبس أنفاس رواد السيبر وهم يسمعون ردود أفعال مرتبكة لشخص مذهول لا يعرف من أين سقط عليه هذا الرّدم. في أحايين أخرى، يتركهم اليزيد يتابعون فقط الدور الاستعراضي الخاص به داخل هذه الكوميديا المرتَجلة ويخمّنون تتمّة الحوار:

- آلو.

- ...

- النّاجي؟

- ...

- ماشي النّاجي هذا؟! علاش؟ شو اسمك أنت؟

- ...

- ما يمكنش تجاوب على سؤال بسؤال. آش هاذ قلّة الأدب؟ دابا قل لي: شو اسمك؟ عبد الكريم؟

- ...

- كيفاش ماشي عبد الكريم؟ آش كاتَقْرَب لك خديجة النّاجي؟

- ...

- إيوا... خديجة النّاجي عمتك. يعني عبد الكريم ولد عمتك.

- ...

- ورجل عمتك تعرفو؟ تعرف أنو كان كايبيع السوتيانات فالقريعة ديال درب السلطان؟ ما كانش بوه يكسب عشا ليلة. ما عرفت كيف دار حتى دبّر على محل فشارع أنفا وشرا الدار والطوموبيل؟

- ...

- سر يا الدّكالي يا العروبي يا الخانز... هاذ الشي كان وانت مازال ترضع اصبعك وزكّك ما تعرفش تمسحو من الخرا. سر وانت مضيّع عائلتك كلّها.

- ...

- كازاوي؟! شحال عند بوك من جدّ ف كازا؟

- ...

- آجي آلسي الكازاوي. أنت وداوي ولّا رجاوي؟

- ...

- وداوي؟! بوحمرون... عليها حمار.

- ...

- شكون اللي معاك؟ قلّب على شكون. إنما، قل لي: أنت ريّالي ولّا بارصاوي؟

- ...

- الرّيال؟! عرفتك لا علاقة لك بالكرة. ياللـه آ مول الرّيال. فخمس ثواني. اسم الظهير الأيسر ديال ريال مدريد... 1، 2، 3، 4، 5... ستوب. والو؟! سر.. سر آولدي، أنت الهضرة معك خسارة.

- ...

- ماشي شغلك شكون أنا. عندك الشرف اللي كانتصل بك..

- ...

- كاتخسّر الهضرة يا ولد القحبة... سر اللـه ينعل بوك آولد الحرام. سر اتّلاحّ اللـه يغبّر لأمك الشقف.

لم يكن رحّال يفهم كيف يلفّق صاحبه كلّ هذه المعلومات ولا من أين يأتي بها. وما يشغله أكثر، هو أنّه لا يعرف أين تنتهي الحقيقة لكي يبدأ التّلفيق. ثمّ، هل اليزيد يعرفُهم أصلا أم أنّ المسرحيةَ محضُ مرتَجَلةٍ عمياء؟ والغريب أنهم يصبرون عليه، ولا يقفلون الخطّ في وجهه. لكن بصراحة أيها السنجاب، هل كنتَ لِتُنهي المكالمة لو كنتَ بَدَلهم؟ كان رحّال يخنس مبهوتا حين يؤدّي اليزيد دوره الاستعراضي. أمّا روّاد "أشبال الأطلس" فقد فهموا أن صاحبهم حالةٌ ميؤوسٌ منها، لذا عوَّدُوا أنفسهم على حماقاته. اليزيد بدوره يمارس حريته دون أن يأبه لأحد.. فقط الأفريكانو الثلاثة لا يقبل بأيّ حال من الأحوال أن يحتكّوا به، أو يجلسوا إلى جانبه.

- لا آ سيدي، اعطيهم البوست ديالك، وخلّي بيني وبينهم شبر ديال التيساع. كا نقول لك ديما ساليغان ما يجلسوش حداي، يصرخ في وجه رحّال.

كلُّ الأفريكانو سينيغاليون في عُرْف اليزيد. ليس وحده على كل حال. فالمغاربة يعتبرون كل الأفارقة السود سينيغاليين إلى أن يَثْبُت العكس. ربما بسبب انتظام الرحلات الحَجِّية السنوية منذ قرون لمُريدي الطريقة التيجانية من مسلمي السينغال إلى زاويتهم

بفاس، اعتاد المغاربة على السينيغاليين أكثر من غيرهم من أفارقة جنوب الصحراء.

- المهم، ساليغان يعطيوني شبر ديال التيساع، كان اليزيد يصرخ وهو يُرغِي.

كلُّ مَن في السيبر يشعر بالحرج. لكنهم يتجاهلون الموقف. ياكابو يكظم غيظه ويترك لرحّال فرصة أن يتدبّر لهم حيّزًا آخر. في الغالب، يتطوّع قمر الدين ليترك لهم مكانه ويذهب هو لمجاورة اليزيد. البنتان تدعوان ياكابو إلى تجاوز الأمر، وتقنعانه بذلك. لكن رحّال ضبط ياكابو مرارًا ينظر شزرًا إلى اليزيد. نظرات النيجيري الطويل العنق نارية، تشتعل حنقا وضغينة.

إذا عثروا يوما على جثة اليزيد مضرّجة في دمائها في عرض شارع الداخلة فالمؤكّد أن ياكابو سيكون وراء الحادث. ما فيهاش. أما اليزيد فحتى بعد أن تُسوَّى الأمور ويأخذ الأفريكانو الثلاثة مكانهم بعيدا عنه لا يتوقّف عن البث. كأنّه يبرِّر. إنّما بفظاظته الفطرية، وهو يخاطب الجميع ولا أحد بصوته العالي وكأنه إمامٌ يخطب من فوق منبر، لكن بلا عصا يستند عليها، ودون أن يكون مُجبرًا على الوقوف:

- ما تفهمونيش غلط. راه ماشي عنصرية وماشي كِبْر.. حاشا معاذ اللـه. ولكن آ خويا الريحة ديال هاذ "بوجعران" ما كانقدرش

عليها. الصّنان ديالهم كايجيب ليّ الدّوخة. ماعندي ما ندير.

ثم يلتفت نحو قمر الدين وهو يبتسم بتظارف خبيث:

- آجي بعدا آ قمر الدين؟ آشنو اسم ذاك الشاعر اللي قال: لا تشتر العبد إلّا والعصا معه؟

"هذا كل ما تختزنه ذاكرتُكَ أيها الوغد من محفوظات الطفولة؟ اسمُه المتنبّي أيها الحقير. والمفروض أن تسألني أنا وليس قمر الدين"، يفكّر رحّال.

اليزيد لا يعرف أصلا أن رحّال مُجازٌ في الأدب العربي. لكن قصيدة المتنبّي الشهيرة لا تخفى على أحد. كل من مرَّ بالمدرسة العمومية سنوات السبعينيات والثمانينيات حتى منتصف التسعينيات يعرف القصيدة ويحفظ أبياتها الجارحة. وكلُّ التلاميذ المغاربة من ذوي البشرة السوداء اكتوَوْا بنار القصيدة ونكّل بهم رفاق القسم بِمُوجبها. وكأن وزارة التربية الوطنية كانت حريصة على أن تزرع في وجدان كل واحد من أبناء هذا البلد نصيبه من بذور العنصرية. سامحك اللـه يا أبا الطيّب. سامحك اللـه:

"ما يقبضُ الموتُ نَفْسًا من نُفوسِهُمُ / إلا وفي يدِهِ من نَتْنِها عودُ

العبدُ ليسَ لحُرٍّ صالحٍ بأخٍ / لَو أنه في ثيابِ الحُرِّ مولودُ

لا تشْتَرِ العبد إلا والعصا معهُ / إنَّ العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ"

لكن اليزيد لا يحفظ القصيدة، ولا يذكر منها غير شطر واحد. ثم إنّه ليس عنصريا، فبوجعران من عناصر الكون أيضا. مشكلته فقط مع الرائحة:

- لا أطيقها يا أخي. لا أتحمّلها. تصيبني بالغثيان.

ماذا؟إتصيبك بالغثيان؟! ومَن يقولها؟ مَلِك النظافة في السيبر. السيد بونظيف شخصيًّا. والروائح الكريهة التي تنبعث من قدميك المُتعرّقتين أيها الوغد حينما تُبيح لنفسك، وبكل صفاقة، خلع حذائك النَّتن لتَهْويتهما.. ألا تؤذيك؟ ألَمْ تنتَبِهْ إلى أنّ هناك من يغادر المكان فور خلعك للحذاء بسبب ما تُشيعه جواربك العفنة في السيبر من عطانة؟

لكن رحّال اعتاد أن يحتفظ بكل حواراته لنفسه. حينما يتعلّق الأمر باليزيد، يُردّد ما يفكّر فيه بينه وبين نفسه. هكذا في صمت. وفي الليل يُعيد الأمور إلى نصابها. يقوم من مجلسه لينتصب أمام ابن مولاي أحمد المَلْخة. يزيح الكومبيوتر من أمامه بضربة واحدة، فيتطاير الجهاز فوق الرؤوس، ويرتطم بالسقف قبل أن يتناثر مُفكّكًا على الأرض. يخطف فنجان القهوة من يده ليُهرِقها على رأسه قبل أن يسحب الوغد من ياقته وينهال عليه بسيل من اللكمات. كان يسدّدها إلى وجه غريمه وهو يزأر بعدما فقد السيطرة على قبضته التي صارت تتّجه بميكانيكية إلى هدفها دون أن تأبه للدم الذي

يفور ساخنا من فم اليزيد ومنخريه ورأسه. واليزيد يعوي مثل كلب جريح. والبنات يصرخن: فدوى وسميرة، أميليا وفلورا، وحتّى أسماء نادلة مقهى ميلانو التي لا يعرف رحّال متى التحقَتْ ببنات السيبر في الحلم. تنحشر وسطهن لتشرع هي الأخرى في اللطم والصراخ بصوت رخيم لا يليق باللبؤات. صراخ البنات، وصراخ اللبوة بالذات، يحتدُّ في اللحظة الحاسمة التي يهوي فيها اليزيد وسط السيبر جثة هامدة. هنا بالضبط يظهر ياكابو وهو ينقل عينيه بين جثة اليزيد ولطم البنات. لم تكن نظرتُه شزراء هذه المرة. بل نظرة خائفة مُلتبسة. نظرة المُريب الذي يكاد يقول خذوني. لكن الشرطة لا تأتي لتأخذه لا هو ولا رحّال. أو ربما جاءت الشرطة واعتقلته، لكن رحّال لم يكن هناك. حينها يكون رحّال قد استيقظ. ينسحب من فراشه بهدوء لكيلا يزعج القنفذة. يذهب إلى الحمّام. يغسل يديه. يفركهما بالليفة والصابون والماء الساخن ليُنَظِّفهما من دم اليزيد - من دم الحلم - لكي ينام بعدها بشكل أفضل. يتنفّس في نومه بعمق ولا يتقلّب كثيرا في الفراش.

في الصباح، بعد عودته إلى السيبر، يصير أقلّ اكتراثا بحماقات اليزيد. يبدأ العدَّ من الصفر. آلو. آلووو. مكالمة استعراضية جديدة. شتيمة بذيئة بعد إقفال الخط. تعليق ساخر على وافد جديد. تحرّشٌ سخيف بفدوى. ثم النقل المباشر لما يجري ويدور على الشاشة

أمامه. لكن رحّال يكون قد انفصل. فولد الشعب ليس متفرّغا لمتابعة حماقات اليزيد. وحذامِ نطقت قبل قليل، وعليك يا رحّال أن تُصدِّقها فورا.

28

كان الحلم في منتصفه حين رنّ الهاتف. يبدو أنه يرنُّ منذ عشر دقائق. لكنّ رحّال المنهمك في تسديد اللكمات إلى وجه اليزيد لم يسمعه. وقبل أن تدخل اللبؤة، أو على الأقل قبل أن تشرع في الصراخ، انتبه رحّال إلى رنين هاتفه المحمول..

- آلو، مساء الخير..

- صباح الخير رحّال، ادخُل حالًا إلى هوت ماروك. فورًا. اقرأ توجيه حذامِ وتصرّف..

- لكنّني في البيت الآن، ولا يمكنني أن أفتح السيبر في هذا الوقت المتأخّر من الليل.

- ماذا؟! لا يمكنك؟!

- آسف فعلا السي حكيم..

- لكن ما علاقتي أنا بالسيبر؟ لهلا يجعل بوك تفتحو لا في الليل ولا في النهار. هذا ليس شأني. أريدك فقط أن تدخل إلى هوت ماروك لتشتغل. ألا تملك جهاز كومبيوتر في البيت؟! أليس عندك خطّ أنترنت؟!

- مع الأسف السي حكيم. لا.. ليس..

- وماذا تفعل براتبك أيها الأهبل إذا لم تشتر منه حتى عُدّة الشغل؟ فعلا لا أفهم!

- ف الحقيقة السي حكيم..

- لا تشرح لي شيئا. لا أريد أن أفهم.. عليك أن تتصرّف في أقل من ساعة. تدخل إلى هوت ماروك وتوقِّع أكثر من تعليق. ولد الشعب، أبو قتادة، والآخرون، يجب أن يُعلّقوا جميعا. خطّ السّير رسمَتْهُ لكم حذامِ. وعليكم أن توجِّهوا معها مسار التعليقات هذه الليلة ليجد قُرّاء الموقع الطريق مُضاءة مُعبَّدَة حين يستيقظون. وعموما إذا لم تنفِّذ في أقل من ساعة، لن أضمن لك ردَّ فعل العميد العيادي غدا.

- إنما، السي حكيم؟.. ماذا لو..

- قلت لك أقفل الخط. أمامك ساعة لتتصرّف أيها الـ...

كانت القنفذة منكمشةً على نفسها تغُطّ في نوم عميق. شعر حيال شخيرها السعيد بالحنق بعد هذه المكالمة السمِجة التي تطالبه بالذهاب إلى السيبر في هذا الوقت. تبًّا، إنها الثالثة والنصف صباحا. حتى الفجر لا يزال بعيدا. فكّرَ في كتابة كلمة لطَمْأنة حسنية، لكنّه تراجع عن الفكرة. سأعود قبل أن تستيقظ، قال في نفسه، سأنجز مهمتي خلال دقائق وأعود قبل أن تتقلّب القنفذة على الجانب الآخر.

الوقت ليلٌ، وعمّال النظافة لم يحُلُّوا بَعْدُ بشارع الداخلة. شاحنتهم المتهالكة لا تُشرِّف إلا بعد أذان الفجر. وعموما، بطنُها الحديدي الصَّدِئ أضيق من أن يسَعَ كل هذه الأزبال. أرتال النفايات متراكمة في كل مكان. البائعون المتجوّلون، الذين صاروا يحتلّون رصيف الشارع مباشرة بعد صلاة العصر ويواصلون إنزالهم العشوائي لما بعد منتصف الليل، يتركون نفاياتهم في عين المكان: كرتون وأكياس بلاستيكية ومُخلَّفات من كلّ الأصناف. حتى مَنْ سيفكّر منهم في جمع نفاياته لن يجد حيّزا يركنها فيه. فحاويات البلدية المبثوثة على امتداد الشارع سرعان ما تمتلئ وتفيض، ممّا جعل سكان العمارات الذين تأخّروا في إخراج قمامتهم المنزلية يراكمونها قرب الحاويات، ثمّ على الرصيف، هكذا كيفما اتّفق. روائح كريهة تنبعث من القاذورات. عليك يا رحّال أن ترشّ من الآن مُبيد الحشرات في جنبات المحل لكي تأمن غارات الذباب والناموس الصباحية.

خارج النّفايات، وباستثناء سيارة وحيدة مَرَقَت بشكل خاطف، بدا الشارع موحِشًا تمامًا، مظلمًا وفارغًا. قلبُ السنجاب يخفق بشدّة. قلبك سيغادر مَكْمَنه بين ضلوعك أيها الرِّعديد. بدأ رحّال يهرول باتجاه السيبر حين لمح ثلاثة أشباح تختال وسط ظلمة الشارع. باسم اللـه الرحمان الرحيم. قل أعوذ برب الفلق. من شرِّ ما خلق. أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم.

إنما هل هُم إنس من ماء وطين، أم لعلهم من شياطين الجان هؤلاء الأشباح الذين يهُمّون باعتراض سبيلك أيها السنجاب؟ لكن الأطياف السوداء تبدو أليفة مع ذلك. بل وأليفة جدا. إنها أميليا وفلورا يا رحّال، ومعهما فتاة ثالثة أطول قليلا، أفريكانو هي الأخرى. هرول رحّال باتجاه البنات. كأنه يستجير بهنَّ من ظلمة الشارع الحالكة. أميليا، أميليا.. انتبهت الفتيات إلى السنجاب يركض باتجاههن. تقدمت أميليا وفلورا لملاقاته، فيما جفلت الثالثة. تراجعت مذعورة والتصقت بإحدى سَوَاري مقهى ميلانو. يبدو أنّك أفزَعْتَها أيها السنجاب.

كانت أميليا تترنّح كأنّها سكرانة. البنتان معًا سكرانتان يا رحّال. ومتبرّجتان بشكل فادح. ياه، كم هما مليحتان هاتان المعزاتان. كيف لم تنتبه لجمالهما قبل اليوم؟ يا سبحان اللـه، ها قد أبصرتَ في الظلمة ما لم يُبدِهِ لك ضوءُ النهار.

تنورة أميليا قصيرة جدا، وثديا فلورا العظيمان يكادان يندلقان

من فُرْجَة فستانها السّواريه القصير المفتوح الصدر. حتى صديقَتُهما الناحلة الطويلة لم يُفلِتْها رادار السنجاب. كانت ترتدي سروالا أبيض يعصر مؤخرتها الضيقة وقميصا أحمر يضغط جِذعها ويُبرز نهديها الصغيرين. وشعرها الحنائي الطويل منسدل على كتفيها. كان أطول من شعر أميليا وفلورا.

آنست الفتاتان رحّال المرتبك بضحكات متهتّكة وتعليقات تبادَلَتاها بلهجتهما المحلية إلى أن فتح المحل وولجه وأغلق عليه الباب من الداخل. ثم انصرفتا تتمايلان باتجاه الغزال الأسود النّافر. أما رحّال فأشعل كل المصابيح بما فيها ضوء المرحاض. هكذا استرجع إحساسه بالألفة داخل السيبر الفارغ. وما إن بدأ الضوء يثرثر في جنبات المحل حتى استعاد توازنه. أشعل الكومبيوتر، شغّل الانترنت، ودخل مباشرة إلى هوت ماروك. حيَّ على البثّ. أينكِ يا حذامِ أينك؟ فقد جئتُكِ مُؤمِنا مُصدِّقا لما بين يديكِ من أخبار.

29

انفراد..

(سرّي جدًّا)..

كان السكوب يتصدّر الصفحة الرئيسية للموقع الإخباري: اجتماعات سرية لنخبة من أبرز سياسيي البلد ووجوهه الوطنية بهدف تأسيس حزب جديد سيغيِّرُ ملامح المشهد السياسي المغربي. هوت ماروك تنفرد بالكشف عن أسماء المؤسّسين.

وجاء الخبر طويلا هذه المرة، غنيا بالتفاصيل.

فحسب مصادر موثوقة، ظلّت هذه المجموعة من كبار السياسيين والنقابيين والشخصيات الوطنية المرموقة تجتمع بشكل سرّي لمدة ستة أشهر بوتيرة نصف شهرية من أجل تحديد التوجّهات الكبرى

لإطار سياسي جديد سيشكّل إضافة نوعية للمشهد الحزبي في بلادنا وسيُخرِج البلد من حالة الركود السياسي التي يعيشها.

الخبر قوي مفاجئ. لكن اللائحة أخرست رحّال وأفقدَتْهُ القدرة على التعليق. مَن كان يتصوّر أن الإطار الأمني الرفيع المتقاعد موحى الصنهاجي سيضع يده في يد اثنين من عُتاة اليسار اللّذين كانا محكومَيْن بالمؤبّد قبل أن يشملهما العفو الملكي مع بداية حكم الملك الشاب: سعيد البورقادي وكمال العوفي؟ وزيران سابقان اعتزلا السياسة منذ أيام الحسن الثاني وتفرّغا للمال والأعمال يعودان من جديد ليتصدَّرا لائحة هوت ماروك. المناضل الأمازيغي إيدير نايت بيهي مدير مركز "تافوكت" للثقافة الأمازيغية. سلّام ولد خديج القيادي السابق في جبهة البوليساريو الذي عاد إلى أرض الوطن أواسط التسعينيات تلبية لنداء الملك الراحل: "الوطن غفور رحيم". ماذا؟ الفقيه العلّامة الشيخ أبو أيوب المنصوري؟ ماذا تفعل بربّك أيها الشيخ الجليل جنبًا إلى جنب مع عمر النّوري المدافع الشرس عن حقوق المثليّين؟ هناك أيضا المطربة الشهيرة سليمة أحمد. لا أتصوّر أنّها كانت تراعي حرمة مقامك الجليل يا سيدي الشيخ خلال الاجتماعات هي المشهورة بساقيها المرمريتين وتنانيرها القصيرة وتغنُّجِها في الكلام. نجم ألعاب القوى الأسبق الهادي العميري يضيء اللائحة هو الآخر. مرحى مرحى.

لكن صنبور المفاجآت يرفض أن يُغلق على ما يبدو. إليكم هذه:

اسم فاطمة الرعوعي، القيادية الاشتراكية المستقيلة من حزبها قبل ستة أشهر تقريبا والتي أثارت استقالتُها الكثير من اللغط والتأويلات في الصحافة الوطنية، كان واسطةَ عِقد اللائحة. ماذا تفعلين هنا أيتها الرفيقة إلى جانب تاجر الانتخابات المحترف حمّاد الزّوكي والإقطاعي اليميني المُتعفّن كمال عَطّونة؟ هل قلتُ: اليميني المُتعفّن؟ لكن جريدتكم أيتها الرفيقة العزيزة هي التي عوَّدَتنا على استعمال هذه الألقاب كلما تعلّق الأمر بعطّونة وأشباهه.

ياه يا رحّال. يبدو أنّك تأخّرت. تعليقات رفاقك مُحكَمة يا صديقي وكلها تعزف على الوتر ذاته. الترحيب بالرقم الجديد والتهليل له. اقرأ ما كتبَتْه غيثة من الراشيدية. تعليق الصحراوي. مداخلة بنت الشمال. أما غريمُك الغاضب أبو شرّ الغيفاري فقد تخلّى عن عربداته النضالية وغضباته المُضَرية واعتمر قبّعة الحكماء هذه المرة:

"قرّاء هوت ماروك يعرفون جميعا موقفي من أحزاب هذا البلد. فما أنا إلا واحد من شبيبة المغرب المُحبَطة التي كفرت بالسياسة والسياسيين وهجرت بشكل جماعي الأحزاب ومقرّاتها، وصار العزوف قرارَها النهائي الثابت أمام كل الاستحقاقات الانتخابية الفاقدة لأية مصداقية. لذا لا أملك اليوم إلا أن أصفّق لأيّ مبادرة تعِدُنا ببعض الأمل وتحاول إخراج المشهد السياسي المغربي من حالة الشلل والجمود التي يتخبّط فيها.

لقد فقدتُ الثقة في الاشتراكيين بعدما انقلبوا على مبادئهم حين تحمّلوا المسؤولية في حكومة التلاعُب، عفوًا التناوُب، وصاروا أكثر توحّشا من أعتى الليبراليين وهم يُشرِفون بحماس منقطع النظير على بيع ممتلكات الشعب وتفويت مؤسساته الوطنية للأجانب والمحظوظين. لقد طبخوا رؤوسنا أيام النضال بشعارات تُبَشِّر بالتأميم وتذمُّ الخوصصة وتُحذِّر الجماهير من المؤسسات الدولية ومن بورجوازيتنا "اللاوطنية" ومن الليبرالية المتوحشة. لكن ما إن وجدوا أنفسهم يحكمون إلى جانب الحسن الثاني عام 1998، حتى تحوّلوا إلى تلاميذ نجباء لصندوق النقد الدولي وكانوا وراء أكبر عملية تفويت لمؤسسات القطاع العام شهدها تاريخ المغرب المعاصر.

فقدتُ الثقة في الشيوعيين بعدما تابوا إلى الله جميعا وصار الحجّ إلى بيت الله شرطًا أساسيًّا للحصول على منصب الأمين العام لديهم، حتى أنّ لقب الحاج في لجنتهم المركزية صار أكثر تداولًا من لقب الرفيق. بل سمعت أنهم طالبوا بحقيبة الأوقاف والشؤون الإسلامية خلال مفاوضات تشكيل الحكومة الحالية.

وطبعا آخر من يمكِن المُراهنة عليهم هم الإسلاميون الذين تُحدِّثهم عن التنمية ورهاناتها فيُحدِّثونك عن الجنة ونعيمها، وتسألهم عن الفساد والاستبداد فيذكّرونك بجهنّم وبئس المِهَاد، وتجادلهم حول الديمقراطية فيأمرونك بطاعة أولي الأمر. وما إن تختلف معهم سياسيا حول فكرة أو موقف، حتى يحشروك في زمرة المغضوب

عليهم والضّالين من العلمانيين الملحدين ويُؤلِّبوا عليك الغوغاء والدهماء وعامة العامّة، وقد يتطوّع أحد شيوخهم فيبادر إلى تكفيرك وإهدار دمك إذا اقتضت حساباتهم السياسية ذلك. حتى الديمقراطية ليست في مِلّتِهم أكثر من شكليات يتعاملون معها ببراغماتية، ومجرّد مطيّة يركبونها لتوصلهم إلى السلطة. وما إن تستتبّ لهم الأمور حتى يُشهروا في وجه خصومهم وحلفائهم ورقة القُرب من اللـه والحكم بأمره والتقيُّد بشريعته، ويرفعوا شعارهم الخالد: "لا انتخاب لا دستور، قال اللـه قال الرسول".

لاحظوا أنني تحدثت عن الإسلاميين والاشتراكيين والشيوعيين ولم أتحدّث عن الأحزاب المخزنية التي خرجت من رحم الإدارة المغربية أيام الحسن الثاني، فهذه الأحزاب انتهَتْ صلاحيتُها من زمان ولم يعد أحد يرجو منها خيرًا ولا شرًّا. وإلّا، فماذا تتوقّع من أحزاب لم تتّخذ طوال مسيرتها أيّ قرار سياسي خارج التعليمات والإملاءات؟ أحزاب ظلت دائما تنتظر الإشارات من أعلى. وحتى حين كان قياديوها يتهارَشُون المناصبَ والمسؤوليات، ما فتِئوا يلجأون مثل دجاجات مغلوبة على أمرها إلى خمِّ الديك: مكتب وزير داخلية الحسن الثاني ليشتكوا لديه ويختصموا، ليتظلّموا ويذرفوا الدموع قبل أن يفصل الصدر الأعظم بينهم حسب مزاجه وهواه، خارج القواعد التنظيمية والمقرّرات القانونية التي كانوا يصادقون عليها في مؤتمراتهم الشّكلية.

في ظل وضع حزبي بهذا البؤس، لا أملك صراحةً إلا أن أبتهج للرقم الجديد، فَلْنمنحه الفرصة ليقدِّمَ أوراق اعتماده للمغاربة ويقترح عليهم مشروعه ورؤيته. قد نتّفق معه وقد نختلف. وأعدكم بأنني سأكون أول من سينتقد هذا الحزب على صفحات هوت ماروك إذا ما اصطفَّ إلى جانب الأحزاب الأخرى رقمًا تافهًا بين الأرقام. لكن، لِنُعطه فرصته أولًا. وَلْنعترف لهذه النخبة التي بادَرَتْ إلى تأسيس هذا الحزب بالفضل. فهي على الأقل حاولت أن ترمي حجرا في بركتنا السياسية الآسنة".

ياه يا أبا شرّ.. مداخلتُك جامعة مانعة. ولا أملك إلا أن أحيّيك يا رفيقي. بكل روح رياضية أرفع لك قبعتي. فقد قلتَ كل شيء، ولم تترك لي ما أضيفه. لكن، لماذا عليَّ أن أضيف؟ سأقوم بتكرير ما جاء في تعليقك. سأعيد عجْنَه بطريقتي. بِلُغة ولد الشعب القريبة من الناس وشقلباته المُحبَّبة إلى نفوسهم. سأجعل أبا قتادة يُمكِّن للوافد الجديد باستشهادات من الكتاب الحكيم وأحاديث النبيّ الأمين. كيف لا وهو الحزب الوحيد الذي أقنع الشيخ العارف بالله أبا أيوب المنصوري بالخروج من عزلته الرّبّانية ليساهم من خلال هذا الحزب المبارك في إصلاح أحوال البلاد بما يُرضِي ربّ العباد. والأنداد الآخرون سيُردِّدون نفس الشيء. كلٌّ بِلُغَتِه، ومزاجه، وأسلوبه. فما تكرَّر تقرَّر. والتَّكرار يُعلِّم الحمار.

30

حين ولج ياكابو ورفيقتاه السيبر ساعة الظهيرة كان رحّال منهمكا في قراءة التعليقات، مبهورا بالمسار الذي أخذَتْه. لذا لم يتابع دخول الأفريكانو الثلاثة ولا انتبه لهم أصلًا. صار خبر الرقم الجديد فرصة سانحة لمحاكمة الأحزاب المغربية. الكل ابتلع الطعم. الإسلاميون لم يدّخروا جهدا في النيل من الاشتراكيين والشيوعيين والعلمانيين. والديمقراطيون التقدميون وقفوا بالمرصاد لتخرّصات الإسلاميين، وحشدوا الدلائل على فساد منهجهم وبؤس استغلالهم للدين، وفضحوا ما يتخبّطون فيه من أحاديةِ التفكير وازدواجيةِ المعايير. مُعلقو اليسار الجذري كانوا في الموعد، ووجّهوا ضربات موجعة، تحت الحزام أحيانًا، للأحزاب الاشتراكية التي تمخْزَنت وخانت المبادئ ودماء الشهداء.

عمومًا، هؤلاءِ هُم المغاربة. أنت تعرفهم جيّدا يا رحّال. يجب فقط أن ترسم لهم خطّ السير ليتبعوك جميعًا مثل جوقة عميان. أيّام رحلات عودتك الليلية من السيبر إلى حيّ المواسين، في تاكسيات جامع الفنا الجماعية المزدحمة، كانت الحوارات تتفاعل دوما على نفس المنوال. يكفي أن يطلق راكبٌ جملةً، هكذا جزافًا، لينخرط الكلُّ في تلحينها. إذا قال إنّ "الوقت اخيابت" وازدادَتْ سوءًا، تفنَّن باقي الرّكاب في تِبْيان فساد الأمكنة والأزمنة. وإذا قال: "بلادنا زينة والله يعزّ المغرب"، تسابق الركّاب إلى إحصاء محاسن البلد وتَعداد مفاخره.

ثرثرات التاكسي لم تكن تنتهي. ستة ركّاب يتزاحمون: راكبان في المقعد الأمامي جنب السائق وأربعة في الخلف. ومع ذلك يجدون الأريحية الكافية للبثبثة. ما إن يتوقّف التاكسي في الضوء الأحمر، ليُلفي نفسه في المقدّمة، حتى يتقدّم السائق قليلا ليربح مترًا أو مترين. هكذا يترك إشارة المرور خلفه. سائقو الصف الأول كلهم يتقدّمون. ولأن الله لم يخلق للمغاربة أعيُنًا في القفا، تتكفّل منبّهات السيارات التي في الخلف بلَفْت نظرهم إلى أنّ الضوء صار أخضر. أحيانا يبالغ بعض قليلي التربية في استعمال الكلاكسون. طوط طوط طوط. تثور ثائرة السائق ويبدأ في الاحتجاج: "مال هاذ الحيوانات؟ بغاوا يطيروا؟" وتتدخّل الجوقة: "آخويا الصبر قلّ عند الناس"، "الله يحفظ الكُلّ كا يجري. البشر صاروا مفتونين الله يحضّر السلامة"، "راك

ما تمشي غير فين مشّاك اللـه". كلّهم يعزفون على نفس الوتر. يردّدون نفس الكلام. الكل متضامن مع السائق. كل الرّكّاب يؤمّنُون. كلّهم، يا للمصادفة، حليمون صابرون قانتون غير مستعجلين.

وحين يجد السائق نفســه في الخلف، تمتدّ يده بشكل تلقائي إلى الكلاكسون لتنبيه الغافلين من سائقي الصف الأمامي، ولأن استجابة هؤلاء لا تكون فورية دائما، يحتجُّ السائق: "شفت هذا الحيوان نعس لنـــا هنا، ما بغاش يتحرّك". فتبدأ التعليقات: "واللـه إيلا نعس بحال إيــلا الطريق ديال بّـــاه"، "ما يعرفوا اللّي زربـــان ولا اللّي عندو غرض". الكلّ يســتنكر ويحتجّ وكأنّ تلــك الدقيقة التي كلّفهم إياها تلكُّؤ السائق أمامهم لا تُقَدَّر بزمن.

وها أنت ترى يا رحّال كيف أنَّ تعليقات الصباح على خبر الرقم الحزبي الجديد، لم تخرج عمّا دبّرَتْهُ حذامِ وعصابتُها ليلا. برافو ولد الشعب. برافو أبو قتادة.

رفع بصره عن الشاشة. فرك عينيه ثم مسح السيبر أمامه بنظرة رضِيّة. كان الأفريكانو قد احتلّوا موقعهم جنب عبد المسيح. تذكّر ترنُّح أميليا ليلة أمس. أحس أنّ ابتسامة عريضة بدأت تتّسع داخله دون أن ترتسم على وجهه. ياه يا أميليا. كم أنت مليحة أيتها المعزاة. لكن البنتين كانتا منهمكتين في الشات. وحده ياكابو التفت واختلس نظرة غامضة إلى رحّال. لم تكن نظرة نارية شزراء كتلك التي

يُصوِّبها نحو اليزيد من حين لآخر. ولا نظرة متوجّسة كتلك التي في الحلم. بل نظرة غائرة بلا قرار. فيها ضعفٌ وحيرة. وشيءٌ كالعطش. شيء أنثوي. تبًّا يا رحّال. كيف لم تنتَبِهْ لذلك أمس؟ إنّه هي. الغزال الأسود النّافر. الغزال النّاحل الطويل العنق. الغزال المُجفِل. إنّه هي. كيف فاتك الأمر أيها السنجاب؟

الكوميديا الحيوانية

1

كأنّ المدينة غير المدينة. كأنّ يدًا خفيّةً غيَّرت المحل والشارع والمعالم كلّها في غفلةٍ منك يا رحّال. تفتح الكومبيوتر وتَضيع لساعاتٍ وسط لُججه الزرقاء. من فيسبوك إلى هوت ماروك. من هوت ماروك إلى فيسبوك. وحين رفعتَ رأسك لتتفقّد العالم من حولك هذا الصباح وجدتَ المحلّ غير المحلّ. والشارع غير الشارع. والمدينة غير المدينة. كأنّك من أهل الكهف يا رحّال.. فكَمْ لبثتَ بهذا الكهف الافتراضي؟ اخرج من جُحرك أيها السنجاب وتفقّد العالم من حولك.

لكنّ الخروج لم يعد مُتاحا بالسَّلاسة القديمة. هل تذكُرُ الشارع الفسيح الذي كان هنا؟ أين الشارع يا رحّال؟ كأنّ أحدهم طواه

وخبّأه في جيبه ومضى. مَن سَحب الشارع من مكانه وأنبت هذا السوق؟ كأنّها ساحة جامع الفنا. الصخبُ سيّد المكان. لغطُ الباعة. صراخُ الأطفال. منبّهاتُ السيارات. حفلةُ عناقٍ جماعيٍّ لا سبيل إلى تفاديها. موجٌ يعانق موجًا. أمام سيبر أشبال الأطلس، يتدافع المارّة بالمناكب داخل ممرّ ضيّق لأن الجزء الأكبر من الرصيف احتلّه باعة الرّيكلام من المعاطف والكنزات وسراويل الجينز حتى ملابس النساء الداخلية مرورا بالأحذية الرياضية والجوارب وأنواع العطور. وراء باعة الرّيكلام، يصطفُّ في الأماكن المخصّصة لوقوف السيارات بائعو الفواكه. تين شوكي، برتقال، خوخ، عنب، بطيخ، تفاح أو رُمّان حسب الفصل. ثم بائعات الخبز والبَغْرير والمسمّن. رغم أنّ الشارع يتوفّر على أكثر من مخبزة عصرية، إلّا أن خبز قارعة الطريق أشهى على ما يبدو. وهناك أيضا بائعو العصائر، وعربات ساندويتشات النقانق، وأكواز الذرة المسلوقة، وشوربة الحلزون بالأعشاب. المارّة يتبضّعون وسط الزحمة ويتناولون العصائر والساندويتشات المعطّرة بما تنفثه عوادم السيارات، رغم خنقة الشارع. ولأن أصحاب السيارات لا يمكنهم التنازل عن حقِّهم، فإنهم يركنون سياراتهم وراء المُتبضِّعين مباشرة، في عرض الشارع تمامًا. أحيانا تحتكُّ مقدّمة السيارة بمؤخرة امرأة تساوم من أجل كيلو عنب أو رمان فيندلع شجار غالبًا ما يتدخّل البائع لإطفائه طالبًا من الزبونة المُحتدّة وصاحب السيارة

المتحرّشة لعن الشيطان والصلاة على النبي. فـ"الساعة دايزة وكلٌّ سيقضي غرضه.. غير شوية ديال الصبر أوصافي". ولأنّ طبقات الباعة المتجوّلين دقّوا الأوتاد في الشارع واحتلّوا حتى محطات الوقوف التي كانت الباصات تستغلها لإنزال الركاب وفسح الطريق أمام صعود آخرين، فإن سائقي حافلات الخطّ رقم 12، التي تخترق شارع الداخلة ذهابا وإيابا، سلّموا بقضاء اللـه. صاروا يقترحون على الراغبين في النزولِ الهبوطَ في بداية الشارع ثم يشرعون في السياقة بسرعة انتحارية وسط الطريق المكتظّ لكي لا يعتقلهم أحد قبل أن ينفذوا بحافلاتهم خارج شارع الداخلة. لكن الرّكّاب تنبّهوا لمكرهم، فصاروا يعترضونهم بشكل جماعي - مثل ميليشيات مدرّبة - لإجبارهم على الوقوف. هكذا تتوقّف حركة المرور لدقائق قد تتجاوز العشرة أحيانًا في انتظار أن يصعد الرّكّاب.

ياه يا رحّال، ليس هذا هو شارع الداخلة الذي تعرفه. فحتى محجّ الحسن الثاني الذي يتفرّع عنه شارع الداخلة، الشارع الذي كنتَ تقطعُه مع حسنية يوميا أيام المواسين، بالدرّاجة النارية أولًا ثمّ بسيارة حسنية، لم يعد نفس الشارع. حين شقّه الفرنسيون أول مرة عام 1940، أطلقوا عليه اسم شارع الحوز. يبدأ الشارع من باب دكالة، أحد أكبر أبواب المدينة القديمة، حيث أنشئت المحطّة الطرقية في الساحة المجاورة للباب العتيق. يتقاطع مع شارع محمد الخامس أمام مركز البريد بجيليز، ليمرّ من أمام مكتب الحوز

للاستثمار الفلاحي. ينساب ما بين محطة القطار والمسرح الملكي مخترقا شارع محمد السادس؛ شارع فرنسا سابقا. ثم يواصل زحفه باتجاه دوّار العسكر، الحيّ الصناعي القديم، ثمّ المسيرة ودوّار إيزيكي.

في الأربعينيات، استنبت الفرنسيون على امتداد رصيفَيْ الشارع عشرات الأشجار الخضراء. صفّان من أشجار اللبخ في كلّ رصيف. كانت أشجارا كثيفة الورق جيّدة التفريع. تشابكت أغصانُها وظلَّتْ بلديةُ المدينة تتعهّدُها بالتشذيب حتى شكّلت ممرًّا طويلًا بظلٍّ وارفٍ سميكٍ يمتدّ على مسافة كيلومترات. كان القصدُ توفيرَ مسارٍ ظليلٍ لجحافل العمال من بنات وأبناء المدينة العتيقة الذين كانوا يخرجون من باب دكالة ويقطعون المسافة زرافاتٍ باتجاه معامل تصبير المشمش والزيتون في دوار العسكر سيرًا على الأقدام. كان الظل السميك لأشجار اللبخ يقيهم حرّ شمس مراكش في الذهاب والإياب. لكنّ العباقرة الذين آلت إليهم أمور المدينة في السنوات الأخيرة قرّروا الاستغناء نهائيا عن الأرصفة والشجر الذي كان يظلّلُها. هجموا على أشجار اللبخ في طريق الصويرة، وعلى الجاكرندا في طريق الدار البيضاء، وعلى واحة النخيل التي كانت تحيط بالمدينة. رغم أن المستعمر الفرنسي كان قد أصدر قانونا خاصا بحماية نخيل مراكش يمنع اقتلاع النخل إلاّ بإذنٍ خاص وبعد الالتزام بإعادة غرس النخلة المُقتلَعة في مكان آخر، إلاّ

أن مافيا العقار كان لها أسلوبٌ مختلف. يعمدون إلى إحراق مئات أشجار النخيل المثمرة ليلًا بِصَبِّ البنزين على جذورها وإضرام النار فيها. يسجَّل الحادث ضدّ مجهول. وبعد أشهر تكون العمارات الجرداء قد نبتت مكان النخل في الواحة. "يا مراكش يا وريدة بين النخيل"، هكذا تقول الأغنية. رحم الله إسماعيل أحمد. هل تذكُرُ الأغنية يا رحّال؟ كانت من أغاني الصباح التي تشعرك بالفخر حين تداعب مسامعك وأنت في طريقك إلى مدرسة الأنطاكي أيّام الصّبا. أغنيةٌ عن مراكش. عن المدينة التي لم تكن بَعْدُ مدينتك لأنك كنت تقيم حينها في عين إيطّي، خارج السور، قبل الانتقال إلى العيش مع عمك عيّاد في حيّ الموقف. لكن المدينة اليوم تضيع منك ومن غيرك. هل مدينةٌ وَبِلا شجر؟! مراكش منهمكةٌ في اغتيال الأشجار. المجزرة متواصلة ولا أحد يستنكر. احتلّت الجرّافات شارع الحسن الثاني وبدأت تجتث بطريقة عشوائية أشجار اللبخ الضخمة. الهدف هو توسيع الطرق وفتحها أمام أرتال السيارات، فتُفسِحَ أنفاسُ الشجر الفضاءَ لأنفاسِ المطّاط. مرحبًا بكم في مراكش. مدينة تخلّت عن أرصفتها وأشجارها ومماشيها الظليلة لتتّسع الطريق للمزيد من السيارات. للمزيد من الكلاكسونات. طوط طوط. طوط طوط.

حتى السِّيبر تغيّر يا رحّال. منذ ولجَتْ هيام، وخلفها عماد يشدُّ على يدِ شخص غريب ذاك الصباح، فهمتَ أنّ أمرا جللا سيحدث. بدأت ركبتاك تصطكّان فلم تتمكّن من الوقوف. تخشَّبْتَ في مقعدك.

لحسن الحظ أن هيام التي تهتمّ عادةً لهذه التفاصيل البروتوكولوية لم تنظر جهتك أصلا. كما لو أنّك لم تكن هناك. أو كأنّك جزءٌ من أثاثِ المحل. لكنّك توقعْتَ الأسوء. هل سيطردانك من هنا؟ هل جاءا ببديل لك؟ لحسن الحظ أن اليزيد كان غائبا. ماذا لو ضبطَتْهُ هيام يعربد على الرواد متسامقًا، هو قصير القامة، في درّاعيته المراكشية مدخّنًا سيجارته بتطاوُس وكأس القهوة أمامه؟ قد يُجَنَّ جنونها لتنقلب الزيارة إلى معركة ستكونُ أوّلَ ضحاياها أيها السنجاب. لكنّ اللـه سلّم. حتى الأفريكانو لم يكونوا هناك ليتزاحموا ثلاثتهم على كومبيوتر واحد. فقط قمر الدين، سليم، ثنائي نجمة مراكش، وفوج من تلميذات وتلاميذ ثانوية المسيرة يحتلّون باقي المواقع، فيما بعضٌ من زملائهم ينتظرون الدّور. السيبر يغلي، لكن الوضع تحت السيطرة. توجّه عماد نحو رحّال، صافحه سريعًا وعاد إلى مرافقه الذي كان مشغولا مع هيام في هندسة المكان. في الليل، أخبرَتْهُ حسنية بأنهم ينوون توسيع سيبر أشبال الأطلس.

- توسيع السيبر؟ إنّما كيف؟ هل سيحتلّون هم أيضا جزءا من الطريق العام ويضيفونه إلى المحل؟

- لا أعرف، سمعتُ هيام تقول بأنهم سيوسِّعون المحل، ولم أسألها عن التفاصيل.

في اليوم الموالي، عاد الشخص الغريب ومعه ثلاثة عمال.

طلبوا من رحّال إيقاف العمل في السيبر ابتداء من نهاية الأسبوع لمدة عشرة أيام كان مطالبًا خلالها بالمداومة إلى جانبهم. لكن في ظرف ستة أيام فقط أنهوا بناء طابق نصف علوي من الخشب وفّر حيّزا إضافيا يكفي لاستقبال ستة أجهزة كومبيوتر. ضمانا للخصوصية، اجتهد العمال في فصل كل حيّز عن المجاور له بلوح خشبي مُصمّم بشكل جميل. كان الدور العلوي مفتوحا على الطابق الأرضي مُتّصلا به بواسطة دَرَج خشبي داخلي. تغيّرت معالم السيبر. صار أقل رحابةً، وأكثر اكتظاظا. اليزيد وجد الفرصة مواتية للتندُّر على رحّال:

- خويا خصْهُم يضوبلوا لك الإجارة. راك دابا كا تسيّر زوج محلّات ماشي واحد.

قمر الدين شبّه السيبر في حلّته الجديدة بباص السياح ذي الطابقين الذي يجوب شوارع مراكش، والشبيه بباصات لندن:

- أنا معك خويا اليزيد، يجب أن يضاعفوا الأجر لرحّال، فهو يسوق الآن باصًا من طابقين. بحال باصات الإنجليز. وخصّهُم يدفعو ليه بالجنيه الاسترليني.

أما فدوى وسميرة فلم يُسمع لهما تعليق. فقط تغامزتا، وصعدتا الدّرَج في هدوء.

2

لم يصدّق اليزيد عينيه وهو يقرأ الخبر. هوت ماروك بجلالة قدرها تتواضع وتكتب عن شارع الداخلة. بدأ يصرخ:

- آدخلـــوا آ مســـاخط الوالدين، ادخلوا لهوت مـــاروك. كاتبين فـ(مجتمع) أولاد اللّخّ على الشـــارع ديالنا. شوف العنوان: الفرّاشة يحتلّون شـــارع الداخلـــة ويغلقونه في وجه حركة الســـيبر (يقصد حركة السّير طبعًا).

صراخ اليزيد شوّش على ولد الشعب الذي كان مستغرقا في التعليق على عمود نعيم مرزوق. لكنّ قمر الدين تدخّل معقّبا:

- هاذوك بعدا غالطين فـ اسم الموقع ديالهم. مخلّطين الفرنسية

بالإنجليزيـــة. خصّهوم يديروا "هوت موروكو". لأنّ "هوت" كلمة إنجليزية. تعني الســـاخن. "هوتميل" مثلا؟ تعني البريد الســـاخن. والمغرب الســـاخن بالإنجليزية هي "هوت موروكو" ماشي "هوت ماروك".

- واش سخن عليك راسك وباغي تقرِّينا دابا؟ كا تعطينا الدروس؟ وا سِرْ تقوّد انت وديك الإنجليزية العرجا ديالك. هاذوا بعدا كا يجيبوا الأخبار ماشي بحال دوك المواقع د الويل. تا يديروا شي تخربيقة وتا يزيدوا عليها بريس: بعرة بريس. حزقة بريس. خرية بريس. هوت ماروك عندهم الأخبار ديال الصحّ. وماشي غير الأخبار. حتى تعليقاتهم كاتشفي الغليل. كاين واحد ولد القحبة عندهم، اسمو ولد الشعب، واعر. خطر. كانقرا ليه ديما. معلّم يا خويا. فنّان. عندو شي مراوغات هائلة، ومن بعد، كا يسدّد ف التسعين. وڭوووول. كا يبرّد القلب مزيان.

اليزيد شخصيا يا رحّال؟ اليزيد؟ ها هو يعترف، بعظْمَة لسانه، بأنه من جمهور قرّائك ومعجَبيك. هل كنت ستصدّق ذلك لو لم تسمعه بنفسك؟ لكن من قال إنه معجَب بك؟ هو معجب بولد الشعب. بتعليقات ولد الشعب. ولد الشعب المُعلِّق البارع الذي يثير النّقع في هوت ماروك. وليس بك أنت أيها السنجاب الخامل.

كان روّاد السيبر يقرأون مقالة هوت ماروك عن شارع الداخلة

باعتزاز. وأخيرًا الموقع العتيد يلتفت إليهم. ولو بروبورتاج غير مُوقَّع. حتى والموضوع عن الفوضى التي عمّت الشارع.. عن الفرَّاشة، هؤلاء الباعة المتجوّلون وقد كفّوا عن التجوال بعدما تناهبوا الأرصفة وصار لكل منهم حيِّز معلوم يفرش عليه بضاعته.. وعن الترييف الذي تتعرّض له مراكش وأحياؤها الجديدة. لكن ذِكْرَ اسم شارع الداخلة في هوت ماروك يبقى سببا كافيا للفخر. اقترح قمر الدين على الرواد أن يُعلّقوا جميعا على الروبورتاج، فوافقه اليزيد الرأي:

- فعلا، يجب أن يكتب كل من في السيبر بمن فيهم هذا الفار، مشيرًا بسبّابته إلى رحّال تحت ضحكات قمر الدين والبنات. لأنه إذا تتَالتِ التعليقات فهذا سيُعرِّف أكثر بحومتنا وبشارع الداخلة على المستوى الوطني. ومن يدري، فتواتُر التعليقات قد يلفت نظر ولد الشعب ويجعله يهتمّ بالموضوع ليفاجئنا بتعليق تاريخي عن شارع الداخلة.

تجاهَل السنجاب ضحكات الرواد. دفن عينيه في شاشة الكومبيوتر وصاغ في عُجالة تعليقا سخيفا من ثلاثة أسطر وقَّعه باسم "رحّال السيبر". لكنه أضمر، في قرارة نفسه، ألا يُحقّق أمنية اليزيد في قراءة تعليق لولد الشعب عن شارع الداخلة. الغبي، لو كان أكثر تهذيبا لأكرمتُه بتعليق لن ينساه أبدًا.

بدا الرواد منهمكين في تدبيج تعليقاتٍ تظهر تباعًا على الشاشة فيستقبلون نشرها بحماس. الكل مُنخرط في اللعبة مُنتَشٍ بها باستثناء نسرين. كأنَّ الأمر لا يعنيها. لكنّ الأمر فعلًا لا يعنيها. فنسرين لا يهمّها لا شارع الداخلة ولا أشبال الأطلس ولا ولد الشعب. هي ضيفة عابرة. تطلع مثل البدر لليلتين ثم تغيب شهرا أو يزيد. لديها حساب على الياهو وصفحة على الفيسبوك تحرص على تفقّدِهما على عجلٍ مباشرة بعد ولوج السيبر قبل أن تشرع في الإبحار في مواقع علمية، طبّية على الأرجح. رحّال تابع موضوعها بعناية ليخلص إلى أنها طالبة في كلية الطب، ويُخمِّنَ أنها أمازيغية من أكادير. المُرجّح أن لديها أقارب هنا في المسيرة تزورهم من حين لآخر. وخلال هذه الزيارات تتردّد على سيبر أشبال الأطلس بمعدّل مرتين في اليوم.

كلُّ من في السيبر من الشباب ينتظر زيارات نسرين بفارغ صبر. بنتٌ قصيرة القامة، لكنها تمشي بشموخ واعتداد. تلبس على الموضة، بذوق شبابي رفيع. جسمها الصغير جميل. رشيق متناسق. وجه خمري وضيء. شعر أسود لامع تربطه عاليًا على الدوام فيبدو مثل الكعكة، مثل تاج أسود يزيدها شموخا. نهدان صلبان كرمّانتين. نافران كمهرين. تتركهما يتراكضان على صدرها بحرية، بلا سوتيان. يساعد فستانُها مفتوح الصدر على إظهار استدارتهما للعيان. خصر نحيل وردف ثقيل وفخذان طريان تتيحُ فساتين نسرين

القصيرة لقشدَتِهما أن تتدفّق أمام الأعين المُخاتِلة. ولعابُ الجوعى يسيل، وهي ليست هنا. قصيرة مثلك يا رحال، ومثل اليزيد. لكن لا يأكلها الإحساس بالضآلة مثلك. ولا تُداري قصر قامتها بالتّسامُق المُضحك كما يفعل صديقك. إنها أمازيغيةٌ من أكادير. متصالحةٌ مع نفسها، مع جسدها الصغير، ولا تريد شيئا من العالم. تبتسم بطيبوبة في وجه رحّال عند الدخول. وتودّعه بلطف وهي تغادر. خارج تحايا الدخول والخروج تركب أمواجها الإلكترونية وتبحر بعيدا عن شعب السيبر، وعن هوت ماروك. كل محاولات اليزيد للفت انتباهها باءت بالفشل. حتى الحماس المفرط الذي تعامل به مع روبورتاج هوت ماروك عن شارع الداخلة كان بسبب حضورها. يُجاهد للفت نظرها دون جدوى. بقي له فقط أن يقف على رأسِهِ ويحرّك مؤخّرته في الهواء مثل مُهرِّج عساها تنتبه إلى وجوده. لكن نسرين ليست هنا. هي لا تتعمّد تجاهلكم. أبدًا. لكنها غير معنية بكم ولا بصخبكم الذي لا يبدو أنه يزعجها. هي منفصلة تمامًا. روحها تسبح في الملكوت الافتراضي، وحده جسدها الشهيُّ بينكم، فانهشوه بأعينكم الجائعة يا رهط الذئاب.

لكن يبدو أن لليزيد رأيا آخر. خرج أمام السيبر وبدأ يدخّن بعصبية. كان يُبرطم فيٍ حنق بكلام مبهم. وفيما نسرين تغادر المحل، استغل الزحام واحتكّ بها. لم تلتفت. تصوّرتِ الاحتكاك غير مقصود، فلم تلتفت. كانت تنتظر الفرصة لتمرق من وسط الزحام حين أعاد الكَرّة

بعنف هذه المرة. التفتت إليه مُستنكِرة. بدت مصدومةً من سلوكه. لكن اليزيد لم يكتف بالاحتكاك. بل مال بيده على ردفها يهصره. رفع التنورة ثم ضربها على إسْتِها، وهو يصيح:

- اسمعي آ لالّا، اجمعي كرّك شوية.

- ماذا؟ سألت غير مصدّقة، كيف تجرؤ أيها الكلب؟

- الكلب هو بّاك. قلت لك جمعي كرّك وغطّي افخاذك واستري بزازلك.

- ماذا تقول أيها المعتوه؟

- قلت لك داك التقحبين ديال الخانزات ما عندنا ما نديروا به ف هاذ الحومة. حتى حدّ هنا ما يقبل فعايل القحاب ديالك.

- ولكن عمّ تتحدث أيها السّافِل؟ كيف تكلّمني بهذا الشكل؟ ومن أعطاك الحقّ لتلمسني؟ وكيف تمدّ يدك عليّ؟ ثم هل تقبل أيها الواطي أن يجترئ غريبٌ على جسد أختك؟

- هنَّاني اللـه، كَاع ما عندي اختي، قهقه اليزيد بعصبية وهو يجول بعينيه الماكرتين في الحشد الذي تحلّق أمام باب السيبر متابعًا المشهد. اطمأنّ إلى أن الكلّ يُتابع بتواطؤ. نظراتهم فارغة جبانة. فيها فضول وترقّب. إنّما دون استهجان.

- ماعندكش اختك؟ واحمار هذا.. آسيدي بنتك؟ عمتك؟ أمك؟

هل تقبل أن يهصر غريبٌ مؤخّرة أمك في الشارع العام؟

- ماذا أيتها العاهرة؟ كيف تتحدّثين عن أمي بهذا الشكل؟ أنا وياك، وأمي آش جابها للهضرة؟

كان صعبا عليه تخيّل المشهد. شخص يعبث بدُبُر لالّا البتول الشريفة في الشارع.

- بزّاف عليك أمي يا القحبة. بزّاف عليك أمي.

صرخ بهستيرية قبل أن يرفع يده إلى أعلى ويصفع البنت صفعة مدوّية. لم تستوعب نسرين كيف حصل هذا؟ جالت بعينيها المذعورتين في الحشد الذي يتابع المشهد محبوس الأنفاس. لم تسمع كلمة استنكار واحدة. ولا همهمة. ولا من يقول: "اللـه يلعن الشيطان". ظلّت عيناها مفتوحتين على سعتهما والدموع تنساب منهما حارّة صامتة. ظلت هكذا مشدوهة لبضع ثوانٍ. كالمُسرنمة. تحاول عبثا أن تفهم. أن ترُدّ. لكنّ قواها خارت تمامًا. كانت عاجزة. عاجزة فعلًا. كلهم أوغاد: الذي صفعها، والذين تواطأوا معه بالصمت. بالتشجيع الصامت. "كلّكم أوغاد". كانت تصرخ في داخلها دون أن يُسعِفها الصوت. فجأة انسحبت مهرولة وهي تبكي. ومن يومها لم تعد. ظلّ رحّال يتوقّع مداهمة البوليس للمحل، أو هجوما جماعيا لأقاربها في المسيرة، أو زيارة أحد أفراد عائلتها ولو بعد حين. لكن يبدو أن البنت لم تشتكِ لأحد. لا لبوليس ولا لغيرهم. عضّت على جرحها واختفت.

أمّا اليزيد، فحركتُه تلك أكسبَتْه المزيد من الهيبة في السيبر، في مقهى ميلانو، بل وعلى امتداد شارع الداخلة. حتى المحجوب ديدي الذي يتجنّب الاحتكاك بروّاد السيبر قام من أمام جهازه محيّيًا إيّاهُ بحرارة. اعترف له بالرجولة وهنّأه على مبادرته إلى تغيير المنكر بيده وعدم خشيته في الجهر بالحقّ لومة لائم.

3

كأنّــك لا تعرفها يا رحّــال. يبدو أن هيام بــدأت تنفصل عنك بالتدريــج، مثلما انفصلَتْ عن أســماء. تحرّرَتْ من كلِّ ارتباطٍ لها بك أو بغيــرك. هيام اليوم لا علاقة لهــا بنادلة مقهى ميلانو، ولا بتلك الطالبة الشــابة التي كانَتْهــا أول يوم. هيام صارت نجمة أيها الســنجاب. وقدرُك أن ترعى نجوميتها رغــم أنفك. يكفي أن عدد أصدقائها بلغ سقف الخمسة آلاف صديق الذي يسمح به الفيسبوك، هــذا دون الحديث عن مئات المنخرطين في صفحتها. ولأن المزيد من الطلبات تتوافد على هيام، صرتَ مجبرا على تخصيص بضع ســويعات كل شهر لتشذيب حديقتها الفيسبوكية وتهذيب أحواضها. أولى مهماتك رصدُ الخاملين الذين يلبُدون في صمت، ولا يشاركون

لا بلايــك ولا بتعليق، حذفُهم تباعًا واســتبدالهم ببروفايلات جديدة تنتقيهــا بعناية من لائحــة الانتظار. فهيام لا تطيــق المُتلصِّصين الخاملين. ثم إن عشــرات الطلبات بالباب. كلٌ من لا يتفاعل يُطرد من مملكتها الفيسبوكية السعيدة غير مأسوفٍ على سيرته.

هيام بدأت تنفصل عنك أيها السنجاب. بقدر ميلك للانزواء ونفورك من الأضواء، تبدو البنت حريصة على دوائر الضوء لا ترغب في مغادرتها أبدًا. هوَسُها باللايكات مَرَضِيٌّ تقريبا. تَعُدُّها ساعة الدخول وعند الخروج. بل صارت مستعدّة لأن تأتي بكل ما يستدِرُّ اللايكات ويضاعِفُها. تبدِّدُ جزءا من وقت رحّال الثمين في البحث عن المأثورات البليغة والشذرات الفلسفية العميقة وعيون الشعر. ومن حين لآخر تخرج على شعبها الفيسبوكي بتحديثات قوية تتضمن آراء غريبة بغرض الاستفزاز، لكي يحمى وطيس النقاش على جدارها وتتضاعف التعليقات. شعب هيام مختارٌ بعناية. يضمُّ كتّابا وشعراء، فنانين وصحافيين، ووجوها معروفة في مجال السياسة والاقتصاد، حتى أن شخصا مثل عماد القطيفة يُصنَّف حسب معايير هيام الإلكترونية ضمن العامّة الذين تفسح لهم المجال ضمن كوطا محدّدة حرصت عليها ضمانا للتنويع وتفعيلا للديمقراطية داخل مملكتها السعيدة.

في إحدى لحظات الملل فكّرت هيام في مغادرة الفيسوك. لا،

ليس بالضبط. ولكن انتابتها الرغبة في الإعلان عن المغادرة. كانت تتحدّى الملل. وتحاول الخروج من حالة الاكتئاب التي تلبَّسَتْها تلك الأيام. فنشرت بشكل مفاجئ تحديثة وداع: "لكَم سعدت بصحبتكم أيها الأعزاء في واحتنا الإلكترونية الزرقاء هذه. تقاسَمْتُ معكم الكثير من أفكاري وخواطري، وغمرتموني بحبّكم وفيض مشاعركم. لكنني أحس اليوم أنه آن الأوان لكي أنسحب في هدوء. لديَّ اعتبارات خاصة جدا أفضِّل الاحتفاظ بها لنفسي. لكن ما كنت لأخونكم فأنسحب قبل أن أشعركم بذلك، وأعانقكم واحدا واحدا. فأْذَنوا لي يا أحبابي في الانسحاب، وأتمنّى لكم حياة افتراضية سعيدة ولو أنها ستكون من دون صديقتكم هيام".

لم يكن رحّال يتصوّر أن إعلانه الكاذب عن مغادرة هيام سيثير كل هذه الزّوابع. فشعب هيام أقام مناحة على الفيسبوك. مناحة حقيقية. "لا.. يا هيام.. لا"، كأنها أمّهم وسيتيتَّمُون من بعدها. لو كان هناك فضاء خاص بالتظاهر على الفيسبوك لخرجت المظاهرات عارمةً. كلهم علَّقوا. حتى المتلصّصون. حتى بعض الجثث التي كان رحّال ينتظر فقط الفرصة ليرمي بها في البراري الافتراضية، بلا صلاة جنازة ودون مراسيم دفن، استعادت نبض الحياة وعلقت مطالِبةً هيام بالتراجع عن قرارها. كأنها جمال عبد الناصر. الزعيم المصري الذي حصد هزيمة مُوجِعة وأراد الانسحاب فخرج الشعب عن بكرة أبيه في مظاهرات "عفوية" حاشدة ينشج في الشوارع

ويطالبه بالبقاء. لا يا هيام. شعبك يحتاجك. لا غنى له عنك. لا يعرف كيف يتجرّع مرارة الهزيمة في غيابك. لا يا هيام. لا..

لم يكن أمام هيام من خيار غير النزول عند رغبة الشعب والاستجابة لتضرُّع الجماهير: "حينما اتخذتُ قرار الانسحاب، كنتُ في حالة من الإحباط والقنوط والإحساس باللاجدوى. وفعلا، كما لاحظتم، غبتُ لثلاثة أيام متواصلة لم أفتح فيها الفيسبوك. صحيح أنّ أحوالي النفسية استقرّت ولله الحمد، لكن القرار ظل نافذا بالنسبة إلي. وإذ عدت اليوم لكي ألقي نظرة أخيرة على هذا الجدار قبل تنفيذ قراري النهائي بإغلاقه فوجئت بتعليقاتكم ورسائلكم على الخاص. أكثر من ثلاثة آلاف تعليق تطالبني بالبقاء. شيء لا يُصدّق. لم أكن أعرف أنكم تكنّون لي كل هذا الحب. لذا اسمحوا لي بأن أقول لكم: أبدًا أيها الأعزاء، لا يمكنني، بعد اليوم، أن أغيب عنكم. فأنتم أهلي وناسي وأحبتي. وستبقى هيام دائما بينكم لا صبر لها على فراقكم. فشكرا شكرا شكرا أيها الرائعون".

ولأنّ الأفراح والليالي الملاح، احتفالا بتراجع هيام عن قرار الانسحاب، تواصلَتْ لأكثر من أسبوع على جدارها، فإن رحّال الذي كان مشغولا حينها بهوت ماروك لم يجد لا الوقت ولا الطاقة ليواكب هذا الدفق الغامر من المشاعر الذي فاجأه به شعب هيام، ولا الوسيلة للرّد على كل هذه المشاعر الفيّاضة والتعاليق المؤثرة.

لكن، ماذا عن الصور أيها السنجاب؟ هل خانتك ذاكرتك؟ كيف نسيتَ ذلك؟ حينما جاءت أسماء أول مرّة إلى السيبر كانت معها أكثر من عشر صور. بعثَتْ خمسة إلى الإيميل الإيطالي، وهي ذات الصور التي فتحت بها هذه الصفحة أول مرة. لكن ماذا عن الصور الأخرى؟

عاد رحّال إلى الأرشيف. فعلا فعلا. في جعبتك أيها السنجاب سبع صور غير منشورة. فأسماء جاءتك يومها بـ 12 صورة بالضبط. نشرْتَ صور الصالون. الصور الأشهى والأكثر تهتّكا. لكن كانت هناك صور جميلة جدا التقطها المصور لأسماء في حديقة الفندق. اثنتان منهما تُبديان وجها آخر لهيام: أكثر براءة وصدقا. كان الجسد المثير في لحظة استرخاء فتركه المصور لحاله وركّز على الوجه، على الملامح والقسمات. كانت أحاسيس الارتباك والدهشة والخوف من المغامرة والتوجّس من طاليوس والخجل من المصوّر قد تجمّعت في العينين، مما أضفى على نظرتها سحرا خاصا. هذه الصورة بالذات ستقدّم وجهًا آخر لهيام وستشعل النار في صفوف شعبها الفيسبوكي. ربما لم تختر صور الحديقة حينذاك لأنها لم تكن مثيرة بما يكفي. لكنها جميلة فعلا يا رحّال وتصلح هدية مفاجئة من هيام لشعبها في احتفالاته بتراجعها عن قرار الانسحاب. وهكذا نشر رحّال صور الحديقة تباعًا، فاشتعل الجدار من جديد.

4

دون كيشوت؟

هل قلتَ دون كيشوت؟

دون كيشوت طويلُ القامة يا قمر الدين. صحيح أنه كان نحيفًا، إنّما فارع الطول. واليزيد قصيرٌ بُحتُر. فكيف يذكِّرُك هذا بذاك؟ لكن قمر الدين لم يكن معنيا لا بالطول ولا بالعرض، ما يهمّه هو سانشو. منذ أن ظهر لليزيد تابعٌ يُلازِمه كظلّه برقت في ذهنه هذه الكنية، وبدأ يروِّج لها في السيبر، في غياب اليزيد طبعًا. رغم أن رابح المتوسط القامة المربوع القدّ لا يشبه سانشو نهائيا، شكلا على الأقل. يمكن الجزم بأن لا أحد في السيبر قرأ سيرفانتس. لكن فدوى وسميرة وسليم شاهدوا مع ذلك المسلسل الكرتوني المُدبلج: دون

كيخوتي دي لا مانتشا. وهم يعرفون عمَّن يتحدّث قمر الدين.

إنما أين عثر دون كيشوت شارع الداخلة على هذا التابع الطيِّع المُطيع الذي لا يزعجه أن ينتظر اليزيد بالساعات أمام باب السيبر؟ انتظارٌ لم يكن دون جدوى. فبعد أقل من شهر، رتَّب له اليزيد عملا صغيرا في الجوار. بائع سجائر بالتقسيط وحارس دراجات. هناك بين صفّ صغير من أشجار النارنج المغروسة بشكل عشوائي على يسار مقهى ميلانو اجترح اليزيد موقفًا مرتجلًا للدراجات العادية والنارية. لا يقتل رابح نفسه في الشغل صباح مساء. بل فقط حين تكون هناك مباراة في كرة القدم. ولأن المواعيد الكروية بدأت تتواتر بشكل لافت، فقد صار يشتغل في حراسة الدراجات بوتيرة معقولة. أساسًا حين تمتلئ المقاهي بجمهور الكرة. خصوصا عُشاق الليغا الإسبانية. الكل يتابع الليغا في مقاهي شارع الداخلة. كل المقاهي صارت تنقل المباريات مباشرة، وتتيح حصة للمراجعة من خلال بث الإعادة صباح اليوم الموالي. قبل سنوات، كان لكل مقهى من مقاهي شارع الداخلة روّادٌ من فئة معيّنة. مقهى الحنفي مثلا لمقاولي البناء وزبنائهم. مقهى التيسير خاص بتجار السيارات المستعملة. أمامها في الصبح كما في المساء تصطفّ السيارات من مختلف الموديلات. يوشك بعض الباعة أحيانا على ولوج المقهى بسياراتهم ليتسنّى للسماسرة والزبناء المحتملين فحصُها دون أن يبرحوا كراسيهم. مقهى الأمل يبقى الفضاء الرسمي للشبيبة الجمعوية. أدباء ومسرحيون

شباب يعتبرون أنفسهم طليعة الحيّ ونخبته المثقفة يلتقون في مقهى الأمل يوميا في غياب دار للشباب في حيّ المسيرة. وحين أسس هؤلاء اليافعون فرقة "المسار" المسرحية ومجموعة غنائية مختصّة في الأغاني الملتزمة، صارت المقهى بمثابة المقرّ الفعلي للإطارَيْن الجمعويين الجديدين. من الطبيعي، إذن، أن يتعرّض هذا المقهى بالذات لمداهمات البوليس الذين يقتادون روّاده من فنّاني الشعب الصامدين، من حين لآخر، إلى كوميسارية المسيرة بتهمة تعاطي المخدرات. مقهى فريد الأطرش، الذي لا يفصله عن مقهى الأمل سوى ثلاثة محلات تجارية، يعتبر المقر الدائم لأشهر تاجر مخدرات في الحيّ: عمر البوري. هذا المقهى يعرف بدوره زيارات متواترة لرجال الشرطة والمخبرين. ليس من أجل المداهمة والاعتقال، ولكن للحصول على لزوم المزاج من عمر البوري بأثمنة تفضيلية. بعد منتصف الليل، يصعد بعض أبناء الحيّ متلصّصين إلى الطابق العلوي للمقهى حيث تُعْرَض أفلام البورنو على جمهور متعطّش على الدّوام. مقهى ميلانو كان الفضاء الأثير لأساتذة ثانوية المسيرة ونخبة من الموظفين الذين يمكن وصفهم بالمحترمين، لكن ما إن اتّخذه طاليوس مقرًّا له أيام صعود نجمه حتى زحف عليه البزناسة والراغبون في الهجرة بطرق ملتوية ليستحيل مقهى ميلانو في السنوات الأخيرة مجمعا لمن "هبّ ودبّ" كما تصفهم أسماء. لكن الآن، كلّ مقاهي شارع الداخلة صارت مثل بعضها بعدما تحوّلت

إلى مدرّجات في ملعب لكرة القدم. ملعب شاسع ممتدّ على طول الشارع. صاحب مقهى ميلانو ريالي، لذا فرض على النادل الذي يساعد أسماء في الفترة المسائية ارتداء قميص الفريق الملكي أثناء تأدية مهامه. ومع ذلك فغالبية رواد مقهى ميلانو بارصاويون. عموما في مقهى ميلانو هناك حدّ أدنى من الديمقراطية، وهناك مجالٌ للتفاعل بين الجمهورَيْن. أما في مقهى فريد الأطرش فالوضع أكثر تشدُّدًا. عمر البوري الذي زار برشلونة في منتصف الثمانينيات، ويزعم أن حبّ حياته كانت من برشلونة، حرّم ولوج المقهى على جمهور النادي الملكي. عمر البودي هو عمدة المقهى، وصاحب الكلمة الفصل فيه. لذلك حتى صاحب مقهى فريد الأطرش اضطرّ إلى اعتناق العقيدة الكطلانية رغم أنفه.

بانضباط غريب كان رابح يقف أمام مقهى ميلانو مستعدًّا لتقديم الصنف المناسب من السجائر لمن يطلب، ثم يعود إلى مكانه موزّعا بين المهِمّتين. عينٌ على الدرّاجات وأخرى على روّاد المقهى. سحائب الدخان تتعالى فوق رؤوس المتفرّجين، والصيحات تتعالى، والشتائم. الرواد يدخّنون ويعلّقون ويشتمون اللاعبين. كلهم خبراء في كرة القدم. فنّيون من مستوى عال. يشرحون الخطط التكتيكية وهم يدخّنون ويسعلون. كلهم يفهمون أحسن من المدرّبين ويقدّرون الأمور أفضل من الحكّام ويُعنِّفون اللاعبين وهم يدلّلونهم - بعد فوات

الأوان - على أقرب السبل إلى مرمى الخصم وعلى أنجع الطرق لاستغلال الفرص التي ضاعت.

صحيح أن معظمهم لا يمارسون الرياضة نهائيا، لا كرة القدم ولا كرة السلة ولا حتى المشي. لكنَّ حسَّهم الرياضي عالٍ جدًّا. يمكن لبعضهم أن يعطوك تقريرا وافيا عن البطولة الاسبانية في الخمس سنوات الأخيرة يتضمّن كل التفاصيل عن مسارات فرقها الكبرى والصغرى. ويتنافسون في استظهار ملايين اليوروهات التي تتمّ بها صفقات انتقال لاعبي الليغا وهم ينقّبون في جيوبهم الفارغة عن ثمن قهوة بائسة. رياضيون افتراضيون، عبر الشاشة فقط ومن موقع التفرّج. لكن بصراحة، ولكي لا نظلم جمهور كرة القدم، فكل المغاربة يعيشون حياتهم بالطول والعرض من خلال الشاشة. شاشة التليفزيون أو شاشة الكومبيوتر. يعرفون كلّ البلدان من خلال برامج السياحة والسفر. كلّ الجنسيات عبر الفيسبوك. يدمنون على برامج السجال السياسي التليفزيونية، ويقبلون على النقاش السياسي الساخن على الفيسبوك، لكنهم منسحبُون من الحياة الحزبية في بلادهم. حريصون، في غالبيتهم، على عذريتهم السياسية مثل بتولٍ طاهرة. لذلك نادرًا ما يُدْلون بأصواتهم في الانتخابات.

الحياة في مكان آخر. إنها هناك. على الشاشة. ڭوووووول.

المباراة محتدمة والمعلّق يُهلْوِس كالعادة في سجعٍ ركيك: "نار نار نار.. في هذا المشوار.. ميسي الغدّار.. يفاقم الأضرار. ها هو ميسي يا ناس.. صاحب قدم الألماس.. مع الگول الرّاس ف الرّاس.. وأخيرا ميسي يفرّح النّاس.. ويجيب الكاس".

لكن رابح لم يكن مهتمّا لا لكأس ولا لبطولة. هو هنا ليشتغل. نزح من قريته الأمازيغية "تادّارت"، القابعة بقمة جبل تيشكا، بحثا عن عمل بمراكش. نزل ضيفًا على قريبه حارس العمارة التي يقطن بها مولاي أحمد الملْخَة، وهناك تعرّف إلى ابنه اليزيد وبدأ يشتغل لحسابه. وهو سعيد بوضعه الجديد، ولا يُضايِقُه أبدا أن يلعب دور سانشو.

5

إبراهيم التنوفي؟

غير معقول؟

هناك شيء غير مفهوم في هذه الحكاية.

راجَع رحّال الترويسة ليتأكّد. اسم التنوفي مازال يتصدّرها بصفته مديرَ نشر صحيفة المستقبل. لكن ما حدث شيءٌ لا يصدّقه العقل؟ كيف يتعرّض الرّجل لكلّ هذا التنكيل على الصفحة الأولى من جريدته؟ لم يفهم رحّال شيئا. هذا العمود بالذات نُشِر في صحيفة المستقبل أولًا قبل أن تنشره هوت ماروك في اليوم الموالي. ولم ترسل حذامِ أيّ إشارة بشأنه. هكذا لم يتدخّل لا ولد الشعب ولا أبو قتادة. كذلكَ

أبو شرّ ومن معه. لم يعلّق منهم أحد. ليبقى المجال مُتاحًا للناقمين التاريخيين، من الغوغاء، المتأهبين دوما لنهش لحم أول ضحية تسقط أمامهم. "ملّي كا تطيح البقرة، كا يكثرو الجناوى". وهوت ماروك تتوفّر على جيش من الجزّارين بسكاكينَ أين منها سكاكينُ جِنْوَة؟ سكاكين إلكترونية جاهزة على الدّوام.

لكن ضربات نعيم مرزوق كانت من تسديد ملاكم محترف. يضربك فيوجعك دون أن يُدميك. نكّل بمديره دون أن يعطي ولو معلومة صغيرة عن الموضوع، ودون أن يكشف السر. غمزٌ ولمز، تلميحٌ واستعارات. غموضُ الشعر الحديث تسرّب إلى مقالة نعيم هذا الصباح. وحدهُ التّقريعُ كان فصيحًا جارحًا. فما هو الجرم السرّي الذي ارتكبه إبراهيم التنوفي واستحق عليه كلّ هذه القسوة؟ ثم ماذا سيكون ردّ فعله؟ لا شك أنه كان غارقًا في مشاريعه ولم يطّلع على العدد إلا بعد صدوره؟ والأكيد أنه لن يسكت.

ظلّ رحّال يترقّب الرّد. صدور العدد المقبل من الجريدة دون عمودها الشهير. نشرُ بلاغ يعلن عن طرد نعيم مرزوق من صحيفة "المستقبل". أو على الأقل توضيح من التنوفي، أو اعتذار من نعيم مرزوق على عموده غير اللائق الذي نال فيه من مُديره.

لا هذا ولا ذاك. طوال أربعة أيام ورحّال يقتني نسخته من الجريدة في الصباح الباكر قبل أن يفتح السيبر. لكن، لا خبر ولا تعليق. كأنّ

شيئا لم يكن. وفي اليوم الخامس، فوجئ رحّال ببلاغ أسفل الصفحة الأولى على اليسار. بلاغ من توقيع إبراهيم التنوفي شخصيا. كان البلاغ مقتضبًا. لا يشرح ولا يضيء. فقط يقدّم اعتذارًا غامضا غير مفهوم. إبراهيم التنوفي يعتذر للدولة والحكومة والمجتمع والقرّاء الأوفياء عن خطأ سرّي مجهول. وأعلى الصفحة كان نعيم مرزوق يتربّع على عرش الصحيفة كالعادة. افتتح نعيم عموده بالحديث عن الاختلاف في الرّأي الذي لا يفسد للودّ قضية، وشرح كيف أن الاعتذار عن الخطأ فضيلة، يقصد اعتذار التنوفي المنشور أسفله طبعًا. لم يفُت نعيم أن يصف مُديرَه بالإنسان الشهم والمدير الديمقراطي المشهود له بسعة الصدر، قبل أن ينوِّه بجريدة "المستقبل" مسؤولين ومحرّرين، مؤكّدا أنها من الصحف القليلة، ليس في المغرب وحده بل وفي كل العالم، التي تسمح بممارسة الاختلاف الحُرّ على صفحاتها حتى بين أفراد أسرة الجريدة بكل مسؤولية وديمقراطية. وانتهى الموضوع.

هل فهمتَ شيئا يا رحّال؟ هل فهمتَ شيئا؟

عاد رحّال إلى هوت ماروك ليراجع عمود نعيم مرزوق الذي صَلَب عليه مديره عساه يجد بين التعليقات تسريبا طائشا أو قنديلا خافتا يضيء له بعضًا ممّا تعتّم عليه في هذه الأحجية، فإذا به يفاجأ بأن يدًا خفية سحبَتِ الموضوع بكامله من هوت ماروك. سحبَتْه بتعليقاته. كأنه لم يُنشَر أبدًا. أو كأنه لم يُكتَب قطّ.

هل فهمتَ شيئا؟

حين لا تفهم يا رحّال يهجم عليك صداع رهيب. كأنّ نسرًا يأكل من رأسك. ينهشه من الداخل. ياه، سيقتلك الفضول أيها السنجاب!

أغلق رحّال هوت ماروك وعرّج باتجاه الفيسبوك. كان مزاجه عكرا. لذلك قرّر العكننة على شعب المملكة الزرقاء. لا يا رحّال، اترك هيام وشأنها. ودعك من سمير الليل والنهار، فلك فيه مآرب أخرى. لحسن الحظ كان لرحّال بروفايل احتياطي: منير الراجي (شاعر شاب. 25 سنة. أستاذ اجتماعيات). شاب متكتّم، نشاطه الفيسبوكي محدود. ومع ذلك نجح في كسب صداقة العديدين. لكن اليوم، عليك يا منير أن تقلب لهم ظهر المجن. لا ليست حربا. فقط غارات خفيفة هدفها تعكير مزاج الخلائق مثلما عكّر اعتذار التنوفي المُلْغِز مزاج رحّال هذا الصباح.

كانت غزّة محاصرة تلك الأيام من قِبَل الجيش الإسرائيلي. أعداد الشهداء تتضاعف يوما عن يوم. والضحايا أغلبهم من المدنيين والأطفال. سبب آخر لكي تحاصر حصارك أنت الآخر أيها السنجاب. "حاصر حصارك لا مفرٌّ. واضرب عدوّك لا مفرُّ". فتح منير صفحة الاستقبال. الممثلة الحسناء بهيجة سرور غيّرت صورة البروفايل. ترفل بهيجة في فستان سهرة قصير غاية في الأناقة. الصورة جميلة من توقيع مصوّر فرنسي. أصدقاء بهيجة ومعجَبوها يجاملونها

باللايكات وبتعليقات تشيد بموهبتها، بحُسنها وبجمال الصورة. تسلل منير بينهم ورمى سهمه المسموم: "سؤال بريء أيها الأصدقاء: كلكم أبناء مجتمع مغربي أصيل محافظ والحمد لله، فهل تقبلون على أخواتكم الخروج إلى الشارع بمثل هذا اللباس المُتهتّك؟ أليس لجسد المرأة الذي كرَّمه الباري تعالى حرمة يبتذلها مثل هذا الزيّ؟ أريد جوابا صريحا لا مجاملة فيه ولا نفاق".

عصام اللوزي المفكر المعروف يشارك في ندوة فكرية كبرى تحتضنها بيروت، والتقط على هامشها صورا مع بعض المفكرين العرب. هذه طريدة سهلة يا منير. فلا تدعها تفلت منك: "الأطفال يموتون في غزة ومثقفو آخر الزمان يلتقطون الصور في فنادق الخمس نجوم ويردّدون أسطواناتهم المشروخة في قاعات مكيّفة أمام كراسٍ فارغة قبل أن يتلقّوا التعويض عن مشاركتهم "القيّمة"، بالدولار من فضلكم. عارٌ عليكم يا سيدي. لو خرستم لكان أكرم لكم من استفزاز مشاعرنا بهذه الندوات التي لا تنفع وبهذه الصور التي توثّق بأمانة لخيانتكم الموجِعة للأمة في هذه اللحظة العصيبة من تاريخها. وحسبنا الله ونعم الوكيل".

لكن أين حبيب عمرك يا رحّال؟ أين صفيُّك ورفيق دربك وفيق الدّرعي؟ كأنّي به مُختفٍ هذه الأيام. لا لا، إنه هناك. فقط غيَّر صورة البروفايل. في الصورة الجديدة يبدو الشاعر متّشحًا بكوفية

فلسطينية وهو يرفع شارة النصر، ووراءه أعلام فلسطينية تخفق. الصورة مُنتقاة من ألبوم جديد منشور منذ يومين فقط على جدار وفيق: صور من المظاهرة التي احتضنَتْها مراكش تضامنًا مع غزّة وأطفال غزّة. كان منير ينوي مغادرة حومة وفيق الإلكترونية بحثا عن طريدة أكثر هشاشة، لولا أن رحّال استبقاه قليلا.

- لا يمكنك يا منير أن تمرّ على جدار وفيق الدّرعي دون أن تتبرَّز عليه، أو تتبوّل على الأقل.

- لكنَّ الرجل متضامن مع غزّة وأطفال غزّة، وسيكون من الصعب أن..

- متضامن؟ أيُّ تضامنٍ وأيّ بطيخ؟ أفسح المجال أيها الأهبل ودعني أتصرّف:

"البيوت تُدَكّ فوق رؤوس ساكنيها في غزّة وأنتم تنظّمون جولاتكم الاستعراضية في شوارع المدينة صباحات الأحد باسم التضامن مع شهدائها الأبرار. عن أيّ تضامن مُنافق تتحدثون؟ ألم تضجروا من شعاراتكم المكرورة؟ ألم تتعبوا من المشاركة في مظاهرات ملفّقة لا تأثير لها ولا صدى؟ تموتون في النضال السَّهل المريح. نضال الشعارات ورفع شارات النصر أمام الكاميرات. نضال الصور. أعِدْ تصفُّح ألبومك أيها الشاعر وسترى بنفسك كم تبدو سخيفا وأنت تُحدِّق بسماجة في عين الكاميرا. تبتسم برياءٍ وأنت ترفع شارة نصر

كاذب في زمن الهزيمة. الأطفال يموتون في غزّة وأنتم تلتقطون صوركم التافهة وتتبادلون اللايكات وتعليقات المجاملة. ألا تخجلون من أنفسكم؟ أما أنا فخجلان يا أخي من صوركم وتعليقاتكم المنافقة التي تجعلني أكفر بشعراء هذا البلد ومناضليه".

هل فاتك صداع الرأس الآن يا رحّال؟ نسيت التنوفي ونعيم مرزوق وأسرارهما؟ يبدو أنك قد تسلّيت بما يكفي. لكن لا تدع منير يغادر موقعه قبل أن يعرّج على صفحة هيام ليس للتعليق على تحديثتها الجديدة ولا ليتغزّل بجمالها بل لكي يشاغبها قليلا. تعليق مشاغب - إنما بلُغة محترمة ودونما تطاول ولا إيذاء - قد يسْهِم في ضخِّ بعض الحرارة والحيوية في صفحة اللبؤة. هيام ستترفّع عن الجواب كالعادة، أمّا عشّاقها ومريدوها فسيشنّون هجومهم عليك. لكن مع هيام على الأقل سأضمن لك يا منير أنك لن تُحذَف ولن تتعرض لـ"بلوك" حازم كالذي عاجلَتْك بك هذه القحبة بهيجة سرور.

6

لم يكن اليزيد يتصوّر أن "مقاولته" الفتية ستتعرّض لمحنة بمناسبة عيد الأضحى المبارك، لكن مع الأسف هذا ما حصل. برقت الفكرة في ذهنه إثر حوار طائش مع رابح فهم منه اليزيد أن تابِعَه مُستأنسٌ بذبح الأضاحي.

- ذبح ذبح؟

- ذبح وسلخ وتقطيع.

- وتقطيع أيضا؟ يتساءل اليزيد مندهشا.

- طبعًا، التقطيع ضروري.

- فعلا يا رابح، التقطيع أهمّ شيء. تقطيع الأضحية أهمّ من ذبحها.

وإلا فماذا ستفعل الأسرة بالأضحية معلقة وسط الشقة أو في فناء الدار أو على السطح؟ لا بد من تقطيع الأضحية لكي تتمكّن ربة البيت من إدخال اللحم إلى الثلاجة.

- إيه، وتقطيع أيضا.

- رائع يا رابح، رائع. لكن كم تحتاج من الوقت لإنجاز المهمة: ذبح خروف العيد وسلخه وتقطيعه؟

- الذبح والسلخ أقل من ساعة، أما التقطيع فيحتاج وقتا لتنشف الأضحية. الأفضل أن يتمّ في اليوم الموالي.

- فهمت. كم يلزمك لتذبح وتسلخ؟

- أقل من ساعة.

- يعني نصف ساعة مثلا؟

- لا.. ماشي نصّ ساعة.. أكثر بكلّ تأكيد.. لكن أقل من ساعة.

برقت عينا اليزيد. دنا أكثر من رابح، وهمس في أذنه:

- لا أفهم يا رابح لماذا ستسافر إلى البلد؟ ستخسر في سفرك إلى تادّارت أكثر مما ستربحه. مصاريف النقل ومصاريف العيد ومصاريف أخرى ليست في الحسبان. لذا أقترح أن تقضي العيد معنا. ستبقى في غرفة قريبك أسفل العمارة. ابعث معه تحاياك للأهل وشي

بركـــة من النقود لوالديك لكي لا يفوتك نصيبك من رضا الوالدين. أما نصيبك من لحم الأضحية فمضمون. على حساب خوك اليزيد. غادي تعيّد معانا إن شاء اللـه. اللي كليناه ف الدار نهار العيد تاكلو معانا. لكن يجب أن تبقى هنا. فأمامنا عمل كثير هاذ العواشر.

وكذلك كان.

علّق اليزيد على واجهة السيبر إعلانًا مكتوبًا بخطّ بديع جاء فيه: "يهمُّ سكان المسيرة: جزّار ذو خبرة في الذبح والسلخ وتقطيع الأضحية. الذبح يوم العيد مع الالتزام بالعودة لتقطيع الأضحية في اليوم الموالي. الحجز من الآن". ملحوظة: الاتصال على الرقم التالي (.....). ونشر رقم هاتفه المحمول. فعل الشيء نفسه على جداره بالفيسبوك.

ومنذ اليوم الموالي، لم يكفّ هاتفه عن الرّنين. عددٌ من سكان المسيرة الأولى والثانية وحتّى الثالثة يريدون الحجز من يومه وساعته. تكاثفت الاتصالات وتزاحمت المواعيد. فكان اليزيد يعطي الأولوية لسكان عمارات شارع الداخلة ومحيط ثانوية المسيرة. الأقرب فالأبعد. ولكي يتمكّن من تلبية أكبر عدد من الطلبات قلّص مدّة الذبح إلى نصف ساعة فقط. هكذا ملأ روزنامته بأكبر عدد من المواعيد.

قبل العيد اشترى كمية مهمة من التبن والشعير والبرسيم الأخضر

ونصب لرابح خيمة أمام باب ثانوية المسيرة. التلاميذ في عطلة الآن، ويمكن استغلال الساحة الواسعة أمام الثانوية بلا مشاكل. هكذا أمّن اليزيد لسكان حيّ المسيرة علف الأيام الأخيرة قبل الذبح. كان المكسب جيدا ويدعو إلى التفاؤل.

لكن يوم العيد، ومنذ أوّل موعد ذبح، فهم اليزيد أن نهاره لن يمرّ على خير. أولًا، ذهبا متأخّرَيْن بنصف ساعة. وهذه مسؤولية اليزيد. فالرجل لم يألف الاستيقاظ باكرا وليس من عادته التورّط في مواعيد صباحية. لكن المصيبة هي أن رابح سيقضي في ذبح وسلخ الأضحية الأولى زهاء ساعة ونصف. المسكين، ألف ذبح ماعز الجبال في تاذّارت. حتى الخرفان هناك ضئيلة إلى متوسطة الحجم ليست مثل هذه الأكباش الجبّارة التي بدت له أقرب إلى العجول منها إلى الخراف. أيضا كان رابح يتصوّر أنهما سيشتغلان معا، هو واليزيد، قبل أن يكتشف أن صاحبه يرفل في جلباب أبيض ناصع وسروال قندريسي وبلغة صفراء جديدة. ولولا تعاون أهل البيت من أصحاب الأضاحي لاحتاج رابح ساعتين على الأقل للكبش الواحد. كان رابح غارقا في الدماء. ينهج وهو يقاتل الكبش محاولا إسقاطه. ينهج وهو يحاول تعليق الذبيحة ليشرع في سلخها. أما اليزيد فكان مثل موظف استقبال بشركة كبرى. لا يتوقف هاتفه عن الرنين، وهو لا يكف عن تلقي المكالمات. آلو نعم.. آلو مبروك عواشرك.. آلو هاحنا جايين آ خويا ها احنا ف الطريق.. مكالمات متلاحقة. متشنجة.

نافدة الصبر. واليزيد يشرح لهم أنه سيكون عندهم بعد عشر دقائق. يقول للجميع: بعد عشر دقائق. والكل ينتظر. واليزيد لا يعرف كيف يرد. ورابح لا يعرف كيف ينهي أضحيته الرابعة بعدما خارت قواه تمامًا. وضحايا آخرون في شققهم الضيّقة مورّطون في أضحياتهم: أكباش سمينة تحتل نصف الشقة والجزّار اللعين يَعِدُ ولا يأتي.

لم يكن هناك من حلّ.

ولأنّ اليزيد كلبٌ يُعْوِزُه الوفاء، لم يتردّد في إغلاق هاتفه المحمول قبل أن يخرج مكفهرًّا بعد العملية الرابعة. كان رابح يجرجر قدميه وراءه مقتولا من التعب. دون كيشوت غبي اختار بدل محاربة طواحين الهواء مصارعة الأكباش. وسانشو سيّء الحظ يتبع معلما كسولا، أنانيا، لا هو بالنبيل ولا بالمتعاون.

ومع ذلك فما كسبه اليزيد من التبن والبرسيم إضافة إلى ستمائة درهم التي حصل عليها من عمليات الذبح الأربع أغرته بأن يستثمرها في تبزنيسة أخرى برقت في ذهنه بغتة مثل طوق نجاة. هذه العملية بالذات ستعوِّضه عن كل ما خسره بسبب تخاذل رابح في الإجهاز على الأضاحي بالفعالية المطلوبة.

الفكرة بسيطة. كانت هناك متسوّلات يطفن شوارع المسيرة وأزقتها، يدّعين أنهن أرامل ويطالبن بحقّ أيتامهنّ في لحم العيد. لا يذكر اليزيد من أخبره مرة أن اقتناء اللحم الذي يتراكم في قفف

المتسوّلات وإعادة بيعه للعزّاب والمتعفّفين من الفقراء يوفّر مكسبا معقولا جدا. بدأ إليزيد يطارد المتسوّلات ويساومهن ورابح وراءه. نجح فعلا في شراء قطع اللحم المتراكمة في قففهن بأبخس الأثمان. استثمر كل ما تجمّع لديه من نقود في شراء اللحوم، قبل أن يفكر في كيف سيُصرِّفها وأين. مرتبكًا، أنزل طاولة خشبية متآكلة كانت مهملة في سطح العمارة. غلّفها بغطاء بلاستيكي نظيف ووضعها أمام السيير المغلق مباشرة. راكم قطع اللحم فوق الطاولة كيفما اتفق وترك رابح هناك. لم ينس أن يُحضر له من البيت بعض الكباب البارد في قطعة خبز.

رابح المسكين مزروعٌ في شارع الداخلة الخالي من المارة يبيع لحم الأضحية يوم العيد. وينتظر العُزَّاب.

أيّ عُزّاب أيها الغبي؟ أيّ عزّاب؟

أصحاب هذه التجارة موسميون صحيح. لكنهم محترفون. يعرفون كيف يعرضون بضاعتهم بشكل أفضل. ولديهم ثلاجات واسعة تصلح لتخزين اللحوم لبضعة أيام إلى حين عودة العُزاب من مُدنهم البعيدة وقراهم النائية بعد انقضاء العطلة. لكن أيّ عُزاب تتوقّع إقبالهم عليك يوم العيد؟

في المساء حين عاد اليزيد إلى البيت يحمل أكياس اللحم اكتشف أن لا مجال داخل ثلاجة البيت لاستقبال كل هذه الوفرة من اللحوم

التي أفقدها العرض العشوائي تحت الشمس لونها وطراوتها. بل إن رائحة النتانة بدأت تتسرّب إليها.

لحسن الحظ أن لالّا البتول خبيرةٌ في التّقديد. لذا سهرت تلك الليلة على تقديد اللحم قبل أن يخنز. خلطت التوابل في صحن كبير، ثم بدأت بتقطيع اللحم إلى شرائح رفيعة ترمي بها في سطل بلاستيكي أحمر، واليزيد يساعدها بصبٍّ الملح ومزيج التوابل على شرائح اللحم. كان يساعد أمه وهو ينظر إلى تجارته التي بارت بوجه مكفهر. نسي هذه المرة أن يُنزل لرابح بعض الأكل. ورابح لا يريد شيئا. لا عشاء ولا هم يحزنون. يريد النوم فقط. لم يكن حانقا على اليزيد. بل على العكس، كان يشعر كما لو أنّه خذل صاحبه. خذله لأنه لم يذبح أكثر من أربع أضاحي من لائحة العشرين أضحية التي أعدَّها اليزيد ليومه الحافل بحماسة زائدة وتفاؤل بليد، إذ مَنْ سينتظر جزار العيد حتى مساء العيد؟ رابح حزين أيضًا لأنه لم يتمكّن من بيع اللحم ولو لزبون واحد. لذلك هو متعب وآسف ومُحرَج. ويريد فقط أن ينام ويحلم بـ"تادّارت". بِعِيدها البسيط، الدافئ، والعائلي. هناك في الجبل حيث العيد سعيد فعلا.

7

عيد رحّال لم يكن سعيدا هذه السنة. مع حسنية، لا إشكال هناك. بوّاب العمارة يُجيد الذّبح. ويتكفّل هو وابنه اليافع بالإجهاز على أضاحي السكان في أجواء احتفالية. الذّبح يتمّ في مدخل العمارة. وابن البواب يصعد بالأضحية مباشرة بعد ذبحها وسلخها إلى شقة صاحبها. تقطيع الأضاحي تتكفّل به زوجة البواب فيما بعد. لذلك ينتظر البواب عيد الأضحى بفارغ الصبر بسبب ما تدرُّه عليه المناسبة من مداخيل. والسكان يعتبرون أنفسهم محظوظين لأنهم لا يلهثون في الأزقة والطرقات يوم العيد مثل سكان العمارات المجاورة بحثا عن جزّار عابر. لكن العيد لم يكن سعيدا تمامًا هذه المرة، بسبب عبد السلام.

كان رحّال قد بعث مع عيّاد مبلغ ثلاثة آلاف درهم، المنحة التي رسّمَها لأسرته كلّ عيد أضحى منذ أن بدأ يتوصّل براتبه السري الجديد. ويوم ثاني عيد أخذ كالعادة كتف أضحيته ملفوفًا في منديل أبيض وذهب مع حسنية لمعايدة أسرته في "الموقف". الكسكس بلحم الرأس في انتظارهم هناك. منذ وفاة أم العيد، صارت حسنية تصحبه لتناول وجبة غداء ثاني أيام العيد في ضيافة حليمة البجعة. وللأمانة، فالكسكس بلحم رأس الخروف الذي تواظب حليمة على إعداده يوم ثاني عيد لا يُعلى عليه.

- لكن، فين الوالد آ مّي؟

أدارت حليمة وجهها باتجاه البَرْمَة التي كانت تغلي فوق النار، وكأنها اكتشفَتْ للتّوّ التصاعُد الكثيف للبخار من الكسكاس الذي فوقها. فتطوّع عياد للإجابة:

- ابّاك مشى للبلاد.

- مشى للبلاد؟! كيفاش؟! ف هاذ العيد؟!

- إيه مشى للبلاد، كرّرت حليمة، قال لك آ سيدي توحّش ريحة البلاد ومشى.

لم ينبس رحّال بكلمة. لكن كان واضحا من ملامحه المُستريبة أن جواب حليمة لم يقنعه.

- واش نشدُّو بالسِّيف؟، واصلت حليمة باحتداد، نربطو؟ مالو بهيمة باش نربطو؟!

- وشحال غادي يبقى ف البلاد؟

- يعيّد ويجي.. قال غادي يعيّد ويجي، أجابت حليمة بضيق.

لكن رحّال يريد أن يطمئنّ على والده. كانت حسنية جامدة في فناء البيت تراقب المشهد بملامح محايدة. رحّال واقف بباب المطبخ يحاصر البجعة الضّجِرة بالأسئلة. وعمُّه لابِدٌ عند عتبة المطبخ مثل فأر. كان يدخّن سيجارته الرديئة التي يختلط دخان تبغها ببخار الكسكس ورائحة لحم الرأس.

لم يعد أحدٌ للحديث عن الموضوع. حسنية، التي لم تتخلّص طوال هذه السنوات من إحساس الضيفة في بيت حليمة، تريد أن تمرّ زيارتُها السنوية اليتيمة هادئة. وفعلا توقّف الحوار في المطبخ. طرب أندلسي في التليفزيون. الكسكس شهيّ كالعادة. شاي عيّاد مُحلّى أكثر من اللازم. وما إن خرج عيّاد للمسجد بعد أذان العصر، حتى غمزت حسنية زوجها فهبّ واقفا.

في السيارة، كانت تسوق صامتة وهي تسمع الراديو. تهاني الأحباب بمناسبة العيد ومنوّعات غنائية مغربية وشرقية. أما رحّال فظلَّ بالُه مع عبد السلام.

- هل عاد عمّك عيّاد إلى العمل؟

أخرجه سؤال القنفذة المباغت من سرحانه.

- لا.. لا أظن..

- تصوّرتُ أنّه عاد إلى عمله. لأن البيت تغيّر عليّ كثيرا.

- فعلا يا حسنية. تغيّر كثيرا..

- في السنوات الأخيرة لاحظتُ الثلاجة والمسجلة والفرّان وآلة التصبين. لكن هذه المرة، كل شيء جديد. الزرابي جديدة. والأفرشة. زليج الأرضية جديد. كما أعيد طلاء البيت. لم أفهم؟!

- فعلًا فعلًا يا حسنية..

- فعلًا؟! تقولها هكذا ببرود؟ لكن كيف؟ ومن أين؟ قلت لك: لم أفهم؟!

- أظنّ أنّهم باعوا بعض الأراضي في البلدة.

- باعوا الأرض؟! لم تخبرني عن أيّ أراضٍ في البلدة..

- لأنّكِ لم تسأليني. لم يسبق لنا أن تحدّثنا في الموضوع. لو كنتِ سألتِ لأخبرتُك.

- وهل يجب أن أسألك لتخبرني؟

لم يجبها رحّال. ظل صامتا للحظات. مترددا يبحث عن إجابة. وحين برقَتْ في ذهنهِ تخريجةٌ وقرّر استئناف الحديث، قاطعَتْه القنفذة بغِلظةٍ ما إن بدأ يتمتم بالجواب:

- هل يمكن أن تغلق فمك الآن؟ ألا ترى أنني أسوق؟

رفعت صوت الراديو بحنق. كانت الأغنية أندلسيةً. عبد الرحيم الصويري وبّاجدوب يتجاذبان أطراف الموشّح:

"بُشرى لنا نِلنا المُنى

والبُعْدُ ممنوع

الفَرْحُ أقبَلْ والهَنا

والشملُ مجموع"

عاد رحّال إلى سرحانه:

"مابِكَ أيّها السرعوف؟ ماذا فعلَتْ بِكَ البجعة لتهرب منها إلى عبدة واليومُ عيد؟"

8

Zou-l3izah@hotmail.com

الإيميل غريب بعض الشيء. أما عنوان الرسالة فجاء بين نقاط حذف:... فإنّ الذكرى...

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. لكن سَمِّ اللـه وافتح الإيميل يا أبا قتادة.

كانت يدُه ترتعش. لم يعرف لماذا ولا كيف. لكنها كانت ترتعش. ومنذ الجملة الأولى، فهم أن الخطبَ جَلَل:

"عبدي الصالح المحجوب بن يامنة ديدّي المُكنَّى بأبي قتادة المراكشي،

سلامي يغشاك وعيني ترعاك، وبعد..

لا تستغرِبْ رسالتي إليك ولا تستكْثِر على نفسك أن يَخُصّك ربُّ العزّة بهذا الإيميل دونًا عن العالمين. إنَّ لي في خلقي شؤونًا لا يُدركها العباد، فاستغفرني وعُذْ بي من الشيطان الرجيم.

أيها العبد الصالح، لقد ختمنا الرسالات بذِكر حكيم حفظناه في كتاب مُبين، وبرسول أمين جعلناه رحمتنا المُهداة للعالمين. لكنّ الإنسان كان أكثر شيء جَدَلا. لذلك أصطفَيْتُكَ يا محجوب ضمن ثلة من عبادي الصالحين لترفعوا رايتي وتُذكّروا برسالتي ولتستغفروني إنّي كنتُ غفّارا".

امتقع وجه المحجوب. بدأ يرتعد وكأنَّ حُمّى سكنَتْ عظامَهُ بغتة. تذكّر المصطفى خير الأنام وما أصابه من هلع يوم نزول الوحي. لكن هذا ليس وحيا يا أبا قتادة. لستَ نبيًّا ليوحى إليك. ومع ذلك فقد أكرمك ربُّك واصطفاك من دون الخلائق لهذه الرسالة الإلكترونية. لكن آش باقي كا تدير هنا؟ غادِر هذا الغار حالا وعُد إلى بيتك. صلّ لربك واستغفر، وانتظر أمر العزيز القهّار.

كان المحجوب كالمُسَرنم. عقلُه مخطوف، ووجهُه شاحبٌ مُمتَقِع. لكنّ رأسه في العُلا وهو يتحرّك بتؤدة كمن يعتمِرُ سحابة. لم ينظر باتجاه رحّال ولا فكّر في محاسبته. هذه أول مرة يغادر أبو قتادة المحلّ دون أن يُخرِج الكارت من جيبه ويدّقق مع رحّال في المدّة التي قضاها في السيبر.

لم يكن أبو قتادة هنا. كان يمشي فوق الغيم.

9

لم يُصدِّق رحّال أنّ اليزيد موهوبٌ في الخطّ العربي حتى رأى بعينه. وليس من رأى كمَنْ سمع.

جاء اليزيد ورابح يحملان رولو كبيَر من القماش الأبيض ذلك الصباح. في الفترة الصباحية يكون شارع الداخلة قابلا لممارسة الحياة الطبيعية، فالباعة المتجوّلون وجحافل الزبناء لا يتناهبون الشارع ورصيفَيْه إلا بعد أذان العصر. المجال متاحُ الآن أمام اليزيد لنشر قماشه بأريحية. قطعة القماش الأولى جاءت في خمسة أمتار: لافتة محترمة تليق باعتصام مصيري. نشَر اليزيد اللافتة الأولى مقابل الواجهة الزجاجية للسيبر وأقعى فوقها يخطّ بدقة وتركيز شعارا ينسخه من ورقة صغيرة كانت مبسوطة أمامه. فيما

رابح وشخص آخر بشارب كثّ وملامح صارمة يراقبان العملية باهتمام: "عمّال مخبزة الشروق يحتجّون على الحاج بيهي ويطالبون بصرف متأخّراتهم وتمتيعهم بحقّهم في العطلة السنوية".

في اللافتة الثانية، دائما بخطّ النسخ وبالبُنْط العريض، كتب اليزيد شعارا عامّا تحية منه لعمال المخبزة المعتصمين: "العمّال ف المحْنَه، والحكومة ماشي هنا". بدا الشخص ذو الشارب الكث سعيدا باللافتة الثانية. خمّن رحّال، الذي ظلّ يراقب ما يحدث باندهاش من مكتبه، أنه واحد من هؤلاء العمال. بل لعله قائد الثورة ضدّ الحاج بيهي صاحب مخبزة الشروق. صحيح أن اللافتة الأولى تُحدِّد بدقّة مطالب المعتصمين، لكنّ الثانية أهمّ. فهي تمنح الاعتصام صدى أقوى وإشعاعا أكبر، لأنها تضع عمال المخبزة في مواجهة الحكومة شخصيا. فالحاج بيهي جبان رعديد وسينخفض مستوى السكّر في دمه ما إن يرفع العمال لافتة ضدّ الحكومة أمام المحل.

انفرجت أسارير صاحب الشارب الكثّ أكثر بعدما أخبره اليزيد أن اللافتة الثانية هدية منه إلى المعتصمين شرط إرجاعها بعد نهاية الاعتصام. الثمن كان محدّدا في 150 درهم للافتة. لافتة واحدة في الواقع. لكن اليزيد تبرّع على عمال مخبزة الشروق بلافتة إضافية. ولم يتردّد في مساندتهم عمليا بالمشاركة في الوقفة حيث تكفّل برفع اللافتة المناوئة للحكومة هو وتابِعُه رابح. كما ساهما بأريحية

نضالية في رفع الشعارات إلى جانب المعتصمين. كان الاتفاق مع صاحب الشارب الكثّ على أن يترك للعمّال المعتصمين أمر تقدير مساهمته وتحديد المكافأة المناسبة عليها، لكن ليس في الحين، بل بعد نجاح الاعتصام.

اللقطة الصعبة في الفيلم بالنسبة إلى رحّال كانت حين دسّ اليزيد رولو القماش في الفسحة الضيّقة التي تفصل مكتبه عن الواجهة الزجاجية للمحل واستأمنه عليه. لقد وجد نفسه يتحوّل رغم أنفه إلى حارسٍ لمستودع مقاولة سرّيّة جديدة أسّسها اليزيد رفقة شريكه رابح.

بعد أسبوع من فكّ اعتصام عمّال المخبزة، الذي دام أربعة أيام تكلّلت بحوارٍ جِدّي مع الحاج بيهي، استعادت على إثره المخبزة سيرها الطبيعي، عاد اليزيد ليفرش قماشه الأبيض أمام سيبر أشبال الأطلس. هذه المرة سيخطّ أربع لافتات. كان محاطا برئيس ودادية الحيّ وثلاثة من أعضاء المكتب. أمّا الشعارات فكانت ضد رئيس المقاطعة الحضرية، عمدة المدينة، والي مراكش، وطبعًا رئيس الحكومة، وتُحمِّل جميعَ هذه الأطراف مسؤولية تردّي الوضع البيئي في الحيّ بعدما أدّى تقاعُس عُمّال النظافة إلى تراكُم الأزبال والنفايات على جنبات الطرق وعند مداخل العمارات وانبعاث الروائح الكريهة من أكوامها. أما حاويات الأزبال المُتهالكة فأضحَتْ مرتعًا للكلاب

الضّالة والقطط المتشرّدة. الشركة الفرنسية التي أبرمت معها البلدية عقدة التدبير المفوض للنفايات بتراب المدينة نالت حظّها من الشتائم في لافتات اليزيد. لافتة تُعرِّض بالاستعمار الجديد الذي تُشكّل هذه الشركة ومثيلاتها نموذجا صارخا له، وأخرى تُندّد بتواطؤ المسؤولين المحليين الفاسدين معها وغضّهم الطرف عن فضائحها المالية وتقصيرها في الوفاء بالتزاماتها. لم يكن اليزيد يكتفي بكتابة الشعارات التي تُملى عليه من أصحاب الشأن، بل يجتهد في اقتراح شعارات جديدة. هكذا اقترح مثلا على مكتب الودادية شعارين ناريين ضدّ الحكومة نالا موافقة الرئيس فورا. رئيس الودادية شخص مثقف وأستاذ فلسفة بثانوية المسيرة، ويعرف أكثر من غيره جدلية الخاص والعام. "ففساد المسؤولين المحليين مِن فساد نظرائهم في العاصمة والعكس صحيح"، كما شرح للأمّيّين الذين يتحمّلون المسؤولية إلى جانبه في المكتب.

المطلوب خمس لافتات، وثمن اللافتة الواحدة مائتا درهم: هذه هي التسعيرة الجديدة التي اقترحها اليزيد. لكن مع وعد بالمشاركة القوية في الوقفة الاحتجاجية وتأمين حضور جماهيري مهمّ لها من تلاميذ ثانوية المسيرة وروّاد سيبر أشبال الأطلس وعمّال مخبزة الشروق ذوي الخبرة العالية في النضال والصدح بالشعارات. هذا الالتزام بالذات جعل رئيس الودادية يتغاضى عن مبالغة اليزيد في تسعير لافتاته وينفحه مبلغ 400 درهم كتسبيق.

لم يتمكّن رحّال من حضور الوقفة. لكن بعثة السيبر التي شاركت فيها بحماس أجمعت على نجاحها. فرغم تطويقها من لَدُن البوليس والقوات المساعدة، لم يحدث أيٌّ احتكاك بين الطرفين. غطّى الوقفة مراسل صحيفة المستقبل بمراكش، وتم تصوير جانبٍ منها من قِبَل كاميرا موقع "دابا مراكش" الإلكتروني. واليزيد، بشهادة الجميع، شرّف السيبر وروّاده وكان - والحق يُقال - عند حُسن الظنِّ ويزيد.

10

غاب أبو قتادة ثلاثة أيام بالتمام والكمال. وحين عاد لم يكلّف نفسه عناء النظر جهة رحّال ولا ألقى السلام على أحد. هرول باتجاه أول جهاز شاغر أمامه وفتح إيميله بلهفة. لكن ما إن انفتحت أمامه علبة رسائله الإلكترونية، حتى علت محيّاه أمارات الخيبة. كأنّه لم يجد بُغيته. كان رحّال يراقبه باستغراب. لم يفهم ماذا يحصل لأبي قتادة؟

ظلّ المحجوب مُسمَّرا أمام الشاشة لأكثر من عشر دقائق. ولم يحاول تحريك فأرة الحاسوب باتجاه جُحر إلكتروني آخر. كان جامدا مثل صنم. بغتة، انفرجت أساريره وأشرق وجهه وشهق: "اللـه أكبر، اللـه أكبر".

تبادلت أميليا النظرات مع فلورا وياكابو. سليم وأخته بدآ يسترقان النظر إليه بارتياب ثمّ إلى رحّال الذي لم يكن أقل اندهاشا منهما. أما قمر الدين فمُنكفئا على جهازه كان. مستغرقا فيما هو فيه. قمر الدين عموما يقاطع المحجوب منذ أن وشى به عند أبيه. يتحاشاه تمامًا، ولن يرفع رأسه باتجاهه الآن مهما كبّر وهلّل.

لم تأت الرسالة مباشرة من ذي العِزّة هذه المرّة. بل من ملاك لم يفصح عن اسمه. لكن حسب الإيميل فترتيبه ضمن جوقة ملائكة الرحمان 8723. عنوانه الإلكتروني كالتالي:

Malak8723@hotmail.com.

تعليمات الملاك جاءت دقيقة عملية: "عليك يا أبا قتادة بالذهاب عند أقرب نجّار. تقنعه بأن يصنع لك سيفا خشبيا. اشتر ملابس بيضاء جديدة: جلباب وعمامة وبلغة. حتى الجوارب يجب أن تكون بيضاء. ملابسك الداخلية أيضا. زَكِّ نفسك بالذِّكر والصوم والصلاة. ابدأ صيامك من الغد وواظِبْ عليه إلى أن يقضي اللـه أمرا كان مفعولا. مُرّ على السيبر مرّة كل ثلاثة أيام لتتفقّد إيميلك. وسنُشعرك بالخطوة الموالية في حينه. حفظك اللـه ورعاك وسدّد خطاك. آمين".

واظب المحجوب على الصوم لأزيد من شهر. كل ثلاثة أيام يزور السيبر دون جدوى. لم يعد يُمضي فيه أكثر من دقائق معدودات. يروج في السيبر أن الرجل توقّف عن الالتحاق بعمله بالوكالة

الجهوية للماء والكهرباء. اليزيد أكّد لهم أنه جُنّ:

- زهق ليه الفرخ، يردّد ساخرا، زميلٌ له في العمل أكّد لي ذلك. أقسم باللـه.

أما المحجوب فقد انفصل تماما عن هؤلاء الغوغاء. تفرّغ للصوم والصلاة وتلاوة القرآن استعدادا للإيميل المقدَّس. وبعد مرور أكثر من شهر، سُمِع التّكبير في سيبر أشبال الأطلس للمرة الثانية بصوت أعلى. كان المحجوب متخشِّبا أمام الكومبيوتر حين نزل الإيميل المنتظر. الملاك رقم 8723 شرّف أخيرا والتعليمات هذه المرة جاءت أكثر دقّة:

"الحمد للـه الذي لا يُحمد على مكروه سواه وبعد، اذهب يا أبا قتادة في ضحى الجمعة المقبل إلى ساحة جامع الفنا. ارتَدِ ملابسك الجديدة البيضاء وامتشق سيفك الخشبي وتأبّط مصحفك. وحين تتوسّط الساحة أيها العبد الصالح أخْرِجْ مصحفك وأشْهِر سيفك وارْفَع عقيرتك بالتكبير، وستحصل المعجزة بإذن اللـه. فإذا سيفُك الخشبي صارمٌ بتّار بعشرة رؤوس، أما صفحات مصحفك فستستحيل أجنحة من نور تحملك رويدا رويدا فإذا هي بجاه السميع العليم فرسٌ مُجنحٌ من أفراس الجنان. سيُحلِّق بك الفرس المبارك عاليا في الساحة وتبدأ في حصد الرووس ميمنة وميسرة. ولن ينال سيفُك إلا من الكفرة الفجرة وأذنابهم من المنافقين والغافلين، أما أصحاب اليمين

وما أدراك ما أصحاب اليمين فلن يصيبهم منك أيُّ أذى بتدبير من ربّ العالمين. هذه مهمّتك أيها العبد الصالح ورسالتك ومعجزتك. فحيَّ على الجهاد. وموعدنا ضحى الجمعة".

"اللـه أكبر. اللـه أكبر". غادر المحجوب ديدّي السيبر وهو يكبِّر. انفجر اليزيد ضاحكا خصوصا وأنه كان غائبا عن السيبر لحظة حصول التكبيرة الأولى. سمع عنها فقط، وأسعده اليوم أنّ المشهد تكرّر أمامه:

- واللـه إيلا تكبير تكبير. هاذ خونا كا توذن له الملائكة ف زكّو. آ ضربوا الفكْد ف المحجوب آ الخُوت، راه طار له الفرخ بالمعقول.

11

لم يفهم أحد كيف تناسلت الاحتجاجات بحي المسيرة بهذا الشكل. كل يوم هناك اعتصام. تعدّدت الأسباب والاحتجاج واحد. "احتجاجات اعتصامات/ لتأجيج النضالات"، كما تُفيد واحدة من لافتات اليزيد. لكُلِّ وقفةٍ احتجاجية لافتاتُها الخاصة التي تُحدِّد مطالب المعتصمين. لكن هناك لافتات "جوكير" تصلح لكل أنواع المظاهرات. لافتات ضدّ الحكومة وسياستها الفاشلة التي أوصلت البلد إلى الحضيض. وأخرى ضدّ الفساد والاستبداد. ثم هناك بعض الصور التي أضافها اليزيد إلى عُدّته النضالية وعَتاده الاحتجاجي: صورة لتشي غيفارا وأخرى للمهدي بنبركة وثالثة للمسجد الأقصى وأربع صور للملك محمد السادس إضافة إلى بعض الأعلام الوطنية الصغيرة. الأعلام

الوطنية وصور الملك مهمّة جدًّا في الاحتجاجات الخُبزية على وجه الخصوص.

المظاهرات والاعتصامات تتوالى بشكل فاجأ اليزيد. صار سيبر أشـــبال الأطلس مركزا نضاليا تنطلق منه أهمّ المظاهرات، وأمامه تُكتب اللافتات. المشروع بدأ يُحقّق نجاحا تجاريا غير متوقّع. عزّز اليزيـــد عُدّتَه بمُكبِّر صوت من النوع الجيد ولقّن رابح، ذا الصوت الجهوري، أهمّ الشعارات التي صار هذا الأخير يطلقها عبر مكبر الصوت مدوية في فضاء المظاهرة أو الاعتصام. لكنتُه الأمازيغية واضحة لا ســـبيل إلـــى مداراتها، لكنّها لا تُشـــوِّش على مضمون الشعار ولا تنقص من قوة الصوت.

أولياء تلاميذ ثانوية المسيرة يعتصمون أمام باب المؤسسة احتجاجًا على الغياب المستمر لبعض الأساتذة وكذا على ظاهرة الاكتظاظ، خصوصا بعدما جاوز عدد التلاميذ في بعض الأقســـام الخمســـين. أساتذة وإداريو المؤسسة يردّون بوقفة داخل الساحة احتجاجًا على ترويـــج المخدرات في محيط الثانوية والتســـيّب الأخلاقي للتلاميذ وانفلات بعضهم حيث سُـــجِّلت أكثر من حالة عنف مادي أو لفظي تورّط فيها بعض التلاميذ المنحرفين ضدّ أساتذتهم.

حتى مسجد النور بلغَتْهُ حمّى الاعتصامات التي كادت، لولا الألطاف، أن تتطوّر إلى ما لا يُحمد عقباه. كانت خطبة جمعة عادية

حول ضرورة معاشرة الأزواج بالحسنى استشهد فيها الخطيب السي بلفقيه بالآية 34 من سورة النساء: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنّ فَعِظُوهُنّ وَاهْجُرُوهُنّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنّ﴾. صدق الله العظيم، ردّد البعض في سرّهم. لكن السي بلفقيه المعروف بروحه المرحة ابتسم قليلا ثم قال موجِّها كلامه للمصلين: "ماذا قال ربُّ العزّة؟"، ثم أجاب بنفسه وهو يحرّك أصبعي يده اليمنى، السبّابة والوسطى، في إشارة تدلّ على العصا: "واضربوهن.. واضربوهن.. واليوم إذا أراد بعض الأزواج المساكين المغلوبين على أمرهم ممارسة حقهم الشرعي تقوم قائمة الجمعيات النسائية وحقوق الانسان ولست أدري ماذا؟ كلام الله واضح إخواني المسلمين: واضربوهن". سرت غمغمات وسط المصلين فيما علا صوتٌ حادّ يحتج في جناح النساء. انتبه السي بلفقيه إلى البلبلة التي سرَتْ داخل المسجد فذكَّر بالحديث الشريف: "إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت.. ومن لغا فلا جمعة له". واستأنف خطبته دونما استطرادات هذه المرّة.

كانت مارية الطاهري مَنْ علا صوتُها في جناح النساء. أستاذة اللغة العربية. امرأة محافظة على الصلوات ولكنها في نفس الوقت مناضلة نسوية شرسة. عقدت الأستاذة مارية حلقة أمام باب المسجد سجّلت فيها رفضها الشخصي لتمرير موقف يُسوِّغ ممارسة العنف ضدّ النساء من طرف الإمام. وأكّدت للمتحلّقين حولها أن هذه الآية

بالذات قد أشبعَتْها بحثا ومن المُشين أن يختزلها الإمام بهذا الشكل المعيب. فكلمة "ضَرب" في المصحف وفي صحيح لغة العرب لا علاقة لها بالمعنى المتداول اليوم. فالضربُ في لغة العرب هو المُفارقة والمُباعدة والانفصال والتجاهل لا اللطم والصفع والوكز والرّكل. وفي المعاجم: ضرب الدّهرُ بين القوم أي فرّق وباعد.

المشكلة هي أن مارية الطاهري لم تكتف بهذا التوضيح اللغوي، بل تابعت الموضوع مع رفيقاتها في الفرع المحلي للجمعية المغربية لحقوق المرأة. ولأن أغلب عضوات الفرع لسن من الحريصات على أداء الصلاة، وجدْنَ أن أحسن توقيت للتظاهر ولإسماع صوتهن هو صلاة الجمعة المقبلة. هكذا، والسي بلفقيه يخطب في جموع المُصلّين في موضوع "التجمُّل والزينة وأهمية الاعتناء بالهندام في الإسلام انطلاقا من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾"، كانت حناجر المناضلات تصدح بشعارات قوية ضد استغلال منابر البلد للتحريض على العنف ضدّ المرأة. اليزيد تكفّل بكتابة لافتتَيْن لمناضلات الجمعية بمائتي درهم للّافتة وأجَّر لهن مُكبّر الصوت بنفس التسعيرة لكنه لم يرافقهن في مهمتهن الانتحارية هذه. وكان حدسه في محله، فمباشرة بعد تسليمة الإمام الثانية خرج جيش مسعورٌ من السّلفِيين يُكبِّرون ويُهللون ويتحرَّقُون إلى تأديب "تاركات الصلاة من النسوة الفاسقات الفاجرات المُجترآت على بيت الله". لحسن الحظّ أن البوليس وصلوا والصلاة قائمة، فشرعوا في

تفريق المعتصمات بحزم. هكذا أخلَوْا الموقع في الوقت المناسب، وإلا لحدثت مذبحة أمام المسجد لم يُشهد لها مثيل في تاريخ الحيّ.

12

يمكن تقسيم أبناء المسيرة إلى صنفين: "اولاد السيكتور"، و"اولاد قاع السور". أبناء قاع السور هم النّازحون من المدينة القديمة الذين بدأوا يستقرّون مع أسرهم في تجزئات المسيرة منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي. وهؤلاء لهم ارتباط قوي بحوماتهم الأصلية في المدينة العتيقة. عائلاتهم وأصدقاء طفولتهم مازالوا هناك، ومن الطبيعي أن يبقوا على اتصال بهم. أما "اولاد السيكتور" فهم أبناء الحيّ الخُلَّص من مواليد أواخر الثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي ممن ترعرعوا في هذا الحيّ، الذي حمل اسم المسيرة الخضراء التي أطلقها الحسن الثاني سنة 1975 لاسترجاع الصحراء، ولا يعرفون لهم حيًّا غيرَه. هؤلاء بالذّات قد يغادرون حيّهم باتجاه الداوديات

حيث كليات جامعة القاضي عياض وبعض المدارس العليا، أو باتجاه جيليز حيث المقاهي والمطاعم والفنادق والبارات وقاعات السينما، لكنهم دائما يعودون إلى حضنهم الدافئ في المسيرة. فيما تبقى علاقتهم بمراكش المرابطين والموحدين والسعديين محدودةً جدًّا. ثمَّ هم ليسوا سياحا معتوهين ليذهبوا إلى جامع الفنا لالتقاط الصور مع الثعابين والقردة هناك. لذلك تبقى المرّاتُ التي ذهب فيها قمر الدين، مثلًا، وهو ابن المسيرة، إلى ساحة جامع الفنا معدودةً على أطراف الأصابع.

لكن هذه المرّة ليس لديك خيار يا قمر الدين. عليك أن تذهب. يجب أن تكون في عين المكان لتتابع الحلقة الأخيرة من المسلسل. يجب أن تكون في قلب الحدث.

وصل قمر الدين قبل العاشرة. قطع عرصة البيلك متمهّلا. رفع رأسه أكثر من مرة إلى أعلى وكأنه يكتشف للمرة الأولى سموق أشجار عرصة البيلك العملاقة. كانت عربات الكوتشي تصطفّ جنب الحديقة في انتظام عجيب. الخيول منضبطة تماما. ساكنة قلما تتحرّك. لعلها تعرف أن يوما شاقا من التجوال في شوارع مراكش بانتظارها، لذا تُفضِّل ادّخار الطاقة والجهد. أما أصحاب الكوتشيات فكانوا متحلقين في مجموعات صغيرة حول براريد الشاي وأطباق بيصارة الفول بزيت الزيتون. اخترق قمر الدين الساحة التي كانت

فارغة لا تزال من الرّواد وصُنّاع الفرجة. طلب كأسا من إحدى عربات العصير المنتشرة على جنبات الساحة. أنعشه عصير البرتقال. قام بجولة صغيرة في الجوار ثم صعد إلى سطيحة مقهى أركّانة. طلب قهوة نصّ نصّ ولبد هناك يرقُب الساحة مِن عَلٍ.

الملابـــس البيضاء ليســـت غريبة أيام الجُمَع. لـــذا لم ينتبه قمر الدين في البداية لأبي قتادة وهو يتوسّـــط الساحة. لكن ما إن توالت الصرخات الهســـتيرية وتحلّق الخلق حول شخص غريب الأطوار يُشهر مصحفا ويلوّح بعصا خشبية لها شكل سيف وهو يُكبِّر ويُهلل ويتوعّد أعداء اللـه من الكفار والمنافقين، حتى هبّ قمر الدين كَمَنْ لدغَتْهُ أفعى. نســـي أن يدفع ثمن القهوة. كان يجري كالسهم ليلتقط لبطل فيلمه لقطة مكبـــرة. لا يا قمر الدين. ليس هذا هو المحجوب ديـــدّي الذي تعرفه. فقدَ الكثير من وزنه وبدا وجهُه مرهقا شـــاحبا كأنّ النوم لم يعرف سبيله إلى جفنيه منذ ليالٍ. الرجل جُنّ فعلا. كان يُرغي ويُزبِد. هناك بللٌ في جلبابه من قُدّام. كأنه تبوّل على نفســـه دون أن يشـــعر. كان يُكبِّر في البدايـــة، ثم بدأ يهذي ويهلوس. ميَّز قمر الدين اســـم ذي العزة وجبرائيل وميكائيل والملاك رقم 8723. كان ينطـــق رقم الملاك بالفرنســـية، وكأنه عدّاد كهرباء. لا يا قمر الديـــن. الرجل ذهب بعيدا في تقمُّص الدور حتى خرج عن النص. شـــعَر قمر الدين بالهلع. كان يريد معاقبة المحجوب على وشـــايته

بهـــذا المقلب. فركة أذن لا أقل ولا أكثر. لكـــن الرجل جُنَّ يا قمر الدين. جُنَّ الرجل.

طوّقت الشـــرطة المكان. وجدَت صعوبةً في تفريق الحشـــود. روّاد جامع الفنا يموتون في الفرجة ولأجلها يؤمُّون الساحة صباح مساء ويتوزّعون على حلقاتها. وهذه فرجة مُبتَكَرة لا مثيل لها في حلقات الشّطّاحين والحكواتيين. فُرجة طازجة. مثل عصير البرتقال الذي تؤثث عرباتُه جنبات الساحة. حضر الصحافيون أيضا وبدؤوا يصوّرون مشـــهد إلقاء القبض على المجنون الذي روّع جامع الفنا هذا الصباح.

حيـــن مرّ قمر الدين من أمام مســـجد النور وهو في طريقه إلى الســـيبر عائدا من جامع الفنا، سمع الســـي بلفقيه يلقي خطبته. كان دماغُه مشوّشا فلم يتبيّن موضوع الخطبة. فكّر في أنهم جميعا هناك ينصتون بورع أصيل أو مفتعل: الأســـتاذ السيوطي. مولاي أحمد الملخة. الحاج بيهي مول المخبزة. سليم الذي يصلّي الجمعة فقط. لكن المحجـــوب ديدي ليس بينهم. لأول مرة يتخلّف أبو قتادة عن صلاة الجمعة بمسجد الحيّ. دمعت عينا قمر الدين. فكّر في ولوج المسجد ليصلي معهم ويستغفر ربّه. لكنه لم يستطع. تابع باتجاه السيبر. كان وجهه ممتقعا وعليه أمارات التعب. حاول أن يتجاهل الجميع ويدفن نفســـه في أول جهاز. لكن كل أفراد العصابة كانوا هناك، متحلقين

حول جهاز واحد. حتى الأفريكانو الثلاثة كانوا بينهم.

- آجي آجي آ قمر الدين، نادته سميرة بصوت رفيع، آجي تشوف على مصيبة.

كانوا متحلقين حول رحّال يشاهدون بشكل جماعي فيديو نشرته هوت ماروك للتّوّ ضمن أخبارها العاجلة: سلفي مجنون يُغير على ساحة جامع الفنا ويروّع السياح في مراكش (فيديو الاعتقال).

13

في "دابا مراكش" نُشر الخبر أول مرة: وفاة سيدة أثناء الوضع بدار الولادة بالمسيرة بسبب نقص الدم في المستشفى. ثم أعادت "هوت ماروك" نشره في صفحة مجتمع بعد أخذ تصريحات الزوج المكلوم وإحدى المولِّدات والمندوب الجهوي لوزارة الصحة بمراكش. الراحلة كانت بصدد ولادتها الأولى. شابة في الرابعة والعشرين. زوجها سائق تاكسي وعضو المكتب النقابي لسائقي التاكسيات.

مرّ سليم على السيبر ذلك الصباح حين صادف اليزيد يُهيّئ لافتات الوقفة التي ستشارك فيها أسرة الضحية وعدد من زملاء زوجها في نقابة سائقي التاكسيات ولفيف من محترفي الاحتجاج في الحي. أم سليم ممرّضة في دار الولادة والأمر يعنيها. لذا ركض سليم إلى هناك ليُشعِر أمه بالاعتصام.

ويبدو أن أم سليم قامت باللازم، فبعد ساعة فقط جاء الحارس العام لدار الولادة إلى السيبر. طلب من اليزيد أن يكتب له لافتتَيْن ليواجهوا بهما المعتصمين.

- لن أكتب لك اللافتتين بخطّ النسخ وإنما بخطّ الرقعة، اشترط اليزيد على الحارس العام..

- وما الفرق؟

- لا.. فقط لأنني كتبت للمعتصمين بخطّ النسخ. ولا أريد أن يتّهموني بخيانتهم.

- اكتب حتى بخطّ المسخ إن شئت. لا تُدخلني في هذه التفاصيل رجاءً. المهم أن يكون الشعار مقروءًا لتصل الرسالة.

إنما للحارس العام شرطُهُ هو الآخر: أن يكون مكبّر الصوت من نصيبهم، وأن يحتكروا استعماله خلال الوقفة.

شـعارات المعتصمين ندّدت بالتسـيّب والفوضى اللذان تتخبّط فيهما مستشـفيات المملكة. شتموا وزير الصحة ورئيس الحكومة. ردّدوا شعاراتهم لأزيد من نصف ساعة. كانت مديرة دار الولادة قد أعطت الأوامر بإغلاق الباب الذي كان مكوّنا من قضبان سميكة لا تحجب الرؤية ولا التواصل بين الخارج والداخل. بعد نصف ساعة خرجت مولّدات وموظفو دار الولادة إلى السـاحة. كانوا يحملون

لافتتَيْن مكتوبتَيْن بخطّ الرقعة: واحدة تترحّم على الفقيدة وتعلن حداد المستشفى على وفاتها. والثانية تطرح سؤالا لم يكن في حسبان المتظاهرين.

السؤال الموجع لم يبق حبيس اللافتة لأن مديرة دار الولادة قرّرت أن تُفصِّل فيه مع جحافل المتظاهرين. حملت مُكبِّر الصوت وتقدمت نحوَهم برباطة جأش:

"كلنا في حداد اليوم أيها الإخوان. كلنا موجوعون. وكلنا تألمنا حين خُطِفت منا تلك البُنيّة في ريعان شبابها. لكن لسنا لوحدنا مسؤولين. اسمحوا ليَّ آ الإخوان. هذا ماشي مشكل إدارتنا بوحدها، ولا ديال وزير الصحة بوحدو، ولا ديال رئيس الحكومة بوحدو. هذا مشكل ديالكم. السيدة ما لقيناش لها الدم لا هنا ولا ف الصبيطار الكبير. الغالب الله. ما عندناش معامل كا نصنعوا فيها الدم الله يجازيكم. انتم اللي خصّكم تعطونا الدم. بالله عليكم آ الإخوان، خلّونا نتكلّم بصراحة، شكون فيكم هنا اللي عمرو تبرّع بالدم ديالو؟ شكون فيكم عندو بطاقة ديال التبرّع بالدم بغيتو دابا يقول أنا؟ باين لي: لا أحد. إيوا، الشعارات راهم ساهلين، والغوات ساهل. المعقول اللي صعيب. وحتى دابا الحملة راها بدات اليوم. واللي فعلا باغي الخير لوليدات الناس وبنيّاتهم، من غدا الصباح يمكن لو يقصد مركز تحاقن الدم ويعطي الدم ديالو. إن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملا. ودابا الله

يكثر خيركم، الفاتحة على روح هاذ البنيّة اللي ضعنا فيها كاملين. خلّونا نقراو الفاتحة مجموعين".

اندهش اليزيد وهو يرى الحارس يفتح الباب على مصراعيه. تقدمت المديرة بضع خطوات باتجاه المتظاهرين، فتبعتها المولّدات ثمّ الموظفون والحارس العام. رفع الجميع أكفّ الضراعة إلى السماء وشرعوا في قراءة الفاتحة. كانوا قد بلغوا ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ حينما التحق بهم اليزيد ورابح.

آمين، صدق الله العظيم. تقدّمت مديرة دار الولادة من زوج الضحية. عانقته وهي تبكي. عزّته في زوجته. استشعر الزوج المكلوم بين أحضانها دِفْئا أموميًّا صادقًا. عانقها بدوره وهو ينشج وتقبّل مشاعرها بعينين دامعتين. أما اليزيد فقد هرع إلى الحارس العام ليسترجع منه مكبّر الصوت ويستخلص بقية الحساب.

14

لم يتوقّع رحّال أنّ الأخطبوط الذي بدأ يتحرّك بقوة في المشهد السياسي المغربي وعلى المواقع المحلية والوطنية بدْءًا بـ"هوت ماروك" حتى "دابا مراكش" سيتوغّل في حيّ المسيرة، وتتسرّب إحدى أذرعه الطويلة داخل السيبر. لكن هذا بالضبط ما حدث. صحيح أن الانتخابات على الأبواب، والحملة الانتخابية ستنطلق قريبًا جدًّا، لكنّ السنجاب لم يتصوّر أنَّ المكْمَن الآمن الذي يلبدُ فيه هنا في السيبر سيُنْتَهَك بهذا الشكل ليصير في قلب الحدث. الأكثر طرافة أن اليزيد بالذات من أبلغه القرار. إذ طلب منه - بغلظة مُشَغِّلٍ فظّ - أن يُحضِّر نفسه منذ الآن لحملة انتخابية قوية ستنطلق من هنا. من قلب السيبركافي.

لكن ما علاقة هذا بذاك؟

وما دَخْل اليزيد بالموضوع؟

ليلًا، في سهرتهما الاعتيادية الخاملة أمام التليفزيون حيث كان مذيع القناة الأولى يُقدّم النشرة الإخبارية الأخيرة، أكّدت له حسنية، وهي تحفر بشهية مخيفة أخدودًا عميقًا في قلب طاجين القرع الأحمر بالغنمي المنذور لغداء الغد، أنّ الخبر صحيح. فالاستعدادات جاريةٌ على قدم وساق في المدرسة. كلّ المدرّسين وعدوا بدعم عماد القطيفة في الانتخابات المقبلة. بل وبدأوا يتّصلون بآباء وأولياء التلاميذ لحشدهم أيضًا.

- والسيبر؟

- بالنسبة إلى السيبر، علمتُ من هيام أن أحد مناضلي الحزب البارزين على مستوى الحيّ، واسمه مولاي اليزيد المْلخَة، من رواد "أشبال الأطلس". لذلك كلّفه المكتب المحلي للحزب بأن يشرف بنفسه على إدارة حملة عماد انطلاقا من السيبر.

- اليزيد؟

- ستقول إنك لا تعرفه. دائما.. كالعادة.. مثل الأطرش في الزّفّة.

- لا يا حسنية. أنا أعرف اليزيد جيدًا. لكنك تتحدّثين عنه بصفته مناضلا بارزا في حزب الأخطبوط. يعني، منذ متى؟

- وتسألني أنا؟ منذ متى؟

رفعت حسنية يدها عن الطاجين وحدّقت في وجه رحّال لأوّل مرة خلال هذا الحوار. صمتت هنيهة ثم امَّحَى من وجهها فجأة ذلك الاستعداد الطبيعي لتقريعه، ليحلّ محله طيف ابتسامة لئيمة. أردفت وهي تشيح بوجهها عنه، لتثبت عينيها من جديد على الشاشة:

- منذ تأسيس الحزب. يعني من زمان.

ابتسم السنجاب بدوره. فقد تمَّ الإعلان عن تأسيس الحزب قبل شهرين تقريبًا وها هو يستعد للانتخابات بحماس غير مسبوق خصوصا بعدما بدأت قوافل الرُّحَّل، من الأعيان والوجهاء وشيوخ القبائل وتجّار الانتخابات، تحجّ إليه من كلِّ فجٍّ حزبيٍّ عقيم. من اليمين واليسار والوسط، بل ومن القيعان أيضًا. مُنخرطو الحزب يتضاعفون بشكل مذهل رغم العزوف العام عن الشأن السياسي في البلد. فللأخطبوط قدرة عجيبة على التكاثر عن بُعْد، ودون أن يحصل بين الذكر والأنثى أيُّ اتصالٍ مباشر، لذلك اعتُبِر هذا الالتحاق الجماعي التلقائي للأعيان بالحزب دليلًا على أن للرقم الجديد مِن رمزِه نصيب. أيضًا، ولأن أذرُع الأخطبوط تتوفّر على ممَصّات قوية تتيح لها الإمساك بفرائسها من الأسماك الصغيرة والأحياء المائية الأخرى بسهولة، تمكَّن الحزب من ابتلاع عدد من الأحزاب الصغيرة التي كانت في السابق مجرد دكاكين انتخابية تفتح أبوابها مع كلّ سوق انتخابي

قبل أن تخْلد إلى بياتها السياسي مباشرةً بعد الاقتراع. الأخطبوط عرف كيف يشفط هذه الأحزاب ويحوّلها إلى دم إضافي يجري في شرايينه ليتعَمْلق هذا الحيوان القانِص بالتدريج حتى صار يبدو مثل وحش بحري جبّار كذاك الذي تقدّمه السينما بغير قليلٍ من المبالغة. وحشٌ يُغرق السفن ويُرهِب الحيتان ويُخيف العابرَ والمسافرَ وكلّ من سوّلت له نفسُه الإبحار وسط لجَجِ الخضمّ السياسي المغربي. زعيم الحزب موحى الصنهاجي المنتشي بالانتصارات التي حقّقَها حزبه منذ البداية، وحتى قبل أن يخوض أيّ نزال، أكّد في حوار مفصّل خصّ به صحيفة المستقبل وأعادت نشره هوت ماروك أن الأخطبوط سينشر أذرعه إن شاء اللـه على كل جهات المملكة. بل وسيغطّي المغرب من طنجة إلى الكْويرة، ليحتلّ صدارة الأحزاب من حيث عدد الترشيحات.

- لكن ماذا عن عماد القطيفة؟

- مالو عماد؟! أجابته حسنية مستغربة وكأن السؤال فاجأها.

- يعني. ما دخلُه بالموضوع؟

- عماد هو مرشح الحزب للبرلمان في المسيرة والأحياء المجاورة عن دائرة مراكش المنارة. فهل لديك اعتراض؟

- لا أبدًا، ردّ السنجاب على الفور بارتباكٍ أضحك حسنية، أبدًا أبدًا. لا يمكن أن يكون لديّ اعتراض.

- لا يمكن؟ بل لا يجوز. ثم مَنْ أنت لتعترض؟

كانت نظرَتُها إليه ساخرة يباطِنُها بعض الاحتقار. خفض رحّال عينيه لتُحوِّل حسنية بدورها بصرها نحو النافذة المفتوحة. كان قد قرّر إقفال الموضوع حين سمع حسنية تنطلق من تلقاء نفسها لتختصر له الحكاية كلها بوضوحِ رُؤية فاجأ السنجاب.

- عماد شخص بسيط لا علاقة له بالسياسة ولا بالأحزاب. لكنّ قرار تعيينه مرشّحًا باسم الأخطبوط في هذه الدائرة حُسِم من طرف المكتب الجهوي للحزب دون استشارته، ولم يكن بإمكانه الرفض. شقيقه الدكتور عبد المولى بنفسه أكّد له أنه لا يستطيع الرّفض، ولا مفرّ من القبول. هكذا وجد نفسه يمارس السياسة رغم أنفه. عبد المولى وهيام وأصدقاؤه كلهم أكّدوا له أنه سيكون من الحمق رفض هدية كهذه. الحُظوة والمكانة والمقعد البرلماني، هذه أمور لا يرفضها سوى معتوه.

- طبعًا طبعًا، غمغم السنجاب. لكن حسنية كانت قد أوقفت حوارهما الاستثنائي ورفعت صوت التليفزيون لتتابع باهتمام ربورتاجا تبثّه النشرة حول المجهود الذي تبذله الحكومة لتجديد المخزون السَّمكي الوطني من الرخويات وشروع وزارة الصيد البحري في تنفيذ مُخطّط وطني لتهيئة مصايد الأخطبوط.

ياه، هل لذلك علاقة بالرقم الحزبيّ الجديد؟

ربما هي مجرّد مصادفة. لكن، فعلا أيها السنجاب؛ كان البشير المرابطي، صديق موحى الصنهاجي الذي لم يجد هذا الأخير أجدرَ بثِقته منه ليستأمِنَه على ذراع الاخطبوط بمراكش وأحوازها، موفّقًا في تعيينه لعماد القطيفة. المُغرضون يزعمون أن الأخطبوط يُعيِّن مرشّـحيه بناءً على تقارير أمنية دقيقــة تنجزها الأجهزة وتضعها رهن إشارة الإطار الأمني المتقاعد موحى الصنهاجي. وبعدها يتمُّ الاتصال بهؤلاء لاستقطابهم ليس إلى الحزب فقط، بل إلى السياسة ومُعتركِها. المُوالون للأخطبوط وجدوا في هذه الطريقة أسلوبا مبتكَرًا وغير تقليدي لتجديد النخب السياسية. لكن كيفما كان الحال، اختيار عماد كان موفّقًا. شخصٌ سُمْعته طيبة، وهو نفسُه دَمِثٌ كريمُ النّفس رغم كراهيتكَ غير المبرّرة له أيها الســنجاب. ثلث سكان المسيرة ما كانوا ليفرشوا شققهم بأريحية لولا التقسيط المريح الذي اقترحه عليهـم ولا يزال. فلِمَ لا يصوّتون عليه غــدا؟ كل الوجوه الحزبية المبتذلة التي كانت تهيّئ نفسها للترشح في المسيرة أُسْقِط في يدها. فعماد وجهٌ جديدٌ غيرُ مســتهلَك. ترشيحه أربك الجميع بما في ذلك حزب النّاقة الذي أصدر فيما بعد بلاغا يحذّر فيه شرفاء هذا الوطن من الأخطبوط وشفّاطاته وأذرعه التي ستلتوي عليهم لتهبط بهم إلى القيعان حيث يُعشِّش الفساد وتنتشر المبايض المشبوهة.

15

إيه يا رحّال، هل تذكر حلقات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب؟ كان المشهد الحزبي واضحا تلك الأيام. الاصطفافات واضحة والتحالفات الحزبية يسهل تخمينها. اليسار يسار، واليمين يمين، ولم يكن هناك من وسطٍ حقًّا أيام الحسن الثاني. كان المناضلون في الحلقات يناقشون المرجعيات الإيديولوجية للأحزاب، ويقتلون برامجها الانتخابية بحثا رغم أن أغلبهم أصلًا لا يصوّتون. فالرفاق القاعديون والإخوان في العدل والإحسان لا "ثقة لهم لا في النظام ولا في البرلمان" كما يقول شعارهم الشهير. تذكُر يا رحال يوم أخذَتْ مناقشةُ اسم "منظمة العمل الديمقراطي الشعبي" من زمن الرفاق صبيحة كاملة. لماذا الديمقراطي أولًا ليُدرَج التحام المنظمة بالقوات الشعبية في الدرجة

الثانية؟ ما دلالة ذلك؟ ولماذا استبعد الاتحاد الاشتراكي الديمقراطيةَ من تسميته؟ نقاشاتٌ لا تخلو من سفسطةٍ وإسقاطٍ وليٍّ لأعناق المقولات السياسية، لكنها كانت نقاشات حقيقية، فيها جدّية وإصرار على المبادئ فقدَهُ سياسيو هذا الزمن.

اليوم لا أحد يهتمّ لا ليمين ولا ليسار. حتى الأحزاب لا أحد يهتمّ لأسمائها أصلًا ليدقّق في خلفياتها الفكرية والإيديولوجية. الكلّ ينادي الأحزاب برموزها. الأخطبوط والنّاقة والحصان والنّملة والبلشون والمكنسة والطائرة والفأس والشمعدان واليد في اليد وسمّاعة الطبيب. الرّموز تكفي. حتى الرّقم الجديد، الكل في الصحف والإذاعة والتليفزيون وفي هوت ماروك أيضًا يقدِّمونه كأخطبوط. كأخطبوط فقط. هكذا ببساطة. هذه الثروة الوطنية التي جاد بها المحيط الأطلسي على بلادنا والتي يعتبرُها المغاربة مصدرًا مهمًّا من مصادر العملة الصعبة، خصوصا في معاملاتنا التجارية مع اليابانيين والإسبان. هذه الثروة المباركة هي رمز الرقم الحزبي الجديد. والرموز تكفي. "فاللبيب بالإشارة يفهم - كما كرّر البشير المرابطي أكثر من مرة خلال اجتماع الحزب التحضيري الأول للحملة الانتخابية الذي ترأسه بالسيبر - أمّا المرجعيات والإيديولوجيات فكلام فارغ. البرامج بدورها كلام فارغ. واحنا عيينا من الكلام. الناس باغية المعقول. لهذا نحن لا نقول لا اشتراكية ولا ليبرالية ولا باكور هندي. نقول لهم "المعقول". البلاد باغية المعقول. واحنا اخترنا لهم ناس ديال المعقول. ما كايهمّناش

واش هم أعيان أو ناس بسطاء، اللي كا يهمّنا هو يكونوا "معقول" باش يثقوا فيهم المغاربة. أمّا برنامج الحزب، فليس لنا أيّ برنامج غير بقاوْا على خاطركم".

كان اليزيد الغارق وسط بذلة زيتية فضفاضة، استلفها دون شكّ من أحد الجيران في آخر لحظة، يتوسّط البشير وعماد على منصة صغيرة تمّ ارتجالُها في عمق السيبر، فيما رحّال ورابح يساعدان أسماء في توزيع طلبيّات القهوة والشاي والليمونادة على الحاضرين. أسماء تقطع شارع الداخلة المزدحم بالسيارات والدرّاجات بدُربة وخفّة. صينية الطلبيّات في يدها وهي تتحرّك برشاقة خصوصًا وأن اللبؤة فقدت خلال الأشهر الأخيرة نصف وزنها تقريبا. العربي، صاحب مقهى ميلانو، ينصت في الصف الأخير لخطاب الأمين الجهوي للحزب ويراقب حركة أسماء النشيطة برضى. الصف الأول ضمّ وجوه الحزب البارزة في مراكش. لم يكن رحّال يتخيّل للحظة واحدة أن الفيل سيكون في الطليعة. أستاذه بوشعيب المخلوفي شخصيًّا يتصدّر الصف الأول. إلى جانب مَنْ يا رحّال؟ إلى جانب من؟ هل تصدّق عينيك؟ عزيز السلوقي الذي يبدو أنه تجاوز الهزّة التي تعرّض لها إثر وفاة والده، فطوّحت به حينها إلى حضن "العدل والإحسان"، ها هو يعود للصيد من جديد لحساب الأخطبوط هذه المرّة. بدا منظر الفيل والسلوقي متجاوِرَيْن في الصف الأول مضحكًا. لكن، هذا ليس وقت الضحك يا رحّال. كان السنجاب يتحرّك في

محله كالغريب. لا، ليس تمامًا. لنقُل كخادم. كخادم وضيع. لم يتذكّره لا الفيل ولا السلوقي. حيّاه عماد بلطف في البداية ثم نسي وجوده. هيام لا تراه. فهو ممسوخٌ من مجالها البصري. مدرّسو "أشبال الأطلس" لا يعرفونه. أو كأنّهم لا يعرفونه. القنفذة لابِدَة في الركن تتابع اللقاء في صمت. لم تلتق عيناه على طول الاجتماع بعينيها الضيقتين سوى مرةٍ واحدة. حتى الشاي الذي تحتسيه في ركنها طلبته من أسماء مباشرة. اليزيد لم يكن يتوانى في إغداق الأوامر عليه، بمناسبة ومن دونها، وبالكثير من العجرفة. حتى قمر الدين استغل الفرصة ونكّل به. المشروبات مجّانية على ما يبدو، أي على حساب عماد القطيفة، لذلك طلب منه في البداية قنينة كوكاكولا، وبعد أن أجهز عليها، طلب عصير أناناس بالبرتقال. كان الوحيد الذي طلب العصير بين الحاضرين، وها هو الآن يطلب من جديد:

- كافي كْريم آخويا رحّال. كافي كْريم اللـه يخلّيك.

كان رحّال منحنيا على قمر الدين يتلقّى طلبه الثالث، حين لوّح عماد بيده. كاد العربي، صاحب مقهى ميلانو، يهبّ بنفسه لتلبية طلب عماد لولا أن أسماء كانت في المكان المناسب، فخفّت إليه.

- آتاي آ بنتي اللـه يخلّيك. آتاي آخر للأستاذ.

سحبت أسماء البرّاد الصغير البارد من أمام السي البشير وذهبت إلى المقهى لتجدّد للأمين العام الجهوي شايه، فيما رحّال يركض

وراءها ليبلّغها الطّلبيات الجديدة لكل من قمر الدين ومولاي أحمد المْلخَة.

تنحنح السي البشير ورشف من كأس الشاي البارد أمامه رشفتين ثم استأنف خطابه:

"أرجوكم لا تفهموني خطأً حين أقول ليس لدينا برنامج. هذا لا يعني أننا حزبٌ لا رؤية له ولا مشروع. بل مشروعنا واضح. فنحن اكتشفنا أنّ أحسن مشروع يمكن لحزب سياسي وطني صادق أن يتبنّاه ويدافع عنه في المغرب اليوم هو مشروع صاحب الجلالة نصره اللـه. صاحب الجلالة فتح أوراشًا هائلة في مختلف جهات المملكة بدْءًا بمخطط المغرب الاخضر الذي أطلق في البلاد ثورة فلاحية حقيقية، والمخطّط الأزرق الذي ضاعف عدد السياح الوافدين على بلادنا كما ضاعف الطاقة الإيوائية لمدننا السياحية، وانتهاء بميناء طنجة المتوسطي، هذا المركّب المينائي الضخم الذي سيغيّر وجه شمال المملكة. نحن مع هذه الأوراش ومع مشروع التأهيل الاقتصادي للبلد. صاحب الجلالة أطلق مبادرة عبقرية لا نظير لها في كل العالم العربي وهي المبادرة الوطنية للتنمية البشرية التي استفاد من برامجها ومشاريعها المُدِرّة للدّخل أكثر من تسعة ملايين شخص من الفئات الهشّة، ومن الطبيعي أن نكون مع المشروع الفذّ لجلالة الملك في مجال التأهيل الاجتماعي للمغاربة. حتى حقلُنا

الديني، لولا عبقرية السلاطين المغاربة الذين وحَّدُونا على عقيدة الأشعري ومذهب الإمام مالك لكُنّا اليوم نهبًا للاحتراب الطائفي على غرار ما تعرفه بعض بلدان المشرق العربي. لذا من الطبيعي أن نعتصم بحبل إمارة المؤمنين ضدّ كلّ مُندسّ يريد نسف الأمن الروحي للمغاربة، وكل متطرّف ينشُد الفتنة ويبشّر بالإرهاب، وكل من سوَّلت له نفسه المتاجرة بديننا الحنيف والزّجّ به في الصراعات الحزبية. لهذا نفضّل أن نلتفّ حول أمير المؤمنين، حامي حِمَى الملّة والدين، لكي نحفظ لهذا البلد الأمين استقراره. هذه باختصار رؤيتنا وبرنامجنا ومشروعنا. وبيني وبينكم، وبلا ما نكثّر الهضرة، دعوني أقولها لكم اليوم بكل شجاعة سياسية: نحن جنود مُجنّدون وراء صاحب الجلالة، واللي ما عجبو الحال من أعداء الوطن يشرب البحر".

اهتزّ السـيبر بالتّصفيق. كان الارتيـاح باديًا على وجه عماد. ارتياحٌ يباطِنُه إحساسٌ عارم بالفخر. فالبشير المرابطي نجمٌ من نجوم السياسة في البلد. منذ طفولته وهو يشاهده على الشاشة يخطب في التليفزيون. برلماني منذ أزيد من ثلاثين سنة. كان من مؤسِّسي حزب اليد في اليد، قبل أن يتحوّل إلى حزب البلشون. الانتخابات الأخيرة دخلها مع حزب الطاحونة، وهـو اليوم من أهمّ أذرع الأخطبوط. ولـولا توجيهات الحزب الصارمة التي ألزمـت القيادات الوطنية والجهوية بالنزول إلى الناس لدعم مرشّحي الحزب، لما حلم عماد

بتشريف البشير المرابطي لسيبر أشبال الأطلس المتواضع في هذه المناسبة الباذخة.

حاول الكلب والسلوقي رفع شعار الحزب، لكنّ اليزيد أخطأ منذ الجملة الأولى فجذبه البشير من كُمّ السترة التي استعارها من الجيران، طالبًا منه الهدوء. الكل لاحظ ذلك. اليزيد ارتبك قليلا، لكنّ البشير طيّب خاطره بنظرة أبوية حانية، وأردف: "نحن حزب جديد. ما زال عندنا الوقت آ السي اليزيد. ف اللقاءات المقبلة غادي نكون كلّنا حافظين الشعار إن شاء اللـه وغادي نردّدوه بصوت واحد. احنا الآن عاد باديين. وعاد كانبني جْميع هاذ الكيان الحزبي المبارك الذي أطلق عليه الصحافيون سامحهم اللـه لقب "الرقم الجديد". احنا ماشي رقم. احنا ماشي رقم اللـه يخلّيكم - قالها بنرفزة هذه المرّة - احنا حزب ديال المغاربة. والمغاربة الأحرار ماشي خُشَيْبات. وماشي أرقام. وما دام الشيء بالشيء يذكر، وعلى ذكر الشعار، هناك سرّ سأبوح لكم به - بدأ يتكلّم بصوت خفيض يختلج تأثرًا، فيما ران صمت مطبق داخل السيبر - هل تعرفون أن الأمين العام ديالنا السي موحى الصنهاجي حفظه اللـه من النهار الأول رفض باش نحدّد شعار ديال الحزب؟ ألححنا عليه في المكتب المركزي لكنه رفض رفضًا قاطعًا. قال لنا وعيناه مغرورقتان بالدمع: احنا عندنا شعار واحد هو شعار المغاربة كاملين "اللـه، الوطن، الملك". وعندنا نشيد واحد هو النشيد الوطني. السي موحى حفظه اللـه اختصر

هوية الحزب كاملة ف هاذ الجواب. صحيح أننا فيما بعد ألّفْنا شعار الحزب اللي غادي نجيبو ليكم مطبوع ونوزّعو عليكم باش تحفظوه. كتبناه فقط لكي لا يقول الأعداء والمتربّصون أننا نريد خوصصة الوطن. آ سيدي ها هو شعار الحزب أمامكم. بحالنا بحال الأحزاب الأخرى. ولكن ديروا ف بالكم أن المغرب بلد إجماع. حتى مغنُّو الرّاب والهيب هوب، اللي ف بلدان أخرى يعارضون حكوماتهم، احنا كلهم كايغنّيوا بصوت واحد من أجل المغرب. وشعارهم الذي تعرفونه جميعًا هو "مغاربة حتى لموت". هذا هو الاستثناء المغربي. واحنا عارفين بأن اللي قلبُه على هاذ البلد غادي يبقى مغربي حتى الموت، شعاره الأول والأخير: اللـه، الوطن، الملك".

كانت أسماء تحاول اختراق الصفوف بصينية الطّلبيات الجديدة، حين اهتزّ حولها السيبر بالتصفيق.

16

لحسن الحظّ أنّ صحيفة المستقبل فتحت أمام نعيم مرزوق ملاذًا يتنفّس على صفحاته هواءً مختلفًا، ويحقّق عبرَهُ نجوميته مع جمهور لا يُستهان به: شعب المقاهي. شعب أتاي بالنّعناع وقهوة نصّ نصّ. هوت ماروك بصراحة بدأت تخنقه. تضيق به ويضيق بها. مُذ آلت إلى المدعو أنور ميمي وانحدارُها يُثير أعصابه. شخصٌ كلُّ ما يجيده هو الكولسة والتّظارُف المقيت وصناعة التسيُّب. يعرف نعيم، بالتأكيد، أنَّ خلط الأوراق يندرج ضمن الخطّ التحريري لهوت ماروك. لكن حتى الأوراق يا ميمي تُخلَط بفنّ. فتحُ باب الصحيفة الإلكترونية على مصراعيه للتسيُّب التامّ والشامل على هذا النحو أمر مُحبِط. تسيُّبٌ في اللغة، في الأخبار، في انتقاء العناوين، في

صياغة المواد، في كل شيء. نعيم يبقى قلمًا رصينًا، نظريًا على الأقل. له معرفةٌ باللغة العربية، ويتصوّر أن الحدّ الأدنى من احترام اللغة ومعرفة قواعدها ضروريٌ لهذه المهنة. لم يستطع نعيم كظْمَ غيظِه. رأيُه في رئيس تحريره الجديد بدأ يتسرّب بالتدريج. فنعيم، على انطوائيته واحتفاظه عادةً بآرائه الخاصّة لنفسه - على اعتبار أنّ ما يُعبِّر عنه في عموده اليومي ليست آراء حُرّة خاصة به -، لم يعد يتحفّظ في إبداء تضايُقه من الانحطاط الذي بلغَتْه الصحيفة الإلكترونية في عهد أنور ميمي. صار يتندّر عليه أمام زملائه في هوت ماروك وأيضًا أمام صحافيي المستقبل. وتعريضاتُه تجد دائمًا من يوصلُها ساخنةً لميمي الذي يعرف، في قرارة نفسه، أن بإمكانه ممارسة صلاحياته كرئيس تحرير على الجميع إلّا على نعيم مرزوق. لذا لم يجد متنفّسًا غير سهراته اليومية في مطاعم الدار البيضاء وكاباريهاتها، فما إن يتعتعه السكر حتى يشرع في التّشنيع على غريمه. كل الذين يُثْنون بمحْضَرِه على نعيم مرزوق ظنًّا منهم أنهم يجاملون ميمي بهذا الثناء، ينبري ليشرح لهم أنّ نعيم ليس الكاتب الحقيقي للأعمدة التي تُوَقّع باسمه. فالمقالات تأتي ناجزةً من جهات نافذة. هو فقط يرصِّعها بتوشياته وشقلباته اللغوية ويضيف إليها بعضًا من بهاراته قبل أن يمهرها بتوقيعه. هكذا وجد الحرباء نفسهُ في صراع خفيٍّ مع نمس.

نسيتُ أن أخبركم بأن ميمي نمسٌ مُستأنِس. قد ينخدع البعض

لِمَلْمَس فرْوِه الناعم وقِصَر قوائمه، إلّا أن أصابعه تنتهي ببراثن حادّة. عمومًا، هو لا تخيفه الزّواحف على اختلاف أنواعها. حتى التماسيح بجلالة قدرها اتّخذ من بيضها غذاء أثيرًا له. أما براعةُ النّمس في القضاء على الأفاعي السّامة فمعروفة، فما بالك وخصمُه هذه المرة ليس أكثر من حرباء.

بدأت الأمور تتوتّر أكثر عندما أصدر التنوفي نسخة إلكترونية من جريدته. هكذا صار عمود نعيم مرزوق يُنشَر في "المستقبل الإلكتروني" في نفس وقت صدوره في هوت ماروك. أحيانًا يقرأه ميمي على موقع المستقبل قبل أن تكون هوت ماروك قد نشرَتْه. صحيحٌ أن الذين يحرّكون العجلة من الخلف لا يهتمّون لهذه التفاصيل، فهوت ماروك والمستقبل بالنسبة إليهم سيّان. لكن، عليك يا ميمي أن تحمي منبرك، ليحافظ على صدارتِه التي بدأت "المستقبل الإلكتروني" تنافسه عليها. كان يتألم أكثر وهو يرى تحقيقًا عكف عليه طاقم جريدته لأكثر من أسبوع، يوضع ببشاعة أمام نعيم مرزوق الذي لا يفعل أكثر من إعادة صياغته بأسلوبه الذي صار مستهلكًا، والعهدة على ميمي، ثم يُنشر في المستقبل الإلكتروني قَبْل هوت ماروك. لكن، لمن ستشتكي يا ميمي؟ لمن؟ لذلك لا بأس من الصبر، وقليل من المناورة. والنمس، طبعًا، بارعٌ في المناورة.

لم يعد ميمي يضع أمام نعيم جميع المعطيات التي تتوفّر لديه

على ما في ذلك من مخالفةٍ للتوجيهات. يحتفظ ببعض منها ليصنع بها السّكوب في الصفحة الرئيسية لهوت ماروك. هكذا صارت أعمدة نعيم مرزوق تتكامل مع ما تنشره هوت ماروك على صدر الرئيسية بطريقة تحفظ للصحيفة الإلكترونية ماء الوجه. وبالتدريج، بدأ ميمي ينال من أسطورة نعيم مرزوق الذي كان القرّاء يقولون إن عموده يُغْني عن قراءة الصفحات الأولى لكلّ الجرائد الوطنية ورقيةً وإلكترونية. نعيم أحسّ بالمقلب، لكن هو الآخر لا يمكنه أن يشتكي. حينما تصله المعطيات من جهات أخرى يعرف أنها كاملة، وما عليه إلا أن يُتبِّلها ببهاراته ويُسبغ عليها من شُروره ولَسَعاته وشقلباته الحِجَاجية المُلفَّقة، والمُفحِمَة مع ذلك. لكن حين تأتيه من ميمي، يعرف أن عليه أن يبذل مجهودًا مُضاعفًا مع المقال ويضيف إليه المزيد من البهارات، من الفلفل بشكل خاص، ليُعوِّض بعض التفاصيل الأساسية التي لا شكّ أن ميمي حجبها عنه، وهي المعطيات التي يبرع النمس في اللعب عليها في عنوان مقالته الرئيسية بهوت ماروك بشكلٍ يجعل نعيم يبدو أحيانًا في وضعية شرود.. أو على الأقل، في وضع المحلّل الذي غاب عنه كُنْه الملفات والقضايا.

كانت المناورات تتمُّ في الخفاء. لا يعلم بها غيرهما. عمومًا نعيم مرزوق أكبر من أن يحضُر اجتماعات هيئات التحرير، لا في هوت ماروك ولا في المستقبل. فهو عادةً ما يشتغل من بيته

ما دام الشغل يصله إلى عقر بريده الإلكتروني. لكن في المرّات القليلة التي يذهب فيها إلى هوت ماروك، يعانقه النمس بحرارة وكأنّ الأمور بينهما سمنٌ على عسل. يبتسم في وجهه بعذوبة، وأثناء الحديث، يضربه بتودُّد على كتفه بين الفينة والأخرى وهو يتظارف. يُسبِّل له عينيه بطريقته المخنّثة التي تبقى مُبتذلة مثيرة للاشمئزاز خصوصًا في نظر ذكوريٍّ أصيل مثل نعيم. لكن ما العمل؟ تلك طريقة النمس في الاحتفاء، وفي الإغواء أيضًا.

هي الحرب إذن. كلٌّ واحد يتربّص بصاحبه. لذلك حين وصله ذلك الإيميل الشّارِد من ميمي عن طريق الخطأ، لم يضيِّع نعيم الفرصة، فرصتَهُ ليستعيد قصب السبق.

كان مهدي آيت الحاج، الملياردير ووحش العقار المعروف بتورّطه في العديد من قضايا الفساد المالي، قد عاد إلى دائرة الضوء قبل أشهر. ملفان ثقيلان أمام المحكمة متابعتُهما إلى الآخر حسب المساطر الجاري بها العمل كانت كفيلة بزلزلة إمبراطوريته العقارية والزَّجِّ به وراء القضبان. لكن يبدو أن المفاوضات التي أجراها مع الأخطبوط والتي بموجبها تعهّد آيت الحاج بتمويل جزء من حملة الرقم الجديد في الانتخابات المقبلة في منطقته، على أن يرشّحه الحزب كوكيل للائحته في مدينته جعلت الملفّيْن يُرْكَنان إلى حين، في انتظار أن يُقْبَرا نهائيًّا. فما الذي جدَّ في الموضوع؟ الإيميل

الذي توصّل به نعيم من ميمي عن طريق الخطأ، يحمل معطيات شنيعة لم يسبق تداولها في الصحافة، معطيات يمكنها أن تنسفَ صورة آيت الحاج أمام الرّأي العام وتضطرَّ القضاءَ إلى إعادة فتح ملفّه فورًا ومُتابعتِه في حالة اعتقال هذه المرّة. وصلَهُ الإيميل تحت عنوان: قنبلة، سرّي جدًا. طبع نعيم الإيميل. كان قد بدأ يطّلع على المعطيات الشنيعة التي يتضمّنها بانشداه حين رنّ موبايله. ومثلما خمّن، كان ميمي على الخط.

- آلو حبيبي نعيم. صباح النور آ الغزال ديالي.

- صباح الخير، قالها نعيم بجفاف. فهو يكره أن يتغزّل به ذكرٌ هكذا.

- شوف آ الحبيب ديالي. وصلك مني واحد الإيميل دابا، ياك؟

ظلَّ نعيم صامتًا، فاسترسل ميمي في ارتباك:

- المهم، إذا وصلك مني شي إيميل هاذ الصباح، فراه وصلك غير بالخطأ. هذاك الإيميل بالضبط لا معنى له. سوقو خاوي. غير حيّدو من بالك آ الزّين ديالي. والأفضل أن تحذفه. ما عندك ما تعمل بيه. واخّا؟

ظلّ نعيم معتصمًا بحبل الصمت. فأعاد ميمي طلبه:

- واخّا آ حبيبي؟ هذاك الإيميل سـوقو خاوي. أقسـم لك. غير انسَهْ تمامًا.

أجاب نعيم بأنه استيقظ لتوّه، ولم يشرب قهوته بَعْد.

- القهوة أولًا يا ميمي، القهوة أوّلًا. وحالما أفتح علبتي الإلكترونية وأطّلع على بريدي لأفهم عمّ تتحدّث، سأواصلك.

لكن نعيم كان قد اتّخذ قراره. لن يضيّع هذه الفرصة. ميمي اللّعين يُناور معه. وهو يعرف مناوراته جيدًا. تسرّع فأرسل له الملف، والآن يريد الاحتيال عليه للالتفاف على الموضوع. ماذا ستنتظر يا نعيم؟ أن تقرأ الخبر بمعطياتِه المُزلزِلة على الصفحة الرئيسية لهوت ماروك، وبعدها تكتب عمودك على سبيل التعليق. صرت معلّقًا إذن يا نعيم على عهد أنور ميمي، معلقًا تافهًا من معلّقي هوت ماروك مثلك مثل ولد الشعب وأبي شرّ الغيفاري.

أبدًا. لن أفلت هذه الفرصة أيها المحتال.

كان ميمي قد قام من مكتبه واتّجه إلى الشرفة. فنجان القهوة في يده اليمنى والسيجارة في الأخرى. سحب نفسًا عميقًا ثم أطلق الدخان في الهواء. شرفة المكتب مفتوحة على مسجد الحسن الثاني العائم وسط مياه المحيط، على زرقة الأطلسي الهادئ هذا الصباح وكأن موجَهُ في إجازة، وعلى السماء الصافية الأديم. اليوم مشرقٌ جميل. والصبيحة هادئة. لعلّه الهدوء الذي يسبق العاصفة، فكّر ميمي وهو يبتسم بِلُؤم، فالحرباء الغبية ابتلعت الطعم.

17

دلف مبارك بائع ساندويتشات النقانق السيبر مهتاجًا وهرول رأسًا باتجاه المرحاض. حاول فتح الباب بتشنّج فوجده مغلقًا من الداخل، لذا صرخ محتجًا وهو يتلوّى:

- واش باقي هاذ الحمار هنا؟!

كان مبارك قد جاء قبل ربع ساعة ووجد المرحاض مشغولًا، وها هو لا يزال مغلقًا أمام مثانته المُحتقِنة.

- المصمودي ما زال بالداخل، أجابه قمر الدين وهو يداري ابتسامة خبيثة، فيما فضّل رحّال أن يدفن وجهه في كومبيوتره الشخصي وكأنه لا يرى ولا يسمع.

كان مبارك يتلوّى وهو يرطن بشتائم كتيمة. مبارك هو صاحب أرخص ساندويتشات نقانق في المسيرة كلها. منافسوه يتهامسون بأنه يبيع للشعب لحم الحمير. مستحيل أن يكون ما يحشو به تلك المصارين لحم عجل أو خروف. حتى النعجة قيمتُها في سوق المواشي لن تتيح له بيع نقانق لحمها بهذا الثمن البخس. لكنَّ نقانِقَه لذيذة ابن الكلب. رحّال بدوره كثيرًا ما التجأ إلى ساندويتشاته. ليس عن رغبة في التوفير. أبدًا. ولكن، لأنها لذيذة فعلا. مثانة مبارك ستنفجر. من الواضح أنه يُمسِكها بصعوبة. لم يُطِق صبرًا فبدأ يخبط الباب بقوة وهو يصرخ:

- آ المصمودي.. اطلقنا آ صاحبي.. واش كا تولد؟ ياكما نمشي نجيب لك القابلة؟ ها صبيطار الولادة قريب. غير حدانا.

التفت ليجد كلّ من في السيبر يتابع المشهد. ارتبك قليلا، لكنه حاول تجاوز ارتباكه بخفة دم فظّة:

- ما يكون هاذ ولد القحبة غير كا يكفّت دابا وأنا محصور كا نتلوّى.

الأفريكانو الثلاثة لم يفهموا أي شيء. فدوى وسميرة خفضتا بصرهما من الحرج. أما رحّال المقهور فانكمش في كرسيه، ومع ذلك ظل يشرئبّ برأسه متابعًا ما يحدث بوجه أصفر كالمبهوت. حاولَ تخيُّل المشهد: المصمودي الثخين بائع شوربة الحلزون بالأعشاب

يستمني داخل مرحاضه. فعلًا، الرجل منذ نصف ساعة وهو مُعتكِف بالداخل. فماذا عساه يفعل هناك؟

واصل مبارك الخبط على باب المرحاض. قبل أن تُسمَع حنحنة بالداخل:

- هاني خارج آ خويا مبارك، هاني خارج. دقيقة اللـه يحفظك.

منذ اللقاء الانتخابي الذي نُشرت عنه قصاصة قصيرة في "دابا مراكش" اعتبرَتْه اجتماعا حزبيا مغلقا لمُناضلي فرع الأخطبوط بحيّ المسيرة، بدأ رحّال يحسّ نفْسَه غريبًا في السيبر. صار اليزيد الآمر الناهي داخل المحل. ولأن عائلة "أشبال الأطلس" السيبرنيتية السعيدة حضرت عن بكرة أبيها، باستثناء الأفريكانو الثلاثة، ذلك اللقاء باعتبارهم أعضاء في الحزب - على الأقل، هكذا قدّمهم اليزيد للسي البشير وعماد - فَهُمْ جميعا على علمٍ بمقام اليزيد الجديد. رحّال عمومًا لا تطلّعات لديه في مجال المقامات. فهو لابِدٌ في مكانه يحرس مخلوقاته الافتراضية وينجز مهامّه اليومية على هوت ماروك ويُنسّق تدخُّلات ولد الشعب وأبي قتادة حسب توجيهات حذامِ كالعادة، إضافة إلى مهمته الروتينية في تسجيل مواقيت دخول الزبناء وخروجهم واستخلاص المُقابل منهم. حتى تنطُّع اليزيد وعنجهيتُه اعتاد عليهما، وليسا بالشيء الجديد. لكن ما قهر رحّال هو الكارت بلانش التي أعطاها اليزيد الكلب لبعض السفَلة من الباعة المتجوِّلين

الذين استقرّ بهم الحال في شارع الداخلة قرب السيبر لينتهكوا حُرمة المحل ويدنّسوا أكثر فضاءاته حميميّةً: المرحاض.

كان العربي صاحب مقهى ميلانو قد اتّخذ منذ أشهر قرارًا بإغلاق مرحاض المقهى في وجه هؤلاء. في البداية استأمن عجوزا في السبعين من العمر عليه. كلّفها بالاهتمام بنظافة المرحاض واستخلاص المقابل من مستعمليه سواء كانوا من روّاد المقهى، أو من الباعة المتجوّلين، وحتى العابرين. واعتبر ما تستخلصه العجوز من مرحاضه صدقة جارية. لكن الباعة المتجوّلين غالبا ما يرفضون أداء الدرهم الذي تطالبهم به العجوز. ولأن هذه الأخيرة على وهَنِها البادي كانت تعرف كيف تُجدّد طاقتها من خلال الصراخ، فقد صار المرحاض ومعه كل المقهى مسرحًا للمشاحنات اليومية والشتائم الشنيعة والصراخ: صياح العجوز الأشبه بالعويل والذي يتطوّر حين تتفاقم الأمور إلى ما يُشبِه جلجلة الفرس. العربي لم يُطِق هذه المعارك اليومية، ولم يطق أساسًا عويل العجوز، فما كان منه إلا أن سرّحها. أعطى المفتاح لأسماء، وأكّد عليها ألا تسلّمه إلا لزبناء المقهى.

وبما أن اليزيد المنخرط بحماس في الحملة الانتخابية - السابقة لأوانها - بدأ يُجري اتصالاته بالفرّاشة والباعة المتجوّلين، يسجّل أسماءهم ومجالات نشاطهم ويؤكّد لهم أن الحزب سيهتمّ لأمرهم

وسيُدرج أسماءهم ليستفيدوا من المساعدات التي تقدمها الدولة للفئات الهشّة في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، فقد أوحى لهؤلاء الأوباش، لإثبات حسن نيته والتأكيد على استعداده الصادق لمساعدتهم ورفع الضيم عنهم، أن بإمكانهم استعمال مرحاض السيبر مؤقّتا في انتظار أن يفوز عماد القطيفة في الانتخابات ويُشيِّد لهم مرحاضا عموميا في الحديقة الصغيرة المهملة جنب قنطرة شارع الداخلة. هكذا وجد رحّال نفسه إزاء محنة حقيقية.

المشكلة هي أنّ هؤلاء الأوغاد معتادون على مراحيض القرفصاء. لذلك، فالجلسة المريحة التي يُتيحها لهم مرحاضُ السيبر العصري لا تساعدهم كثيرًا. هكذا يستغرق عبور البراز أمعاءَهم الغليظة وَهُمْ على الكرسي النظيف العالي وقتا أطول ممّا اعتادوا عليه. لكن ما يفقع مرارة رحّال هو أن أغلبهم لا يسْحَبون الطّارِدَة ليتدفّق الماء دافعا فضلاتهم القذرة إلى البالوعة. يتركون كل شيء على حاله ويخرجون. يكفي أن يتخلّصوا من فضلاتهم ليخرجوا مهرولين لتفقُّد عرباتهم المجرورة وبضائعهم الرّثة المفروشة على الرصيف. نبّههم رحّال مرارًا. حتى قمر الدين تدخّل ليؤكّد لهم على ضرورة تنظيف المرحاض بعد استعماله. لكنهم لا يفعلون. هكذا انضافت إلى مهام رحّال مسؤولية جديدة - قذِرةٌ هذه المرّة - لم تكن في حسبانه أبدًا.

18

كان الأمر أشبه ببركان فجّرَه عمود نعيم مرزوق. ظهر المقال في جريدة المستقبل الورقية أوّلًا وبعدها على موقع المستقبل الإلكتروني. بركان نعيم مرزوق المباغت قذف بحِمَمه الملتهبة ذات اليمين وذات اليسار لتشبّ النيران في أكثر من سقيفة. اتصال هاتفي غامض توصّل به التنوفي على الموبايل جعله يدعو بارتباك رئيسَيْ تحرير المستقبل الورقية والإلكترونية إلى اجتماع مغلق. كان تائهًا مثل طفل ضيّع أمه في سوق مزدحم ولم يعد يعرف أين يصدُّ وجهه. هو يدرك أن الاجتماع لن يفيده في شيء، فالتوجيهات المعطاة لرئيسَيْ التحرير هي أن يسهرا على نشر مقالات نعيم مرزوق كما هي، دون أدنى تدخّل أو تعديل. هو بنفسه قرأ العمود في الجريدة فور

صدورها وفغر فاه من الدهشة وهو يرى نعيم يصلب آيت الحاج على عموده بلا رأفة. لكنه يعرف أن نعيم يُوحَى إليه، وليس من حقّه حتى أن يستفسره عمّا يكتب. وفي غياب نعيم، لا معنى لأيّ اجتماع في الحقيقة. لكن التتوفي كان يتخبّط. لذلك دعا للاجتماع. المكتب المركزي لحزب الأخطبوط اجتمع بشكل عاجل هو الآخر. كان وقع المفاجأة عليهم بالغًا. هم يتصوّرون أنّ ملفات آيت الحاج قد أُقبِرت، وأنّ التلويح بها قُبَيْل أشهر كان مجرد فركة أُذن لهذا الأخير؛ وإلا، لماذا أعطِيَهم الضوء الأخضر لتزكيته في الانتخابات والمراهنة عليه كأهمّ بلدوزر انتخابي في دائرته؟ عبث. عبث. هناك شيء عبثي في الموضوع.

أنور ميمي عمِلَ حسابَه طبعًا. من حسن حظّه أن نعيم تلكّأ في بعث مقالته إلى هوت ماروك. لم يفعل إلا بعدما تأكّد بأن المقال نُشر في المستقبل. وهذا كان كافيا ليتّخذ ميمي قرار عدم النشر لاعتبارات مهنية وأخلاقية حتى قبل أن يطّلِع على مضمونه، أو على الأقل هكذا زعم. أيضًا، كان ميمي قد سجّل مكالمته مع نعيم، تلك التي ترجّاه فيها بألّا يولي موضوع آيت الحاج أية أهمية. هكذا أمّن أنور ميمي نفسه، وهو الآن بعيدٌ عن عين العاصفة.

المعطيات التي أوردها نعيم صحيحة. كانت فعلاً مُعَدّة للنشر قبل أن تُسفِر مفاوضات غامضة مع آيت الحاج على طيّ الملف نهائيًا

شرط أن يلتزم هذا الأخير بتوفير الدّعم المطلوب للأخطبوط. هكذا سيضرب عصفورين بحجر واحد: يُبيِّض صحيفتَه ويستعيد بكارَته السياسية مع الرقم الجديد، هو الذي تقلّب على أكثر من سرير حزبي خلال العقود الأربعة الماضية. لم يكن آيت الحاج معنيًا لا بالأخطبوط ولا بجراد البحر ولا بغير ذلك من الرّخويات، كل ما يهمُّه هو أن يفلت بجلده من كمينٍ مُحكَم يبدو أنه يُنصب له من زمان، وفي هدوء تام. لذلك، التزم بالنضال الصادق في صفوف الأخطوط وبذل الغالي والنفيس حتّى يتبوّأ الحزب الجديد المكانة التي يستحقّها في المشهد السياسي الوطني. فكيف فاجأوه بهذا الانقلاب الغادر؟

توقّع نعيم مرزوق أن يعكّر ميمي مزاجه الصباحي بمكالمات العتاب، لذا ترك هاتفه على الصّامت، وظل يرشف قهوته الصباحية بالتذاذ في صالون الشقة. أغاني فيروز الصباحية تؤنس وحدته. وخزانة الكتب أمامه متنوّعة. روايات، كتب في النقد والفلسفة، وأخرى في السياسة. أكوام الصحف متراكمة على الكنبة وتحتها، وفوق المنضدة. فوضى جميلة يحبُّها نعيم، هو الذي يفضّل أن يصحو على مهل هنا في صالون شقته الراقية في شارع أنفا، وأحيانا في غرفة نومه الواسعة، في الظلمة اللذيذة التي يستأنس بها. اعتاد ألا يفتح شرفات بيته في الصباح. لا يفعل إلا بعد أن يأخذ دُشّه الصباحي ويتناول فطوره ويكون فِعلًا على وشك الخروج. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. قرصَه الجوع. في الثلاجة

زبدة ومربّى وجبن وبيض وعصير. لكنّ به جوع غداء لا جوع فطور. يريد شيئًا أكثر جدّية للأكل. تذكّر أن الخادمة لن تأتي اليوم. أخبرته أمس بمرض ابنها، فنفحها مائة درهم ورخّص لها بالغياب. المكالمات تتواصل، وهاتفه دائمًا على الصامت. مثلما خمّن، أكثر من عشر محاولات اتصال من ميمي، وأكثر من عشرين من التنوفي. ومكالمات أخرى عديدة من أرقام ليست محفوظة في ذاكرة هاتفه. أعجبته اللعبة. راقه أن يحاول الجميع الاتصال به للعتاب أو التهنئة وهو لا يجيب. منذ أشهر كتبت مجلة فرنسية واسعة الانتشار مقالة أرْضَت غروره كثيرا: "نعيم مرزوق: الصانع الأول للرّأي العام بالمغرب". تحدثوا عنه في المقالة باعتباره ظاهرة إعلامية فريدة من نوعها. نُشرت المقالة على صفحة كاملة مرفوقة بصورةٍ له. نعيم عمومًا لا يحبّ الثرثرة على الهاتف، ولا يعتبر نفسه مجبرًا على الرّد على المكالمات التي تصله. فمكالمات المعجبين لا تنتهي. وهو يَعِي أنّ أغلب المتّصلين، من السياسيين المعروفين وأحيانا من بعض الوزراء، إنّما يفعلون تملُّقا. فيكفي أن يُركِّز قليلًا مع أحدهم ليجد هذا الأخير نفسَه في محنة. لهذا يهابه الجميع. يقولون إنه غير مأمُون الجانب. كا يدور بحال الزمان. لكنّه بالنهاية مجرّد عبد مأمور. عندما يُطلب منه أن يُركِّز مع فلان أو علان عليه أن يمتثِل. وما إن تصله المعطيات، حتى يعجنها عجنًا أيًّا كانت ضحيتُه. لذلك، صار نعيم مرهوب القلم. كبار الشخصيات تخطب ودّه وتعامله

كصحافي فوق العادة. وهو ينتشي بذلك. هو الذي كان مبلغ همّه، قبل أمجادهِ في هوت ماروك، أن يجد صحيفة ورقية تقبله مُحرِّرًا في قسمها الثقافي وأن تُصدِر له جمعية الكتّاب المغاربة مخطوطة روايته "الجبلُ جاثيًا عند النبع". الرواية التي اعتذرت الجمعية عن نشرها موضحةً في تقرير لجنة القراءة التابعة لها أنها مفكّكةُ البناء، شخصياتُها باهِتَة، ورومانسيتُها متجاوَزَة. رومانسيتها مُتجاوَزَة؟! مرحبًا بكم إذن في عالم نعيم مرزوق الرومانسي أيها الأوغاد. يا أدباء آخر الزمن. لذلك خصّص نعيم أكثر من عمود لسلخ جمعية الكتّاب، والتنكيل بكلّ كاتب مغربي حقّق إنجازا ما: حصل على جائزة مثلا، أو تُرجِم له عمل إلى الفرنسية أو الإنجليزية. فحين لا يكون هناك ملفٌّ جدِّيٌّ صدرت الأوامر بالاشتغال عليه - بخصوص أحد المعارضين أو حتى الموالين الذين يلزمهم فركة أذن من حين لآخر لكي يظلّوا على قيد الموالاة - يبقى أمام نعيم متّسعٌ للكتابة الحرّة والاستمتاع بحرية التشهير المتاحة له دون قيد أو شرط. يتسلّى كثيرًا بالتشنيع على هؤلاء الأدباء التافهين، ويسخر من كتبهم التي لا يقرأها أحد. يسفّه جوائزهم البائسة ويهزأ بما يليها من مهارشات بشأن أحقّية هذا الفائز أو ذاك. ويفضح أخبار تهافتهم على الأسفار والمهرجانات. والناس تحبّ ما يكتب. تحبُّ طريقته المُبتكرة في شتم الناس، في النّيل من أعراضهم، وتلفيق التّهم لهم، والسّلْخ عليهم دون أن يؤذي الذوق العام. الشعب الحرّ الأبيّ يحبّ هذه الأشياء،

صار مُدمِنًا عليها، مدمنًا على شتائم نعيم مرزوق وتخرّصاته. في المقاهي، لا شاي ولا قهوة ما لم تصاحبها سجائر ماركيز وعمود نعيم مرزوق. صار نعيم نجمًا حقيقيًّا، بطلًا شعبيًّا، المعلّم الأول لجُلّاس المقاهي. لذلك راقَهُ أن ينقطع عن العالم هذا الصباح. "أنامُ ملءَ جفوني عن شواردِها / ويسهر الخلقُ جرّاها ويختصمُ"، ردّد في خاطره. حسم قراره بعدم الخروج وتجاهل الردّ على الهاتف هذا اليوم. حتى الجوع ليس مشكلة. اتّصل بمحلّ بيتزا مُنْزَوٍ في نهاية زقاق متفرّع عن شارع أنفا غير بعيد عن العمارة حيث يقطن، وطلب بيتزا بفواكه البحر لشخصين. لِيَكُنْ، بيتزا لشخصين. فشهية الحرباء مفتوحة على مصرانَيْها، الدقيق والغليظ معًا.

لكن ما لم يتوقّعه نعيم هو أن تتمّ الاستجابة لطلبه بهذه السرعة. بعد خمس دقائق فقط، رنّ جرس الباب. استغرب الأمر، رغم أنه يعرف أن صاحب البيتزيريا وعمّالها من قرّائِه المعجبين به. من الطبيعي إذن أن يتفانوا في خدمته ويسارعوا إلى تلبية طلباته.

تواصل الرنين، فهتف نعيم ممازحًا من الداخل وهو يرتدي بذلته الرياضية لأنه استنكف أن يراه عامل البيتزيريا بمنامته: "ها أنا جاي آصاحبي. عمومًا ما كانبغيش البيتزا سخونة، واخّا تبرد شوية ماشي مشكل. غير اصبر اللـه يرضي عليك". اتّجه صوب الباب. فتحه ومدّ يده لاستلام البيتزا. لكن ما إن فتح الباب حتى دلف ثلاثة

أشخاص، ببذلات سود وربطات عنق، إلى الداخل. بُهت نعيم. لم يعرف هل يتعلّق الأمر بلصوص فيصرخ، أم بـ..

- شُرطة. نحن آسفون على الإزعاج. تفضّل بمرافقتنا لو سمحت، قال أصغرهم سنّا. شابٌّ دون الثلاثين هيئته أنيقة وملامحه جذّابة، وكأنّه ممثل سينما. قالها بأدب، لكن بنبرة حازمة أيضًا.

- معكم؟ مع من؟ من أنتم أصلًا؟ لعلكم تحلمون؟ ويمكن ما عرفتوش مع مَنْ أنتم؟

- الأستاذ نعيم، نعرفك حقّ المعرفة، ونقدّرك جيدًا. لكنّك مطالبٌ بمرافقتنا فورًا. ونفضّل أن تتعاون معنا، لأن هناك قوة في الأسفل نتمنّى ألا نضطرّ لتدخُّلها، حفظًا لكرامتك واحترامًا لمقامك.

بدت له النبرة أكثر صرامة. فآثر مرافقتهم للتوّ. من حسن حظه أنه غيّر بيجامته قبل فتح الباب. أدخل قدميه كيفما اتفق في حذاء رياضي كان مركونًا عند مدخل الشقة. اطمأنّ إلى أن هاتفَيْه المحمولَيْن في جيبه، وخرج. كان مرعوبًا تمامًا. ومع ذلك حاول أن يبدو رابط الجأش. نعيم معنيٌّ جدًّا بصورته. حتى في أحلك المواقف يحبّ أن يراه الآخرون متماسكًا. لكنّ قرقرةً في بطنه كانت تُذكِّره بأنه في موقفٍ لا يُحسد عليه. حاول أن يتماسك قدر المستطاع وهو يتمنّى أن يكون المكان الذي سيصطحبونه إليه قريبًا، لكي يبلغه قبل أن يفعلها في ملابسه.

19

اليزيد غبي. لست أنت يا رحّال من سيشكّ ولو للحظة في هذا الأمر. يكفي أن الرّجل حاول أن يبيع اللحم يوم عيد الأضحى. منذ أن حدّثه قمر الدين بهذه الواقعة التي تندّروا بها طويلا في العمارة عندهم وفي العمارات المجاورة ورحّال يكتم ضحكة خبيثة كلما تذكّرها. حتى الأطفال من أبناء فقراء الحيّ والأحياء المجاورة يعرفون كيف يطلعون من أيام العيد بمصروف محترم. أضعَفُهم حيلةً يتربّصون ببطائن الخرفان التي تلقي بها ربّات البيوت قرب حاويات الأزبال أو يركننها جنب العمارات. يجمعون بطانات الأضاحي ويراكمونها لتشكّل تلالا صغيرة تعلو بالتدريج على امتداد يوم العيد. في المساء تطوف شاحناتٌ شوارعَ المدينة وأزقّتها.

أصحاب الشاحنات يجمعون البطاين ليبيعوها فيما بعد لدُور الدِّباغة بالمدينة العتيقة. البطّانية الواحدة بعشرة دراهم. وهناك من يجمع من خمسين إلى مائة بطانة يوم العيد. ثروة صغيرة. لكن اليزيد يفكّر دائما بالطريقة الغلط في المشروع الغلط ويأخذ دائمًا الوجهة الخطأ. لذا، لا تهتمّ لأمره كثيرًا أيها السنجاب. لا يمكنك أن تُقنع اليزيد بشيء. لا يمكنك إقناعه مثلا بأنه فقط يضيّع وقته مع فدوى وسميرة. يمكن لنجمة مراكش أن تصوّتا في المكسيك أو البرازيل أو حتى تركيا لكن ليس هنا في انتخاباتنا الوطنية. الوقت الذي تقضيه البنتان أمام الشاشة لمتابعة المسلسلات المستوردة من هذه البلدان جعلتهما أكثر ارتباطا بغوادالاخارا وبرازيليا وإسطنبول منهما بمراكش. فلا تضيّع وقتك معهما أيها الأحمق. لو كان اللـه قد أنعم عليك بتلك المادة الرمادية التي تتوفّر عليها أدمغة الخلائق لتوجّهْتَ إلى أعضاء مكتب الودادية الذين ساندْتَهم خلال وقفتهم الاحتجاجية ضد تردّي الوضع البيئي في المسيرة، إلى عُمّال مخبزة الشروق، بل وإلى صاحب المخبزة الحاج بيهي شخصيًّا. هؤلاء على الأقل، هناك مجالٌ للأخذ والرّد معهم في مثل هذه الأمور. لكن اليزيد حمار، علاوةً على أنه كلب، ولن يفهم. هو لا يعرف أن هؤلاء الأوباش الذين فتح أمامهم باب السيبر ليُفْعِموا المكان بروائحهم الكريهة أغلبهم غير مسجّلين في اللوائح الانتخابية، وبالتالي هم خارج اللعبة أصلًا. حتى المُسجّلون منهم، لن يصوّتوا إلا بعد أن

ينالوا ثمن صوتهم عدًّا ونقدًا، والثمن معروف: مائتا درهم إلى ثلاثمئة للصوت الواحد. فضْلًا عن أنّهم سيصوّتون على مرشحين آخرين في قُراهم ومداشرهم في أحواز مراكش وليس على عماد القطيفة. ببساطة لأنهم ليسوا من هنا، ليسوا من ساكنة المسيرة أيّها الغبي.

لكن يا رحّال، ما دخْلُكَ أنت؟ أوّلًا، لم يطلب أحدٌ رأيك. حتى عماد القطيفة لم يتصوّر ولو للحظة واحدة أنك قد تفيده باستشارة أو تنفع مساعدًا له في حملته. يعرف أنك هنا، مجرد سنجاب خامل. زوج حسنية الذي وفّروا له شغلا صغيرا إكرامًا لبنت أم العيد. أقصى ما تستطيع الإسهام به هو مساعدة نادلة مقهى ميلانو في خدمة "مناضلي" الحزب المجتمعين في السيبر. وحسبك ذلك. أمّا اليزيد، فها أنت ترى وضعَهُ الجديد. حتى القهوة صارت تصله مباشرة بعد وُلوجِه السيبر ليُباشِر التدبير الإلكتروني لبعض شؤون الحملة التي تحتاج إلى إيميلات وفيسبوكيات وما إلى ذلك، بإشرافٍ مباشر من قمر الدين الذي استهْوَته الحكاية لينخرط فيها بحماس ويحتلّ عن جدارة موقع الساعد الإلكتروني الأيمن لليزيد مقابل مائة درهم لليوم. بعد أقل من عشر دقائق من تشريف سيادته، تأتي أسماء مهرولة تحمل له كأس قهوته "نصّ نصّ"، ورحّال لا يفهم متى طلب اليزيد قهوته وكيف؟ هل عبر الهاتف؟ أم عبر الإسمس؟ أم فقط هو اجتهادٌ من العربي صاحب مقهى ميلانو الذي لا يكاد

يغادر مقعده بإحدى طاولات الصف الأمامي التي تلتهم الرصيف تمامًا طاردةً المارة إلى عرض الشارع، ومن هناك يراقب كل ما يحدث في هذا الجزء من شارع الداخلة؟ العربي الذي انخرط في حزب الأخطبوط، عن قناعة راسخة على ما يبدو، يجد في هذه اللفتة تحية نضالية واجبة لليزيد الذي دعاه يومَها للاجتماع ووفّر له مدخولًا استثنائيا تلك العشية. لكن الأهمّ هو أنه عرّفه على عماد القطيفة وعلى الدكتور بوشعيب المخلوفي والتقط له صورة بديعة مع البشير المرابطي شخصيًّا. صورتُه مع السي البشير بالذات سيحرص على تكبيرها وبرْوَزتِها وتعليقها في صدر المقهى ليراها الداخل والخارج، ويلمحها أعضاء لجنة مراقبي الجماعة الذين كثُرَ تردّدهم على محلّه وعلى المقاهي المجاورة هذه الأيام لتنبيههم إلى أنّهم يحتلّون الملك العمومي بغير وجه حق. العربي اعتاد أن يدفع للّجنة ما يطيّب خاطر أعضائها بأريحية حين كانت زياراتها متباعدة، لكن الزيارات صارت تتكرّر شهريًا، وهو لا يستطيع أن يُرسِّم لهم رشوة شهرية قارّة.

ربّما تألم رحّال قليلا لأنه لا يعرف كيف ينقل ملاحظاته لليزيد بخصوص الأوباش الذين فتح لهم المجال ليعكّروا جوّ السيبر بروائحهم الانتخابية العطنة. لعلّه تألم أيضًا لأن عماد القطيفة لم يفكّر فيه، لم يبحث له عن دور صغير في هذه المسرحية. إنّما من يكون عماد القطيفة في مُلك اللـه؟ إنّه أتفه من أن يوزّع أدوارًا على الآخرين.

هو نفسه، ألا يؤدّي دورًا فُرض عليه؟ شخص تافه فشل في الحصول على البكالوريا. وبما أنّ تقارير الأجهزة قدّمَتْهُ للأمانة الجهوية لحزب الأخطبوط باعتباره شخصًا نظيفًا محبوبًا ذا شعبية، تمّ اختياره. ولم يكن له حتى حق الاعتذار عن تقمّص دور لم يختره. لكن عماد القطيفة الآن هو مرشّح الحزب الجديد. هم رشّحوه لأنهم يعرفون أحسن منك. قدّرُوا أن عماد رغم فشله في الحصول على البكالوريا، المعلومة التي لا يتذكّرها غيرك أيها السنجاب، يصلح لهذا الدور. حتى اليزيد، يا رحّال، لا تبالِغْ في التنقيص من مؤهّلاته. الرّجل ليس سهلاً. إنه ماكينة جبّارة. قُدرتُه على الحركة وعلى التواصل مع من هبّ ودبّ لا يُستهان بها. تجزم بأنه غبي، لكن هل تعتقد أن البشير المرابطي يحتاج أشخاصا نجباء يفكّرون؟ أبدًا. الحزب هناك ليرسم الخطط ويحدّد المهام. عليهم فقط أن يجتهدوا ويشتغلوا بحماس. أن يصنعوا الهرج المطلوب، ويخرجوا في مسيرات انتخابية صاخبة، أن يرقصوا في الشوارع عُراة إذا لزم الأمر. هناك من يفكر بدلًا عنهم، فلا تقلق كثيرًا يا رحّال. البشير المرابطي سياسي مُحنّك. داهية. لمس لدى اليزيد ما يحتاجه المناضل الأخطبوطي من جسارةٍ وتطلُّع، فاختاره وعيّنه عضوا في فرع الحزب بالمسيرة وكلّفه بإدارة حملة عماد القطيفة. والناس الآن يشتغلون بحماس فيما تتحدّث أنت عن المسرحية. أية مسرحية أيها السنجاب الخامل؟ وحتى لو كانت كذلك، فهل ستتحمّل، أيها الجبان، ولو دورًا صغيرًا من بضع دقائق

على خشبتها؟ هل ستسعفك ركبتاك لتقف ولو لهنيهة أمام الجمهور؟ لا قِبَل لك بالأضواء أيها السنجاب. أَلِفْتَ التحرُّك في الظل. هكذا في الخفاء. من وراء الستار. لذا، لا حقّ لك في مُؤاخذة عماد على تجاوزه لك. ثم إن ابن القطيفة ليس في مقام من يوزّع الأدوار.

إذا كان السنجاب قد تلقّى تجاهُل عماد له واستصغارَه لشأنِه بروح رياضية وبلا ضغينة، فإن اللبؤة اعتبرت ما حصل يوم الاجتماع إهانة شنيعة لا تُغتفر. كان عماد حريصا على خدمة ضيوفه، لذا ظل ينادي أسماء في كل حين: "آجي آ بنتي، شوفي السي بوشعيب آش يعاود يشرب؟ اكسبريسو اخرى للسي عزيز اللـه يرضي عليك؟"، كان يتحدّث إليها بلطف. بلُطفه البغيض المُتعالي. وحين كان الوفد الحزبي الرفيع يغادر المحل، وبما أنها كانت تضع على رأسها كاسكيط مكتوب عليها اسم المقهى، طلب منها العربي أن تقف إلى جانبه للسلام عليهم باسم المقهى وذلك للتأكيد على أن مقهى ميلانو في الخدمة دائما، في خدمة السيبر والحزب والوطن. في تلك اللحظة دسّ عماد في يدها مائة درهم. إكرامية؟ صدقة؟ لم يفهم رحّال.

تتصدّق على اللبؤة أيها الوغد؟

خاب سعيُكَ يا ابن القطيفة.

20

يومان كاملان قضاهما نعيم في تلك الغرفة التي ليست مكتبًا. في ذلك المكتب الذي قد يكون زنزانة. محتجزًا داخل حجرة يصرخ في جُدرانِها الصمت. شخص في الستين من عمره يرتدي بذلة السُّعاة، البذلة الزرقاء المُبتذَلة التي يرتديها أيضًا حرّاس السيارات، وليست البذلة المخزنية المعروفة، يدخل في أوقات متباعدة ليقدّم له ساندويتشات رخيصة. كفتة وبطاطس فريت وصلصة طماطم. وفي الصباح ساندويتش فروماج ومربّى، وكأس شاي. كل محاولاته للاتصال عبر الموبايل باءت بالفشل. كأنّ هناك تشويشًا مقصودًا يمنع هاتفيه من استعادة أنفاسهما اللاسلكية.

في اليوم الثالث، جاء الثلاثي الذي داهمه في بيته. كانوا بنفس

البذلات وعلى نفس الهيأة. الظاهر أنّ أيامهم تتشابه، وأنهم يكرّرون نفس المهمّة منذ زمن، لذلك صاروا ينجزونها بميكانيكية وباقتصاد كبير في الطاقة. ظنّ أنهم سيغادرون المكان. سيستقلون سيارة تأخذهم إلى مكان آخر، أكثر غموضًا. مرارةٌ في حلق نعيم وانقباضٌ في قلبِه منَعاهُ من سؤالِهِم أين سيأخذونه. كان يشعر بانسحاق كبير. كاد ينهار باكيًا لولا أن تمالك نفسه. لكنّ الأمر لم يستدْعِ أكثر من جولة صغيرة بين ممرّات تلك البناية العتيقة ليجد نفسه في جزء منها يبدو أكثر حيوية ونظافة. على الأقل الجدران هنا مطليةٌ بجير أبيض. وهناك حركة في الممرّات. مواطنون ورجال شرطة بزيّهم الرسمي يتنقّلون بين المكاتب. طرقوا الباب. أدخَلوا نعيم. أعطوا التحية ثم انسحبوا من فورهم. كان المكتب فسيحًا حسن الإضاءة بتأثيث بسيط، لكنه عصري ومُرتّب بذوق. بالقاعة خمسة أشخاص حيّاهُ أكبرُهُم سنًّا، ورتبةً أيضًا على ما يبدو، باحترام. طلب منه أن يتفضّل. جلس نعيم على كرسي أسود وثير ودافئ. يبدو أن أحد الخمسة الذين يحيطون به الآن قام عنه للتّو. شاي أم قهوة؟ شاي طبعًا، فنعيم يفضّل الشاي على القهوة. وصل الشاي ومعه طبق صغير من الحلوى المغربية: غريّبة وفقّاص وكعب غزال. مباشرةً، بدأ التحقيق.

كانت الأسئلة دقيقة. دقّقوا معه بالتفصيل المملّ في المعطيات الواردة في عموده الأخير، وفي الاتهامات الخطيرة التي وجّهها

للملياردير مهدي آيتِ الحاج. لم يكن نعيم قادرًا على الإجابة. لكن بديهته أسعفته، فصرّح أنه لن يتجاوب إلا في حضور محاميه وأنه لن يكشف عن مصادره. كانت إجاباتُه قصيرة وظلّ يردِّد نفس الأسطوانة. لم يبْدُ عليهم أيُّ تضايُقٍ من عدم تجاوبه. كانوا يسجّلون أقواله بحياد. شكرَهُ كبيرهم في نهاية اللقاء بنفس نبرة الاحترام التي استقبله بها. صافحوه جميعًا، وبعثوه هذه المرة إلى السجن المدني. إلى زنزانة حقيقية. فهو الآن مُحتجزٌ رسميًا على ذمّة التحقيق.

وجوهٌ جديدة تحيط به الآن. هو في طريقه إلى زنزانة رسمية. أثاره أنّ مرافقيه من الحرّاس لم يتعرّفوا عليه. تأذّى غروره بعض الشيء من عدم معرفتهم له هو النجم الإعلامي الكبير، لكنّه كان راضيًا في قرارة نفسه لأن الموقف غير مُشرِّف أصلًا. أسعدتْهُ أكثر الفُسحَة التي أتيحت له بسبب هذه الغُفْلية بالذات. كانت في الصطافيت سيدة خمسينية وصبية مراهقة. انحشر إلى جانبهما في ارتباك. طلبوا منهم الانتظار في هدوء، وأغلقوا الباب. حارس واحد فقط ظلّ ينتظر جنب السيارة فيما ذهب الآخرون لاستقدام المزيد من الضُّيوف. كانت السيدة الخمسينية واجمة والصبية تبكي وتجرّ عبثًا تنُّورتها القصيرة لتغطّي فخذيها المكشوفتين. لم تكونا معًا، خمّن نعيم. ظنّ لحظةَ صعوده أنهما معًا. لكن الظاهر أنهما تجاورتا هنا بمحض الصدفة. نفس الصدفة التي جعلته يصعد إلى جانبهما في هذه الصطافيت اللعينة. لم تلتفت أيٌّ منهما إليه. استغلّ الفرصة فأخرج

أحد هاتفيه المحمولين من جيب "الأديداس"، جاكيطه الرياضي الذي بدأ يتّسخ. الأول يرقد جثة هامدة في جيبه، والثاني مازال به بعض الشحن. سيتّصل الآن بجواد. جواد هو الشخص الذي يتابع معه كلّ شيء. استلمه منذ زمان بالطريقة نفسها التي استلم بها الضابط حكيم رحّال الغْوينة أول مرّة، بنفس السيناريو تقريبًا. جواد استلم نعيم منذ سنتِهِ الأولى في هوت ماروك. وظلّ على امتداد هذه السنوات مُرشِدَهُ الأول وملاكَهُ الحارس، مصدرَهُ الموثوق المُعتمد، وصِلَة الوصل بينه وبين الجهات الأخرى. كل الجهات الأخرى الغامضة. تبًّا. جواد لا يُجيب. حاول مرّات دون جدوى. عليك أن تفعل شيئًا يا نعيم قبل أن يعود رجال الشرطة إلى الصطافيت. عليك أن تفعل شيئا أيها الحرباء. لذلك قرّر أخيرًا أن يكتب رسالة. سيكتب رسالة استعطاف ويوجّهها إلى الشّاف من خلال جواد. صحيح أن جواد خذله الآن. لكنه بالتأكيد سيطّلع على الرسالة الهاتفية وسيكون مجبرًا - يعرفُ مدى انضباطه المهني - على إطلاع الشّاف عليها. الأمور بدأت تأخذ منعطفًا لم يكن في حسبانك يا نعيم، وربما لن تجد الفرصة لتدبيج رسالة أخرى. لذا، عليك أن تبدأ من الآخِر. عليك أن تعتذر، أن تطلب السماح، أن تتضرّع. ولتكن رسالة استعطاف عسى الشّاف يوجّهُها بدوره إلى من يهمُّهم الأمر من أصحاب الحال. رسالة منكسرة تبتدئ بالسلام التامّ بوجود مولانا الإمام دام له النصر والتمكين وتنتهي بمسكوكات "الاعتراف بالخطأ فضيلة" و"العفو عند

المقدرة". لم يفوّت نعيم الفرصة ليوضّح أنّه كان ضحية مقلب من أنور ميمي وأنه سيعرف كيف يُصلح خطأه، فقط عليهم أن يثقوا فيه ويعطوه فرصة أخرى وسيتصرّف. سيعتذر عن كل كلمة أساءَ بها لمهدي آيت الحاج وسيوضِّح لقرّائه أنَّ جهةً معادية للوطن هي التي ورّطَتْه في هذه المعطيات التي وقف بنفسه على فسادها ليكتشف، متأخرًا مع الأسف، كم هي مُلفّقة. سيعتذر لآيت الحاج بطريقته. سيعيد له اعتباره. فقط عليهم أن يثقوا به.

قبل أن يزجّوا به في زنزانته الانفرادية، جرّده الحرّاس من هاتفيه. لم يعرف النوم طريقه إلى جفونه تلك الليلة. أظلمت الدنيا في وجهه. شريطُ حياته مرّ أمام عينيه، منذ طفولته البعيدة في قريته المُهمَلة بنواحي القنيطرة. أوهامه الأدبية. ثم أيام مجده في هوت ماروك. وفجرًا، فُتح باب الزنزانة. لم يصدّق عينيه في البداية. ظنّ أنه يحلم. كان جواد ماثلا أمامه. بيريته المُخطّطة التي تغطّي صلعته، والمعطف الربيعي الذي يلبسه دائمًا فوق قميص خفيف. كان معطّرا على عادته. دائما يتعطّر بإسراف. أول مرة تشتمُّ يا نعيم عطرًا منذ أن أُجبِرْتَ على مغادرة شقتك في ذلك الصباح المشؤوم. آه، يا جواد.. وانهمرت الدموع من عينيه. بدا مثل طفل تائهٍ عثر أخيرًا على أمه وسط الزّحام.

- ماذا تفعل أيها الأبله؟ بادره جواد بوجهٍ محتقن.

- لقد كنتُ ضحية جهلي. النذل أنور ميمي ورّطني في معلوماتٍ لا أساس لها من الصحة.

- يا أخي لماذا تبكي الآن؟ ولماذا بعثت لي تلك الرسالة السخيفة؟

- لأن ميمي، خويا جواد، ميمي هو اللي..

- انس ميمي الآن يا أخي. انس ميمي الآن. لقد أصبحتَ بطلًا يا نعيم. والأبطال لا يبكون، ولا يكتبون رسائل الاستعطاف.

- ماذا؟ عن أيّة بطولة تتحدّث أخي جواد؟ التحقيق معي كان صارمًا والظاهر أنني سأقدّم للمحاكمة قريبًا.

- اللهم طوّلك يا روح... يا أخي، أنت الآن بطل. هل آذاك أحدٌ هنا؟ هل أغلظ لك أحدهم القول أثناء التحقيق؟

- صراحةً لا. تعاملوا معي باحترام.. لكنهم جرّدوني من هاتفيّ. ثم انظر حالتي يا جواد. ملابسي اتّسخت كما ترى. وأنا في وضعٍ سيّء.

وبدأ ينشج.

- لكن، هل تظنّ نفسك في فندق خمس نجوم؟! تريد دُشًّا ساخنًا في الصباح، وربما فطورًا ملكيًا في الحديقة. اصح من غفوتك. أنت الآن في حالة احتجاز. هذا الوضع أنت مَنْ اختاره بمجازفتك

اللعينة. لقد خلطتَ الأوراق يا نعيم، خلطتها أكثر مما ينبغي. بعدما قرأتُ عمودك هاتفتُكَ خمس مرات ذلك الصّباح. كنت أريدُ فقط أن أفهم. لم تنسّق معي في الأمر قبل أن ترتكب حماقتك، ولم تكن تردّ. وحينما اتّصل بي الشّاف مستفسرًا بدَوْتُ تافها مثل أطرش في الزّفّة. لو مثلْتَ أمامي ساعتَها لافترستُك، لقتلتُك من غيظي بلا تحقيق ولا محاكمة. لكن ما علينا، هذا الكلام صار قديمًا الآن.

- وآيت الحاج أخي جواد؟

- ما زلت تسأل عن آيت الحاج بعد فعلتك الشنيعة؟! آخويا بازّ ليك. لقد نسفتَ الرجل نسفًا. لكن دعنا من هذا كله، فما لهذا جئتُك الآن. الأمور يا نعيم أخذت اتجاهًا آخر، ونحن اليوم إزاء وضعٍ جديد علينا أن نتعامل معه بذكاء.

- كيف أخي جواد؟

- العالم كله صار منشغلًا بأمر اعتقالك. أيضًا، الحملة الانتخابية انطلقت منذ يومين، وقضيتك تُغذّي الجدل الانتخابي وتتداخل معه بشكل لافت. وضعٌ علينا استثمارُهُ جميعًا بذكاء.

- لكن ماذا عنّي أنا أخي جواد؟ كيف سأستفيد من هذا الوضع؟ فالظاهر أنني سأقدّم للمحاكمة.

- من البديهيّ أنّك ستُقدَّم للمحاكمة. ماذا تظنّ؟! إنّما، نحن نتابع

الموضوع فلا تقلق. فقط عليك أن تستوعب الأوضاع بشكل أفضل. أنت لم تعد نعيم مرزوق كاتب الأعمدة المُنزوي في شقته بشارع أنفا يدبّج مقالاته اليومية ويتلقّى اللايكات وتعليقات الإطراء وانتهى الموضوع. أنت اليوم مادة دسمة للصحافة الوطنية والدولية، ولسجالات السياسيين خلال الحملة الانتخابية. الكلُّ منشغلٌ بقضيتك. في الداخل والخارج، خصوصًا في الخارج. أنت الآن رمزٌ لحرية الصحافة في المغرب، وعليك أن تتصرّف بناءً عليه، إنّما بانضباطٍ هذه المرّة. لم يعد مسموحًا لك بالخطأ. سيستأنفون التحقيق معك اليوم أو غدًا صباحًا على أبعد تقدير. لا تغيِّر أقوالك. ارفُض التجاوب ما لم يحضر محاميك، وابقَ مصرًّا على عدم الكشف عن مصادرك. تذرَّعْ بشرف المهنة وما شابَهَ من الفذلكات. أتصوّر أنّك ستُعرَض على أنظار العدالة بعد ثلاثة أيام. في المحكمة، ستجد عشرات المحامين يؤازرونك. انْفِ عنك كل التّهم الموجّهة إليك وقل بأنَّ محاكمتك هي محاكمةٌ لحرّية التعبير بالمغرب، ثمّ ارفع شارة النصر أمام عدسات المصوّرين وَأَنْهِ الحكاية. دورُك صغير ومحدّد، يجب الالتزام به حرفيًّا، لكن عليك أن تلعبه بإتقان. حكاية الدّش ستُدبَّر اليوم، فلا تهتمّ. أيضًا ستصلك ملابس نظيفة، كما ستصلك الجرائد ابتداءً من الغد، لتأخذ فكرةً أوضح عن تطوّر الأمور. فقط، عليك الآن أن تتقيّد حرفيًّا بالتعليمات، هل فهمت؟

لم يفهم نعيم شيئا. على العموم، ليس الوقتُ ما يعوِزُه هنا لاستعادة

حواره اللاهث مع جواد وتقليبه على مختلف الأوجُه. الأهم الآن، هو أن حكاية الدّش ستُدبّر أخيرًا. تخيّلَ نفسه يفرك جسده باللّيفة والصابون تحت الدّش. دشّ باردٌ أو ساخنٌ لا يهمّ. كان قد كره جلده، وكره نتانته. لذا، بات منظر الماء منسابًا على جسده يداعب خياله. كان يحلم بالماء. بالدّش. لأول مرةٍ هنا تسرّب إليه شعورٌ بالرّضا. أغمض عينيه على مشهد رشّاش الماء ونام عميقًا. أول مرة ينام فيها بعمق منذ اعتقاله. لم يستيقظ إلا ظهرًا. بُعيْد الظهر بقليل.

21

ظلّت اللبؤة تتربّص بغريمها لأكثر من شهر، إلى أن لمَحَتْهُ مرّةً - بعد انطلاق الحملة الانتخابية رسميًّا - يخرج من غيابه الإلكتروني ليعمل لايك على فيدو خطاب لزعيم الحزب نشره قمر الدين على جداره الفيسبوكي. لم يكتف عماد باللايك، بل شارك الفيديو على جداره هو الآخر. فرصتُكِ أيتها اللبؤة. حانت ساعة الانتقام يا هيام.

نقرت هيام لايك للفيديو على جدار عماد. لم يكن اللايك كافيا. لذا عزّزَتْهُ بتعليق صغير صامت.

☺

ابتسامة صغيرة أدرجتها أسفل الفيديو كانت كافية لاستدراج الطّريدة. مباشرة وصلَتْها رسالة عماد على الخاص.

- يا صباح النّور. يا صباح الفل. وأخيرًا أشرقت شمسُكِ في وجهي أيتها الأميرة. هذا صباح مَلكي. لا يمكنك أن تتخيّلي كم أنا سعيد لأن الأميرة هيام تواضعت أخيرًا وشرّفتني بمرورها. أنا المسكين الذي كاد يفقد الأمل.

- لا يأس مع الحياة ☺ ههههه.

- منذ أكثر من سنة وأنت لا تردّين على رسائلي يا هيام، فكيف لا أيأس؟ لكن دعينا من اليأس الآن. أنا اليوم سعيد.

- أمّا أنا، فَمُنزعجة جدًّا.

- لماذا يا هيام؟ ما زال ما خلق اللـه ذاك اللي يقدر يزعج هيام أو يعكّر مزاجها.

- أنت. أنت يا عماد.

- أنا؟ أعوذ باللـه. لماذا؟ ماذا جَنيْت؟

- كيف لم تخبرني بأنك سياسي مشهور؟ تركتني أكتشف ذلك بنفسي. خرجت من البيت لأكتشف صورة جميلة لك على الحائط المقابل لعمارتنا. صادفتُكَ أمامي هذا الصباح، فابتسمتُ لك. لكنّك لم تردّ على ابتسامتي.

- يا سيدتي حقّك عليّ. ابتسامتك تاجٌ على رأسي. لكن بصراحة يا هيام، أنتِ كنتِ قاسية معي. لم تمنحيني أدنى فرصة للحديث معك لتعرفيني بشكل أفضل.

- الآن غيّرتُ موقفي، وأنا مستعدة للقائك. لكن، خسارة.. لا وقت لديك لتخصّصه لي. فأنت مشغول بحملتك الانتخابية.

- أبدًا يا هيام. أنتِ فوق الحملات. كل وقتي لك.

- إذن، هل يناسبك أن نلتقي مساء الجمعة في سطيحة مقهى "لارونيسونس"؟

- أنت تأمرين يا هيام.

- الخامسة مثلًا؟

- أوكي عزيزتي.

- الخامسة بالضبط. وعلى فكرة أنا دقيقة في مواعيدي. ثم إنني لا أحب الانتظار. إذا تأخّرت دقيقة واحدة عن الموعد، لن تجدني هناك.

- ستجدينني قبلك. سأكون في المقهى منذ الرابعة. أحبّ أن أعذّب نفسي قليلا بعَدِّ الدقائق في انتظار إطلالة الأميرة.

- مهمه. هذا من لطفك يا عماد. لكن ماذا سترتدي من أجلي؟

- ماذا؟

- يعني، كيف ستستقبلني؟ بأيّ لون؟

- لا أعرف يا هيام. لكن تدلّلي عزيزتي، أنتِ تأمرين.

- أحبّ الألوان الفاتحة. هل لديك قميص وردي مثلا؟ أحبّ أن أراك في لون الورد. لون الحب والأمل.

- مع الأسف ليس لديّ قميص في هذا اللون. لكن سأشتريه يا هيام. من أجل عينَي الأميرة أشتريه. طلباتك أوامر.

- لا أبدًا. أنا امرأة بسيطة. كل ما أطلبه منك هو أن تأتيني في إهاب وردة.

- أنتِ الوردة يا هيام. أنتِ وردة مراكش كلها. ياه، كم سأتعب هذين اليومين. سيعذّبني انتظار هذا الموعد كثيرًا.

- أوكي حبيبي، إلى اللقاء إذن. موعدنا الجمعة. تشاو.

- ماذا قلت؟ حبيبي؟ ياه يا هيام. سأقرص نفسي لأتأكّد من أنني لا أحلم. قولي لي إنني لا أحلم.

لكن اللبؤة اختفت. أنهت مهمتها وانسحبت إلى عرينها، وتركت السنجاب يتكفّل بالباقي. اشترى رحّال بطاقة هاتفية. بعث منها أكثر من رسالة على موبايل هيام زوجة عماد القطيفة. قدّم نفسه

كفاعلة خير تُشفِق عليها. ولأنّها مثلها زوجة جريحة جرّبت غدر الأزواج وخيانتهم، فهي تريد تحذيرها من عاهرة تنوي خطف زوجها منها: "وإذا أحببتِ التأكّد بنفسك، فما عليك إلا أن تذهبي إلى سطيحة مقهى لارونيسونس حيث يتواعدان منذ أكثر من سنة. يكفي أن تذهبي مساء هذه الجمعة، وسترين بنفسك. ملحوظة: سيرتدي زوجكِ قميصًا ورديًا جديدًا، اقتناه خصّيصًا من أجل حبيبة القلب لأنها تحبّ اللون الوردي".

ترك رحّال هاتفه على وضعية الصامت وظلّ يراقبه. إنها هيام، حاولت الاتصال عشرات المرات. كأنّ المها جُنَّت. في المساء، لم يصعد إلى الشقة إلا بعد أن تأكّد من أنّه أتلف الشّريحة ورمى بها في حاوية الأزبال المجاورة للعمارة.

ليلة الإثنين، كانت حسنية تتناول عشاءها أمام التليفزيون كالعادة. طاجين سمك رحّال لغداء اليوم الموالي وهي تذوق منه كعادتها، أو هكذا تزعم قبل أن تجهز على نصف الطاجين تقريبًا. لكن هذه المرة، كانت تذوق فقط. بدت شاردةً وهي تأكل بلا شهية. في لحظة، أطلقت تنهيدة خفيفة.

- ما بك حسنية؟ ياك لاباس؟ تجرّأ رحّال وبادرها بالسؤال.

- ما بيّ والو. علاش مالي؟ كيف ظهرت ليك؟

- لا غير ظهرت لي مغيّرة شوية وخفتك تكوني مريضة.

- ما بيّ والو. صافي. هنّيني. قالَتْها باحتداد، قبل أن تطلق تنهيدة ثانية، وتضيف وكأنّها في قرارة نفسها كانت تتمنّى سؤاله وبحاجة لأن تُفرِغ قلبها:

- عماد مسكين..

- مالو عماد؟

- هذيك المجنونة ديال مرتو جاتو حتى لوسط الحملة وجاها الحماق. دون سابق إشعار، أخذت أبناءها وذهبت بهم إلى بيت والدها وطلبت الطلاق. تدّعِي أن عماد يخونها مع أخرى، وأنها ضبطَتْهُ مُتلبّسًا. طبعًا لم يصدّقها أحد. امرأة مجنونة.

لم ينبس رحّال ببنت شفة. ولم يقل لقنفذته البلهاء أنه، على العكس منها تمامًا، يصدّق هيام.

22

كان جواد عند وعْدِه. دشّ السجن وُضِع رهن إشارة نعيم، والثياب النظيفة جاءوا بها مباشرة من دولاب ملابسه. أحضروا له بذلة رياضية أخرى، ملابس داخلية نظيفة، وثلاث فُوَط. هناك أيضًا بذلة سوداء وقميص سماوي مفتوح وجوارب وحذاء؛ لزوم مثوله الوشيك أمام المحكمة، خمَّن نعيم. وماذا أيضًا؟ فرشاة ومعجون أسنان. لم يصدّق نعيم نفسه. إنهم يعرفون عاداته جيدًا. فهو لا يتخيّل نفسه يعيش حياةً سويّةً بأسنان غير نظيفة. حتى حين كان يُدعى إلى عشاء مهمّ في محفل محترم، كان يأخذ فرشاة أسنان صغيرة وعلبة معجون من الحجم الصغير لينظِّف أسنانه مباشرة بعد الأكل. لديه هوسٌ غريبٌ بنظافة أسنانه. كان اتّساخه خلال أيام احتجازه يزعجه بالتأكيد،

لكنه كاد يُجنّ وهو يرى فمه الأبخر يفرز كل هذه العطانة. يضع يده على فمه وينفخ فتصيبُه روائح فمِه بالدوخة. أيضا لم يكن يطيق القذارات التي تكلّست فوق وبين أسنانه خلال هذه الأيام. لذلك اعتبر هذه الالتفاتة بالذات، تحيةً خاصّةً من ملاكه الحارس جواد.

في اليوم الموالي، وصلت الصحف. عاد من جلسة التحقيق الثانية فوجد الجرائد على السرير. مُرتّبةً حسب أيام صُدورِها. في البداية، كانت الصحف تتحدّث عن فضيحة مهدي آيت الحاج، ثم ألمحت إلى اختفاء نعيم مرزوق واحتمال تعرُّضِه للاعتقال. الأحزاب المناوئة للأخطبوط وجدَتْها فرصةً للنّيل من الحزب الجديد والتّشنيع عليه. حزب النّاقة، بالذّات، لم يُضيّع الفرصة. أصدر بيانًا شديد اللهجة أدان فيه الفساد والمفسدين، وعرّض بالكيانات الحزبية المشبوهة التي تريد أن تفرض نفسها على المشهد السياسي الوطني بالباطل، عبر تجميع الانتهازيين ورموز الفساد ورصِّ صفوفهم. كما طالب الحزب بفتح تحقيق لمعرفة مدى صحة المعطيات الخطيرة التي تضمّنها عمود الصحافي الشجاع نعيم مرزوق. كان نعيم يتحرّق لمعرفة مآل الحكاية. قلب حزمة الجرائد وبدأ يبحث في آخرها عن صحف اليوم. استلَّ عدد المستقبل. ومنذ صفحته الأولى فهم كل شيء.

باغتَتْهُ صورتُه تتصدّر الصحيفة، في الحيّز المخصّص لعموده.

فوق الصورة عنوانٌ بالأحمر: "مع نعيم مرزوق، ضدّ أي مصادرة لحرية التعبير في بلادنا". بُهِت نعيم. صحيفة التنوفي تنشر عنوانًا بهذه القوّة؟! لم يفهم شيئا. أسفل صورته كانت هناك مادّتان يتقاسمهما النصف السفلي من صفحة الجريدة. ذهب نعيم رأسًا إلى المادة الأولى يسار الصفحة. إنه بيان حزب الأخطبوط. أذهله البيان. حزب الأخطبوط يُعلن تجميد عضوية المهدي آيت الحاج ويجرِّده من كل مسؤولية حزبية في انتظار أن يقول القضاء المُستقلّ كلمته. وبِهِ فإنّ حزب الأخطبوط يعلن للرأي العام الوطني سحب تزكيته لآيت الحاج. "آيت الحاج الذي يُتابَع حاليًا في حالة سراح إثر المعطيات المزلزلة التي ساقها الصحافي نعيم مرزوق ضدّه. ورغم أنّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته، إلّا أن حزبنا الفتي الذي جاء ليُصالِح المغاربة مع السياسة ويؤسِّس لقواعد عمل سياسي عصري نظيف وشريف - يضيفُ البيان - يرفض رفضًا قاطعًا أن يقدِّم للغاربة مرشّحين مشبوهين". من جهة أخرى، يؤكّد الحزب أنه يتابع بقلق وضع الصحافي نعيم مرزوق. "فرغم أن الحزب حريصٌ على احترام مؤسسات الدولة وثقتُهُ كبيرة في قضائنا العادل، إلا أنه يخشى أنَّ ما يتعرّض له نعيم مرزوق قد يُضمِر تضييقًا على الحريات، وعلى حرية الصحافة تحديدًا، وهو ما يرفضه الحزب بشكل مبدئي. فمغرب الحرّيات الذي ننشُدُه جميعًا يستدعي فسح المجال أمام الصحافة المستقلّة لتُسهِم في بناء الصرح الديمقراطي لهذا الوطن"، وبه فحزب الأخطبوط يعلن

دعمه القوي للصحافة الحرّة التي تفضح الفساد والمفسدين، ويؤكّد مِنْ ثَمَّ مساندته اللامشروطة للصحافي نعيم مرزوق في محنته.

الآن فقط استوعب نعيم كلام جواد، وقدّر حجم الزلزال الذي أحدثَهُ عموده. هل كنتَ تتصوّر أيها الحرباء أنَّ حزب الأخطبوط سيتعاطى مع قضية مهدي آيت الحاج بكل هذا الدّهاء؟ قدّموا المسكين كبش فداء، وتركوه يواجه مصيره لوحده. المادة الثانية صعقت نعيم. تبًّا. من كان يتصوّر ذلك؟ مقالةٌ لأنور ميمي أعادت المستقبل نشرها على صفحتها الأولى نقلًا عن هوت ماروك وبالاتفاق معها، ودائمًا في موضوع التضامن معك يا نعيم. هل تصدّق؟ ندّد أنور ميمي بالاعتقال التعسفي الذي تعرّض له "زميلنا العزيز نعيم مرزوق". اعتبره تضييقًا على عمل الصحافة الحرّة المُستقلّة، وممارسة قمعية شاذّة لا تليق بمغرب الحرّيات. الصحافي ليس فوق القانون، يوضّح ميمي، لكنّه أيضًا لن يصبح ذلك الحائط القصير أمام رموز الفساد. وعلى الذين ما زالوا يحنُّون إلى زمن الاستبداد البائد أن يفهموا أن البلد، ملكًا وشعبًا، قد حسم اختياره الديمقراطي. وحرّية التعبير هي أساس كل ديمقراطية. ميمي أشاد أيضًا بالاحتضان الواسع للجنة التضامن التي يتشرف برئاستها من طرف الإطارات الحقوقية داخل الوطن وخارجه وكذا من طرف كل المنظمات الدولية المنافحة عن حرية الصحافة، دون أن يفوته التأكيد على أن التضامن الرائع الذي غمرهم به القراء والمواطنون يبقى أجمل عزاء لنعيم ولكل المنافحين

عن حرية الصحافة في هذا البلد. الفقرة الأخيرة خُصِّصت للتّنويه بجدّية نعيم مرزوق ومهنيته، مؤكِّدة على أن محنتَهُ هي محنةٌ للصحافة الوطنية الحرّة، ومعركتَه هي معركة كل الصحافيين الشرفاء في البلد. التوقيع: أنور ميمي رئيس تحرير هوت ماروك ورئيس اللجنة الوطنية للتضامن مع نعيم مرزوق.

هل كنتَ تتوقّع كل ذلك من النّمس أيها الحرباء؟ كنتَ تحتقره في قرارة نفسك، وبدأتَ تشنِّع عليه داخل صالات التحرير في المستقبل وهوت ماروك. واليوم، ها هو يثبت لك أنه أذكى منك وأكثر دهاء؟ الحقير، يقتل القتيل ويمشي في جنازته. لا يمشي فيها فقط مثله مثل باقي المُشيِّعيين، بل يتقدّمُها وينوبُ عن أهل القتيل في استقبال التعازي.

***

في الحادية عشرة صباحًا، فتح الحارس باب الزّنزانة، فدلف شرطيان حليقان بلباسهما الرسمي. طلبا منه باحترام أن يحضِّر نفسه. فمحاكمتُه ستتمُّ هذا الصباح. في الصطافيت، كان الشرطيان يحيطان بنعيم. جعلاه يتوسّطهما دون أن يزعجاه بالدّنو منه. كان سارحًا يحاول لملمة أفكاره المشتّتة مثل قطيع ماعز جبلي تفرّق بين الفجاج. فيما ظل الشرطيان يتهامسان:

- يبدو أنّنا تأخّرنا.

- فعلًا تأخّرنا.

- أمس قالوا لي يجب أن نكون في المحكمة مع العاشرة صباحًا.

- صحيح، العاشرة كانت أفضل. لا أعرف لماذا تأخّر العميد هذا الصباح. كنتُ جاهزا منذ الثامنة.

- أنا جئتُ قبل الثامنة. إنّما، كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة والنصف. سنصل إلى المحكمة بعد منتصف النهار.

- فعلًا تأخّرنا. لا أتصوّر أن الصور ستظهر في نشرة أخبار الظهيرة.

- لا أعتقد، فقد تأخّرنا. لكنّهم سيبثّونها في المسائية، أكيد.

- صحيح. لكن نشرة الظهيرة أهمّ. الناس يشاهدون أكثر نشرة الظهيرة.

- حتى المسائية لها جمهورٌ واسع.

- لا.. المسائية لا يشاهدها أحد، خصوصًا هذه الأيام، لأنها تصادف موعد صلاة العشاء. الناس يكونون في المسجد حينها.

- ومع ذلك، فهي أيضًا تحظى بالمتابعة. ما كلُّ الناس يذهبون إلى المسجد للصلاة.

- فعلًا فعلًا. وما كلُّ الناس يصلُّون.

لم يكن نعيم يتابع حوار الشرطيَّيْن. كان يحاول ترتيب أفكاره عبثًا، متخيّلا المشهد عند وصولهم. كأنّه سمع الشرطيَيْن يتحدّثان عن نشرة الظهيرة والنشرة المسائية. لم ير أيّة علاقة له بالموضوع. لكن ما إن وقفَتْ الصطافيت أمام المحكمة، وأبصرهما يسوِّيان هندامهما ويضبّط كلٌّ منهما لزميله ربطة العنق قبل النزول حتى فهم القصة. التافهان، يريدان الظهور على الشاشة على حسابه.

كانت هناك أكثر من كاميرا. اعتصامٌ حاشدٌ أمام باب المحكمة. صحافيون ومناضلون حقوقيون يردِّدُون شعارات ازدادت ناريةً مع توقّف الصطافيت. أكثر من قناة تليفزيونية وطنية ودولية تصوّر في مدار المحكمة. ما إن نزل نعيم حتى هرول باتجاهه إبراهيم التنوفي الذي كان هناك مُحاطا برئيسَيْ تحريره. ارتمى التنوفي على نعيم ودفن رأسه في صدره على سبيل العناق قبل أن يرفع رأسه ويهتف بصوت جهوري متهدّج وهو يضغط على كتفي نعيم: "لست وحدك يا نعيم، المستقبل معك. كلُّ المستقبَلِ معك".

عجبًا، التنوفي يتضامن معك يا نعيم على رؤوس الأشهاد! فمتى شرب هذا الرِّعديد حليب السّباع؟

غير بعيد كان أنور ميمي منهمكًا في إعطاء تصريح لقناة تليفزيونية فرنسية. وما إن أنهى حواره، حتى أدار بصره باتجاه الحرباء. توقّف نعيم لبرهة ونظر شزرًا إلى غريمه. لكن ميمي واجَهَهُ بنظرة محايدة. كان يرتدي قميصًا برتقاليا طُبع عليه بالأسود شعار "كلّنا نعيم مرزوق". رفع ميمي في وجهه شارة النصر ووقف جامدا لهنيهة مثل جندي يؤدّي تحية عسكرية.

ترفَعُ في وجهي شارة النصر أيها الوغد. تريد استفزازي؟ ترفع في وجهي شارة انتصارك عليّ. تمنّى نعيم لو كانت باحة المحكمة خالية من الناس. لو كانا وحدهما فقط في هذا البراح ليُخرج لسانه الحربائي الطويل ويُري النّمس الكريه ماذا يمكن لحرباء أن تفعله به. لكن الكاميرات مُسلّطة عليك الآن يا نعيم، وعليك أن تبقى هادئا. لا تدع النمس يُخرجك عن طورِك.

كان ميمي يُلِحُّ في رفع شارة النّصر في وجه نعيم فيما يشبه الاحتداد موجِّها إليه نظرة يابسة. تبًّا لك يا نعيم. إنّه لا يتضامن معك! فقط، يُذكِّرك بالتعليمات. آه، تعليمات جواد. تبًّا.

رفع نعيم شارة النصر. وجَّهها لجحافل المتظاهرين الذين منعتهم قوات التدخّل السريع من الدنوّ من الصطافيت، وإذا بعدسات المصورين تتّجه نحوه لالتقاط الصورة التاريخية. كانت هناك أكثر من كاميرا أيضًا. أحاط الشرطيان بنعيم وهما يبتسمان في وجه الكاميرات.

الساعة تشير إلى الواحدة تقريبًا. المسكينان، فاتَتْهُمَا نشرة الظهيرة، لذا وجدا في هذه الصورة فرصة لتداركِ الموقف. على الأقل سيصير بإمكانهما ترقُّب صورتهما مع نعيم مرزوق في صُحُف الغد.

23

كان قد دنا من تلك الرّعشة المستحيلة التي تجعله يحلّق في سماء الغرفة جسدًا وروحًا لبضع ثوانٍ، حين لكَزَتْه حسنية. لم تكن وخزة قنفذة، بل لكزة موجِعة سدّدتها بجُمْع كفها إلى جنبه الأيسر فانقطع نفَسُه. تمازجت لديه اللذة بالألم.

- لماذا يا حسنية؟ ماذا فعلتُ لكِ؟ كان يريد أن يسألها لو طاوعَه نَفَسُه.

دفعَتْهُ حسنية عنها مشيحةً بوجهها. لا يعرف رحّال أي ذنب اقترفه. كان قد أغمض عينيه ليفتحهما في خياله على عينَيْ المها الفتّاكتَيْن. جذب هيام من رقبتها العظيمة وبطحها أرضًا بعنف وشراسة، دفن وجهه بين نهديها وزرع سيفه في أحشائها. كان على وشك بلوغ

سدرة المُشتهى حين لكزَتْه القنفذة اللعينة فقطعت نفَسه. والآن أدارت له ظهرها وخمدت. كأنّها نامت. لكن ماذا فعلتَ يا رحّال؟ أيّ ذنبٍ اقترفْتَ لتلكزك بهذا الشكل؟ أول مرّة تفعلها. صحيح أنها تنفجر في وجهك من حين لآخر. قد تدفعك عنها في سورات الغضب. لكن، أن تضربك بجُمع كفِّها فتقطع نَفَسك، هذه أول مرة تفعلها. تحسّس عضوَه فلمس السائل اللزج. تمنّى لو يعصره ليُخرج المزيد، ليُفرغه في يده ويستريح، لكنه خشي أن يثير حفيظة القنفذة بحركته، فترك قضيبه المُنتعِظ على حاله. قام بخفةٍ ليُطفئ الضوء، ثمّ عاد ليحتل مكانه على حاشية السرير بهدوء. كان حريصًا على ألا يحتكّ جسدُه بجسد القنفذة. هذا أسلم. أغمض عينيه، وجرّب أن ينام.

لكن حسنية لم تنم. كانت تنشج في صمت. لقد جرحَها النَّذل. نطق بها دون أن يشعر. كان في حمأة الرّهز حين شهق: "هيام". فهل كان يتخيّل نفسه يركبها؟ هذا الجرد الحقير. ثم إنها ليست أوّل مرة. تتذكّر حسنية ليلةَ أيقظها هذيانُه الفجّ من النّوم. كان يغمغم، وهو يتصبّب عرقا، قبل أن يهتف باسمها بوضوح: "هيام". ثمّ عاد إلى شخيره. هذه العاهرة. كيف سحرَتْهُمْ جميعًا؟

خاصم النوم جفنَيْ حسنية. عادت بذاكرتها إلى زمن قديم. كانت مراهقةً تساعد أمها أيّام العطل والآحاد في العمل ببيت الحاج القطيفة. حسنية تفرح بكل فرصة تتاح لها للذهاب إلى دار الحاج القطيفة فقط

لأنها ستلتقي فارسها الوسيم هناك. عماد. كانت تحبّه، ولا تزال. لم تحبّ أبدًا غيرَه. ولا تعرف حتى اليوم كيف يمكنها أن تشفى منه، ومن حُبّه. كان يسكن أحلامها. ابتسامة طائشة منه تكفي لتقضي أسبوعًا كاملًا كالمسرنمة. لهذا تذهب إلى بيتهم بمناسبة أو بدونها. ولهذا رافقت أم العيد ذلك الأحد القائظ. كان الحاج المعطي البلايغي وأسرته مدعوّين للغداء في بيت الحاج القطيفة. فذهبت لتساعد في إعداد الوليمة للضيوف. حسنية لا تجيد الطبخ، بل وتكره أن تطبخ. لكن من أجل لقاء عماد، كانت مستعدّة لكل شيء. تقف إلى جانب والدتها. تناولها كل ما تحتاجه من مواعين. تهيِّءُ معها السفرة، وتساعدها في غسل الأواني فيما بعد. ذلك الأحد، كانت أمّها مريضة. لكنها لم تفصح للحاجّة عن وهنها كي لا تخذلها، خصوصًا وهي تعرف مكانة الحاج المعطي البلايغي لدى آل القطيفة. فذهبت، ورافقَتْها حسنية.

لم يكن الحاج القطيفة يعامل أم العيد باعتبارها خادمة. كان كريمًا معها. يعطيها أجرها قبل أن يجفّ عرقُها. كان يعاملها بمثابة جارة. لهذا كانت حسنية وأمها تتناولان مع العائلة وجبات الغداء في الولائم والمناسبات مثل فردَيْن من الأسرة. ورغم أن مائدة خاصّة أُعِدّت للذكور في الصالون ذلك اليوم، تحلّق حولها الحاج القطيفة والحاج المعطي وعبد المولى، فإن عماد المُتَشاقي فضّل أن يتناول طعامه مع النساء. من أجلها. من أجل تلك المتعجرفة هيام. لم يكن

يرفع عينيه عنها. وكانت تتعمّد تجاهُلَه. حتى حينما يتظارف أو يحكي شيئا طريفًا وتضحك النساء، لم تكن تضحك. بينما أنا كنت أضحك وأفرح وأحبّه أكثر. كنت أضحك لألفت انتباهه ويرى أنني فرحانة به. لكنه يريد أن يُضحكها هي. وهي تعذّبه. الكل يعرف أنه يحبّها وأنها تعذّبه. ولا أحد يقول شيئا. كانت أسرَتُها فخورةً بتفوّقها الدراسي، وكانوا جميعًا يعرفون أن مسار عماد في المدرسة لا يدعو لأيّ فخر.

بعد الغداء، طلبت أم هيام من الحاجّة أن تترك البنات يرافقنها ليقضين الليلة عندها ويغيِّرن الجوّ قليلا فوافقَت. غادرت البنات مع هيام وأمها. الحاج القطيفة والحاج المعطي ذهبا مباشرة إلى السوق. عبد المولى ذهب إلى الكلية. وبقينا وحدنا. كانت أم العيد مريضةً. فطلبتُ منها أن تستريح وتبقى مع الحاجّة لتشربا الشاي معًا وصعدتُ إلى السطح لأغسل المواعين بدَلَها.

هل كان الجو حارًّا إلى ذلك الحدّ؟ أم لأنّني بلّلتُ فستاني، تركتُه يجفّ قليلا ريثما أنهي عملي؟ أم فقط لأن المراهِقة المخدَّرة بحبِّ فتى وسيم أرادت لجسدها أن ينطلق في لحظة حرية؟ المهم أنني نزعت فستاني وبقيت بكومبيليزو شفاف يُظهر الكيلوط. القطعة الوحيدة التي كنت أرتديها تحت الكومبيليزو. فنهدايَ أصغرُ من أن أعقلهما داخل سوتيان. هل كان عماد يراقبني من حيث لا أدري؟ كنتُ منكفئة على المواعين حينما أحسستُ يديه تطوقانني من الخلف.

التفتتُ لأجده هو. عماد. كان وجهُه محتقنًا بالرغبة. لم أصدّق نفسي. لم أصدّق أنه هو. فارس أحلامي الوسيم. كأنّي في حلم. جذبني إليه وبدأ يقبّل عنقي وهو يلهث. كانت أنفاسه حارّة. أمّا أنا فقد ذبت. تمامًا كما تذوب قطعة السكر الصغيرة في الماء. جرّني عماد إلى بيت السطح. كنت أتبعه كالمسرنمة، وقلبي يخفق. مدّدني على سدّاري قديم تتزاحم فوقه النسوة عندما يصعدن جماعةً إلى السطح لتنقية الحبوب أو شقّ الزيتون. هناك رفع ثوبي القصير الشفاف وسحب الكيلوط. لم أُبْدِ أيّة مقاومة. لكن ما إن أنزل سرواله هو الآخر وأشهر سيفه في وجهي حتى أغمي عليّ. حين استعدتُ وعيي وجدت قضيبه بين فخذيّ. كان يعارك ليولجه في أحشائي. أحببت أن أحضنه. أن أحْتَوِيَه كاملا وأغْلِق عليه هناك مرّةً وإلى الأبد. فتحتُ فخذيّ ليتوغّل الحبيبُ داخلي. شعرتُ ببعض الألم. لكنّني كنتُ ملتذّةً به. فتحتُ أكثر. كنت أريده أن يدخل أكثر. أن يدخل أعمق. كنت أريد لعماد أن يدخل كاملا لألده من جديد. ليصير طفلي الذي لا يعرف سواي. فلا ينظر ونحن على مائدة الطعام لغيري. آه يا عماد. آه يا طفلي. كان يلهث فوقي وأنا أذوب تحته. وأشعر بغبطة لم أشعر بمثلها قطّ في حياتي. أحسستُ به يتحوّل إلى ماء لزج ساخن. يتسرّب إلى أحشائي وقلبي وروحي وأنا أحضُنُه بفرح واهن متشنّج. وكان بابُ بيت السطح مفتوحًا. ثم أغلق فجأة. لا، لَمْ يُغْلَق. فقط انحبس الضوء. وكأنّ الشمس انحجبت فجأة. لا، لَمْ تنحجب. فقط كانتا هناك. وقفتا

مبهوتتَيْن. أم العيد المريضة ترتعد، وكأنّ ريحا باردة هبّت عليها من حيث لا تدري، قبل أن تندّ عن الحاجّة صرخة ملتاعة: "آويلي يا ويلي يا ويلي يا ويلي".

قام عنّي عماد مرتبكًا. أمّا أنا، فأغمي عليّ.

هل علم الحاج القطيفة بالأمر؟ هل أخبرته الحاجة أنّني فقدت بكارتي، وأنّ ابنه من أكل التّفاحة؟ أصبح عماد يتفاداني. الحاج هو الآخر بدأ يتجنّبني، وصارت أم العيد تذهب إليهم وحدها. أخبرتني أنّ الحاج توقّف عن استلام مبلغ الكراء الهزيل الذي كنّا ندفعه له مقابل سكننا في الدّويرية. بل رتّب لوالدتي مساعدة شهرية قارّة. وظل مع ذلك يتابع أخباري. ارتديتُ الحجاب حينما التحقت بالكلية. لزوم الوقار. تزوّج عماد حبيبة قلبه هيام. وحينما أخبرَتْ أم العيد الحاجّة أن زميلا لي في الكلية سيتقدّم لخطبتي، سعد الحاج القطيفة بالخبر. وأصرّ أن تُطْلَب يدي منه شخصيًّا. قال إن كل المصاريف عليه. هل كان يشعر بالذنب؟ لكن ما ذنْبُه هو؟ أنا التي أحببتُ عماد وأردته أن يكون طفلي. طفلي الذي أكبُرُه بثلاث سنوات فقط. لكنّه أحبّها هي. اختارها هي.

في المرّات الكثيرة التي استعدتُ فيها حادثة السطح، تذكّرتُ عماد وهو يخترقني وأنا شبه مُغمى عليّ، كأنّني سمعته ينطق اسمها هي. كان يتوغّل داخلي وهو يلهثُ فوقي ويشهق: "هيام".

24

كانت الحملة على أشُدِّها، حين دلف عماد إلى السّيبر فجأةً ذلك الصباح. وضعت أسماء للتوّ كأس القهوة أمام اليزيد. حيّا عماد رحّال بابتسامة شاردة واتّجه مباشرة نحو اليزيد. أسْعَدهُ أنْ رأى أسماء. طلب منها أن تُسعفه فورًا بإكسبريسو؛ فرأسُه ستنفجر، قال لها. وجلس يتحاور مع اليزيد. كانت ملامحُه غائمة. في غمرة الحملة، يبدو ابنُ القطيفة منطفئًا، فاقدًا لحماسِه الأوّل. ذقنُه غير حليقة وعلى جفنَيْه أثر السهر. لم يحبّ رحّال أن يرى عماد على هذه الحال. أشفق عليه. المسكين، تحالفت عليه المها واللبؤة وهو في غمرة الانتخابات. تكالبَتْ عليه اللّعينتان فانطفأت اللَّمْعَة التي كانت تشرق في عينيه.

كان رحّال منكمشًا فوق مقعده. رأسُه مدفونٌ في الشاشة. لكنّه

يعرف مع ذلك كيف ومتى يسترق النظر إلى اليزيد وعماد ليراقب مداولاتهما. فاجأَتْه الثقة التي يتحدّث بها اليزيد عن سير الأمور. أغراه إنصات عماد الشارد فاسترسل كأنه يخطُبُ في محفل. كان يتحدّث بحماس ويحرّك يديه في جميع الاتجاهات، وعماد يجامله بحركة ميكانيكية من رأسه فيما ظلّت نظرتُه شاردة. لا شكّ أن اليزيد كان يضع عماد في الصورة بخصوص الأبعاد الجديدة التي أخذَتْها قضية الحلزون في مراكش. ولعلّه يُحدّثه أيضًا عن الترتيبات التي قام بها أعضاء الفرع الجهوي ليمُرَّ التجمُّع الانتخابي الحاشد الذي سيؤطّره الحزب بالمسرح الملكي بمراكش هذا المساء على أحسن وجه، خصوصًا وأن الأمانة الجهوية للأخطبوط تعوِّل فيه كثيرًا على الحضور الشخصي للقيادي الحزبي الفقيه العلّامة الشيخ أبو أيوب المنصوري لكي يواجه الخصوم في حزب النّاقة بالكلمة الفصل في هذه القضية المفتعلة التي وسمتها الصحافة باسم معركة الحلزون. فجأةً، رنّ الهاتف. إنّه موبايلك أنتَ أيها السنجاب. لم يرُدّ رحّال في البداية، ارتباكًا وتهيُّبًا، لكن الهاتف عاود الرّنين. بإلحاحٍ هذه المرّة.

حدجَهُ عماد بنظرةٍ تشي ببعض الضّيق، فاضطر رحّال لأن يجيب. على الأقل، ليوقف سيل الرّنين. كانت المكالمة من عيّاد.

- آلو عمّي، أنا مشغول الآن. أتّصلُ بك لاحقًا. وشوش رحّال وهو يريد إنهاء المكالمة بسرعة.

- لا ولدي، بلّاتي بلّاتي اللـه يرضـي عليك. راني بغيت نقول لك آ ولدي: بّاك عبد السلام، اللهُمَّ اغفر لنا وله.

- آمين آعمي، آمين. اللهم اغفر لنا جميعا. إنّما، كيفما قلت لك أنا مشغول دابا. غير نسالي شي شغل ونعاود نتّصل بك. يا اللـه بالسلامة. سلّم عليه وعلى الوالدة. بالسلامة.

- أُسلِّم على مَنْ يا رحّال؟ واش انت آ ولدي حمار لهاذ الدرجة؟ كانقول لك بّاك اللـه يرحمو. توفّاه اللـه هذا الصباح. سندفنه بعد صلاة الظهر. وانتَ كاتقول لي سلّم عليه..

سقط الموبايل من يده. سمع عيّاد يردّد: "ألو.. ألو" على الطرف الآخر من الخطّ. لكن لا يدَ هناك لتحمل الهاتف، لا صوتَ ليُجيب، ولا طاقةَ تُسعِفه ليُواصل المكالمة. أحسّ نفسه هشًّا مثل قشّة. ثقيلًا وباردًا مثل معطفٍ صوفي مُبلّل. قلبُه يدقُّ بشدّة. رعشةٌ باردةٌ اعترَتْه فجأةً قبل أن تلُفّ القشعريرة جسده وكأنّها دِثارٌ من جليد. أحسّ نفسه وَهِنًا غير قادر حتى على رفع رأسه لينظر حوله. ودّ لو انخرط في نشيج حارّ. لكنّ الصوتَ خذلَهُ والدموعَ تحجّرتْ في عينيه. صيغة "اللهم اغفر لنا وله" التي بادَرَهُ بها عمّه لم يسمع بها من قبل. لم يستوعب للوهلة الأولى أنّها صيغة نعي، وأن عيّاد كان يعزّيه في والده.

لم يعرف رحّال ما إذا كان هولُ الصدمة عقد لسانه وشلَّ حركته

وجعله يتخشَّب فوق مقعده، أم جبنُه الفطري. ظلّ يرتعش وكأنّ نُدَفَ ثلج لامرئيةً تهبط عليه وحدَهُ دُونًا عن العالمين. فجأة خرج عماد مستعجلًا بعدما تلقّى مكالمة على موبايله، ثم تبعه اليزيد مثل كلبٍ جائعٍ بالفطرة. لحسن الحظّ أن قمر الدين أطلّ برأسه فور خروجهما، فبدا لرحّال مثل طوق نجاة. طلب منه رحّال أن يحلّ محله، فهو سيغيب اليوم كاملًا. حاول قمر الدين الاعتذار؛ فالتزاماتُه، التزاماتُ الحملة، قد تضطرُّه للتحرُّك هنا أو هناك في أية لحظة. لكنَّ رحّال ترجّاه بنبرة متضرِّعة فَلَانَ قمر الدين ووافق، واستلم منه المفاتيح. لم يشرح له رحّال أيّ شيء. كما لم يفكّر ولو للحظة في الاتصال بحسنية، وكأنّ الأمر لا يعنيها. في التاكسي الجماعي، كان منحشرًا في الخلف وسط ثلاثة ركّاب آخرين. الرّكّاب يثرثرون مع السائق. يتحدّثون عن الصراع الانتخابي الذي احتدّ بين الأخطبوط والنّاقة، فيما كان رحّال يفكّر في السرعوف الذي رحل فجأةً.

لن ترَ السْرعوف بعد اليوم يا رحّال. لن تر ذلك العبدي الذي عاش طوال حياته مهزومًا منعزلًا عن العالم والناس. لن تره بعد اليوم أبدًا. كان الدّمع قد فزّ من عينيه أخيرًا لينهمر على خدَّيْه ساخنًا كأنه ماءٌ ظلَّ يغلي داخله منذ مكالمة عيّاد المباغتة هذا الصباح، والآن فارَ وجَاش.

25

مَنْ كان يتصوّر أنّ معركةً حامية الوطيس ستنشـبُ بين النّاقة والأخطبوط مـن أجل حلزون؟ لكنّ هذا بالضبط ما حدث. صحيحٌ أنّ المغاربة اعتادوا على نُشوبِ المعارك الفكرية مع كلّ استحقاق انتخابي زمنَ الإيديولوجيات، حين كانت الأحزاب لا تزال مصطفّةً داخل خنادق إيديولوجية واضحة. لكن الأمور تغيّرت كثيرًا اليوم. لم تعد للشّعبِ طاقةٌ على تحمُّلِ هذه السّجالات المجرّدة بخصوص مبادئ الأحزاب وبرامجها السياسية. الناس تريد انتخابات كرنفالية، فيها فُرجَة واسـتعراض، رقصٌ وغناء، ولائِمُ وأعراس، ومكاسبُ صغيرةٌ ملموسةٌ يفوزون بها أيّام الحملة. أمّا فيما بعد، فكلّ المُرشّحين مثلَ بعض. كلّهم سـيختفون لينشـغلوا بمصالحهم، وليصيروا من

وُجَهاء العاصمة ولن تراهم إلّا على شاشــة التليفزيون خلال نقله المباشر لجلسات البرلمان، هذا إذا كانوا من تلك القِلَّة التي تواظِبُ على حضور الجلسات. وإلّا، فإنهم سيفتقدُون بهجة التَّملِّي بطلعاتهم البهيّة حتى الانتخابات الموالية بعد خمس ســنوات. لذلك، لا يهتمُّ الناس كثيرًا بمَآل الأمــور. تهمُّهم اللحظة الانتخابية ذاتُها كَطَقْس. يُغريهم جوُّها كَفُرجة يتابعون فصول مشــاحناتها بأنفاس مشدودة، وليس كنقاش سياســي ثقيلٍ على القلب. لذلك وجد الحزبان القويّان في قضية الحلزون فرصة لإعطاء صراعهما الانتخابي بُعْدَه الفكري العميق، لكن دون التفريط في أمرين اثنين: عنصر القُرب من المعيش اليومي للمواطنين، فالحلزون من أهمّ الأكلات الشعبية في مراكش والتَّناظُر حوله يبقى في صلب الالتحام بقضايا الشعب الساخنة، وكذا عنصر الإثارة وهو أساسي لإغراء المواطنين بالمزيد من المتابعة والانخراط في الشأن السياسي.

بدأت المعمعة عندما تمَّ توزيع عدد من العربات الجديدة على باعة الحلزون المتجوِّلين في مهرجان انتخابي كبير نظّمه حزب الأخطبوط في ساحة 6 نوفمبر في قلب جيليز. أكثر من ثلاثين عربة تمَّ توزيعها على باعةٍ من مختلف جهات المدينة. اليزيد، الذي حضر الحفل كممثّل عن المسيرة والأحياء المجاورة، حصل لوحده على أربع عربات، واحدة احتفظ بها لنفسه لكي يشغِّل عليها رابح مباشرةً بعد انتهاء الحملة، والعربات الثلاث الأخرى وزَّعها باسم مرشح

الحزب عماد القطيفة على المصمودي الثخين واثنين من رفاقه من أشهر باعة الحلزون في شارع الداخلة. لم يكن واضحًا ما إذا كانت العرباتُ جاهزةً منذ مدة لتوزيعها في إطار المبادرة الوطنية للتنمية البشرية ونجح البشير المرابطي ورفاقه في الالتفاف عليها بأساليبهم المُلتوية وتأخيرِ توزيعها لاستغلالها في الحملة بعدما ضمنوا احتكار مهمّة التوزيع، بتواطُؤٍ مع أعضاء في بلدية مراكش التحقوا بالحزب قُبَيْل الانتخابات مباشرةً وصاروا يتفانَوْن في خدمة أجندته مُستغلِّين في ذلك إمكانيات البلدية؛ أم لعلّهُ أحد أعضاء الحزب الأثرياء مَنْ تبرّع على الأخطبوط بهذه العربات، وبالتالي فالأمر يتعلق برشاوى انتخابية سافرة من حقِّ الأحزاب الأخرى الاحتجاجُ عليها.

مناضلو حزب النّاقة لم يتركوا الفرصة تُفلِت من بين أيديهم. أصدروا بيانا شديد اللهجة يندِّدون فيه بالعملية ويُدينونها معتبرين أنّ هذه النازلة تندرجُ في صميم الفساد الانتخابي الذي يستدعي تدخُّل كلٍّ من وزارتَيْ الداخلية والعدل لوضع حدٍّ له، قبل أن يدخلوا في نقاشٍ مُواطِنٍ صريح وشفّاف مع باعة الحلزون أنفسهم. نقاشٌ لم يكن مثمرًا على الإطلاق. بل جاءت نتائجُه عكسيةً في بعض الأحيان، خصوصًا بعدما انتهى هذا النقاش الحرُّ المباشر مع باعة الحلزون باثنين من مناضلي الحزب في قسم المستعجلات بمستشفى ابن طفيل.

انتبه صالح الرّكْوكْ، الأمين الجهوي لحزب النّاقة، إلى خطورة المجازفة التي أقدمَتْ عليها شبيبة حزبه. إذْ كيف يمكنك أن تُقنع بائعَ حلزونٍ سعيدًا بعربته الجديدة بأنّه متورِّطٌ في الفساد الانتخابي وعليه أن يتحمّل مسؤوليته؟ أيّة مسؤولية بالله عليكم؟ رجلٌ يقف عند ناصية الشارع وراء عربة تتوسَّطُها طنجرة كبيرة يتصاعد منها البخار، وحوله زبناء يستمتعون باحتساء شوربة الحلزون الحارّة الساخنة والمُنسَّمة بالزّعتر واليانسون والخزامى والكروية وبسيبيسة وقطع الليمون، ويتلذّذون بالتهام حبّات الحلزون التي يسحبونها من داخل قواقعها بإبر صغيرة حادّة، تأتي أنتَ لتتَّهِمَهُ بالفساد؟ واقعية صالح الرّكْوكْ جعلته يعترف بأنَّ الانتهاء باثنين من شباب الحزب إلى مستشفى ابن طفيل نتيجة منطقية، ودليلٌ قاطعٌ على فساد هذه الخطوة التواصلية. لذلك قرّر تغيير الأسلوب: أن يرفع من حرارة المعركة، بل وأن يحسمها بالضربة القاضية، دون أن يدخل في الاحتكاك المباشر مع المواطنين. هكذا راسل مجلس فقهاء الحزب بالعاصمة وطلب منهم استصدار فتوى شرعية تحرِّم أكل الحلزون من الأصل. وكان له ما أراد.

جاءت الفتوى حاسِمةً، لا غُبار عليها. فقد استشهد مجلسُ فقهاء حزب النّاقة بفتوى لشيخ الإسلام ابن تيمية يجزم فيها بأنّ "أكل الخبائث وأكل الحيّاتِ والعقارب حرامٌ بإجماع المسلمين. فمن أكلها مستحِلّا لذلك فإنه يُسْتَتاب وإلّا قُتِل"، قبل أن يعزِّزوا حُجَّتهُم بفتوى

أخرى أكثر وضوحًا للإمام ابن حزم يقول فيها: "ولا يحِلُّ أكل الحلزون البرّي ولا شيء من الحشرات كلها كالوزغ والخنافس والنمل والنحل والذباب والدّبور والدّود كله والقمل والبراغيث والبق والبعوض"، ثم ختموا فتواهم بتحريم الشافعية الصريح لهذه الدُّودة بعلّة أنّها مُستخْبَثة. وكلام اللـه واضحٌ في هذا الشأن. فقد حرّم على عباده الخبائث بنصٍّ صريح.

بيانُ حزب النّاقة الذي أدرج فتوى فقهاء الحزب بنصِّها الكامل تضمّن أيضًا فقرةً طريفةً أضافها صالح الرّكْوكْ في آخر لحظة، عرّض فيها بمواقف حزب الأخطبوط الذي ما انفكَّ يُنافِحُ عن الشّواذ والفاسقين بدعوى دفاعه عن الحريات الفردية، لذا فهو لم يستغرب دفاع هذا الحزب المشبوه عن دودةٍ فاسقةٍ مشهودٍ لها في الأوساط العلمية بميولاتها المثلية. فالحلزون الواحد - يُدقِّقُ البيان - يملك جهازين للتناسل ذكري وأنثوي، ويفرز جاميتات مؤنّثة ومذكّرة في نفس الآن. ومع ذلك يريد لنا البعض أن نأكل هذه الحشرة الخنثى ويحشُرها - ظلمًا وبُهتانًا - ضمن الطيِّبات من الرّزق. ﴿أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، صدق اللـه العظيم.

26

- كان ما بيه ما عليه. نادينا عليه للفطور، ما بغاش يجي. ملّي وكّدنا وعاودنا خرج بزّز. شرب كاس ديال آتاي ما فاتو، ورجع حبض فبلاصتو.

قالت حليمة وهي تنشج. كان وجهُها كامِدًا، ثيابُ الحِداد البيضاء زادَتْهُ شحوبًا.

- ملّي آ ولدي جمعنا مواعين الفطور، جيت بغيتو يخرج معي للسوق، لقيتو جامد هامد. من جلستو المرخية وجلدة وجهو بانت لي مدلّية وحسُّو مقطوع والنفس ما تطلع عرفتو مات. ما قلت والو لحليمة. قلت نتيقّن بعدا. خرجت دقّيت على جارنا السي علي، كانعرفو إنسان مومن، تقي وديّاني. جا مْعَايا اللـه يجازيه بخير. غير شافو،

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أردفَ عيّاد.

سعل السي علي مُبدِيًا تواضعه حيال إطراء عيّاد. شابٌّ دون الأربعين، رغم مظهره الموحي بسنٍّ أكثر تقدمًا. ربّت السي علي بيده على كتف رحّال، ثم أضاف مؤمِّنًا على كلام عمّه، وهو يُمسِّد لحيتَه الكثّة:

- قضاءُ اللـه يا أخي والقضاءُ لا يُرَدّ. من النّظرة الأولى عرفتُ أنه مات. سبحان اللـه العظيم. الميّت لا يخفى. من انخساف صدغيه وغيبوبة سواد عينيه عرفتُ أنّه مات. مات المسكين فجأة. وموت الفجأة رحمةٌ وتخفيف وعفوٌ من ربِّ العباد عندما يكون الميّت من أهل الصلاح، ونقمة وغضب على الفاسقين. فالعلي القدير يعاجلهم بالموت قبل التوبة، ولا يمهلهم فيستدركوا ما مضى من تفريطهم وتقصيرهم.

كان رحّال واقفًا بين الثلاثة أمام غرفته القديمة. الغرفة التي اتّخذها والده ملاذًا في سنواته الأخيرة. كان أحد إخوة السي علي في اللـه يُغسِّل عبد السلام. تطوّع لذلك وأحضر معه الكفن والحنوط على سبيل الصدقة. حكى لهم السي علي أن صديقه موسى رجل يهاب اللـه ويخشى الموت. ودائما يحتفظ في بيته بالأكفان والحنوط، ويقول لهم: "إذا سبقني أيٌّ منكم للقاء الباري عزّ وجلّ فكفنُهُ وحنوطه عندي. وسأُغَسِّله بنفسي، كما غُسِّل محمد بن عبد اللـه عليه أزكى

السلام، غسلا لا تتسرّب إليه بدعة". لذلك فكّرتُ فيه مباشرةً هذا الصباح. فعبد السلام رحمه اللـه أخونا وواحدٌ منّا.

حكاية غسل عبد السلام وتكفينه أمرٌ قضاه اللـه من عنده حينما يسّر له من يقوم بالمهمّة إيمانًا واحتسابًا. لكن ماذا عن الإجراءات الأخرى يا عيّاد؟

لحسن الحظ أن عيّاد كان قد حضر أكثر من مجلس انتخابي لتوفيق الباهي ممثل حيّ الموقف وقشيش في المجلس الجماعي ومرشّح حزب النّملة في الانتخابات الحالية. ولأنّ مناسبةً كهذه ما كان لتوفيق الباهي أن يهدرها والحملةُ على أشدِّها، فهي فرصته لكي يُظهِر للساكنة مدى تفانيه في خدمتهم، فقد كلّف أحد معاونيه من سكّان الجوار - شخص مشهور باسم العفشي - بأن يقوم باللازم. جاء العفشي بالطبيب البلدي المسؤول عن مكتب حفظ الصحة لإنجاز بيان معاينة الوفاة بعد أقلّ من ساعة من رحيل عبد السلام، استخرج شهادة الوفاة وتصريح الدفن، وتكفّل بإحضار سيارة الجماعة المحلية التي وضعها توفيق الباهي رهن إشارتهم لنقل الجثمان إلى المقبرة.

لم تكن الجنازة حدثًا مشهودًا. فعبد السلام شخصٌ خاملٌ لا أصدقاء له في الحيّ ولا أصحاب. لذا لم يُشيِّعه سوى رحّال وعياد وأربعة من جيرانهم، ثلاثة أشخاص من أتباع توفيق الباهي يتقدّمهم العفشي، لفيف من المصلّين، إضافة إلى السي علي وموسى اللذَيْن

يعرفان كم هو كبيرٌ عند اللـه أجرُ تشييع الميت. انطلقت سيّارة الجماعة المخصّصة لنقل الموتى من أمام المسجد بعد صلاتَيْ الظهر والجنازة. ركب عيّاد جنب السائق وقال له: "مقبرة باب الخميس إن شاء اللـه".

لكن ما إن وصل الموكب إلى المقبرة حتى وجدوها خاويةً على نُعوشِها. حتى المشرّدون وباعة ماء الزهر اختفوا تلك الظهيرة. لا أحد هناك. لحسن الحظ أن رحّال انتبه إلى رقم موبايل مرسوم بصباغة خضراء عند المدخل. جرّب الرّقم. كان ما زال يبحث عن كلماته حين بادره الصوت من الجهة الأخرى:

- واش شي ميّت هذا؟

- نعم، لدينا ميّت. ونحن هنا في مقبرة باب الخميس.

- صافي أنا راني قريب. خمس دقائق وأكون عندكم. ابحث عن بومهدي الحفّار، واطلب منه أن يهيء عدّته ريثما أصل.

- لا أحد هنا. المقبرة خالية تمامًا.

- واخّا. عرفتو فين غادي يكون. ولد الحرام. سيكون أمام بسطة القرع كالعادة. غير بعيد عن المقبرة. غادي نجيبو معاي ونجي. غير كون هاني. لن نتأخّر.

كان الانتظار ثقيلًا. لكن موسى المُغسِّل وجد الفرصة مواتية ليبدأ

موعظته في انتظار قدوم حارس المقبرة وحفّار القبور. حدّثهم عن الموت، فقد حثّنا النبي الأكرم على تذاكُر الموت وعدم الغفلة عنه فقال عليه السلام: "أكثروا ذِكْرَ هازم اللذات". وحدّثهم عن الساعة التي اقتربت، فظهورُ موت الفجأة من علامات السّاعة وأشراطها. وقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك وفُجاءَةِ نقمتك وجميع سَخَطِك". وموت الفجأةِ من فُجاءَةِ النقمة والعياذ بالله.

في تلك اللحظة دخل بومهدي مهرولًا والحارس يتبعه. هرع حفّار القبور الأخرس إلى جذع شجرة الضّرو. أحضر عُدّة الحفر وسأل الحارسَ بيديه وملامح وجهه: أين؟

- صحيح؟ أين؟ لدينا قبور بـ200 درهم، وأخرى بـ700 درهم في مكان جيّد والسبيل إليها مُمَهّد بالنسبة إلى من سيزور القبر فيما بعد، فماذا تفضّلون؟

تصدَّى العفشي للجواب بنبرة استعراضية:

- آ سيدي اعطنا قبر 700 درهم. واش المرحوم رخيص عندنا؟ قالها باستنكار مفتعل وهو يُجيل بصره في الجمع ليرى أثر تدخّله الشّهم على وجوههم.

استلم الحارس النقود، عدّها، أعطى العفشي رقم القبر، ثم بدأ يفحص الأوراق بروتينيّةٍ قبل أن يصرخ كالمُلتاع:

- آش هاذ الشي آ السي؟ هاكم آخويا فلوسكم. ما كاين دفن. هاذ الجنازة ماشي عندنا. خصّكم تمشوا لمقبرة باب اغمات. حسب البطاقة الوطنية ديال المرحوم، انتم على حساب باب اغمات ماشي على حسابنا.

بدأ عيّاد يرتعد من الغضب، فصرخ في وجه الحارس:

- آش من باب اغمات ولّا باب احمر؟ المرحوم هاذي هي مقبرتو. اعتاد عليها، وليها كان كايجي دائمًا، واليوم خصُّو يتدفن ف المقبرة ديالو.

- لم أفهم؟! هل تقصد أنّ المرحوم عندو سَوابِق ف الموت والدفن؟ يعني، هذا ماشي هو الموت الأول ديالو؟ سأله الحارس متخابثًا.

توثّب عيّاد للرّد، لولا أن رحّال جذبه من كمّه. ماذا ستشرح له أيها الجرذ المتنطّع؟ بِمَ ستُجيبه؟ هل ستقول له بأنّ عبد السلام كان ضمن جيش "الطّلْبة" الذين يزاحمون الزوار عند قبور ذويهم ويفسدون عليهم خلواتهم بقراءتهم النّاشِزة؟ سيستهين بنا أكثر، ثمّ إنّك ستفضحنا أمام الناس.

كان موسى وعلي قد تقهقرا بضع خطوات إلى الوراء. فهما لا يفقهان كثيرًا في الأمور الإدارية. لكنّ العفشي تدخّل لتهدئة الموقف.

قبّل رأس الحارس وجرّه بعيدًا عنهم. استغرقت مفاوضاتهما بضع دقائق. أدخل العفشي يده إلى جيبه. يبدو أنه نفح الحارس بعض النقود ليغُضَّ الطرف، وكذلك كان. عاد العفشي منفوخًا مثل ديك رومي. صاح في الجماعة وعلى وجهه أمارات النصر:

- يا اللـه آ سيادنا ندفن المرحوم.

كان بومهدي يُهيل التراب على الجثمان حينما حاول العفشي الانخراط في دعاء مُرتَجل، هو المُنتشي بنَصْرِه، قبل أن يصدمه موسى الذي وجد الفرصة سانحةً ليستعيد زمام المبادرة. نهرَ العفشي بفظاظة وطلب منه التزام الصمت، قبل أن يخاطب حزمة المشيّعين بصوت جهوري:

- استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيتَ فإنَّهُ الآن يُسأل. ولكن فْ السِّرّ، اللـه يخلّيكم.

في الليل، بعد صلاة العشاء. كان البيت مليئا بقصعات الكسكس التي أعدَّتها الجارات لإطعام وفود المُعزّين. لكن لا معزِّين هناك. انتظر علي وموسى قليلا. كان موسى قد أعدّ موعظته. إنّما، لا جمهور هناك. أجهز هو ورفيقه على قصعة كسكسٍ بالدجاج والبصل والزبيب والحمص ثم غادرا. كانت البجعة والجرذ منكمشَيْن في المطبخ. صوت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد يُشيع في البيت بعض الطمأنينة. انسكبت دموع رحّال من جديد. تذكّر حسنية. اتّصل بها.

كانت قد عادت إلى البيت. قالت إنها لن تنتظره. ستتعشى وتنام، فهي مُنهَكة تمامًا.

أخبرها رحّال أنه ليس في السيبر.

- أنا في الموقف يا حسنية. عند الأسرة هنا ف الموقف. بّا عبد السلام مسكين، اللـه يرحمو. مات اليوم.

صمتت حسنية قليلًا. ظل رحّال يصيخ السّمع، ثم وصله نشيجها. نشجت قليلًا في البداية ثم بدأت تنتحب. كانت تبكي كما لم تبْكِ قطّ.

27

لم يكن صالح الرّكّوكْ يتصوّر أنّ بيانَ حزبِه الأخير، خصوصًا فتواه بتحريم الحلزون، سيُثير كل هذه الضجة في الشارع المراكشي. لكنّ الفتوى الحلزونية صارت حديث المجالس. ناقتُك يا صالح ركضت بعيدًا. أبعد مما تتصوّر. أثارت بلبلة حقيقية في أوساط الناس الشعبيين. حتى النساء في الحمّامات ناقشن هذه النازلة، وهناك أكثر من حالة إغماء سُجِّلَت في حمّامات النساء في المدينة القديمة بعد اشتباك بعض المُستحِمَّات من الحزبَيْن اللدودَيْن من اللواتي لم يتحمّلن أن تجتمع عليهنّ حرارة الجدال وحرارة الحمّام. حتى قمر الدين وجدَ والدَهُ يناقِشُه في الموضوع على مائدة العشاء. شهاب الدين السّيوطي، المُتعاطِف مع حزب النّاقة، بدا مُقتنعًا بفتوى التحريم،

أما قمر الدين فقد وجد صُعوبَةَ في مُجاراة والده في هذا الأمر، ليس فقط بسبب قُربه من الأخطبوط واشتغاله مع اليزيد في حملة الحزب الانتخابية، ولكن أساسًا لأنّه عاشقٌ لشوربة الحلزون حريصٌ على تناول زلافة منها كل مساء في أيّام البرْد.

حزب الأخطبوط وجد نفسه في وضع صعب. فعليه أن يعثر على حلّ في أقرب فرصة. أوّلًا عليه أن يوقف النّاقة عند حدِّها قبل أن تأتي على الأخضر واليابس. فمن غير المقبول أن يلتجأ حزب النّاقة أمام كل قضية من قضايا المجتمع إلى مجلس فقهائه ليُفتوا في الموضوع. هذا زجٌّ فاحِشٌ بالدّين في مُعترك السياسة يرفضه الحزب بشكل مبدئي. ثم، هناك فتوى ابن تيمية التي أشهرَها حزب النّاقة في وجه المجتمع المغربي المعروف بوَلعِه الشّديد بشوربة الحلزون وبلِحْم الحلزون الشهي؟ يعني، بصراحة، ما معنى أن يُستَتابَ آكلُ الحلَزون وإلّا فإنّه يُقتل؟ هذه دعوة صريحة للقتل يعاقِبُ عليها القانون. صحيح أنَّ ابن تيمية مات منذ قرون ولا سبيلَ إلى متابَعتِه اليوم، لكن يجبُ متابعةُ مَن تورّط في تحيينِ هذه الفتوى وأشهَرَها في وجه المجتمع. ثمَّ من سيُنفِّذ حكم القتل في حالة ما إذا قرّرنا مُجامَلة ابن تيمية؟ أعضاءُ حزب النّاقة، أم مَنْ؟ وهل سنقتل نصف المغاربة من أجل حلزون؟ إنها فتنةٌ حقيقية. والفتنة أشدٌّ من القتل. لذا على الحزب أن يجد حلًّا عاجلًا. فقد صار من الواضح

أنَّ مَنْ سيربح معركة الحلزون بين الحزبَيْن سيكسب الانتخابات في مراكش بلا جدال.

في اللحظات الصعبة فقط نعرف قدرَ الزعماء. وبعض قادة حزب الأخطبوط المحسُوبين على الصَّفِّ الحداثي التقدمي ممن كانوا يتندَّرُون، في السّر، على هذا الشيخ المُعمَّم الذي يحضر معهم اجتماعات الأمانة العامة للحزب وينسحب مباشرة بعد انتهاء الأشغال دون أن يرافقهم إلى المطاعم الفاخرة حيثُ يواصلون سمَرَهُم النّضالي، اعترفُوا أخيرًا بِبُعد نظر زعيمهم موحى الصنهاجي. فاستقطابُهُ لمرجع ديني من قيمة الفقيه المالكي الشيخ أبي أيوب المنصوري للأمانة العامة للحزب خطوةٌ حكيمة لم يقدِّروا أهمّيتها إلّا اليوم. إذْ قرّر الحزب أن يُقيم مهرجانًا انتخابيًّا يكون موضوعُه قضية الحلزون، وسيتكفَّل الشيخ أبو أيوب بالردّ على فقهاء النّاقة وفضحِ تهافُتِهم وفسادِ فتْواهُم.

تأسّف قمر الدين كثيرًا لأنّ السنجاب ورّطه في السيبر واختفى منذ ضُحى هذا اليوم. وجدَ نفسه عالقًا في المحلّ. هكذا فاتَهُ حضور المهرجان الخطابي الذي استقطب، إلى جانب شعْبِ الأخطبوط، العديدَ من عُشّاق لحم الحلزون ممّن أفزعَتْهم فتوى ابن تيمية، وعددًا من مناضلي حزب النّاقة الذين ذهبوا بغاية التّناظر والدفاع عن فتوى مجلس فقهائهم. شهاب الدين السيوطي بدوره ذهب لحضور اللقاء، فيما ظلّ قمر الدين رَهينَ جُحْر السنجاب.

لحسن الحظ أن موقع "دابا مراكش" قرّر نقل المهرجان الخطابي مباشرةً على الانترنت. هكذا صار بإمكان قمر الدين أن يتابع الفيلم كاملًا من مكمنه في السيبر. كان اليزيد قد أوقف أمام السيبر ثلاث حافلات للنّقل السياحي وضعها رهن إشارة الحزب رضوان آيت بّيه أحد أباطرة النقل السياحي في المغرب. رجلٌ ظلّ بعيدًا عن السياسة قبل أن ترغِمَهُ مشاكل متعدّدة واجَهها مع المصالح الضّريبية على الالتحاق بالأخطبوط عسى الحزب يؤمِّنُ له بعض الحَصانة. أشبال الأطلس احتلّوا حافلتَيْن: أشبال المدرسة وأشبال السيبر على حدٍّ سواء. فيما خُصِّصت الثالثة للمصمودي ورفاقِه من باعة الحلزون في المسيرة ودوّار إيزيكي وأزلي وسوكوما ودوّار العسكر وحيّ البهجة وحيّ الإنارة. يرافقهم على سبيل المساندة الواجبة في مثل هذه الظروف العربي صاحب مقهى ميلانو، ومبارك بائع سندويتشات النقانق، وطامو بائعة البَغْرير.

كان المسرح الملكي مزدحمًا بالحشود. الأغلبية طبعًا لشعْبِ الأخطبوط. لكن كان هناك تكتُّلٌ لشباب حزب النّاقة في أقصى الجانب الأيمن من المسرح المفتوح الذي كان اختيارُهُ لعقدِ هذا اللقاء الجماهيري موفَّقًا، خصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المسرح مَعيبٌ ولا يصلح بتاتًا لاستضافة العروض المسرحية حسب تقارير فنية أنجزها خبراء مغاربة ودوليون. لذا، فتظاهراتٌ من عيار هذه الكوميديا الحيوانية قد تُناسِبُه أكثر. كلُّ مراسلي الصحف والمواقع

الإلكترونية الوطنية كانوا هناك. أكثر من كاميرا تحيطُ بالمنصّة، إلى جانب كاميرا "دابا مراكش" التي خلقت الحدث بنقلها المباشر لهذا اللقاء الانتخابي الحاسم.

اعتلى البشير المرابطي المنصّة أولًا تحت تصفيقات الحاضرين وهتافات مناضلي الحزب. تبعه بوشعيب المخلوفي يرتدي جلّابة بْزِيويَّة رفيعة. توسّط المجلس، جرّب الميكروفون، ثمّ التفت هو والبشير إلى عمق المنصّة وشرعا في التصفيق قبل أن يظهر الشيخ أبو أيوب متقدِّمًا باتجاههما وهو يختال في جلباب أبيض وبُرنُس رمادي ويعتمر طربوشًا فاسيًّا. ملامحُهُ تشي بسماحته، ولحيته مصفَّفةٌ بعناية. اهتزّت القاعة بالتصفيق. ارتمى الفيل على يده يقبّلها. يبدو أنّ الشيخ أبا أيوب درّسه في الكلية سنوات الرباط. وإظهار الاحترام، بهذا الشكل الصريح أمام الجميع، من خصائص المجتمع الفيلي الفاضل. اكتفى البشير بكلمة ترحيبية قصيرة بأبناء مراكش البَررة الذي حجُّوا بكثافة لهذا المهرجان الخطابي المُبارك، ورحّب بالشيخ الجليل أبي أيوب المنصوري "عالمًا جليلًا أولًا، ثمّ قياديًا بارزًا في الأمانة العامة لحزبنا العتيد"، وأسلم الميكروفون للمخلوفي، مسيّر اللقاء.

مرافعة المخلوفي العلمية كانت لافتة في الواقع. أكّد فيها انتماء الحلزون لعالم الحيوان، واعتبر تصنيفه ضمن الحشرات خطأً علميًّا فادحًا، قد نغفره لابن حزم رحمه اللـه، لكن لا يمكن أن

نغفره لفقهاء هذا الزمان. كما استهجن المخلوفي وصف مخلوق برّي ضعيف يتغذّى على الكرنب وأوراق الشجر بالخبيث، وذكّر بالقيمة الغذائية للحلزون الذي يحتوي على العديد من الأملاح الدقيقة كالمغنيزيوم والفوسفور والبوتاسيوم، إضافة إلى الزنك والنحاس والسيلينيوم وفيتامينات عديدة يضيق المجال عن حصرها، بينها فيتامينات خصَّهُ الخالق بها دونًا عن باقي الحيوانات والنباتات. كما لم يَفُتْه التّصَدِّي لاتّهام حزب النّاقة لهذا الحيوان المسكين بالشذوذ الجنسي. وهنا سيحتدُّ المخلوفي فعلًا ويخرج عن طوره، حيث انتفخت أوداجه وبدأ يصرخ أمام الميكروفون: "ألم يَكْفِكم التشنيع على خصومكم السياسيين واتّهامهم بالفسق والفجور، لكي تتجاوزوا البشر إلى الحيوانات؟ ألا تخجلون من إلصاقكم تهمة الشذوذ الجنسي بمخلوق بريء من مخلوقات اللـه؟ لو كنتم من أولي الأبصار، الذين ينظرون إلى خلق اللـه فيعتبرون، لانْتَبهتم إلى أنّ هذا المخلوق البريء يعطي درسًا في الصيام. إذا كنّا نحن نصوم شهرًا واحدًا في السنة فنتأفّف ونشتكي من الجوع والعطش، فإن هذا المخلوق التّقي النّقي يصوم ثلاثة أشهر متتالية دون أن يتأفّف أو يتذمَّر. فاتّقوا اللـه يا أصحاب ناقة آخر الزمان. اتّقوا اللـه في خلق اللـه".

الأداء المسرحي المبهر للأستاذ بوشعيب المخلوفي فاجأ الجميع. فقد ارتّجت جنبات المسرح بالتصفيق وزغاريد النساء، قبل أن يلهبه

اليزيد أكثر برفعه لشعارٍ ناريٍّ - مِنْ وحي اللحظة - أطلقه هو ورابح، حيث بدأ يردّدان بصوتٍ مُجلجِل: "لا لا ثُمّ لا، للنّاقة القتّالَه". شعار صادف هوى في نفوس الكثيرين، ليردِّدَهُ شعبُ الأخطبوط وراءهما بحماس هستيريّ مما جعل أنصار النّاقة يخرجون عن طورهم. هكذا اندلع اشتباك عنيف في أقصى الجانب الأيمن من المسرح أسفر عن إصابات في صفوف أنصار النّاقة، إحداها كانت خطيرة بعدما شجّ أحد باعة الحلزون رأس واحد منهم بقضيب حديدي كان يخفيه تحت جلّابته. لحسن الحظ، أن رجال الإسعاف كانوا في الموعد. نقلوا المصابين على وجه السرعة إلى قسم المستعجلات. فيما كان تدخُّل رجال القوات المساعدة حاسمًا في تهدئة الوضع.

ما إن استلم أبو أيوب الميكروفون، حتى ران صمتٌ مطبقٌ على المسرح. فبعد حمد الله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومَن والاه، تنحنح الشيخ وأضاف بصوت هادئ قوي النبرات:

"رغم أن الأستاذ الكريم البشير المرابطي قدّمني كأحد رجالات هذا الحزب الفتيّ، إلا أنني أودّ أن أخاطب أبناء الحضرة المراكشية الزّكية بصفتي العلمية وليس الحزبية أو السياسية. فأنا فقيه مالكي أوّلًا وقبل كل شيء، وبهذه الصفة جئتكم هذا المساء. لقد اخترنا يا إخواني في هذا البلد الأمين العقيدة الأشعرية التي لا تكفّرُ حتى

مرتكب الكبيرة، فما بالُنا اليوم بمن يريد إثارة الفتن بيننا ليُفتي والعياذ باللـه بقتلِ آكِلِ الحلزون؟ هل هناك فتنة أكثر من هذه؟ واللـه إنها لفتنةٌ أشدُّ من القتل.

ثمَّ باللـه عليكم - يضيف أبو أيوب بصوت علا بعض الشيء دون أن يفقد هدوءه - ألسنا نحن المغاربة على مذهب الإمام مالك؟ أليس هذا هو المذهب الذي ارتضاه أولو الأمر لنا وهو يُوَحّدنا بحمد اللـه منذ قرون، فما بال البعض يزايدون علينا اليوم بما يقوله الشافعية وغيرهم في هذا الموضوع أو ذاك؟ نحن مالكيون أيها الإخوان، ومرجعنا الإمام مالك وما قال به صاحب الموطأ. ورأي إمامنا واضح في هذه النازلة.

قال ابن القاسم رحمهُ اللـه: ولقد سُئِل مالك عن شيء يكون في المغرب يُقال له الحلزون يعيش في الصحاري يتعلّق بالشّجر، أَيُؤْكَل؟ فأجاب الإمام رحمه اللـه: أراهُ مثل الجراد ما أُخِذَ منه حيًّا فسُلِق أو شُوِيَ، فلا أرى بأكله بأسًا.

انتهى الكلام، ولا قول بعد قول الإمام".

ارتفعت الزّغاريد والشّعارات والتّصفيق والهتاف. طبعًا يمكن للحزب السياسي أن يضبط مناضليه في حالات الهياج الشعبي، لكن مَنْ يدَّعي القدرة على ضبط باعة الحلزون ورفاقهم من الباعة المتجوّلين في مثل هذا المحفل؟ كان فرحُهُم هستيريًّا. بعضُهم هجموا

على المنصة، ارتموا على الشيخ أبي أيوب يقبّلون رأسه وكتفيه. أحدهم ارتمى على رجليه يقبّلهما فأسقط الشيخ. ولولا لُطفُ اللـه وتدخُّل رجال القوات المساعدة الذين ألهبوا ظهور باعة الحلزون بزراويطهم لمات الشيخ اختناقًا بين أيديهم. لهذا بالضبط، ألغي الجزء الثاني من المهرجان الخطابي وهرَّب البشير المرابطي وبوشعيب المخلوفي الشيخ أبا أيوب من الباب الخلفي. فيما غادرت الحشود المهتاجة المسرح الملكي لتواصل هيجانها على امتداد شارع محمد السادس. كانوا يردّدون بهيستيريّةٍ شعارَهم الجديد: "لا لا ثُمّ لا، للنّاقة القتّالَه".

صالح الرّكوك الذي كان في مقرّ الحزب يتابع مع إخوانه في المكتب الجهوي النقل المباشر لوقائع المهرجان الخطابي عبر موقع "دابا مراكش" بدا واجمًا تكسو وجهه أمارات الكدر. فهو يحدس من الآن أن سقطة النّاقة في مراكش ستكون مُدوِّية، وسيتردَّدُ صداها في كل البلاد.

28

ما إن غادر المشيِّعون حتى استعادت روح عبد السلام سكينتها. القبرُ رحبٌ على ضيقه. والرُّقود في دعةٍ، تحت الثرى، أهوَنُ ألف مرّة من مرارة العيش هناك، في جُحْر عيّاد في حيّ الموقف.

ياه يا عبد السلام، ليغمُرْكَ اللـه برحمته. كَمْ قاسيْتَ، وكَمْ كابَدْت.

"ولدي الحبيب،

أكتبُ لك هذه الرسالة خشية أن أرحل دون وداعك.

سيقولون لك يا رحّال إنّ عبد السلام مات فجأةً. لكنّ الكمَد قديمٌ يا ولدي. والموتُ نعمةٌ من ربّ العالمين. لم أمت فجأةً أبدًا. متُّ عن جدارةٍ وسبق إصرار. فقد عشتُ سنواتي الأخيرة لا أرجو غير هذه

السّاعة. ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، صدق اللـه العظيم. وأنا تمنّيتُ الموت يا رحّال. تمنّيتُه صادقًا يا ولدي فاستجاب لدُعائيَ الرّحمان".

اغرورقَتْ عينا عيّاد بالدموع وهو يقرأ الرسالة التي عثر عليها صدفةً تلك الليلة. كان قد قرّر النوم في فراش أخيه. في غرفته الصغيرة، حيث اعتكف خلال سنوات عمره الأخيرة، وحيث غُسِّل وكُفِّن. أراد أن يُناجيَه. أن يشُمَّ رائحتَه على الأقل. كان يتقلّب في الفراش حينما سمع خشخشةً. تحسَّس بأصابعه باحثًا عن مصدرها، فوجد الرسالة مدسوسة تحت الوسادة. فتح الظرف الأصفر. أخرج الورقة وبدأ يتهجّى هو الذي توقّف عن القراءة منذ أيام "سيدْ الزّوين". ظلّ يكظم في قلبه شعورًا بالغيرة من أخيه الذي فتح اللـه عليه فختم القرآن هناك في الزّاوية. خطُّ عبد السلام ليس واضحًا بما يكفي. لكن عيّاد سيتهجّى الرسالة كاملة. كان يقرأ ويُعيد. وفي الأخير قرّر أنّ هذه الورقة المكتوبة بيد راعشة يجب أن تُدفَن مع صاحبها. ولأنّ العودة إلى المقبرة في ذلك الليل البهيم ليست بالأمر السهل، اتّجه إلى المرحاض. أشعل ولّاعته وأحرق الرسالة. أهرق الماء على رمادها، وعاد إلى فراشه. لكن كلمات عبد السلام لم تغادِرْهُ أبدًا. يبدو أنها انحفرت عميقًا في ذاكرته فأدمت قلبه وهزّت كيانه.

"ولدي الحبيب،

حين تزوّجتُ حليمة، ذات صيف قديم، كنتُ أمتثل لرغبة جدّتك يامنة. هي من اختارت لي بنت الزّنبوب وخطبَتْها بنفسها. لكنّهم ظلّوا في الدوّار يتندّرون بتلك الزِّيجة. قالوا إن عيّاد كان يختلي بحليمة في الشعبة الغارقة وراء دالية الزّنبوب، وأنه نال منها قبل أن يهجُر البلدة ويختفي. زعموا أنني تزوّجتُها فقط لأستُر الفضيحة. لكن حليمة صارت زوجتي. كنت أحْصُنُها وأرعاها بما يُرضي اللـه ولا أهتمّ لغمز الغامزين. حتى حين تأخّرْنا في الإنجاب، وتأكّدَ أنْ لا فضيحة هناك، ظلّوا يتخرّصُون. ولمّا رجع عيّاد، ذات عيد أضحى، وظهر حَمْل حليمة بعد أشهر، قالوا إنّه مَن فكّ العقدة التي فشل عبد السلام في حلّها، وأنه مَنْ عبّأ البندقية بالبارود في غفلةٍ من صاحبها. وكنتُ أستغفر اللـه في سرِّي ممّا أسمع وأتجنّبُهم. فأنا حاملٌ لكتاب اللـه يا ولدي ولا قِبَل لي بلغْوِ العوام. وأنت تكبر أمامهم، كانوا يتعمّدون إيذائي بالتعريض الجارح: "غير عمُّو عيّاد سبحان اللـه العظيم، ما خذا منك والو آ عبد السلام. نفس العوينات ديال عيّاد، نفس الوجه. حتى ف المشية، غير عمّو عيّاد. سبحان اللـه العظيم". كانوا يكرّرون هذا الكلام أمامي باندهاشٍ مُصطَنع وهم يدارُون ابتساماتهم الخبيثة. وأنا أتقطّع من داخلي وأستغفر اللـه لي ولهم. كنتَ تتفتّحُ أمامي طفلا حييًّا منطلقًا دائم الابتسام. كل الأطفال جميلون يا ولدي. الأطفال دائما حييُّون منطلقُون. فقط على

العالم أن يتركهم وشأنهم. وما إن لاحظتُ أنك بدأت تنكمش على نفسك معتزلًا النّاس نافرًا من الأتراب، حتّى قرّرتُ الرحيل عن البلدة. فهمتُ أنهم بدأوا ينالوَن منك، ففررتُ بكَ يا ولدي منهم ومن كُفرِهم. كنت أعرف أنني إذا تركتُك تكبُرُ وسطهم فلن يتّقوا اللـه فيك، وسيسمِّموُن حياتك أكثر. لهذا لجأتُ بك إلى مراكش. ليس الجفاف ما عجّل بهجرتي وإنّما الرّغبة في حمايتك. تركتُ أرضي وجئت أقايض بكلام اللـه ثمنًا قليلًا في المقبرة لأعيلك، ولأرى عودك يشتدُّ أمامي بعيدًا عن أهل الدّوار ولؤمِهِم.

حين دعانا عيّاد للسكن معه، أكْبَرْتُ فيه أريحيته. لكن ما إن غادرتَ يا ولدي ورحلتَ إلى بيت أم العيد، ثمّ إلى المسيرة فيما بعد، حتى انقلبَتْ حياتي إلى جحيم. وجدتُ نفسي أعيش بين عيّاد وحليمة كالغريب. يتصرّفان داخل البيت مثل زوجين. لا يكفّان عن الثرثرة صباح مساء. يتحاوران. يتناجيان. يتمازحان. يضحكان بسبب أو من غير سبب. قلتُ في نفسي: لعلّي من شجّعهما على ذلك بانطوائي وخلودي إلى الصمت. بدأت أخرج من شرنقتي وأحاول مشاركتهما الحديث، لكنهما كانا يتجاهلانني تمامًا. أحيانًا تتدخّل حليمة فقط لتقريعي وتسفيه كلامي قبل أن يعودا إلى تضاحُكِهما. كنتُ بينهما تائهًا لا أعرف كيف أهرب منهما وإلى أين. يذبحانني كل يوم أكثر من مرّة. وأنا أحشرج بينهما في صمت وأنزف دمًا غير مرئي تمنّيتُ لو تخثَّر داخلي ليُعجّل بساعتي.

لهذا انفصلتُ عنهما وعن العالم، واعتكفتُ في غرفتك يا ولدي لا أغادرها إلّا إلى المسجد أو للأكل. آخذ من صحنهما المَهين ما يسدُّ الرّمق وأعود إلى مَقْبَعي قبل أن يُنهِيا طعامهما. لم أعد أطيق مجالستهما ولا الحديث معهما، وكنت أتضرّع للواحد القهار أن يرحمني فيأخذ روحي إليه لأرتاح من كل هذا الضّيم. وحينما أحسستُ دنوَّ أجلي، جئتُكَ مرةً حتّى المسيرة. كان محلُّك مكتظّا فلم أجرُؤ على وُلوجِه ولم أشأ إزعاجك. وقفتُ بالباب قليلا، رقّيتُك بفاتحة الكتاب وآيات من سور المائدة والأعراف والتوبة، دعوت اللـه أن يحفظك بما حفظ به الذّكر الحكيم، ثم ذهبت إلى الدوّار. قضيت عيد الأضحى بينهم مستغلا التئام الأهل هناك. حتى الغائب البعيد حضر من أجل العيد. طفتُ على أقاربي واحدًا واحدًا حتى الذين أساؤوا لي ذات يوم. كنت واثقًا من أنني لن ألقاهم بعد يومي ذاك. لذا عانقتُ الجميع واستغفرت اللـه لي ولهم، وعُدْتُ أنتظر موعدي. وكان وعدُ اللـه حقًّا".

29

الحياة في مكان آخر.

رحّال يعرف ذلك جيدًا ويقبل به. اختار منذ البداية أن يبقى على مسافة مع الحياة. بل ويُفَضِّل أن يترُكها دائمًا هناك. في أماكنها الأخرى. بعيدًا عنه وعن يوميِّه الرّتيب. لا يفعل ذلك تبرُّمًا من الحياة ولا عزوفًا عنها، ولكن تشبُّثًا بها وحِرصًا عليها. حفاظًا على حياته هو بالذات. حياته الصغيرة الضيِّقة الملساء. الانكماش هنا في جُحر السنجاب يكفيه، والنوم إلى جانب القنفذة ليلًا لا يُؤذيه. تلك حياتُه وهو راضٍ بها. مُتآلفٌ معها. متشبّث بها. بل ويخشى من أن يفقدها، فجأة.

يوميًّا، كان رحّال يشعر بأن حياته مهدَّدة. يخاف أن يموت. لذلك ظلّ يتفادى السفر. ركوبُ الطائرة مثلًا ليس ضمن أحلامه. القطار جرّبه مرة واحدة، ذهابًا إيابًا، يومَ سافر إلى الرباط لاجتياز امتحان المدرسة العليا للأساتذة. الحافلات ركبها مع عبد السلام وحليمة خلال أسفارهما القديمة إلى بادية عبدة. وكانت تلك الحافلات المهترئة ترعبه. عندما كبر توقّف عن السفر إلى عبدة وإلى غير عبدة. هكذا سيتفادى خطر الموت في حادثة سير بشعة كتلك التي يعلنون عنها يوميًّا في نشرات الأخبار. البحر أيضًا كائن متوحّش يُخيف رحّال. لحسن الحظ أنْ لا بحرَ في مراكش. أقرب بحر إلى المدينة الحمراء يبعد بمائتي كلمتر تقريبًا. شاطئ الصويرة. ورحّال لم يسبق له أن زار الصويرة. ولم يسبق له أن رأى البحر مباشرة. هذا أفضل. فمن المريع أن يلفظ المرء أنفاسه وهو يصارع موجًا أعمى. حتى منتجع أوريكة الجبلي المُتاخِم لمراكش، يرفض رحّال الذهاب إليه منذ الفيضانات الكارثية التي أوْدَت بعشرات المصطافين والزوار في صيف 1995، حيث جرفت السيولُ البشرَ والحجرَ والسيارات ودمّرت البيوت والمحلات التجارية والمقاهي المبثوثة على ضفاف الوادي. منذ صيف 95 - ورغم أن رحّال لم يسبق له أن زار أوريكة قبل هذا التاريخ - صار أكثر إحجامًا عن المجازفة بالصعود إلى هناك. مرّةً طلبت منه حسنية أن يأخذ عطلةً استثنائية من السيبر ليقضيا الأحد بأوريكة. كان الطقس ربيعيًّا، ومزاجُها

رائقًا تلك الأيام. كانت أوّل وآخر مرّة تقترح فيها برنامجًا للتّرويح عن النفس. صباحَ الأحد خذلها رحّال. قال إنه لا يستطيع مرافقتها. لا يمكنه صعود الجبل. سيصاب بالدّوار. لم يعترف لها بأنه لا يريد أن يموت. وأنه يخشى الجبل. يخشى أن تسقط بهما السيارة مِنْ عَلٍ، أو أن ينتفض النهر من جديد فتغمرهما السيول. المصاعد بدورها حرّمها رحّال على نفسه. رغم أنّها نادرةٌ هي المرّات التي وجد نفسه فيها داخل عمارة بمصعد. دائما يفضّل السلالم. صعود الدّرج أَأْمَنُ مِن أن يجد المرء نفسه عالقًا في الهواء، أو أن يموت مختنقًا داخل قبرٍ فولاذيٍّ مُعلّق.

رحّال حريصٌ كل الحرص على حياته الصغيرة، متشبّثٌ بها. لذا أخذ كل احتياطاته. "اللي تخلّيك خلّيها"، كان يردّد في قرارة نفسه. حتى الحمّام توقّف عن الذهاب إليه. أضافَهُ إلى لائحة الأماكن المحظورة واكتفى بالدش منذ أن سمع أساتذة ثانوية المسيرة يتحدّثون في السيبر عن زميل لهم ذهب إلى الحمّام المجاور لمسجد النور واستحلى النوم جنب "تافضنة" في القاعة الداخلية الساخنة، فكانَتْ نومتَهُ الأخيرة. وما إن بدأت "دابا مراكش" تتناقل أخبارًا عن وفيات متواترة لبعض سكان عمارات المسيرة اختناقًا بسبب سخّانات الغاز الصينيّة، حتى استغنى عن السخّان نهائيًّا. صار يستحمُّ في دش الشقة بالماء البارد. وحين يشتدّ القرّ في ديسمبر، يسخّن قليلا من

الماء فوق نار البوطاغاز. يملأ سطلا بالماء الدافئ يُقعي جنْبَه ليأخذ دوشه السريع مثل قطّ.

لكن وفاة عبد السلام خلطت أوراقه. أرعبَتْه وأعطتْهُ إحساسا مُريعًا بعدم الأمان. صحيح أنّ أم العيد تعرّضت قبله لنفس الوفاة الطارئة. لم تكن تعاني من أيّ مرض. كانت متسمِّرة أمام شاشة التليفزيون تتابع المسلسل المكسيكي المُدبلج، حينما انسحبت روحها من جسدها فجأة. لكنّ وفاة عبد السلام بالذات ستزعزعه. منذ خمسة أشهر الآن وهو يعيش بخواء مؤلم في الصدر. صار فؤادك فارغًا أيها السنجاب. الإنسان الوحيد الذي أحبَبْتَهُ في هذا العالم رحل بغتةً. ومن الممكن أن ترحل بدورك بنفس الطريقة البلهاء وأنت في السيبر تعلّق على مقالات هوت ماروك، أو في المطبخ تهيِّء للقنفذة طاجين الغد، أو وأنتَ تعتليها في السرير مساء السبت. كلما فكّر رحّال في هذه السيناريوهات أوجعه قلبه واغرورقت عيناه بالدمع. وحين انتبه قمر الدين، مرّة، إلى الدموع تطفر من عينيه حرص على مواساته. عانقَهُ بحرارة ودعا لوالده بالرّحمة والمغفرة. لكن رحّال كان يبكي نفسَه. كان يبكي حياته المهدّدة بموت بليد محتمل. موت داهم غاشم قد يخطفك يا رحّال من قلب السيبر، أنت الذي زهدت في البحر والسفر والماء الساخن فقط لتبقى على قيد الحياة.

إنّما، أيّ حياة؟

الحياة في مكانٍ آخر يا رحّال. لا، بل في كلّ مكان. في كلّ الأماكن الأخرى. قد تكون مُختلّة، لكنّها هنا. الحياة تتمطّى قربك مثل قطّة سمينة كسول، هنا في هذا السيبر اللعين لو تدري. ارفع بصرك قليلا عن جهاز الكومبيوتر. ارفع رأسك إلى أعلى. حاول أن تطلع مثلًا إلى الطابق العلوي حيث تنزوي فدوى وسميرة في الرّكن قبل أن تنقطعا عن العالم السفلي بالساعات. وما إن يصعد اليزيد إلى فوق حتى تنزِلان. بدأ اليزيد يهتمّ بملفّ نجمة مراكش. يقسم برجال مراكش السبعة إنّ البنتَيْن احترفتا التّعرّي واستعراض المفاتن وحتى تبادل القبلات الشهوانية أمام كاميرا السكايب في عروض حيّة مباشرة يحضرها زبناء خصوصيّون من الشرق وخاصة الخليج. عروضٌ صامتةٌ يؤدّينها دون حِسّ، أو مرفوقة بحوارات حميمة مهموسة. الدّفع يتمّ عبر الويسترن يونيون. صديقٌ لليزيد يشتغل في وكالة الويسترن يونيون بشارع الدّاخلة أكّد له تردُّدَهما على الوكالة بوتيرة مُريبة خلال الأشهر الأخيرة لصرف حوالاتٍ تصلهما من هنا وهناك. فلا تقل يا رحّال إنّك لم تلاحظ شيئا، لن يصدِّقك أحد.

كان قمر الدين قد نبّه رحّال في البداية إلى أن بعض مقاهي الانترنت بدأت تحدّد تسعيرة خاصة للطابق العلوي. تمامًا مثل بلكون السينما. تذكِرتُه أغلى من تذكرة الصالة. أيضًا لا يمكن للزّبون أن

يصعد ما لم يسدّد مسبقًا ثمن ساعة اتصال كاملة. ساعة على الأقل. هكذا تقطع الطريق على المتلصّصين. لكنّه لم يتفاعل مع مقترح قمر الدين. رحّال عمومًا يُفضّل عدم التورّط في ما قد يشوّش على عمله في هوت ماروك. حتى عندما اكتشف المغاربة السكايب أوّل مرّة، واصطفّت الأمهات في طوابير أمام مقاهي الانترنت في المناسبات والأعياد وعطل نهاية الأسبوع لمحادثة فلذات أكبادهن المُوزّعين بين المَهاجِر والمُغتربات، واعتبرها العاملون في هذه المقاهي فرصة لتزويد الدّخل بالإكراميات التي تتركها لهم الحاجّات الأميّات نظير مواكبتهم لهنّ في عمليات الربط وتجديد الاتصال كلما انقطع الخطّ، ظلّ رحّال غير معني. واليوم يريد منه اليزيد أن يركّز مع نجمة مراكش، مع أن الأمر لا يعنيه في شيء. لحُسْنِ الحظ أنّ السياسة شغلت اليزيد عن الصعود إلى فوق لاختلاس لحظات من اللذّة السرّية خلف شاشةٍ شبِقَة، فانشغل بالتالي عن ترصُّدِ فدوى وسميرة وتشمّم أخبارهما. كما أنّ تجاوبَهُما السّريع مع عرْضِه الانتخابي والتحاقَهُما الفوري بصفّ الأخطبوط جعله يُرجِئُ متابعة ملفِّهما إلى حين.

قمر الدين غارقٌ بدوره في قصة حبّ إلكتروني مع سيّدة دنمركية تكْبُره بحوالي عشرين سنة. مُطلّقة بطفلَيْن، لكنَّ جسدها الرياضي جميل وملامح وجهها جذّابة بإجماع رواد السيبر الذين تداولوا صورها - خصوصًا تلك التي تبدو فيها شبه كاسية - وباركوا جميعًا

هذه العلاقة التي بدأت تتطوّر باتجاه الزواج. قمر الدين فاجأ رفاقه في "أشبال الأطلس" بنُبلٍ استثنائي بعد ما أبداه من حرصٍ على تنظيم زيارات دورية للمحجوب ديدي المُحتجز بمستشفى "أمرشيش" للأمراض العقلية. رحّال لم يرافقه ولو لمرّة واحدة. ليس فقط لأنه من المستحيل أن يغيبا معًا عن السيبر في نفس الوقت، ولكن لأنه الوحيد الذي يعرف سرّ الإيميلات الشيطانية التي قادت المحجوب إلى الجنون.

لعلّ المحجوب كان يفضّل الموت على حياة بلا طعم ولا لون ولا رائحة هناك في صبيطار أمرشيش. لعلّه كان سيغبط عبد السلام لو علم بموته. عبد السلام الذي مات عن جدارة واستحقاق. مات لأنه يجب أن يموت. الموتُ أحيانًا أكرم من حياة بلا معنى. قد يكون الموت يا رحّال أكرم لك ولغيرك من حياةٍ سخيفة على هامش الحياة، من حياة قرادة حقيرة مبلغُ همّها الالتصاق الشنيع بذيل بقرة.

***

ربما كان اليزيد الشخص الوحيد الذي لم يُعَزِّ رحّال في والده. أعضاء أسرة أشبال الأطلس خصَّصوا للموضوع وقفة في السيبر تواعدوا على حضورها مُجتمعِين بمن فيهم الأفريكانو الثلاثة. قرأوا الفاتحة وترحّموا على الفقيد قبل أن يحضُنوا السنجاب واحدًا واحدةً. سلَّمهُ قمر الدين باسمهم ظرفًا يضمُّ مبلغ خمسمائة درهم. حتى سليم،

رغم أنه تلميذ لا يزال، ساهم بخمسين درهم: المبلغ المخصّص لكلِّ واحدٍ من المعزّين. رابح جاء منفردًا وقدّم واجب العزاء، شفويًا، دون أن يدُسَّ يدهُ في جيبه. الوحيد الذي سها حتى عن التعزية الشفوية هو اليزيد. أما عماد القطيفة فقد فاجأ رحّال تمامًا. في خضمِّ الحملة الانتخابية، ورغم مشاكله مع هيام التي هجرت بيت الزوجية، ومشاغله التي زادت بعدما صار مُضطرًّا للتردُّد على المدرسة من أجل تعويض زوجته، أصرَّ على أن تمُرَّ تعزيتُه لرحّال وفق الأصول. بعد يومين فقط من وفاة المرحوم، جاءت حسنية إلى السيبر وطلبت من رحّال أن يرافقها إلى الشقة. رتّبا غرفة الضيوف على عجل، هيّآ بسرعة صينية الشاي، وبعدها بدقائق رنّ الجرس. كان عماد القطيفة بالباب ومعه والداه، الحاج والحاجة، وأخته كنزة يرافقهم حارس مدرسة أشبال الأطلس. كان الحارس ينوءُ تحت كيسٍ من الخَيْش يضمّ دزينة من قوالب السكّر. سُكَّر النمر تحديدًا، هذه هي التّعزية التي على أصولها. عاتب الحاج القطيفة رحّال لأنه لم يبلّغهم بالخبر في حينه ليقوموا بالواجب يوم الدفن والعشاء. كانت زيارة آل القطيفة خفيفة. بعد الشاي، وهُمْ بالبهو أمام باب الشقة، دسّ الحاج في يد رحّال مبلغًا من المال. ثلاثة آلاف درهم بالتمام والكمال سحبتْها منه حسنية ما إن أُغلِقَ الباب. احتفظت بألفين لنفسها ورمت لرحّال بالباقي فوق صينية الشاي. لكن رحّال طلب منها أن تحتفظ بالمبلغ كاملًا. حدجته بنظرة متوجِّسة لتتأكّد من أنه يعني ما يقول،

ومن أنه يفعلُ بِلا ضَغينة، ثم سحبَتْ الألف درهم الباقية ودفنَتْها هي الأخرى في صدرها الذي برز فجأة. (لا يدري رحّال لماذا يجد قنفذته أكثر أنوثةً وإثارةً هذه الأيام!). عمومًا لم يخبرها أنّ العيادي قد اتّصل به شخصيًا ليواسيه - فهي لا تعرفُهُ لا كَجُرذٍ ولا بصفة كوميسير - وأنه بعث له مبلغ 20 ألف درهم على سبيل التعزية. أخذ رحّال نصف المبلغ إلى الموقف، وسلّمه لوالدته بمحضر عمّه عيّاد، فيما دسَّ الباقي في حسابه السري بصندوق التوفير الوطني بمركز البريد في المسيرة، حيث يحتفظ بثروته الصغيرة التي تكبر شهرًا بعد شهر، دون وجه صرف.

مكالمة العميد العيادي لم تكن للمواساة والمجاملة فقط، فالكوميسير طلب أيضًا من رحّال أن يخلد إلى الرّاحة لبضعة أسابيع. فهم سيحتاجونه في شغل قوي، لكن بعد الانتخابات. ليعتبِرْها عطلة مفتوحة مدفوعة الأجر. بعدها سيكون مطالَبا بابْتِداع شخصيتَيْن مبتكَرتَيْن تُضاهيان "ولد الشعب" و"أبا قتادة" من أجل منبر إعلامي جديد.

- سيبلِّغك الضابط حكيم بالمزيد من التفاصيل في حينه، الأهم أن ترتاح الآن. ومرة أخرى، أجَرَكَ اللـه في المرحوم يا صديقي. اللـه يرحمو ويوسّع عليه، واللـه يرزقك الصبر آ خويا رحّال. ورجاءً، بلِّغ تعازيَّ للوالدة.

كانت مكالمةً من المختار. كأنّ رفيقَه القديم مَن ختم معه المكالمة

وليس الكوميسير العيادي. صوتٌ أليفٌ مُتضامِن، ونبرة تعاطف صادقة. دمعت عينا رحّال من فرط التأثر. تذكّر حكايات عبد السلام عن قيّاد عبدة أيّام زمان. كان العبدي إذا فقدَ قريبًا يترك المُعزِّين في بيته ويذهب ليُعزِّي القايد. فالقايد أبو الجميع، وهو الأحقّ بالتعزية. عمومًا المغاربة لا يذهبون للعزاء بأيْدٍ فارغة. لعلها كانت طريقة مهذّبَة ليتوصّل القايد بحصّته من قوالب السكر التي دخلت دار العزاء. رحمك اللـه يا عبد السلام. هل كنتَ تحلم يومًا بأن يعزِّي فيك عميدٌ ممتاز؟ هل كنت تحلم بمثل هذه الحُظوة أيها السرعوف؟

ورغم أن أسماء نادلة مقهى ميلانو لم تُعزِّ رحّال - إذ لم تُحِطْ علمًا بالرُّزْء على الأرجح - إلّا أنّ اللبؤة قامت بالواجب وزيادة. فعلى جدارها تلقّى الفقيد عبد السلام ما لا يخطر على بال من عبارات الترحُّم على روحه الطاهرة. أكثر من ألفَيْ تعزية تلقّتها اللبؤة تعليقًا على التّدوينة التي أعلنَتْ فيها حدادَها على قريبها الفقيه العارف باللـه عبد السلام العْوينة العبدي. سعادة رحّال بهذا الكمّ من المعزّين لم يعادلها سوى اطمئنانه إلى أنّه لن يضطرّ لإطعامهم. رحّال الذي أجهش بالبكاء وهو يرى عددًا من الأدباء والصحفيين ونجوم الفن والسياسة في البلد يعزُّون بدورهم في السرعوف، ويسألون اللـه أن يتغمّده بواسع المغفرة وأن يُلهِم أهله وذويه الصبر والسلوان. ومنهم من ادّعى - إمعانًا في التزلّف - معرفةً بالرّاحل وطفق يعدّدُ مناقبه. من كان يصدّق أن عبد السلام خامل الذّكر الذي

مشى في جنازته بضعة أنفار يُفتح له سرادق عزاء بهذه الفخامة على الفيسبوك؟ كان السنجاب يتلقّى التعازي عبر جدار اللبؤة بتأثّرٍ يُباطِنُه الاعتزاز. بدا مطمئنًّا إلى أنّ أحدًا لن يُشوِّش على إحساسه العارم بالفخر، خصوصا وأن غريمه عماد القطيفة كان بعيدًا عن هذا العزاء الجماهيري بعدما عملت له هيام "بلوك" مباشرة على إثر حادثة مقهى لارونيسونس.

30

كان رابح يبدو في وِزْرَتِه البيضاء النظيفة مثل طبيب في مستشفى. تنقصه السمّاعة فقط. وإلّا فَوَسامةُ هذا الفتى الأمازيغي ونظافتُهُ تجعلانه يبدو مثل طبيب اختصاصيٍّ، وليس مجرّد بائعٍ لشوربة الحلزون. صحيح أن عربته ملتصقة بباب السيبر وتعرقل حركة الرّواد، لكن مَن يجرؤ على الاحتجاج والكل يعرف أنها عربة اليزيد؟ المشكلة هي أن شابّة في السادسة والعشرين تقريبًا ترتدي ملابس الحداد البيضاء تسرّبَتْ إلى المشهد في غفلة من الجميع أيام الحملة الانتخابية، قبل بضعة أشهر. كانت تربضُ على الجانب الآخر من باب السيبر وتمدّ يدها للسابلة. فتاة مليحة الوجه بعينين جميلتين وشفتين مكتنزتين وبشرة صافية. جميلةٌ رغم ملامحها القاسية.

في البداية، كانت تجلس بباب السيبر لوحدها. فيما بعد، صارت تصطحب معها طفلا في الرّابعة من العمر تقريبًا. وفي الأيام الاخيرة، عزّزت فريقها بفَطيمةٍ لا تتجاوز العامين. حسنُها كان يغري الذكور الذين ينفحونها نقودا. هناك من يشفق عليها فعلاً. حسناء في ريعان شبابها تترمّل بطفلين. فيما هناك من يتقمّصُ دورَ المحسن وهو في قرارة نفسه يشتهيها. الحيوية التي عرفها السيبر أيام الحملة أغْرَت الأرملة. عماد القطيفة مثلًا، وَعِوض أن يحتجَّ على احتلالها مدخل محلِّه، كان يلاعِبُ طفلَيْها قبل أن يجود عليها ببعض المال. حدسَت الشابة أن عماد هو الكُلّ في الكلِّ هنا، لذا اطمأنّت على هذا الحيّز ولم تعد تتصوّر أن أحدًا سينازعها فيه خصوصًا بعدما أبداه سيّد المكان من عطفٍ عليها وحنُوٍّ على طفلَيْها. لذلك لم تفهم لماذا بدأ هذا البغيض، الذي يتهادى بتخايُل لا يناسب قِصَر قامته، يتحرّش بها؟ حدسَتْ أن عربة الحلزون تعود له، وأن الفتى الأمازيغي الذي يروقها شغّالٌ لحسابه. أشفقَتْ على رابح، وازداد حنقُها على اليزيد. كان اليزيد منتشيًا بانتصار حزبه في مراكش، وبصعود عماد القطيفة إلى البرلمان. ظل يستقبل التهاني على طول شارع الداخلة رغم أن بضعة أشهر مرّت الآن على الانتخابات. فهو يعتبر كل ما حصل انتصارًا شخصيًا له. لم يكن يضايقه شيء سوى هذه المتسوّلة التي لا يعرف من أين تسلّطَتْ عليه. لكنَّ الأرملة ظلت تتجنّب أيّ احتكاك به. تصِلُها تلميحاته وتجريحاته فتتجاهَلُها تمامًا.

كأنّها لم تسمع. أذنٌ من طين وأخرى من عجين. إنّما هذا الصباح، بدا واضحًا أن اليزيد يريد أن يُخرجها من حيادها. وقف أمامها في تحدٍّ وعيناه تقدحان شررًا:

- إيه.. إيه.. آلالّا مولاتي. هزّي عينيك فيّ. راني كا نهضر معاك.

مالت بجذعها على طفليها تحضنهما في صمت، وهي تُرخِي عينيها إلى الأرض.

- مسكينة؟ باين عليك الحيا والحشمة. إنّما أخبريني، بِكَمْ تكترين هذين الطفلين؟ سمعت أنّكم تكترون الأطفال بمائة درهم للرّأس في اليوم الواحد؟

بدأت الأرملة الحسناء تحرِّك رأسها في عصبية، لكنها ظلّت مُطرِقة مع ذلك، ليواصل اليزيد نباحه عليها بشراسة استعراضية خصوصًا بعدما بدأ المارّة يتحلّقون حوله للتفرُّج وغادر روّاد السيبر مرافئهم الإلكترونية وتجمهروا أمام الباب يتابعون ما يجري.

- لم أسألك عن هذه الأسمال البيضاء، فمن الواضح أنها لزوم الشغل. أنت هنا منذ خمسة أشهر الآن. إذا كنت أرملة بالفعل، وشادّة حقّ اللـه على رجلك بالصّحّ، فالمفروض أن عِدّتك انتهت. ثم بدأ يجيل بصره في المتحلّقين حوله وهو يصيح: ياك العِدَّة أربعة

شهور وعشرة أيام آ المسلمين؟ ياك ما كذبت عليها؟ هاذي خمسة شهور دازت ومازال ما بغاتش تغيّر هاذ الأبيض؟

حرّك جانب من الحضور رؤوسهم مُؤمِّنين على كلام اليزيد، فيما ظلّ رأس الأرملة يتحرّك بعصبية مثل بندول ساعة جُنَّ فبدأ يتأرجح لاهثًا باتجاه زمن موتور. فجأة، ركلها اليزيد برجله وهو يصرخ بعصبية:

- آ لالّا كانهضر معاك. هزّي فيّ عينيك بلا خرا.

لم يصدّق أحد عينيه. ذاك أن الأرملة الحسناء لم ترفع في وجهه عينيها فقط. بل انتفضَتْ مثل بركان وارتمت بكامل جسدها القوي على اليزيد. هزّته هزًّا ثم طرحَتهُ أرضًا ولوَتْ عنقه. وجد اليزيد نفسه مثل فريسة سهلة بين يديها. أمسكت بخناقه، ثم ضغطت على رقبته حتى جحظت عيناه، وقالت له:

- إيه، هاذ الابيض ما غا نحيّدوش. هاذو حوايج الخدمة، بحال البلوزة البيضا ديال صاحبك رابح. وايلا ما فرقتينيش عليك، بربِّي حتى نصبغ هاذ الأبيض اللي ما عاجبكش بدمّك يا ولد الكلبة. سمعت؟

لم يسمع شيئا. كان الطّنين يجلجل في رأسه وفي أذنيه. بعدما جثمت بركبتيها على صدره، بدت الأرملة مثل ناقة عظيمة تبركُ

فوق جروٍ أعجَف. كان اليزيد تحتها مقطوع النَّفَس ضعيف الحيلة. أجال عينيه الجاحظتين التائهتين في الجموع التي تحلّقت حولهما مُستنجِدًا.. لكن هيهات، الجمهور يتفرّجُ محبوس الأنفاس. لم يكلِّف أحدٌ نفسه عناء الذّود عنه. حتى رابح فغر فاه من الدهشة وجمد في مكانه مذهولًا مثل الجميع. المصمودي بدوره كان هناك. يريد أن يفعل شيئا من أجله ولا يستطيع. صحيحٌ أن اليزيد صاحب فضل عليه، لكن سيصعب عليه التدخّل. لا يمكن أن يُسجَّل عليه أنّه تكالَب مع أحدهم على امرأة. لو كانت المتسوّلة رجلًا لبطحه بائع شوربة الحلزون أرضًا بركلة واحدة. لكن غريمة اليزيد امرأة مع الأسف. فجأة، قامت الأرملة الحسناء عن اليزيد. رفسَتْهُ برجلها وقالت له:

- هذه المرّة سراح. سراح مؤقّت. إذا تحرَّشْتَ بي بعد اليوم سأخرى على ذيل أمك أمام هؤلاء الرجال.

ثم رفسَتْه ثانية، وبصقت عليه وهي تدمدم:

- إلى الخلاء أيها الكلب.

كان رحّال يتابع المشهد بعينين دامعتين من فرط الابتهاج. لأمْرٍ ما تذَكّر نسرين، طالبة الطّب الأمازيغية. ليْتَها كانت اليوم هنا. أحسَّ يدًا حانية تستقرُّ فوق كتفه. لمْسَتُها مرهفة ودِفْؤها أنثوي. هل هي يدُ نسرين؟ استدار فوجد ياكابو ملتصقًا به من الخلف. هو الذي وضع يده على كتفه. كان النيجيري يشرئبُّ بعنقه الطويلة مأخوذًا

من الدهشة وهو يتابع انسحاب اليزيد المُذِلّ. اليزيد يجرجر أذيال الخيبة بعيدًا عن السيبر. الأرملة رجعت إلى مكمَنِها لتحضن الطفلة الباكية. أما يد ياكابو فلم تغادر كتف رحّال حتى بعد أن عاد كلٌّ إلى مجلسه داخل السيبر. ياه أيها السنجاب، لو كانت يدُ قنفذتك بِرقّة يد ياكابو، لكان لحياتك الزوجية طعمٌ آخر.

31

يُحسَب للحكومة الائتلافية الجديدة التي شكّلها تحالفُ حزبَيْ النّاقة والأخطبوط أنها لم تنخرط في مباشرَةِ عملها إلّا بعدما طاف قياديّوها أهمّ حواضر المملكة لإشاعة المصالحة وترسيخ أجواء الثقة وتشجيع قواعد الحزبَيْن على تجاوُز ندوب الحملة الانتخابية وجراحها. فمباشرة بعد تشكيلها، أكّد معالي رئيس الحكومة الجديد الأستاذ موحى الصنهاجي أن الصراع الذي كان محتدمًا بين الحزبين صار تاريخًا بالنسبة إليه، جزءًا من الماضي، وأن الاختلافات الإيديولوجية والحسابات السياسية الفارغة لا تعنيه اليوم. ما يعنيه هو البناء والتفاني في خدمة الوطن الحبيب انطلاقًا من "تامغربيت" ومن الغيرة الصادقة على وحدة الأمة.

هكذا، أشرف موحى الصنهاجي مع أخيه سالم الرّايس - الأمين العام لحزب النّاقة ووزير الخارجية الجديد - على مهرجان خطابي حاشد احتضنه المسرح الملكي بمراكش تحت شعار "النّاقة والأخطبوط: يدًا في يد، من أجل مغرب الغد". عرسٌ سياسي كبير تميّز بعودة اليزيد إلى الواجهة بعد واقعة الأرملة الحسناء. عاد اليزيد هذه المرّة على رأس فرقة للدّقة المراكشية والطقيطيقات الشعبية تأتمر بأمره. تندلع مثل حريق بإشارة منه. وسرعان ما يخمد الأجيج ما إِنْ يطلب أحدُ مُعتَلي المنصّةِ الكلمة. الغريب أن رابح لم يكن ضمن الجوقة. لعلّه فضّل البقاء في موقعه الجديد بشارع الداخلة، جنب السيبر. شيءٌ ما صار يشدُّه إلى ذلك المكان. ليست روائح شوربة الحلزون بالتأكيد، وإنّما نظرات الأرملة الفاتنة التي تختلسُها إليه بين الفينة والأخرى فتربِكُه، وابتسامتها السرّية المُلْغِزَة التي بدأت تهُزُّ كيانه، فتنبض داخل صدره بقوةٍ عضلةٌ صغيرةٌ لعلّها القلب. "نجمة مراكش" بدورهما غابتا عن المهرجان. هناك فيديو نشرَتْه "دابا مراكش" لفتاتَيْن تتبادلان القبل الساخنة والمداعبات الجنسية الداعرة أمام الكاميرا، وهما ترطنان بلهجة خليجية متهتّكة. الفيديو ليس واضحًا تمامًا، رغم إجماع أمّة السيبر على أن الأمر يتعلّق بفدوى وسميرة. تنفّس رحّال الصعداء بعدما تأكّد من أنّ الفيديو مصوَّر في شقة، وليس في الطابق العلوي من السيبر حيث كانت البنتان تَنْزَوِيان بالسّاعات. التصوير لم يكن جيّدا على كل حال،

ورحّال لا يستطيع الجزم أنهما "نجمة مراكش". ومع ذلك توارت النجمة تمامًا عن شارع الداخلة منذ أزيد من أسبوع، ولم تظهرا في مهرجان المسرح الملكي ذاك المساء. عماد القطيفة بالمقابل كان هناك، متصدّرًا الصَّف الأول إلى جانب رفاقه من برلمانيّي الحزبَيْن الحليفَيْن. كانت هيام تتأبّط ذراعه وابتسامةٌ عريضة تملأ وجهها. بدَتْ مزهوةً بدور حرم السيد النّائب المحترم. فالسحابة التي أطلقَتْها اللبؤة في سمائهما عبرت أخيرًا بعد الفوز، لتعود المياه إلى مجاريها بين ابن القطيفة وبنت المعطي البلايغي.

أوضح الصنهاجي للجماهير المُحتشدة في المسرح أن السياسة ليست رياضيات ولا هندسة، وحزباهما ليسا خطّين متوازيين لكي لا يلتقيا أبدًا. "بل سنلتقي رغم كيد الكائدين، وسنضع يدًا في يد من أجل مغرب الغد. سنضع يدًا في يد، إخواني أخواتي، لأنَّ مصلحة البلد تقتضي ذلك. أما الأقلام المسمومة التي تتحدّث في الصحف والمواقع الإلكترونية الحاقدة عن صفقة مشبوهة أبْرِمَتْ بيني وبين أخي الرّايس، أو عن منطق مصلحي يحكم تحالفنا، فإنني أقول لها: المصلحة الوحيدة التي تعنينا هي مصلحة الوطن. ونحن وضعنا يدًا في يد من أجل الوطن. هذه هي العبقرية المغربية. وهذا هو الاستثناء المغربي الذي حيّر كبار المحللين السياسيين الدوليين. نحن شعب عبقري يعرف كيف يبني التوافق، وأؤكّد لكم أنّ نخبتكم السياسية إخواني أخواتي ناضجة بما يكفي لتتجاوز الأنانيات البغيضة والحسابات الحزبية

الضيقة وتضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار". أنهى الصنهاجي كلمته واستدار جهة صالح الرّكْوكْ والبشير المرابطي. طلب منهما التوجّه إلى مقدّمة المنصة حيث تعانقَا بطريقة استعراضية وبدأ كلٌّ منهما يربّت على ظهر صاحبه تحت وابل من التصفيقات والزغاريد وإيقاعات الدّقة المرّاكشية والشعارات المدوّية، فيما رفع الصنهاجي يد الرّايس وبدآ يلوّحان بقبضيتهما المتشابكتين في الهواء.

لكن مـا كان لأجـواء المصالحة أن تكتمـل وبعض مناضلي الحزبَيْن الذين ورّطهم حماسُهم في تجاوزاتٍ إبّان الحملة الانتخابية قابعون في السـجون. لذلك سـعى الصنهاجي إلى استصدار عفوٍ شامل على كل المناضلين، من مختلف الأحزاب، الذين تمّ اعتقالهم أثناء الحملة ويُتابَعون اليوم بملفاتٍ تتراوح ما بين الضرب والجرح وحيازة السـلاح الأبيض ومحاولة القتل العمد. هكذا أطلِق سراح العشرات من المعتقلين بمناسبة عيد الفطر المبارك رغم أنّ ملفات أغلبهم لم يقُلْ فيها القضـاء كلمته الأخيرة بَعْد. لكنّ العفو يجُبُّ ما قبله، واسـم مهدي آيت الحاج تسـرّب بطريقة غامضة إلى لائحة المستفيدين دون أن يثير أية زوابع في الصحافة، فآيت الحاج على الأقل لم يخطِّط لقتلِ أحد.

ويبقى نعيم مرزوق نجم المُفرَج عنهم بلا منازع. فأثناء مغادرته السجن المدني للدار البيضاء، وجد الحرباء على رأس المستقبلين

أمام بوّابة السجن كلًّا من موحى الصنهاجي وسالم الرّايس. الحزبان معًا تبنّيا ملفّه وحاول كلٌّ استغلاله إبّان الحملة بطريقته. واليوم، ها هما يحضُنانه مثل بطل قوميّ أمام كاميرات القنوات الأجنبية وأنظار الجمعيات المدافعة عن حرية الصحافة وحقوق الانسان التي تبنّت قضيته في المحافل الدولية وجاءت اليوم لتحتفل ليس فقط بإطلاق سراحه ولكن بانتصارهم على أعداء حرية التعبير في المغرب. أمّا هدية الإفراج، فكانت مقرّا أنيقا من عمارة زجاجية بالدار البيضاء لجريدة مُستقِلة جديدة اختار لها موحى الصنهاجي اسم "اللواء"، ويريد لها هو وحليفه سالم الرّايس أن تكون جريدة كلّ المغاربة. ولن يجدا لإدارتها خيرًا من الصحافي المقتدر وصوت الشعب الهادر نعيم مرزوق.

اللواء.

بالضبط، هذا هو العنوان الذي توصّل به رحّال من الضابط حكيم في رسالة عبر الموبايل، مع تعليق صغير مُذيّل بابتسامة: "رفيقك المختار ينبّهك إلى أنّ العطلة انتهت". فتح رحّال هوت ماروك ثمّ المستقبل الإلكتروني وفاجأه أن الصحيفتين معًا ترحّبان بالمنبر الجديد وتتمنّيان للزميل نعيم مرزوق التوفيق في مغامرته الإعلامية المقبلة.

***

هل يمكن لفريق احترافي، وليكُنْ فريق كرة قدم مثلًا، أن يخوض غمار موسم رياضي جديد دون تربُّص إعدادي مُسبَق؟ طبعًا مستحيل. لذلك عليك أن تدخل في تربُّص يا رحّال في انتظار صدور العدد الأول من اللواء. أنت لاعب محترف، ومادام الكوميسير العيادي قال بأن العطلة انتهت، فإن العطلة انتهت حتّى وجريدتُك الجديدة مجرّد خبر. وجد رحّال صعوبة في الاستقرار على أسماء بديلة لولد الشعب وأبي قتادة. فكَّر بدايةً في "سنفور غضبان". لكن المرحلة الجديدة ربما ستكون مرحلة تأييد وموالاة. ولعلّ من الفِطنة توخّي الرزانة، وارتداء جبة الحكماء، وتركُ الغضب والسخط جانبًا. فكّر في "دلال النّاقة". هكذا يطلع على قرّائه متقمصًا صوت أنثى، هذه المرّة، ومن قلب الصحراء. سيكون الأمر ممتعًا خصوصًا وأن رعايته الفيسبوكية لبروفايل هيام أكسبَتْهُ تمرُّسًا بتغنُّج النساء وأسلوبهن في المداورة والمناورة، في الحجاج والاستدراج. لكن ماذا لو استفزَّ استنواقُ صنيعَتِه الجديدة الحلفاءَ الأخطبوطيين؟ عمومًا، ما زال أمامك بعض الوقت لتتدبّر أمر التّسميات. عليك الآن يا رحّال أن تركّز على تداريبك. أن تنشغل بالأهم. أن تبني حِجاجَك الجديد.

عاد السنجاب إلى مقالات هوت ماروك والمستقبل ليستوعب أكثر منطق المرحلة. فهِمَ أن المطلوب هو الدفاع عن التحالف الحكومي وتسويغه، خصوصًا وأن بعض المَوْتورين في أحزاب اليسار التقليدي

التي تجاوزها التاريخ، وبعض الصحافيين المُشتَبه في ارتباطهم بجهات معادية للمملكة الشريفة، ينتقدون التحالف بشراسة، ويتحدّثون عن خيانةٍ للأمانة وتسفيهٍ للسياسة وتزييفٍ للإرادة الشعبية واحتقارٍ لذكاء المواطنين. بعضهم كتب يستغرب كيف أن حزبًا بمرجعية إسلامية يعتبر محاربة الفساد مبرّر وجوده يتحالف مع حزب تمَّ تلفيقُه في ظروف غامضة من طرف جهات أكثر غموضًا حشدت له شرذمةً من اليساريين المتقاعدين والنسوانيات المتهتِّكات ورجال الأعمال الفاسدين ولفيفًا من الأعيان وعصابةً من أشهر سماسرة الانتخابات في البلد، كما استقطبوا له الانتهازيين من مختلف الأطياف، وذلك بهدفٍ واحد هو منعُ النّاقة من الوصول إلى الحكم. حتى أن التصدّي للإسلاميين عُدَّ عقيدة الأخطبوط السياسية. إنّه تحالفٌ ضدَّ منطق الأشياء وضدّ منطق السياسة. كلام قوي مُوجع ليس أنور ميمي قطعًا من سيتصدّى له. وحدها الحرباء الجبّارة يمكنها التصدّي لهؤلاء الموتورين الحاقدين. الحرباء ورفيقاها السنجاب والضربان. (من فرط متابعته لتعليقات أبي شرّ الغيفاري بهوت ماروك، استنتج رحّال أنَّ زميلَهُ ضربان أصيل. فيه شيء من هذا الحيوان الليلي الشرس الحادّ الطباع الذي لا يتردّد في مهاجمة الحيوانات الأكبر منه كالغنم والحمير. حدس رحّال ضربانيّة أبي شرّ من أسلوبه، من مزاجه في الكتابة، ومن طريقته في المناورة رغم أنه لم يلتق به قَطّ ولا يعرف حتى اسمه الحقيقي). أما أنور ميمي فكلٌّ زادِه الشتمُ

الرخيص والتّعريض السخيف والوشاية الكاذبة، وهذا لا يكفي. كما أن سُمعة ميمي صارت في الحضيض بعدما فجّر مراد شهبون، رجل أعمال شاب محسُوب على حزب المكنسة، قنبلةً في الصحافة الوطنية فضح فيها كيف ظلّ ميمي يستهدفه شخصيًّا بالإشاعات وبنشر الأخبار الكاذبة عن مؤسسته الاقتصادية الناجحة، وحينما اتصل به هاتفيا يستفسر عن سرِّ كل هذا الحقد، طيَّب ميمي خاطره ووعده بأن يبدأ معه صفحة جديدة مقابل إعلانات إشهارية. لم يسجّل مراد شهبون المكالمة مع الأسف لأنه لم يتوقّع أن يكون الابتزاز مباشرًا إلى هذا الحدّ، لكن الرأي العام مال إلى تصديقه خصوصًا بعدما خرج امبراطور النقل السياحي رضوان آيت بّيه عن صمته مؤكِّدًا أنه عاش، قبل التحاقه بحزب الأخطبوط، نفس السيناريو مع أنور ميمي وتعرّض بدوره لنفس الأسلوب الرخيص في الابتزاز.

أنور ميمي ورقةٌ محروقة إذن، والتّنوفي وصحفيوه أتفهُ من أن يُشفوا الغليل. أنتم رجال المرحلة يا رحّال. الحرباء والضربان، وأنت أيها السنجاب.

ياه كم يتحرّق رحّال شوقًا لصدور الصحيفة. بدأ في صياغة رؤوس أقلام لردود ساحقة ماحقة على يساريّي آخر الزمن الذين يحنُّون ما زالوا إلى زمن الإيديولوجيات البائد، وإسلاميّي القومة ممّن يكفرون بالنظام ويحنّون للخلافة على منهاج النبوّة، وسيقطّر

بها الشمع على الصحافيين المرتزقة الذين يُسيؤون استغلال مناخ حرية التعبير الذي ينعم به البلد لكي يعاكسوا مصالحنا العُليا مقابل حفنة دولارات يرشوهم بها أعداء الوطن.

فقط، متى تصدر اللواء؟

32

كان منهمكًا في الرّد على مقالة لأحد اليساريين، على سبيل الإحماء وسَنًّا للسكاكين، حين طرق عيّاد باب السيبر. استرق رحّال النظر إلى ساعته الكوارتز الفضية التي لم يشترها إلا بعد وفاة والده من محلٍّ بالقنارية. الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا ربع. ما زال وقت الغداء بعيدا. طلب رحّال من قمر الدين أن يحلّ محله، ودعا عمّه إلى كأس شاي عند أسماء. هناك في مقهى ميلانو.

قال عيّاد لرحّال بأنه يريده في أمر هام. بدا مرتبكًا على غير عادته.

- خير، اللهم سمّعنا خير، بادره رحّال.

- خير إنْ شاء اللـه آ ولد خويا. غير هو حليمة دابا راه حيّدات حقّ اللـه ورْمَات الأبيض.

هل أصابه الزهايمر هذا الجرذ أم ماذا؟! فكّر رحّال مفضِّلًا الاحتفاظ بسؤاله الاستنكاري لنفسه.

- أعرف يا عمي، وأعتقد أنني كنت هناك. جيت عندكم أنا وحسنية نهار حيّدات حقّ اللـه، وتعشِّينا معاكم بفرّوج بلدي أنتَ من ذَبحه.

- أذكر ذلك جيدًا يا ولدي. فقط يجب أن تعرف..

ثم أطرق عيّاد. لأول مرة يراه رحّال مرتبكًا هكذا.

- أعرف ماذا يا عمّي؟

- حليمة أرملة. والآن بعدما خلعَتْ ثوب الحداد.. يعني..

- يعني ماذا؟

- يعني أنّ وجودها معي في بيتي قد يثير بعض الـ...

- بعض ماذا؟ سأله رحّال مستنكرًا قبل أن يستدرك. آه، فهمت. فهمتك يا عمّي.

ظلّا صامتين لبرهة، كما لو أصابهما الخرس، قبل أن يسترسل رحّال:

- أعطني بعض الوقت. سأراجع حسنية في الموضوع وسنرى ماذا يمكن لنا أن نفعل. حسنية صعبة المراس، لكن لا أظن أنها سترفض استقبال أمي لتعيش معنا في الشقة. شقتنا فسيحة ولله الحمد، وأنا سبق لي أن عشت مع أمها، في دويرية صغيرة وفي شروط أصعب، إلى أن اختارها الله إلى جواره. لذا لا أظن أن حسنية سـ...

- لا يا رحّال. لا تفهمني خطأً يا ولدي.

- كيف؟ سأله رحّال.

- قصدي.. قصدي أنه..

ظل رحّال صامتًا ينتظر أن يواصل عيّاد حديثه من تلقاء نفسه. في تلك اللحظة جاءت أسماء بقنينة ماء بارد، وضعتها أمامهما وغمزت عيّاد بمرح ثم غادرت وهي تتلوّى. انتبه رحّال إلى أن مؤخرة اللبؤة اكتنزت في الآونة الأخيرة، ثم إنّ البنت بدأت تستعيد أنوثتها وحيويتها السابقة. أقسم في سريرته بأن هناك شخصًا في حياتها. شخص يهتم بها وينيكُها جيدًا ويجعلها تشعر بأن الحياة ممكنة هنا أيضًا، وليس فقط هناك في ميلانو الأخرى. ميلانو التي حدّثها عنها طاليوس قبل أن يستقرّ به المقام في "كندا".

- اشرح لي قصدك يا عمّي فقد شوَّشْتَني..

- قصدي أنني جئتكَ طالبًا راغبًا في أمك حليمة بنت الوافي على سُنّة اللـه ورسوله، فما قولك؟

آخر سيناريو يمكنك أن تتخيّله يا رحّال! سيناريو صاعق. صعبٌ حتى على الجنِّي أن يتكهّن به. هل أنت جادٌّ أيها الجرذ؟ هل أنت جادٌّ في طلبك؟ كان رحّال يطرح الأسئلة في قرارة نفسه. يطرحها في صمت بعدما خذله صوتُه.

- لم أكن أريد أن أصدمك يا ولدي. لكن، فكّرْ جيّدًا في الموضوع. حليمة امرأة وحيدة الآن. وأنا بدوري وحيد. نعيش تحت سقف واحد منذ عشرين سنة تقريبًا. يعني عشرة عمر. فلِمَ لا أستر عليها؟ وإلّا لِمَن ستتركها بعد وفاة المرحوم والدك؟ لمن سنتركها؟

غمغم رحّال بكلام لم يكن جوابًا. كلام غامض لم يتبيّن منه عيّاد أيّ شيء. كأنما يفضّل السنجاب الاحتفاظ به لنفسه. أو لعله تمنّى ألا يخرج هذا الكلام من حلقه قطّ، أو ربما غمغم به هكذا دون أن يتبيَّنَه.

- ماذا يا رحّال؟ ماذا يا ابن أخي؟ ماذا قلت؟

بدا كما لو أن رحّال استفاق من شروده. عاد من بعيد.

- قلت لك يا عمي.. قلت لك..

- إيه؟ واش قلت؟

- قلت إنني سأجيبك فيما بعد. يجب أن آخذ رأي حسنية.

- ماذا؟! حسنية؟!

- طبعًا يا عمي، يجب أن آخذ رأي حسنية.

- لكن ما علاقة حسنية بالموضوع؟ سأله عيّاد مبهوتًا.

- حسنية زوجتي، ويجب أن آخذ رأيها.

أجابه رحّال باحتداد. تمنّى عيّاد في تلك اللحظة لو طاوعَتْهُ يدهُ ليسدِّد صفعة قوية إلى وجه هذا المعتوه. لكنه تمالك نفسه. قام من مجلسه وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيظ:

- حسنًا يا رحّال. حسنًا. اللـه يخلف عليك آ ولدي. إذا تكرَّمَتْ زوجتك المَصُون علينا بالموافقة، فأنت تعرف عنواني.

تلك الليلة، تعشّتْ حسنية بسرعة، وانسحبَتْ مستعجلةً إلى الحمّام. خرجت بعينين حمراوين وهي تمسح فمها بأطراف أصابعها، وتوجّهت رأسًا إلى غرفة النوم. صار مزاجُها عكِرًا في الآونة الأخيرة. ومع ذلك، لا خيار لديك أيها السنجاب. عليك أن تُفاتِحها في الموضوع. لأجل ذلك هرول خلفها. بدا وجهُها كاسِفًا وهي تغيّر ملابسها في توتّر. رمقت رحّال بنظرة يابسة. اضطرب السنجاب قليلا، تردّد للحظاتٍ قبل أن يبادرها متلعثمًا:

- حسنية، عافاك، بغيتك ف موضوع مُهمّ.

- إذا جات على خاطرك انتَ نيت. عندي لك موضوع أهمّ.

دون مقدّمات، رمَت في وجهه قنبلتها، ثمّ أطفأت النّور.

أحس رحّال بركبتَيْه تصطكّان من هول الصدمة. اختلطت المشاعر في صدره. فكّر في تغيير ملابسه هو الآخر، لكنّه باتَ فاقدًا للجهد. تمدَّد على حافة السرير خائر القوى. قلبُه مشدود، والظلام يملأ دواخله.

في المنام، رأى سنجابًا يلهو وسط مَرْجٍ شاسع. مَرْجٌ بأشجار سوداء خاصَم فروعَها الوَرقُ والحفيف. مَرجٌ بِطينٍ أصفر كأنه رمل. مَرْجٌ صحراء. فجأةً، أحاط به جرذان. جرذ عجوز ضامر، والآخر كأنه خرج للتوّ من بطن أمّه. لكن عوض أن يزحف على فَرْوِ بطنها ويُلصِق فمه بأحد أثدائها ليرضع، اصطفَّ إلى جانب الجرذ العجوز وكشّرا معًا في وجهه. كانت عيونُ الجرذَيْن شديدةَ السواد، وذَنَباهما طويلَيْن حرّكاهما في الهواء مثل سوطَيْن ثم بدآ في جلد السنجاب. كان صريرُ الجرذيْن قويًا مزعجًا. حاول الهرب منهما لكنّهما حاصراه واستأنفا جَلْدَه بسوطَيْهما اللّاهبَيْن، وصريرُهما يعلو ويعلو، وهو يتلوّى من الألم.

أطلق السنجاب صرخة مزّقت سكون الغرفة. أشعلت القنفذة الضوء، فوجدَتْه قد خرَّ مِنْ على السرير. كان منكمشًا على نفسه مثل فأر. مثل جرذ حقيقي. يلهث والعرق يتصبّب من جبينه. استرق

النظر إلى وجه قنفذته في تضرّع مكتوم، لكنّها واجهَتْهُ بملامح محايدة. ألقى نظرةً خاطفةً إلى بطنها وتذكّر القنبلة التي فجّرَتْ في وجهه قبل أن تطفئ النّور، فانقبض من جديد.

لاكوت دازور / مارس 2011

بروكسل / سبتمبر 2015

المؤلف في سطور

ياسين عدنان أديب وإعلامي مغربي من مواليد 1970. ساهم في إطلاق (الغارة الشعرية) التي اعتُبِرت تكتُّلا للحساسية الشعرية الجديدة في المغرب مع بداية التسعينيات. يشتغل في مجال الصحافة الثقافية منذ أزيد من عقدين. مُعدّ ومقدّم برنامج (مشارف) الثقافي الذي يبثه التليفزيون المغربي أسبوعيا منذ 2006.

صــــدر له في الشـــعر: (مانيكان) عن منشـــورات اتحاد كتاب المغرب 2000، (رصيف القيامة) عن دار المدى بدمشـــق 2003، (لا أكاد أرى) عن دار النهضة ببيروت 2007، و(دفتر العابر) عن دار توبقال بالدار البيضاء 2012.

وفي القصة: (من يصدّق الرسائل؟) عن دار ميريت بالقاهرة 2001، (تفّاح الظّل) عن منشورات مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب 2006، و(فرح البنات بالمطر الخفيف) مختارات قصصية عن دار العين في 2013.

أعدّ وحرّر كتاب (شـــهرزاد المغربية: شهادات ودراسات عن فاطمة المرنيسي) الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في يناير 2016. كما صدر له عن دار مرســم بالرباط كتاب أدبي بالاشـــتراك مع سعد ســرحان (مراكش: أســرار معلنة). وله قيد الطبــع (مراكش نوار) أنطولوجيا قصصية من تحريره ســتصدر بالإنجليزية عن دار نشر أكاشيك بنيويورك.



دائما هناك خبرٌ عاجلٌ يتصدّر الصفحة الأولى. الأخبار العاجلة تتوالى تباعًا. ساخنة مثل خبز طازج مسحوب للتوّ من بيت النار. حيّة مثل سمكة تجذبها من القاع صنّارة صياد. ورحّال أدمن خبز الجريدة الطازج وسمكها الطري. أدمن العودة إليها على رأس الساعة ليرى ما إذا هلّ خبر عاجل آخر. لكنّ "هوت ماروك" ليست مجرد جريدة إلكترونية بالنسبة لرحّال. إنها فضاء تعبير وتشهير. مرحاضُه الجديد. لم يصدّق نفسه في البداية حينما انتبه إلى أن باب التعليقات مفتوح. تحت كلّ مقالةٍ أو خبرٍ مجالٌ للتعليق. كان أمرا مذهلا. يمكنك يا رحّال أن تكتب ما شئت دون أن تزكم أنفك رائحة النتانة. علّق براحتك وأنت مُسترخٍ فوق مكتبك، وليس وأنت تقعي بفخذين منثنيين تحت بطنك فيما تعصر أمعاءك في مرحاض. صار بوسعك أن تتفاعل مع ما تقرأ من موقعك هنا في حيّ المسيرة في سيبر "أشبال الأطلس".





9 789777 493378